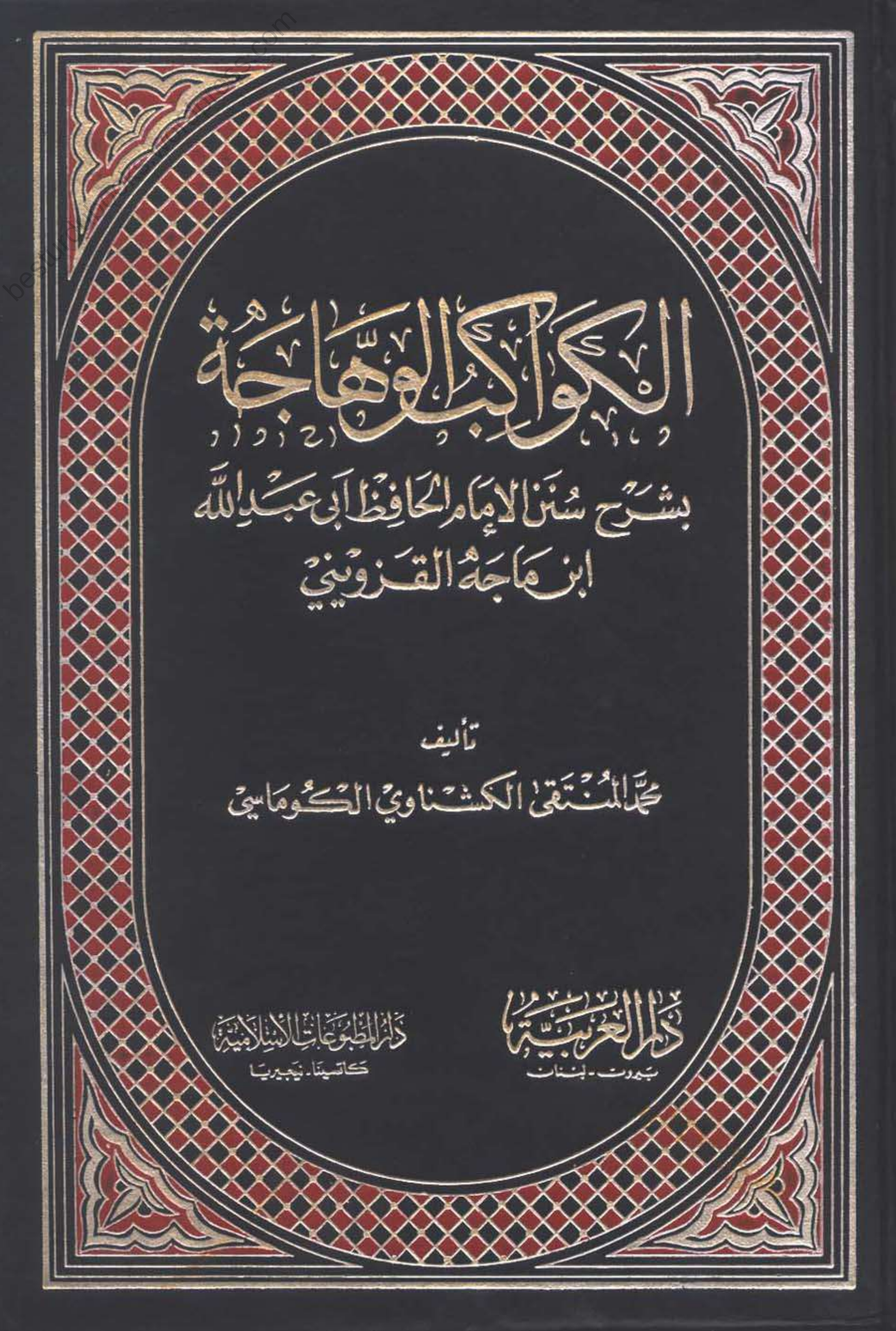

الكواكب الوهاجة
بشرح سنن الإمام الحافظ أبي عبد الله
ابن ماجه القزويني
تأليف
محمد المنتقى الكشناوي الكوماسي
دار المطبوعات الإسلامية
كاتسينا . نيجيريا
دار العربية
بيروت . لبنان

الكواكب الوهاجة

بشرح سنن الإمام الحافظ أبي عبد الله بن ماجة القزويني

رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين

تأليف

الفقير إلى الله تعالى

محمد المنتقى الكشناوي الكوماسي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين آمين

الجزء الأول

دار العربية

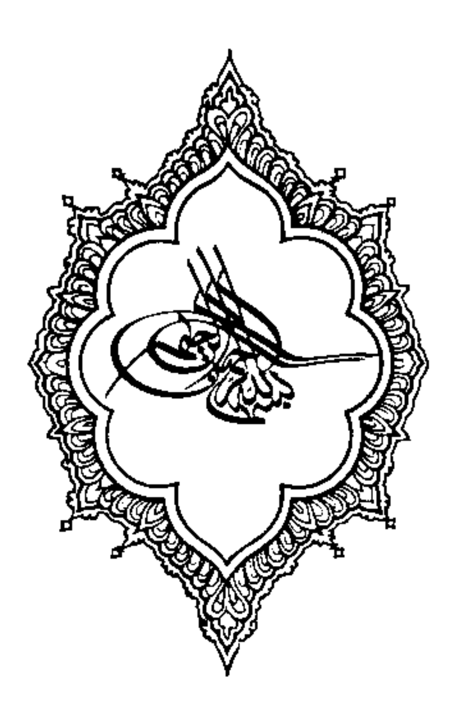
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

دار المطبوعات الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع

زاريا - كاتسينا / نيجيريا




الكواكب الوهاجة
بشرح سنن الإمام الحافظ أبي عبد الله بن ماجة القزويني
رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين
١

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



المركز الرئيسي: شارع سورية - بناية صمدي وصالحة - طابق أول رقم ١١ هاتف ٦٧-٢٢٢ - ٢٤٨٢١٢
المركز الفرعي: حارة حريك - شارع دكاش - بناية بدرا - طابق رابع هاتف ٨٣٦٥٨١
هاتف المطبعة ٨٩٢٢٦٨ - المنزل ٣٠١٤١٠ - ص ب ١١/٦٠٨٩ - برقياً دورو



المقـــدِّمَة
(الجزء الأول)

اعلم أن هذه المقدمة تشتمل على مقدمات وفصول وتنبيهات وخاتمة نسأل الله تعالى حسنها آمين.

والقصد من ذلك كله إن شاء الله تعالى وإن كانت النيات لا تخلو عن خلل ونقص - حفظ نظام الأمة والهروب من تشويش العامة وفتح باب الخصومة والموافقة، وهدف المصنف في ذلك حيث بدأ كتابه رحمه الله تعالى بباب اتباع سنته عليه الصلاة والسلام، فأقول وبالله التوفيق المقدمة الأولى.

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

عونك اللهم وبه نستعين

يقول الفقير المضطر لرحمة ربه، المنكسر خاطره لقلة العمل والتقوى، محمد المنتقى بن محمد الثاني ابن الإمام يعقوب الفلاني الكشناوي المالكي: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين... آمين...

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد وبارك على محمد كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم صل على محمدٍ وعليٍ آل محمد وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد.

اللهم عظم شأنه وبين برهانه وأبلج حجته وبين فضيلته وتقبل شفاعته في أمته واستعملنا بسنته يارب العالمين يارب العرش العظيم.

اللهم يارب احشرنا في زمرته وتحت لوائه واسقنا بكأسه وانفعنا بمحبته. آمين يارب العالمين.

اللهم بلغه عنا أفضل السلام واجزه عنا أفضل ما جازيت به نبياً عن أمتهِ يارب العالمين. اللهم يارب إني أسألك أن تغفر لي وترحمني وتتوب علي وتعافيني من جميع البلاء والبلوى الخارج من الأرض والنازل من السماء إنك على كل شيء قدير برحمتك، وأن تغفرِ للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات. وارضَ اللهم عن أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وارض اللهم عن أصحابه أئمة الهدى ومصابيح الدجى وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.. اللهم صل على ملائكتك المقربين والمرسلين وعلى أهل طاعتك أجمعين..

اللهم اغفر لي ولوالدي ولأئمتنا ولمن سبقنا بالإيمان مغفرة عزما..

اللهم إني أسألك من كل خير سألك منه سيدنا محمد نبيك وأعوذ بك من كل شر استعاذك منه نبيك.

اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا.. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم إني أعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال ومن عذاب النار ومن عذاب القبر وسوء المصير.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. القائل وقوله الحق:

(ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه ومَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا)[١]وقال: (فَلا وربِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أنفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيتَ ويُسَلِّمُوا تَسليماً)[٢]وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللَّهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمْرِ مِنْكُم فَإن تَنَازَعتُم فِي شَيء فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ وإلَى الرَّسُولِ إن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيرٌ وأحسَنُ تَأويلاً)[٣]وقال تعالى أيضاً: (والنَّجمِ إذَا هَوَى* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم ومَا غَوَى* ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى* إن هُوَ إلا وَحيٌ يُوحَى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى* ذُو مِرَّةٍ فَاستَوَى* وَهُوَ بِالأفقِ الأعلَى* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى* فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أو أدنَى* فَأوحَى إلَى عَبْدِهِ مَا أوحَى* مَا كَذَبَ الفُؤادُ مَا رَأى*

---

[١] سورة الحشر آية: ٧.

[٢] سورة النساء آية: ٦٥.

[٣] سورة النساء آية: ٥٩.

أفتمارونه على ما يرى* ولقد رآه نزلة أخرى* عند سدرة المنتهى* عندها جنة المأوى* إذ يغشى السدرة ما يغشى* ما زاغ البصر وما طغى* لقد رأى من آيات ربه الكبرى)[١] وقال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)[٢] وقال: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)[٣].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله إمام المتقين وخاتم النبيين والمرسلين وخيرته من خلقه أجمعين، لا نبي بعده، المبعوث رحمة للعالمين، يبين للناس ما نزل إليهم القائل: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي» فبشرى لنا بهذه المنة العظيمة، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأزواجه وذريته وصحبه وسلم الذين نقلوا عنه العلم كما سمعوه وبلغوه لمن لم يدركه بأمانة الله. وارض اللهم على التابعين وتابعيهم وكل من تبع هداهم بإحسان إلى يوم الدين...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين كما في مجموع فتاويه: فمن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض سببه توحيد الله تعالى وعبادته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. وكل شيء في العالم من فتنة وبلاء وقحط وتسلط عدو وغير ذلك سببه مخالفة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم والدعوة إلى غير دين الله تعالى..

ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عموماً وخصوصاً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

---

[١] سورة النجم آيات: ١٨١.

[٢] سورة النحل آية: ٤٤.

[٣] سورة المائدة آية: ٣.

هذا وقد أيقنا بهذه الآيات المذكورة أن الدين قد كمل وتناهى؛ فليس لأحد أن يزيد فيه ولا ينقص منه، ولا أن يبدله، فصح بها يقيناً أن الدين كله لا يؤخذ إلا عن الله تعالى ثم عن لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فهو الذي يبلغ إلينا أمر ربنا عز وجل ونهيه وإباحته لا مبلغ إلينا شيئاً عن الله أحد غيره - وهو عليه الصلاة والسلام لا يقول شيئاً من عند نفسه لكن عن ربه تعالى. ثم على ألسنة أولي الأمر منا فهم الذين يبلغون إلينا جيلاً بعد جيل ما أتى به رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم عن الله تعالى وليس لهم أن يقولوا من عند أنفسهم شيئاً أصلاً لكن عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم..

هذه صفة الدين الحق الذي كل ما عداه باطل وليس من الدين، فإذا لم يكن من عند الله تعالى فليس بدين الله أصلاً. وما لم يوافق ما جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم فليس من الدين، وما لم يبلغه إلينا أولو الأمر منا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم فليس من الدين أصلاً.

وهذا لا ينافي أبواب الاجتهاد لمن توفرت لديه الشروط من كل زمان ومكان.

وقد جاء في مقدمة كتاب (المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين) للإمام الحافظ ابن حبان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم بالخيف من منى فقال: «نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن، إخلاص العمل، والنصيحة لأولي الأمر، ولزوم الجماعة»، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم.

قوله: نضر الله عبداً.. إلخ في المشكاة رواه الشافعي رضي الله

تعالى عنه والبيهقي في المدخل، ورواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي عن زيد بن ثابت إلا أن الترمذي وأبا داود لم يذكرا «ثلاث لا يغل عليهن» إلى آخره..

وقال في المرآة: النصيحة وهي إرادة الخير للمسلمين أي كافتهم ولزوم الجماعة أي موافقة المسلمين في الاعتقاد والعمل الصالح من صلاة الجمعة والجماعة وغير ذلك.. قوله: فإن دعوتهم تحيط أي تدور من ورائهم وفي نسخة من موصولة. ويؤيد الأول أن أكثر النسخ مرسوم بالياء والمعنى أن دعوة المسلمين قد أحاطت بهم فتحرسهم عن كيد الشيطان وعن الضلالة. وفيه تنبيه على أن من خرج من جماعتهم لم ينل بركتهم وبركة دعائهم لأنه خارج عما أحاطت بهم من ورائهم. وفيه إيماء إلى تفضيل الخلطة على العزلة..

قال الحافظ ابن حجر: ووجه المناسبة بين قوله المستأنف وما قبله أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما حرض سامع سنته على أدائها بين أن هناك خصالاً من شأنه أن ينطوي قلبه عليها لأن كلاً منها محرض له على ذلك التبليغ، وجوز كون ثلاث بياناً للمقالة التي أكد في تبليغها وكأن سائلاً قال ما تلك المقالة؟ فقيل: هي ثلاث جامعة لتعظيم أمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى. قوله رواه الشافعي.. قال المحشي ولم يعلم في أي كتاب. والبيهقي في المدخل بفتح الميم والخاء كتاب له يعني كلاهما عن ابن مسعود رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي عن يزيد بن ثابت. والحمد لله تعالى وأنا استرشد الله تعالى إلى سبيل الحق، وأستهديه، وأسأله العون على ما أحاوله وأنويه وأرغب إليه في أن يعصمني من الذلل في ما أقوله وأدعيه إنه ولي الطول ومسديه لا رب سواه ولا معبود حاشاه..

قال أبو حاتم رضي الله تعالى عنه: الواجب على كل من ركّب الله فيه آلة العلم أن يرعي أوقاته على حفظ السنن رجاء اللحوق بمن دعا لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم إذ أن الله جل

وعلا أمر عباده باتباع سنته صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم. وعند التنازع الرجوع إلى سنته حيث قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ والرَّسُول)[١].

ثم نفى الإيمان عمن لم يحكموه فيما شجر بينهم فقال كما تقدم:

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)

قال: ولم يقل: حتى يحكم فلان وفلان فيما شجر بينهم ولا قال حرجاً مما قضى فلان وفلان. والحكم بين الله عز وجل وبين خلقه رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فقط فلا ينبغي لمن أشعر الإيمان قلبه أن يقصر في الحرص على السنن بما قدر عليه حتى يكون رجوعه عند التنازع إلى قول من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم جعلنا الله من المتبعين لسنته عليه الصلاة والسلام بمنه.. آميـــــن،،،

ولله در الفازازي في قصيدته حيث قال:

نبي بغير الوحي لا يتصرف   عفو عن الجاني وقد يتوقف

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد المبعوث إلى الخلق كافة.

وأقول كما قال الإمام البغوي في شرح السنة بما نصه:

«الأمر في قوله تعالى:

(ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا).

عام في حق أهل زمانه ومن جاء بعدهم. ولا وصول إلى من بعدهم إلا بالتبليغ وقال النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في خطبته: «ألا ليبلغ الشاهد الغائب».

---

[١] سورة النساء: ٥٩

أما بعد فليعلم الواقف المنصف على هذا الكتاب أنني لم أجئ بشيء جديد فيه من عند نفسي فأستحق المدح والثناء بل لي الجمع والتلفيق والنقل والترتيب والإبلاغ فقط. فجمعت ما كان موجوداً متفرقاً متشتتاً من الأحاديث والمسائل والفروع في مواضع متناثرة تسهيلاً للمراجعة، وكالمذكرة لي ولمن شاء الله تعالى أن ينتفع به من بعدي. فإنه قلما يتيسر على كل فرد من الراغبين الحصول على جل المجلدات في الفن، فضلاً عن أن يتيسر له الجمع والتلفيق عما فيها من المهمات المتفرقة.

فجمعنا أشتات العلوم المتعلقة بهذا الكتاب من الأحاديث وطرقها المتنوعة مع ضم أنواعها على تباين أصنافها في كتاب مفرد، من كلام العلماء تسهيلاً لمن أراد الاستمتاع برائع أزهارها ويانع ثمارها الغض المصون؛ مع إخراج أحاديثه كي يراها بعينه فيستغني الحائز له الفائز به عن الأسفار في الأسفار، ثم قصدنا به الدفاع والذب عن المصنف وكتابه عما اشتهر من أفواه بعض الناس من المجازفة بتضعيف هذا الكتاب، وإبعاد الطلبة عنه بناء على زعمهم أن كل ما انفرد به فهو ضعيف (أو كما يقولون) بدون استثناء ما، والمنصف منهم هو الذي يضيف لفظة غالباً مع أن فيه أحاديث انفرد بها المصنف فهي إما صحيح أو حسن كما قاله الحافظ ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب.

وأرجو أن يكون كتابي هذا غناء لكثير من المطالعين عن المراجعة الطويلة، وإعمال الفكر، وإجهاد القريحة؛ فأكون قد أرحتهم وأدخلت السرور في قلوبهم وكفيتهم مؤنة ذلك بتعب ساعات قلائل اختلستها من أوقات فراغي، وتلقفت ما صنع السابقون من حسن الكلام والتنسيق والترتيب والجمع والاستنباط -فلهم الشكر الجزيل ورضي الله تعالى عنهم- والتقطت ما فرقوه من درر مجمعة على أحسن نظام؛ وما لنا معهم إلا أن نقول كما قال صاحب كتاب العلم الشامخ -: اللهم اجزِ أول النقلة وآخرهم عنا أفضل الجزاء ولا تحرمنا كرامتهم..

والمأمول منه سبحانه وتعالى أن يقدر لهذا المجموع الأخذ من كل فن بنصيب والنفوذ في كل غرض بسهمه المصيب.

وقد حاولت جهدي في هذا الكتاب أن أملأ جانباً صغيراً من الفراغ الكائن في أصل الكتاب وأمضي بعض تلك الحاجة وأقوم بشيء مما يقتضيه الحال وعساني أن أوفق. وكنت بحمد الله تعالى من الذين رزقهم الله تعالى الحصول على تلك الكتب القيمة ملكاً وجمعاً وقراءة ومطالعة ولقد حصل لدي من الكتب ما بين المخطوطات والمصورات والمطبوعات كمية وافرة. فأردت أن أجني ثمارها وأكتسب الأجر بلطفه سبحانه وتعالى بها؛ فحصلت من ذلك على فوائد جمة ومقاصد إذا سفرت بدورها أضاءت الدياجي المدلهمة، وفرائد هي في جيد الأحاديث والرواة مع تراجمهم تميمة ولمحاسنها تتمة؛ فرأيت أن يخلد فيما يكتب ويجلد، وتنظم جواهره فيما نقلت أنامل الفكر فيه ويقلد، فأنزلت سنن ابن ماجه في السحب الثجاجة بل الفلك، وضربت لكل منها سرادقات ورتبتها ترتيباً ممتازاً، وجعلتها كواكبا وهاجة كلها معالم للهدى ومصابيح تجلو الدجى ورجوم للمسترقة.

وهذا كتاب حديث وفقه، وتاريخ وأدب، ومجموع فوائد من أنواع العلوم تنسل إليه الرغبات من كل حدب، نذكر فيه حديثاً ومستنده، وما يتعلق به من فقه ولغة وحكم أو أحكام ومثل أو أمثال وقيمته أو مرتبته من صحة وحسن أو ضعف أو غير ذلك. ثم ما يتعلق به من النظائر والتفسير وغير ذلك مما هو مهم في الحديث كإيضاح الحديث بالحديث، ونذكر في ذلك تراجم الرجال أي رواة الحديث المذكورين في أصل هذا الكتاب مستوفاة على طريقة المحدثين والأدباء والمؤرخين، ونورد نكتا تسحر عقول ذوي الألباب. ولم أدع الجنان يضطرب (يقلقل) ولا يهدأ، فبين الفقيه منها في عويص الفروع المشتبكة إذا به في مواعظ وحكم موجزة، وبين المريد في سلوك الطريق المتشابه إذا به في أحاديث مستندة يعلم أنها باب التوفيق. وبين المؤرخ في حكايات انقضى زمانها إذا به قد عبر على تراجم يعز على المنقب وجدانها ولم يخل الكتاب عن زوائد تقر العين وفرائد يقول البحر الزاهر من أين أخذ مثل درها من أين؟

وفوائد يسود بها القرطاس ويود لو زيد فيه سواد القلب والبصر، فاحتوى هذا المجموع على مسائل هامة وبيانات غالية الأسعار تتعلق بأحوال الرواة وحكايات ليس فيها شكايات ومواعظ يصمت عندها اللاقظ، ومناظرات رياضها ناضرات، وغرائب المسائل، وقدر وافر من عجائب الأقوال والأوجه والدلائل، وتحديد جامع تلقى عنده الدلاء، وجانب عظيم من المباحث والقواعد التي كل شامخ الأنف لديها خاضع، ومعارضات كانت النصرة فيها مقارضات وأدلة تبدو بدورها تلمع بعد أن كانت أهلة صغيرة، ونوادر تتبعها مواعظ وزواجر، وملح للحسن فيها لمح.

وكل هذا وراء مقصودنا الأعظم فيه، ومرادنا الأهم الذي لا يقوم به سهر الليالي ولا يوافيه أنّا عند ذكر الحديث نريد إيصال الخير إلى قلوب المسلمين بتحقيق مرتبة كل حديث من صحة وحسن وضعف على قدر الإمكان في فهمٍ ما قاله فرسان هذا الفن، مع رعاية مكانة حديث المصطفى صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، وتعظيمه، وصونه، والذب عن الكذب عليه إذ الكذب عليه ليس كالكذب على غيره كما هو معروف في الحديث وقد جاء «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ثم الذب والدفاع عن المصنف وكتابه كما مر قريباً من الوهم الذي تعلق في أذهان بعضهم حتى كانت رغبتهم عن الكتاب ماثلة لما اشتهر لديهم من أن كل حديث انفرد به المصنف فهو ضعيف، مع أن المؤلف ممن اتفق على جلالته وحفظه أئمة الحديث فهو من الجهابذة الأول والفحول في هذا الفن مثل البخاري ومسلم.

والحال أن الأمر ليس كما أطلقوه فالكتاب جليل جداً، وميزته على الخمسة واضحة، وزوائده عليها كثيرة ومن تلك الزوائد ما هو صحيح وحسن وضعيف وقد يكون غير ذلك لكن ليس كما يصورون إذ ليس بمعصوم هو، ولم يشترط الصحة في كتابه كما فعل الشيخان. كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى والله المستعان.

- تنبيه -

ثم قد يقول قائل إذا كان المؤلف يمتلك المنزلة العالية في المعرفة بصحيح الحديث ومطروحه؛ فما بالنا نرى كتابه هذا مشتملاً على بعض الأحاديث الواهية؟ فالجواب كما قال شيخنا المحدث العلامة (محمد ناصر الدين الألباني) في تحقيقه على كتابه اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي بقوله «إن القاعدة عند علماء الحديث أن المحدث إذا ساق الحديث بسنده فقد برأت عهدته منه ولا مسئولية عليه في روايته مادام أنه قد قرن معه الوسيلة التي تمكن العالم من معرفة ما إذا كان الحديث صحيحاً أو غير صحيح ألا وهي الإسناد».

نعم قد كان الأولى بهم أن يتتبعوا كل حديث ببيان درجته من الصحة أو الضعف ولكن الواقع يشهد أن ذلك غير ممكن بالنسبة لكل واحد منهم وفي جميع أحاديثه على كثرتها لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن قلت: وخصوصاً أن المصنف كان في زمان مشحون بالحفاظ فسياق الأسانيد هو المعتبر الأهم عندهم، ولكن أذكر منها أهمها وهي أن كثيراً من الأحاديث لا تظهر صحتها أو ضعفها إلا بجمع الطرق والأسانيد فإن ذلك مما يساعد على معرفة علل الحديث وما يصح من الأحاديث لغيره.

ولو أن المحدثين كلهم انصرفوا إلى التحقيق وتمييز الصحيح من الضعيف لما استطاعوا والله تعالى أعلم أن يحفظوا لنا هذه الثروة الضخمة من الأحاديث والأسانيد ولذلك انصرف عامة جمهورهم على مجرد الرواية إلا فيما شاء الله تعالى، وانصرف سائرهم إلى النقد والتحقيق مع الحفظ والرواية وقليل ما هم ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات.

قلت: وقال بعضهم أيضاً كما في ديباجة تاريخ الطبري إنه ربما كان عذر المصنف في ذلك هو عذر رواة الحديث، فيذكرون الحديث بطرقه ورجاله تاركين الحكم للقارئ، أمانة للعلم وإبراء للذمة ولعل في نية ابن ماجه رحمه الله تعالى أن يمحص فيما بعد ولم يتمكن الفرصة أن جاءه الموت وإنما فعله المصنف لمن يعرف أنهم يعرفون خطأها من صوابها كما جاء في ديباجة المذهب لابن فرحون صفحة ١٧٧ الجزء الثاني في ترجمة

محمد العتبي بن أحمد ما نصه: قال أحمد بن خالد قلت لابن لبابة أنت تقرأ هذه المستخرجة للناس وأنت تعلم من باطنها ما تعلم. قال إنما أقرأها لمن أعرف أنه يعرف خطأها من صوابها. اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فعسى أن يرزقني الله تعالى بتوفيقه الدخول في جملة خدام حديث المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. فلهذا اخترت جانب الإطناب في محله غالباً وأميل إليه كثيراً خصوصاً في بعض المسائل لحكمة كبيرة كما ستقف على ذلك إن شاء الله تعالى..

فأقول كما قال العلامة الشنقيطي في كتابه زاد المسلم ونصه: «إنما أبسط الكلام في شرح بعض الأحاديث لقصد الإيضاح والتيسير، ونصيحة كل من يطالع كتابي هذا من علماء الأمة وطلبة العلم، ولم تأخذني صعابة عن قصد الكلام النافع في محل الحاجة طلباً للأجر لجمع هذه الدرر الشوارد. لتحصيل ما لها من المنافع والفوائد (ولا ينبغي لطالب العلم التحقيق من طلبة العلم والعلماء الذائقين أن تحصل له سآمة عن تتبع ما جلبناه في هذه التنبيهات والبيانات من فوائد العلوم النافعة ولنا أسوة في ذلك بأفضل علماء الأمة كالحطاب شارح المختصر[١]والإمام النووي في شرح مسلم والمجموع فقد صرح كل منهما في أوائل شرحه بأن الكلام الطويل النافع لا ينبغي السآمة منه.

وقد يظن المطالع أن بعض المسائل جلي لا يحتاج للتطويل وهو مفتقر في نفس الأمر إليه وإن خفي ذلك على بعض الناس، قال ابن رشد في مسائل العتيبة -ما من مسألة وإن كانت جلية في ظاهرها إلا وهي مفتقرة إلى الكلام على ما يخفى في باطنها وقد يتكلم الشخص على ما يظنه مشكلاً وهو غير مشكل عند كثير من الناس وقد يشكل عليهم ما يظنه هو جلياً. فالكلام على بعض المسائل دون بعض عناء وتعب

---

[١] أي مختصر الخليل في فقه المالكية واسم الشرح مواهب الجليل وهو ثمانية مجلدات.

بغير كبير فائدة. وإنما الفائدة التامة التي يعظم نفعاً ويستسهل العناء فيها أن يتكلم الشخص على جميع المسائل كي لا يشكل على أحد مسألة إلا وجد التكلم عليها والشفاء مما نفسه منها.

وقال الإمام النووي في شرح مسلم «لا ينبغي للناظر في هذا الشرح أن يسأم من شيء يجده مبسطاً. واضحاً فإني إنما أقصد بذلك إن شاء الله الإيضاح والتيسير والنصيحة لمطالعه وإعانته وإغنائه عن مراجعة غيره في بيانه».

هذاهو المقصود في الشروح فمن استطال شيئاً من هذا وشبهه فهو بعيد من الاتقان، مباعد للفلاح في هذا الشأن فليعز نفسه لسوء حاله، وليرجع عما ارتكبه قبيح فعاله.. إلخ كلامه. وهو نفيس يتأكد الوقوف عليه. انتهى. ببعض تصرف والحمد لله رب العالمين.

فلنرجع إلى ما نحن بصدده من البواعث في تأليف هذا الكتاب واعلم أنني لم أجد لهذا الكتاب الجليل القيم شرحاً واسعاً مناسباً مع ما له من الميزة الكبيرة الواضحة على الخمسة بكثرة زوائده عليها وحسن التنسيق خصوصاً قوته في تبويب أبواب الفقه ويكونه سهل التناول عند المراجعة وقلة التكرار وكان هذا الكتاب له إذ صنف منذ ما يزيد على ألف ومائة عام أو أكثر تقريباً لم يشتهر عليه من شرح لائق له مع علمنا بأن قد كان كثير ممن تقدم يلم بأشياء من ذلك ويعتني في بيانها بتمهيد المسالك.

غير أن هذا المجموع على هذا الوجه الذي ترى لم يسبقني سابق، ولا طرق سبيله طارق، وما جمع قبلي فنون النقول أحد على هذا الكتاب. وأن مهمتي في هذا العمل كانت الجمع لا الاختراع بحمد الله تعالى أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخراً كما قال الجلال السيوطي رحمه الله تعالى: وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر وذلك لا بحولي ولا بقوتي ولا حول ولا قوة إلا بالله ما شاء الله لا قوة إلا بالله اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وإن كان هناك كما سمعنا أن له شروحاً مصنفة لبعض القدماء رضوان

اللّٰه تعالى عليهم إلا أنها أصبحت في خبر كان، وصارت من باب المثل السائر «تسمع ولاترى» في زماننا هذا، ونسجت عليها عناكب النسيان، وغابت عن العيان مع كثرة تداوله بين أيدي العلماء وتبركهم بقراءته في سائر الأقطار، كبقية الخمسة وخصوصاً في قطرنا الأفريقي الغربي (نيجريا) المأنوس بالأخيار لم نر أحداً اعتنى بشرحه على الوجه اللائق به فيما نرى.

وبالحقيقة إن هذا الكتاب لم يجد خدمة العلماء كخدمتهم لبقية الكتب الخمسة ما عدا النسائي فهو دونه في الخدمة أيضاً.

ولذلك اشتاقت نفسي على أن أشرحه بما لعله يشفي العليل. إذ لم نقف على تلك الكتب أو الشروح المذكورة للقدماء كما سبق، ولم يكن عندنا حين الشروع في هذا الشرح غير تعليق الإمام أبي الحسن السندي عليه في مجلدين متوسطين جزاه اللّٰه تعالى عنا وعن المسلمين خيراً، فاعتمدت متوكلاً على اللّٰه تعالى، ثم اعتمدت على هذا التعليق للسندي رحمه اللّٰه تعالى إذ عز وجود تلك الشروح. اللهم إلا ما جاء من ذكر أسماء بعضها في الكتب فمنها: تحقيق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي فقد حققه وعلق عليه تحقيقاً جيداً إلا أنه كما صرح بنفسه اكتفى بما في السندي فقط ذكره في مقدمة الكتاب وهو غير كاف فحدا لي إلى أن أعلق على هذا الكتاب إرب؛ فاقتعدت طيته، وامتطيت مطيته، واستخرت اللّٰه تعالى في العزم إذ جعلته أمامي والحزم حين جعلته أمامي حتى هداني اللّٰه تعالى إليه وهو الهادي إلى صراط مستقيم، الفتاح بالخير الكثير في الزمن اليسير، ميسر العسير، وجابر الكسير؛ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير...

وقد جمعته من الشروح والحواشي المعتبرة في هذا الفن وسلكت فيه نهج الحفاظ المشهورين اقتداء بهم وهم الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، والإمام النووي في شرح مسلم، والإمام الحافظ العارف باللّٰه

ابن أبي جمرة الأندلسي الأزدي في شرح مختصره على البخاري[١] وأميل كثيراً على فتح الباري. جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيراً.

وأنقل كثيرا مما كتبه غيرهم من العلماء الحفاظ وشرحت فيه ما سكتوا عنه غالباً وكأنهم إذ سكتوا اعتمدوا في سكوتهم على أنه يفهم بالبديهة، أو فعلوا ذلك قصداً على طبق ما اشتهر من قولهم كما قال شيخ الشيوخ بإقليمنا شقيق المجدد عثمان بن فودي عبد الله بن فوديو في كتابه الحصن الرصين في علم الصرف:

ولم أرد إشاعة المفاخر .. على أديب سيدد الأكابر
ولا يطاع عالم في الباطل والحق مقبول ولو في جاهل
بل إنه بيان قول الشاعر .. كم ترك الأول أي للآخر
وكلهم بما نواه أوفى .. والله يجزيهم جزاء الأوفى

ومن المعلوم أن هناك مسيس الحاجة لتقييد بعض ما جاء فيه من الأحاديث إلى بيان صحتها أو حسنها أو ضعفها أو غير ذلك من جهة المتن أو الإسناد فأردت بقدرة الله تعالى تقييد ما يقرب غوامض المعاني ويكشف للمستفيد محياها فصممت على إنجاز ذلك وإن لم أكن أهلا لسلوك المسالك وسميته «الكواكب الوهاجة بشرح سنن الإمام الحافظ ابن ماجه» راغباً من الله عز وجل التسديد في القول والعمل، والتأييد في القصد والأمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ومبلغاً لمرضاته وأن ينفع به كل من اعتنى به إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل...

«والحمد لله رب العالمين»

---

[١] المسمى بهجة النفوس: أربعة مجلدات.

فصـــل

اعلم أن أول من شجعني، وتأثرت بتشجيعه في أن أسلك هذا المسلك الذي هو الاشتغال بالكتاب والسنة والتمسك بهما بعد أن هداني الله تعالى إلى ذلك هو شيخنا الحافظ شيخ الإسلام (محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي) صاحب تفسير «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وذلك بمنزله بالمدينة المنورة لما كنت بالحجاز بنية المجاورة والهجرة، وللأخذ عنه. وقد أشار إلي بأنه لو كان اشتغاله بهما في أيام شبابه اشتغاله بالفقه لكان الأمر أعلى وأعز أو كما قال.

وكانت وفاته بمكة بتاريخ ١٧ من شهر ذي الحجة بعد أن حج عامه في سنة ١٣٩٤هـ ودفن بالمعلا القديمة بجوار سيدتنا أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها. وقد تغدينا سواء ببيته في مكة قبل وفاته رحمه الله تعالى بحوالي أحد عشر يوماً.

وقد بدأت هذا الشرح في حياته وأخبرته به رحمه الله تعالى، وسيأتي ترجمته في محله إن شاء الله تعالى.

وممن شجعني عليه بجدة شيخنا العلامة الضرير عمر بن علي الحميري الكلاثي اليماني المتوفى سنة ١٣٩٦هـ بجدة، وذلك عند زيارتي إياه يوما وأخبرته بما يدور بخلدي من رغبتي في أن أشرح سنن ابن ماجه لعدم استيفاء الشروح عليه عندنا، وقلة الخدمة عليه؛ فوافق على ذلك، وسر جداً، ونصحني بأن استمر في التأليف ودعا لي بالبركة. وقد كنت قرأت جزءاً كبيراً من هذا الكتاب عليه وأجازني بالباقي كما أجازني بجميع مروياته، ثم سألته أن يختار لي اسماً لكتابي هذا فادكر قليلاً فقال سمه السحب الثجاجة بشرح سنن ابن ماجه وبعد أيام زرته بمكتبه بجوار المسجد الحنفي بجدة في سوق الندى؛ فبشرني بأنه رأى شيخاً من أهل السنة والجماعة يقول له قل لمحمد المنتقى أن يسمي كتابه بالكواكب الوهاجة بشرح سنن الإمام الحافظ ابن ماجه فوافقته على ذلك. ثم جئته بعد أيام فاستقبلني بالبشاشة وقال رأيت أيضاً ذلك الشيخ بهيئة أجمل من الأولى

فأخبرني مؤكداً الرؤيا الأولى وإصراره على هذه التسمية وهذا سبب تسمية كتابي هذا بحمد الله تعالى.

ثم رأيت أنا رؤيا كأني في مسجد من المساجد وكنت أول من وقفت وكانت صلاة الجمعة ووقفت أنادي ببقية المصلين أن يتموا الصف الأول ثم الثاني كما هي السنة حتى امتلأ المسجد وصلينا. فخرجت بعد الصلاة مسرعاً من المسجد فسألني بعض الإخوان في الطريق عن سبب السرعة فأخبرتهم بأني أريد أن ألحق دفن الجنازة التي فاتتني الصلاة عليها وخسرت قيراطاً من الأجر عسى ألا يفوتني قيراط آخر عند الدفن. فحضرت الدفن بحمد الله تعالى وجئت إلى الشيخ عمر المذكور وأخبرته بهذه الرؤيا فأجابني بديهة بقوله هذا الشرح وكرر قوله هذا الشرح إشارة منه كأن كتاب ابن ماجه كاد أن يكون مدفوناً أو كالشيء المدفون وأريد إظهاره والله تعالى أعلم.

قلت هذه كلها إشارات طيبة من الفأل الحسن وفيها الخير إن شاء الله تعالى، ثم أوصاني بما معناه فقال: اعلم أنه يحق على كل مسلم اليوم المبادرة في الخير، والنصيحة كل على قدر استطاعته؛ لأننا اليوم كما هو معروف إذا اعتبرنا على الحقيقة فلا شك أن تقرر بأن أعلام الدين عادت إلى الدروس، وغلب على أهل الزمان هوى النفوس؛ حتى تصور الباطل عند أكثر أهل الزمان بصورة الحق، والجهل بصورة العلم، وظهر فيهم تحقيق قول الرسول المصطفى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى حيث قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

والمهم نرجو الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل عملاً مشكوراً حتى يكون لي دوام الشكر لله تعالى بعد موتي مدة بقاء الكتاب؛ فإن شكر اللسان ينقضي بموت العبد، وشكر الله تعالى في الكتاب أثره قد يتأخر بعده فيكون كالنائب في الشكر عن المؤلف وكأن ذلك الشاكر لم

يمت. ثم بعد مدة من هذه الرؤيا بعد شروعي بهذا الشرح رأيت في المنام كأني بين أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نتذاكر العلم والدين حتى أني كنت أقول لهم: إن جميع ما قرأناه من سيركم وصفاتكم وأحوالكم وجميل أخلاقكم رأيتها عياناً فيكم كما قرأنا. ومنهم الخلفاء الأربعة وبينهم سيدنا العباس عم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهم وعبد الله بن مسعود وأظن أن بينهم عبد الرحمن بن عوف بل وغيرهم ممن لا أستحضر أسماءهم وشخصياتهم الآن. والله الموفق. والحمد لله رب العالمين.

تنبيـــــه
في الحث على الاشتغال بعلم الحديث

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في مقدمة فتح الباري: فأولى ما صرفت فيه نفائس الأيام، وأعلى ما خص بمزيد الاهتمام الاشتغال بالعلوم الشرعية المتلقاة عن خير البرية. ولا يرتاب عاقل في أن مدارها على كتاب الله المقتفى، وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المصطفى. وأن باقي العلوم إما آلات لفهمها وهي الضالة المطلوبة، أو أجنبية عنهما وهي الضارة المغلوبة.

قلت وخصوصاً كما قال العلامة الدميري: إن أولى ما اشتغل به طالب العلم بعد إخلاص النية معرفة الصحيح والحسن والضعيف من الأحاديث النبوية، وضبط السند والمتصل من طرقها المروية، وتحقيق المنقطع والمعضل والمعتل والمختلف والمؤتلف والمسلسل، وأسماء الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وطبقات الرواة، وترجمة كل إنسان، وما يتصل بذلك من أنواع الأثر وفنونه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه متونه.

فمن عرف السنة وعمل بها استنار قلبه وفهمه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

ولابد للمحدثين من معرفة ما تمس إليه الحاجة من الكتب الستة التي فتح الله بها من علم السنة وتاجه وألبس كلاً من مصنفيها حلة الإكرام وتاجه، وكلها مشروحة سوى كتاب أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فهو كما قال القاضي ابن العربي: قد خلقت من معرفته النساجة، ونور مصباح فهمه مفتقر إلى زجاجة.

فاستخرت الله تعالى وكتبت عليه هذه الكواكب الوهاجة وهي -إن شاء الله تعالى- شافية لما في الصدور، ومن كلماته كافية، ولمعاني أحاديثه وتفسير آياته وافية؛ ببيان أحكامه وطرق روايته.

وأكرر مرة أخرى كما تقدم من أنني حذوت فيه حذو شرح مسلم شيخ الإسلام النووي، والحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح، والعارف بالله الأندلسي ابن أبي حمرة مع بيان الصحيح والحسن والضعيف والقوى. والله تعالى أسأل أن يعين على إكماله وأن يجعله خالصاً لوجهه بمنه وأفضاله. آمين.

واعلم أن الاشتغال بالعلم من أفضل القرب، وأجل الطاعات، وأهم أنواع الخير، وآكد العبادات، وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات، وشمر في إدراكه والتمكن فيه أصحاب الأنفس الزاكيات، وبادر إلى الاهتمام به الراغبون في الخيرات، وسابق إلى التحلي به مستبقوا المكرمات.

وقد تظاهر على ما ذكرته جمل من الآيات الكريمات، والأحاديث الصحيحة المشهورات.

ومن أهم أنواع العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبويات صلى الله تعالى على قائلها وآله وصحبه وسلم أعني معرفة متونها: صحيحها وحسنها وضعيفها، متصلها ومرسلها ومنقطعها، ومعضلها ومقلوبها، ومشهورها، وغريبها، وشاذها ومنكرها، ومعللها ومدرجها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومبينها ومجملها، ومختلفها وغير ذلك من أنواع المعروفات.

ومعرفة علم الأسانيد أعني بها معرفة حال رواتها، وصفاتهم المعتبرة، وضبط أنسابهم ومواليدهم ووفياتهم، وجرحهم وتعديلهم، وغير ذلك من الصفات، ومعرفة التدليس والمدلس، وطرق الأخبار والمتابعات، ومعرفة حكم اختلاف الرواية في الأسانيد والمتون والوصل والإرسال، والوقف والرفع، والقطع والانقطاع، وزيادات الثقات، ومعرفة الصحابة والتابعين وتابعيهم وغيرهم رضي الله تعالى عنهم وعن سائر المسلمين والمسلمات، وغير ما ذكرته من علومه المشهورات.

ثم أن تستنبط منها أحكام الأصول والفروع، والقواعد والآداب، ورياضات النفوس ومعالجة القلوب، وغير ذلك من المقاصد الشرعيات.

ودليل ما ذكرته أن شرعنا مبني على الكتاب العزيز والسنن والمرويات وعلى السنن مدار أكثر الأحكام الفقهيات؛ فإن أكثر الآيات الحكميات عامات ومجملات، وبيانها في السنن المحكمات.

وقد اتفق العلماء على أن من شرط القاضي والمفتي أن يكون عالما بالأحاديث الحكميات فثبت بما ذكرناه أن الاشتغال بالحديث من أجل العلوم الراجحات، وأفضل أنواع الخير وآكد القربات وكيف لا يكون كذلك وهو مشتمل على ما ذكرته على بيان حال أفضل المخلوقات عليه من الله

الكريم أفضل الصلوات والسلام والبركات.

ولقد كان أكثر اشتغال العلماء بالحديث في الأعصار الخاليات؛ حتى لقد كان يجتمع في مجلس الحديث من الطالبين ألوف متكاثرات؛ فتناقص ذلك، وضعفت الهمم؛ فلم يبق إلا رسوم من آثارهم قليلات والله المستعان على هذه المصيبة وغيرها من البليات.

وقد جاء في إحياء السنن المعتبرات جمل من الأحاديث المعلومات. وقد أمرنا بنشر الأحاديث وتبليغها في جميع الحالات لا سيما في حال الفتور عنها وتعريضها للالتحاق بالمنسيات.

فينبغي الاعتناء بعلم الحديث والتحريض عليه لما ذكرنا من الدلالات ولأنه أيضاً من النصيحة لله سبحانه وتعالى وكتابه ورسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم وللأئمة والمسلمين والمسلمات وذلك هو الدين كما صح عن سيد البريات صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وذريته وأزواجه الطاهرات.

ولقد أحسن القائل: من جمع أدوات الحديث استنار قلبه، واستخرج كنوزه الخفيات؛ وذلك لكثرة فوائده البارزات والكامنات وهو جدير بذلك. فإنه كلام أفصح الخلق ومن أعطي جوامع الكلمات صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم أكمل الصلوات.

واعلم أن هذا الفصل الذي ذكرناه، والحث الذي أسلفناه بالحديث على الوجه الذي قدمناه لا بمجرد كتابته وسماعه من غير اعتناء بما بيناه ثم إن أصح مصنف في الحديث بل في العلم مطلقاً بعد القرآن الكتب الستة بل السبعة هي أمهات الكتب في هذا الفن وهي: موطأ مالك فإنه الصحيح الأول كما ذكره القاضي الحافظ أبو بكر بن العربي في القبس، فالصحيحان البخاري ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. إلا أن ابن ماجه دونهم في المرتبة والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

فينبغي أن يعتنى بشرحها، وتشاع فوائدها، ويتلطف في استخراج دقائق العلوم من متونها وأسانيدها لما ذكرنا من الحجج الظاهرات وأنواع الأدلة المتظاهرات. فبدأنا بسنن ابن ماجه كما سبق أنه دونهم في المرتبة والحمد لله تعالى رب العالمين.

فصـــل

قال كمال الدين محمد بن موسى الدميري في كتابه الديباجة ما نصه: ولابد للمحدث من معرفة ما تمس إليه الحاجة من الكتب الستة التي فتح الله بها من علم السنة وتاجه، وألبس كل من مصنفيها حلة الإكرام وتاجه، وكلها مشروحة سوى كتاب أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. فهو كما قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى: قد خلقت من معرفته النساجة، ونور مصباح فهمه مفتقر إلى زجاجة، فاستخرت الله تعالى لهذا السبب وكتبت عليه هذه الكواكب الوهاجة والسحب الثجاجة وهي إن شاء الله تعالى القدير أرجو أن تكون شافية لما في الصدور، ومن كلماته كافية، ولما في أحاديثه وتفسير آياته وافية، وببيان أحكامه وطرق رواياته شاقية.

وأبين فيه على قدر الإمكان مرتبة كل حديث من صحة أو حسن أو ضعف أو وضع إن وقع حتى ترى بعينك قيمة هذا الكتاب الجليل، وعدم صدق ما اشتهر عليه من المجازفات في تضعيفه مطلقاً من غير قيد.

هذا، ولعل الله تعالى أن يحقق النية في أن يجعلنا ممن قال فيهم المصطفى صلى الله عليه تعالى وآله وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف القائلين وانتحال المبطلين ودعوى الجاهلية».

وأرجو أن يجعل الله تعالى هذا المجموع آخذاً من كل فن بنصيب نافذ وفي كل غرض بسهمه المصيب.

والله تعالى أسأل أن يعين على إكماله، وأن يجعله خالصاً لوجهه بمنه وإفضاله، وأن ينفع به من كتبه أو قرأه أو حصله أو سعى في شيء منه. والله يعصمنا من الزلل، ويوفقنا في القول والعمل؛ ثم اعتذر لذوي الألباب من التقصير الواقع في هذا الكتاب، وأسأل بلسان التضرع والخشوع ولسان التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضا والصواب، فما كان من نقص كملوه، ومن خطأ أصلحوه، فقلما يخلص مصنف منه الهفوات، أو ينجو مؤلف من العثرات ولله در القائل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

وكما قال غيره:

وعين البغض تبذر كل عيب　　وعين الحب لا تجد العيوبا

هكذا في مفتاح السعادة. وأقول كما قال العلامة الأخضري في آخر كتابه سلم المنورق في علم المنطق:

وكن أخي للمبتدي مسامحاً　　وكن لإصلاح الفساد ناصحاً
وأصلح الفساد بالتأمل　　وإن بديهة فلا تبدل
إذ قيل كم مزيف صحيحاً　　لأجل كون فهمه قبيحاً
وقل لمن لم ينتصف لمقصدي　　العذر حق واجب للمهتدي
ولبني إحدى وعشرين سنة　　معذرة مقبولة مستحسنة
لا سيما في عاشر القرون　　ذي الجهل والفساد والفتون

وأقول أنا في البيتين الأخيرين على سبيل البدل:

ولبني إحدى وستين سنة　　معذرة مسموحة مستحسنة
لا سيما في آخر القرون　　ذي الهرج والمرج وكل شين

وقال بعضهم:

وكم من عائب قولاً صحيحاً　　وآفته من الفهم السقيم

الحمد لله رب العالمين.

وإذا تقرر ما قدمنا في الذهن؛ فأزيد القول بأن من فوائد هذا التأليف أني أقصد به دوام الشكر لله تعالى بعد موتي مدة بقاء الكتاب فإن شكر اللسان ينقضي بموت العبد، وشكر الله تعالى في الكتاب قد يتأخر بعده؛ فيكون كالنائب في الشكر عن المؤلف؛ وكأن ذلك الشاكر لم يمت كما تقدم في الحديث.

قال في مشكاة المصابيح، بسنده (عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

(رواه مسلم)

قال الشارح في لمعات التنقيح ج(١) ص:٢٥٧، قوله: «انقطع عنه

عمله إلا من ثلاثة» هذه العبارة لا يخلو عن شيء فإن قوله عمله فاعل انقطع فالظاهر في الاستثناء أن يقال إلا ثلاثة أي ثلاثة أعمال، أو يقال انقطع من عمله إلا من ثلاثة أعمال فقيل من زائدة وقيل بل الضمير في عنه زائدة ومعناه: إذا مات الإنسان انقطع عن أعماله إلا من ثلاثة وقيل كلتاهما أصليتان ومعناه: إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله وانقطع هو عن عمله إلا من ثلاثة أعمال بقي أن الظاهر أن يقال إلا عن ثلاثة.

وجوابه أن من وعن قد يتناوبان ويذكر كل منهما مقام الآخر هذا وقد أشار الطيبي في أثناء البيان إلى توجيهه حيث قال تقديره ينقطع عنه ثواب أعماله من كل شي كالصلاة والزكاة والحج ولا ينقطع ثواب أعماله من هذه الثلاثة فالمضاف مقدر ومن ابتدائية أي انقطع عنه الثواب الحاصل من كل أعماله إلا من الثواب الحاصل من هذه الأعمال الثلاثة فافهم، ويحتمل أن يكون صلة انقطع.

(صدقة جارية) في النهاية أي إدارة متصلة كالوقوف المرصدة لأبواب البر وفي بعض الشروح عن الأزهار: اختلف العلماء في الصدقة الجارية قال أكثرهم هي الوقف وشبهه مما يدوم منافعه، وقال بعضهم هي القناة والعين الجارية المسبلة، وقد استشكل هذا الحديث بحديث «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» وحديث «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة».

فإن هذين القسمين المذكورين في ذينك الحديثين زائدان على الثلاثة المذكورة في الحديث. وأجيب بأن السنة المعنونة من جملة العلم المنتفع به. والذي ذكر عن المرابط فإنه عمله الذي قدمه في حياته فينمو إلى يوم القيامة.

وأما الثلاثة المذكورة في هذا الحديث فإنها أعمال محدثة بعد وفاته لا ينقطع عنه لأنه سبب تلك الأعمال؛ فهذه الأشياء يلحقه منها ثواب طارئ خلاف أعماله التي مات عليها كأنه ينقطع عمله المنضم إلى عمل الغير إلا عن ثلاث. هذا حاصل كلام التوريشتي والطيبي وجعل الطيبي المرابطة داخلة في الصدقة الجارية ولا يخلو عن خفاء فتدبر، والله أعلم.

قاعـــدة

وشرطي في هذا الكتاب كما هو الواقع في جميع مؤلفاتي إضافة الأقوال إلى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها. قال الإمام الحافظ القرطبي في مقدمة تفسيره المشهور: إنه يقال من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً لا يعرف الصحيح من السقيم. ومعرفة ذلك علم جسيم فلا يقبل منه إلا الاحتجاج به والاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام والثقات المشاهير من علماء الإسلام.أهـ.

ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب والله الموفق للصواب، وأضرب عن كثير من قصص غير مرضية وأخبار المؤرخين إلا ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين أو لأنبه عليه؛ فضمنته كل حديث يتضمن حكماً أو حكمين؛ فما زاد من مسائل وأمثال نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب ورود الحديث والتأويلات اللازمة والتفسير الغريب والحكم.

وقد أشير أحياناً إلى تفسير حديث بحديث اقتداء بشيخنا العلامة محمد الأمين في كتابه «أضواء البيان» إن اقتضى الحال ذلك.

قلت: وإن قال الإمام الحافظ الحجة الزين العراقي رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين:

وليعلم الطالب أن السيرا   تجمع ما صح وما قد أنكرا

وعلى الرغم من ذلك فقد قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره رضي الله تعالى عنهم كما في «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» المعروفة بالسيرة الحلبية جـ١ صفحة٢ (إذا روينا في الحلال والحرام شددنا وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا وفي الأصل الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم الترخص في الرقائق وما لا نص فيه صراحة).

فصل - والخلاصة فيما قدمنا كله أنا عملنا ذلك احتساباً وذخيرة ليوم رمسي وعملاً صالحاً بعد موتى قال الله تعالى:

(ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال تعالى (علمت نفس ما قدمت وأخرت) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أوعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

قلت وفي هذا الحديث تحريض الولد على الدعاء الصالح لوالديه، وقد استقرأ الجلال السيوطي من هذا الحديث إحدى عشرة خصلة ينتفع بها صاحبها بعد الموت ونظمها في قوله:

إذا مات ابن آدم ليس يجري
عليه من خصال غير عشر
علوم بثها، ودعاء نجل، وغرس
النخل، والصدقات تجري
وراثة مصحف، ورباط ثغر
وحفر البئر، أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي
إليه أو بناء محل ذكر
وتعليم لقرآن كريم؛
فخذها من أحاديث بحصر

فعد إحدى عشرة خصلة مع قوله في البيت الأول إنها عشر ولعله اقتصر على العقد وألغى الزائد ليسارته أو جعل بث العلم وتعليم القرآن واحداً لأن تعليم القرآن من بث العلم بل أعظم.

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يارب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» ولفظ البيهقي «بدعاء ولدك لك»، ذكره السيوطي في كتابه شرح الصدور.

وقال غيره:

خصال عليها المرء من بعد موته
يثاب فلازمها إذا كنت ذا ذكر
رباط بثغر ثم توريث مصحف
ونشر لعلم غرس نخل بلا نكر
وحفر لبئر ثم إجراء نهر ماء
وبيت غريب أو تصدق إذ يجري
وتعليم قرآن وتشييد منزل
لذكر ونجل مسلم طيب الذكر

تنبيه

وإذا كان الأمر كذلك؛ فلم أودع هذا الكتاب من النقول غالباً إلا ما اعتمده أئمة السلف الذين هم أهل الصنعة المسلم لهم الأمر من أهل عصرهم وما أودعوه كتبهم.

فأما ما أعرضوا عنه من المقلوب والموضوع والمجهول واتفقوا على تركه فقد صنت الكتاب عنه في ظني غالباً وعلى قدر استطاعتي إن شاء الله تعالى: وما لم أذكر أسانيدها من الأحاديث فأكثرها مسموعة كما قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى وعامتها في كتب الأئمة. وإني في أكثر ما أوردته بل في عامته متبع ولم يكن لي فيه إلا الجمع والتلفيق فقط إلا القليل جداً جداً الذي لاح لي بنوع من الدليل في تأويل كلام محتمل وإيضاح مشكل أو ترجيح قول على آخر بحسب المرجحات المقدرة في الأصول. إذ لعلماء السلف -رحمهم الله تعالى وإيانا والمسلمين- سعي كامل في تأليف ما جمعوه، ونظر صادق للخلف في أداء ما سمعوه.

والقصد بهذا الجمع مع وقوع الكفاية بما عملوه وحصول الغنية فيما فعلوه الاقتداء بأفعالهم والانتظام في سلك أحد طرفيه متصل بصدر النبوة

والدخول في غمار قوم جدوا في إقامة الدين، واجتهدوا في إحياء السنة شغفاً بهم، وحباً لطريقهم، وإن قصرت في العمل عن مبلغ سعيهم.

وابن اللبون إذا ما لـذ في قـرن
لم يستطع صولة البزل القناعيسي[١]

وطمعاً في موعود الله سبحانه وتعالى على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «المرء مع من أحب».

وقد قيل ونسب إلى الإمام الشافعي ما يلي وإن لم نقف على صحته لكن المعنى صحيح:

أحب الصالحين ولست منهم　　لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصي　　وإن كنا سواء في البضاعة

وأجيب له:

تحب الصالحين وأنت منهم　　محب القوم يلحق بالجماعة
وتكره من بضاعته المعاصي　　حماك الله من تلك البضاعة

قال الشيخ العلامة عبد الله بن فودي شقيق المجدد عثمان بن فودي رحمهم الله جميعاً في كتابه (الحصن الرصين) في علم الصرف:

بحمد ربنا هـو المنـان　　بكل خير فلـه امتنـان
ولـم أرد إشاعة المفاخـر　　على أديـب سيد الأكابـر
بل إنـه بيـان قول شاعـر　　كم ترك الأول أي للآخـر
ولا يطاع عالم في باطـل　　والحق مقبول ولو من جاهل
وإن ذا العلم بالاستقراء　　ونقله من كـتب الأدبـاء
معتـذراً للنـاقد البصيـر　　بالجهل والإشـغال والتقصير
وسـائلاً للّـه أن يسـهلا　　وينفع الكـل به ويقبـلا

---

[١] ابن اللبون: ولد الناقة إذا كان في العام الثاني وصار لها لبن ولذ وشد، والقرن الجبل، والبزل جمع بازل وهو ما بلغ التاسعة، والقناعيس جمع قنماس وهو الجمل الضخم العظيم ويوجد هذا البيت من جرير ديوانه (.٢٥) والكتاب لسيبويه (٢/٩٧) والمقتضب للمبرد ٤/٤٦، وشرح المفصل لابن يعيش (١/٣٥) ومغني اللبيب (٥٣) ولسان لاعرب مادة لبن، لزز، قنعس.

والله تعالى نسأل أن يجعله مرجعاً وافياً وشافياً لجل ما يحتاجه المسلم في أمور دينه ودنياه من العقائد وأصول الدين والفقه وغير ذلك إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وما ذلك على الله بعزيز.

وقد روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات الإنسان» وفي رواية «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له». وتقدم آنفاً مثله، كما تقدم الأبيات المستنبطة من هذا الحديث آنفاً والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وأنا مع وصفي هذا الكتاب ما ابرئ نفسي ولا كتابي من خلل ولا ريب ولا أبيعه بشرط البراءة من كل عيب، ولا أدعي فيه كمال الاستقامة، واعترف بكمال القصور وأسأل الله الصفح عما جرى به قلمي بهذه السطور، وأقول لناظر جمعي هذا: لا تأخذن في نفسك علي شيئا وجدته فيه مغايراً للفهم فإن الفهوم قد تختلف.

ومن صنف قد استهدف واعتذر لك أيها المنصف من خطأ أو زلة؛ فالجواد قد يكبو، والفتى قد يصبو، ولا يعد إلا فضلات العارف، وتدخل الزيوف على أعلى الصيارف، ولا يخفى عليك أن التعقب على الكتب سيما الطويلة سهل بالنسبة إلى تعليقها ووضعها وترصيفها كما يشاهد في الأبنية القديمة والهياكل العظيمة حيث يعترض على بانيها من أعرض في نفسه عن القوى والقدر بحيث لا يقدر على وضع حجر على حجر.

هذا جوابي عما يرد على كتابي. وقد كتب أستاذ البلغاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى العماد الكاتب الأصبهاني معتذراً عن كلام استدركه عليه أنه وقع إلى شيء ولا أدري أوقع ذلك أم لا؟ وها أنا أخبرك به وذلك أنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

فأرجو مسامحة ناظريه فهم أهلوها، وآمل جميلهم فهم أحسن الناس وجوهاً، وهذا حين الشروع في المقصود ولا ينبغي أن يمل الناظر في هذا الكتاب كثرة الكلام على تخريج حديث بذكر الأسانيد والاستعراض المزيد في بعض المسائل والتراجم فإنه لذلك وضع وعلى أعواد هذه القواعد رفع وسترى فيه من الفوائد ما قد لا يوجد في مجموع، ومن الزوائد ما هو فوق الفرقد مرفوع.

والله المسئول أن يتقبله بقبول حسن وأن يعينني على إكماله في أقرب زمن وعلى نهج يرتضيه أهل الحق بالوجه المستحسن وهو المعين المجيب عليه توكلت وإليه أنيب، والله المستعان على ما تصفون وهو حسبي ونعم الوكيل.

فصـــــل

قال الشيخ الإمام ابن الأثير الجزري ٥٤٤-٦٠٦هـ رحمه الله تعالى في كتابه جامع الأصول في أحاديث الرسول بما نصه:

أما بعد؛ فإن شرف العلوم يتفاوت بشرف مدلولها، وقدرها يعظم بعظم محصولها. ولا خلاف عند ذوي البصائر أن أجلها ما كانت الفائدة فيه أعم، والنفع به أتم، والسعادة باقتنائه أدوم، والإنسان بتحصيله ألزم؛ كعلم الشريعة الذي هو طريق السعداء إلى دار البقاء، ما سلكه أحد إلا اهتدى ولا استمسك به من حاب ولا تجنبه من رشد. فما امنع جناب من احتمى بحماه وارغد مآب من ازدان بحلاه.

وعلوم الشريعة على اختلافها تنقسم إلى: فرض ونفل.

فالفرض ينقسم إلى: فرض عين وفرض كفاية.

ولكل واحد منهما أقسام وأنواع بعضها أصول وبعضها فروع، وبعضها مقدمات وبعضها متممات وليس هذا موضع تفصيلها إذ ليس لنا بغرض.

إلا أن من أصول فروض الكفايات علم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآثار أصحابه رضي الله عنهم التي هي ثاني أدلة الأحكام ومعرفتها أمر شريف، وشأن جليل، لا يحيط به إلا من هذب نفسه بمتابعة أوامر الشرع ونواهيه، وأزال الزيغ عن قلبه ولسانه. وله أصول وأحكام وقواعد، وأوضاع واصطلاحات ذكرها العلماء وشرحها المحدثون والفقهاء. يحتاج طالبه إلى معرفتها والوقوف عليها بعد تقديم معرفة اللغة والإعراب اللذين هما أصل لمعرفة الحديث لورود الشريعة المطهرة بلسان العرب.

وتلك الأشياء كالعلم بالرجال وأساميهم وأنسابهم وأعمارهم ووقت وفاتهم، والعلم بصفات الرواة وشرائطهم التي يجوز معها قبول روايتهم، والعلم بمستند الرواة وكيفية أخذهم الحديث وتقسيم طرقه.

والعلم بلفظ الرواة وإيرادهم ما سمعوه وإيصاله إلى من يأخذه عنهم وذكر مراتبه. والعلم بجواز نقل الحديث بالمعنى ورواية بعضه والزيادة فيه

والإضافة إليه ما ليس منه وانفراد الثقة بزيادة فيه. والعلم بالمسند وشرائطه والعالي منه والنازل.

والعلم بالمرسل وانقسامه إلى المنقطع والموقوف والمعضل وغير ذلك واختلاف الناس في قبوله ورده.

والعلم بالجرح والتعديل وجوازهما ووقوعهما، وبيان طبقات المجروحين والعلوم بأقسام الصحيح من الحديث والكاذب وانقسام الخبر إليهما وإلى الغريب والحسن وغيرهما.

والعلم بأخبار التواتر والآحاد والناسخ والمنسوخ.

وغير ذلك مما تواطأ عليه أئمة الحديث، وهو بينهم متعارف.

فمن أتقنها، أتى دار هذا العلم من بابها، وأحاط بها من جميع جهاتها، وبقدر ما يفوته منها تنزل عن الغاية درجته وتنحط عن انلهاية رتبته.

إلا أن معرفة التواتر والآحاد، والناسخ والمنسوخ وإن تعلقت بعلم الحديث فإن المحدث لا يفتقر إليها لأن ذلك من وظيفة الفقيه لأنه يستنبط الأحكام من الأحاديث فيحتاج إلى معرفة المتواتر والآحاد، والناسخ والمنسوخ.

فأما المحدث فوظيفته أن ينقل ويروي ما سمعه من الأحاديث كما سمعه فإن تصدى لما وراءه فزيادة في الفضل وكمال في الاختيار.

جمعنا اللّٰه وإياكم معشر الطالبين على قبول الدلائل وألهمنا وإياكم الاقتداء بالسلف الصالح من الأئمة الأوائل، وأحلنا وإياكم من العلم النافع أعلى المنازل، ووفقنا وإياكم للعمل بالعالي من الحديث والنازل إنه سميع الدعاء حقيق بالإجابة.

الفصل الأول
في انتشار علم الحديث ومبدأ جمعه وتأليفه

حيث ثبت ما قلناه في المقدمة من كون علم الحديث من العلوم الشرعية وأنه من أصول الفروض وجب الاعتناء به، والاهتمام بضبطه وحفظه ولذلك يسر الله سبحانه وتعالى له أولئك العلماء الأفاضل والثقات الأماثل، والأعلام المشاهير، الذين حفظوا قوانينه، واحتاطوا فيه فتناقلوه كابراً عن كابر، وأوصله كما سمعه أول إلى آخر، وحببه الله إليهم لحكمة حفظ دينه وحراسة شريعته.

فمازال هذا العلم من عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه -والإسلام غض طري، والدين محكم الأساس قوي- أشرف العلوم وأجلها لدى الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وتابعي التابعين خلفاً بعد سلف، لا يشرف بينهم أحد بعد حفظ كتاب الله عز وجل إلا بقدر ما يحفظ منه، ولا يعظم في النفوس إلا بحسب ما يسمع من الحديث عنه.

فتوفرت الرغبات فيه وانقطعت الهمم على تعلمه، حتى لقد كان أحدهم يرحل المراحل ذوات العدد، ويقطع الفيافي والمفاوز الخطيرة، ويجوب البلاد شرقاً وغرباً في طلب حديث واحد ليسمعه من راويه. فمنهم من يكون الباعث له على الرحلة طلب ذلك الحديث لذاته، ومنهم من يقرن بتلك الرغبة سماعه من ذلك الراوي بعينه إما لثقته في نفسه وصدقه في نقله، وإما لعلو إسناده فانبعثت العزائم إلى تحصيله.

وكان اعتمادهم أولاً على الحفظ والضبط في القلوب والخواطر، غير ملتفتين إلى ما يكتبونه، ولا معولين على ما يسطرونه محافظة على هذا العلم كحفظهم كتاب الله عز وجل.

فلما انتشر الإسلام واتسعت البلاد وتفرقت الصحابة في الأقطار، وكثرت الفتوح، ومات معظم الصحابة، وتفرق أصحابهم واتباعهم، وقل الضبط احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة ولعمري إنها الأصل فإن الخاطر

يغفل والذهن يغيب والذكر يهمل والقلم يحفظ ولا ينسى[١].

فانتهى الأمر إلى زمن جماعة من الأئمة، مثل عبد الملك بن جريج ومالك بن أنس، وغيرهما ممن كان في عصرهما فدونوا الحديث. حتى قيل إن أول كتاب صنف في الإسلام (كتاب ابن جريج)[٢].

وقيل: (موطأ مالك) رحمة الله عليهما.

وقيل إن أول من صنف وبوب الربيع بن صبيح[٣]بالبصرة. ثم انتشر جمع الحديث وتدوينه وسطره في الأجزاء والكتب. وكثر ذلك وعظم نفعه إلى زمن الإمامين أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري رحمهما الله، فدونا كتابيهما وفعلا ما الله مجازيهما عليه من نصح المسلمين والاهتمام بأمور الدين، وأثبتنا في كتابيهما من الأحاديث ما قطعا بصحته وثبت عندهما نقله.

---

[١] على أنه ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يكتبون بعضاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم أو لغيرهم، من ذلك كتابة بعض الصحابة لأبي شاه-وهو رجل من أهل اليمن-بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة من خطبه، ومنه ما ذكر أبو هريرة من شأن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ومنه ما كان من قصة صحيفة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها شيء من العلم، وكل ذلك في الصحيح، ومن ذلك كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن. أخرجه النسائي والدارمي وغيرهما.

[٢] هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي ثقة فقيه فاضل لكنه يدلس ويرسل خرج له الجماعة مات سنة مائة وخمسين أو بعدها وقد جاوز السبعين.

[٣] هو الربيع بن صبيح -بفتح الصاد كما ضبطه الحافظ في التقريب- السعدي البصري صدوق سيئ الحفظ وكان عابداً مجاهداً.

وقد ذكروا أن أول من جمع الحديث ابن جريج بمكة، وابن إسحاق أو مالك في المدينة والربيع بن صبيح أو سعيد بن أبي عروبة، أو حماد بن سلمة بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة، والأوزاعي بالشام، وهشيم بواسط، ومعمر باليمن، وجرير بن عبد الحميد بالري، وابن المبارك بخراسان؛ وكل هؤلاء من رجال القرن الثاني الهجري. وما جمعوه من الحديث كان مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاوي التابعين.

وسيجيء بعد هذه المقدمة شرط كتابيهما وذكر الصحيح والفاسد مشروحاً مفصلاً إن شاء الله تعالى وسميا كتابيهما (الصحيح من الحديث) واطلقا هذا الاسم عليهما وهما أول من سمي كتابه ذلك. ولقد صدقا فيما قالا، وبرا فيما زعما[١]ولذلك رزقهما الله من حسن القبول في شرق الأرض وغربها وبرها وبحرها، والتصديق لقولهما والانقياد لسماع كتابيهما ما هو ظاهر مستغن عن البيان، وما ذلك إلا لصدق النية، وخلوص الطوية، وصحة ما أودعا كتابيهما من الأحاديث.

ثم ازداد انتشار هذا النوع من التصنيف والجمع والتأليف وكثر في أيدي المسلمين وبلادهم وتفرقت أغراض الناس وتنوعت مقاصدهم إلى أن انقرض ذلك العصر الذي كانا فيه حميداً عن جماعة من الأئمة والعلماء[٢]قد جمعوا وألفوا: مثل أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، وأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، وأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي رحمة الله عليهم. وغيرهم من العلماء الذين لا يحصون كثير.

وكأن ذلك العصر كان خلاصة العصور في تحصيل هذا العلم وإليه المنتهى.

ثم من بعده نقص ذلك الطلب بعد، وقل ذلك الحرص وفترت تلك الهمم. وكذلك كل نوع من أنواع العلوم والصنائع والدول وغيرها[٣]فإنه يبتدئ قليلاً قليلاً، ولا يزال ينمى ويزيد ويعظم إلى أن يصل إلى غاية هي منتهاه، ويبلغ إلى أمد هو أقصاه ثم يعود فكان غاية هذا العلم انتهت إلى البخاري ومسلم. ومن كان في عصرهما من علماء الحديث ثم نزل وتقاصر إلى زماننا هذا، وسيزداد تقاصراً والهمم قصوراً؛ سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً. أ هـ.

قلت إلا ما شاء الله القدير الفعال لما يريد.

---

[١] الزعم هنا بمعنى الظن الراجح.

[٢] في المطبوع: ذلك العصر الحميد.

[٣] في المطبوع وغيرهم.

مقدمة

في أول من دون هذا العلم العظيم
وكيف كان حالهم قبل تدوينه في القـديم

اعلم أنه لم يزل أهل الحديث النبوي، والإسلام غض طري، والدين محكم الأساس قوي، أشرف العلوم وأجلها لدى الصحابة والتابعين وأتباعهم خلفا بعد سلف، على سنن تلك العصابة لا يشرف بينهم أحد بعد حفظ التنزيل إلا بقدر ما يحفظ منه، ولا يعظم في النفوس إلا بحسن ما يسمع من الحديث منه. فتوفرت الرغبات فيه، وانقطعت الهمم على تعلمه وتعليمه حتى رحلوا المراحل ذوات العدد، وأفنوا الأموال والعدد، وقطعوا الفيافي في طلبه، وجابوا البلاد شرقاً وغرباً بسببه. وكل اعتمادهم أولا على الحفظ وضبط القلوب والخواطر، غير ملتفتين إلى ما يكتبونه في الدفاتر، وذلك لسرعة حفظهم وسيلان أذهانهم.

فلما انتشر الإسلام، واتسعت الأمصار، وتفرقت الصحابة وأتباعهم في الأقطار، وكثرت الفتوحات، ومعظم الصحابة وبعض أتباعهم قد مات، وتفرق بعضهم، وقل الضبط واتسع الخرق وكاد الباطل أن يلتبس بالحق، احتاج العلماء إلى تدوين الحديث بالكتابة، وعين لذلك أكرم عصابة، فمارسوا الدفاتر، وسايروا - المحابر، فأجابوا في نظم قلائده أفكارهم، وأنفقوا في تحصيله أعمارهم، واستغرقوا لتقييده ليلهم ونهارهم، فأبرزوا تصانيف كثرت صنوفها، ودونوا دواوين ظهر شفوفها، فاتخذها العالمون قدوة، ونصبها العاملون قبلة فجزاهم الله عن سعيهم الحميد أحسن ما جازى به علماء الأمة، وأحبار ملة، بفضله المزيد.

والحاصل أن هذا العلم كان في صدر الإسلام في الصدور، بدون احتياج لتقييده في الطروس والسطور، ولتمام ضبطهم وشدة اتقانهم، إلى أن اقتضت الدواعي جمعه، واعتورت الأسباب وضعه، فكان أول من أمر بتدوين الحديث وجمعه بالكتابة عمر بن عبد العزيز، خوف اندراسه كما في

الموطأ من رواية محمد بن الحسن (أخبرنا يحيى ابن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أو سنته فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء).

وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أهل الآفاق: انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فاجمعوه. وعلقه البخاري في صحيحه فيستفاد منه كما قال الحافظ ابن حجر ابتداء تدوين الحديث.

وقال الهروي في ذم الكلام: ولم تكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الحديث وإنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً، إلا نحو كتاب الصدقات، والشيء اليسير الذي يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء، حتى خيف عليه الدروس وأسرع في العلماء الموت.

أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر بن محمد فيما كتب إليه: أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه، قال الحافظ ابن حجر في المقدمة: اعلم أن آثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن في عصر الصحابة وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين:

أحدهما أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهو عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم، خشية أن يخلط بعضها بالقرآن العظيم.

والثاني سعة حفظهم وسيلان أذهانهم، وكان أكثرهم لا يعرفون الكتابة. ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار، لما انتشر العلماء بالأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض منكري الأقدار، فأول من جمع ذلك: الربيع بن صبيح، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما. فكانوا يضعون كل باب على حدته، إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة في منتصف القرن الثاني، فبوبوا فيه الأحكام فصنف الإمام مالك الموطأ، وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة، وفتاوي التابعين ومن بعدهم.

وصنف ابن جريج بمكة، والأوزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالكوفة، وحماد بن سلمة بالبصرة، وهشيم بواسط، ومعمر باليمن، ومحمد بن المبارك

بخراسان، وجرير بن عبد الحميد بالري، وكان هؤلاء في عصر واحد، فلا يدري أيهم سبق، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسخ على منوالهم، إلى أن رأى بعض الأئمة أن يفرد فصنفوا المسانيد هـ.

وقال أبو طالب المكي في قوت القلوب: هذه المصنفات من الكتب حادثة بعد سنة عشرين أو ثلاثين ومائة، ويقال: إن أول ما صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار، و(تلاه) آخرون من التابعين بمكة.

ثم كتاب معمر بن راشد باليمن، جمع فيه سنناً مأثورة مبوبة. ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك، ثم جمع ابن عيينة كتاب الجامع، والتفسير في أحرف من علم القرآن وفي الأحاديث. ثم جامع سفيان الثوري صنفه أيضا في هذه المدة وقيل: إنهما صنفا سنة ستين ومائتين.

ثم تلاهم كثير من الأئمة في التصنيف على حسب ما سنح لهم وانتهى، فمنهم من رتب على المسانيد: كالإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية، وأبي بكر بن أبي شيبة، وأحمد بن منيع، وأبي خيثمة، والحسن بن سفيان، وأبي بكر البزار وغيرهم.

ومنهم من رتب على العلل، بأن يجمع في كل متن طرقه واختلاف الرواة فيه، بحيث يتضح إرسال ما يكون متصلاً، أو وقف ما يكون مرفوعاً أو غير ذلك.

ومنهم من رتب على الأبواب الفقهية وغيرها، ونوعه أنواعاً، وجمع ما ورد في كل نوع وفي كل حكم، إثباتاً ونفياً في باب فباب، بحيث يتميز ما يدخل في الصوم مثلاً عما يتعلق بالصلاة. وأهل هذه الطريقة منهم من تقيد بالصحيح: كالشيخين وغيرهما، ومنهم من لم يتقيد بذلك: كباقي الستة، ومنهم المقتصر على الأحاديث المتضمنة للترغيب والترهيب. ومنهم من حذف الأسانيد واقتصر على المتن فقط: كالبغوي في مصابيحه والولي في مشكاته.

وبالجملة فقد كثرت في هذا الشأن التصانيف، وانتشرت في أنواعه وفنونه التآليف، واتسعت دائرة الرواية في المشرق والمغرب، واستنارت مناهج السنة لكل طالب ولله الحمد على ذلك.

واستزيده على ما هنالك، فإنه من أجل ما ينفق فيه نفائس الأوقات،

وأحق ما تنصرف إليه عزائم الرغبات قلت: ويرحم الله أبا بكر حميد القرطبي، فلقد أحسن وأفاد ناصحاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع دائم الرشاد، حيث قال:

نور الحديث مبين فادن واقتبس
واحد الركاب له نحو الرضا الندس
واطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت
أعلامه برباها يا ابن أندلس
فلا تضع في سوى تقييد شاردة
عمراً يفوتك بين اللحظ والنفس
وخل سمعك عن بلوى أخي جدل
شغل اللبيب بها ضرب من الهوس
ما إن سمت بأبي بكر ولا عمر
ولا أتت عن أبي هر ولا أنس
إلا هوى وخصومات ملفقة
ليس برطب إذا عدت ولا يبس
فلا يغرنك من أربابها هذر
أجرى وجبرك منها نغمة الجرس
أعرهم أذناً صماً إذا نطقوا
وكن إذا سايلوا تعزى إلى الخرس
ما العلم إلا كتاب الله أو أثر
يجلو بنور هداه كل ملتبس
نور لمقتبس خير لملتمس
حمى لمحترس، نعمى لمبتئس
فاعكف ببابهما على طلابهما
تمحو العمى بهما عن كل ملتمس
ورد بقلبك عذبا من حياضهما
تغسل بماء الهوى ما فيه من دنس

واقف النبي وأتباع النبي وكـن
من هديهـم أبدا تدنوا إلى قبس
والزم مجالسـهم واحفظ مجالسـهم
وانـدب مدارسـهم بالأربع الـدرس
واسلك طريقهم واتبع فريقـهم
تكـن رفيقهم في حضرة القدس
تلك السـعادة إن تلمم بسـاحتها
فحط رحلك قد فيت عومو من تعس

انتهى. ذكره الأستاذ الأعظم والملاذ الأفخم الشيخ الإمام السيد محمد ابن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المولود بمستغانم بالجزائر سنة ١٢٠٢هـ المتوفى بالجغبوب بليبيا سنة ١٢٧٦هـ في مقدمته على الموطأ الإمام مالك.

وقال غيره:

لقول الشـيخ أنبـاني فـلان وكان من الأئمة عن فـلان
إلى أن ينتهي الإسـناد حلا لقلبي من محادثتي الحسان
ومشتمل على صوت فصيـح ألذ لدي من صوت القيان
وتزبيني الطروس بنقش نفس أحب إلي من نقش المغاني
وتخريج الفـوائد والأمـالي وتسـطير الغرائب والحسان
وتصحيح الغوالي من العوالي بنيسـابور أوفى أصـفهان
أحب إلي من أخبار ليلى وقيس بن الملوح والأغـاني
فـإن كتابة الأخبـار ترقـى بصاحبها إلى غرف الجنـان
وحفـظ حديث خير الخلق ما ينال به الرضا بعد الأماني
فأجر العلم ينمـو كل حين وذكر المرء يبقى وهو فاني

انتهى قاله في مقدمة فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين. آمين

المقدمة الثانية في الإخلاص

فصل في إخلاص النية

اعلم علمني الله تعالى وإياك أني أقول كما قال صاحب كتاب المقنع بالقليل شرح مختصر الشيخ خليل فقلت: وقد سنح لي أن أفتح هذا الشرح المبارك بالمقدمة وتحتهما فصول:

الفصل الأول في الحث على إخلاص النية -اعلم أنه لا يخفى أن المقصود من تعلم العلم وتعليمه عبادة الله تعالى لتوقفها عليه؛ ولذلك كان الاشتغال به أفضل الأعمال. ثم إنه لا يصح عمل إلا بإخلاص النية لوجه الله تعالى.

قال تبارك وتعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١].

وقال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما رويناه في الصحيح المتفق عليه وهو أيضاً يوجد في بعض روايات الموطأ أي في رواية محمد بن الحسن:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلى اللَّه وَرَسُولِه وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَو إِلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

ودلت الآية الكريمة على أن صورة العبادة الظاهرة من الاشتغال بالعلم وغيره لا عبرة بها إلا مع إخلاص النية لوجه الله الكريم.

ودل الحديث الشريف على أن الأعمال معتبرة بالنية فمن نوى بها خيراً

---

[١] البينة: ٥.

كانت له خيراً، ومن نوى بها شراً كانت عليه شراً، ومن نوى بفعل المباح خيراً كانت له خيراً وطاعة.

فالصورة الواحدة تكون عبادة تارة ومعصية أخرى، وفضولاً تارة أخرى مثلا السجدة تكون عبادة إذا كانت لله تعالى، وكفراً إذا كانت لصنم والعياذ بالله تعالى.

والاشتغال بالعلم يكون أفضل أعمال البر إذا نوى به امتثال أمر الله تعالى في تعاطيه وفي العمل به، ويكون معصية إذا قصد به التكبر على الأقران، واجتلاب المال من وجه حرام كالرشوة وفضل الأعطية من الأموال المغصوبة وشبه ذلك ويكون فضولاً إذا نوى به الفضول كاجتلاب المباح المستغنى عنه إذا علم.

فإذا علم هذا فأهم شيء على العاقل وخصوصاً متعاطى العلم تصحيح نيته أولاً وتنميتها ثانياً. كما قال الإمام الأخضري في فقه المالكي: أول ما يجب على المكلف تصحيح إيمانه ثم معرفة ما يصلح به فرض عينه كأحكام الصلاة والطهارة والصيام، ويجب عليه أن يحافظ على حدود الله ويقف عند أمره ونهيه. اهـ.

قلت ومما يستحسن ذكره هنا للمناسبة أن أسوق للقارئ نص مقدمة مختصر الأخضري لعظيم فائدتها. أي المقدمة فالضمير للمقدمة:

قال رحمه الله تعالى: أول ما يجب على المكلف تصحيح إيمانه ثم معرفة ما يصلح به فرض عينه كأحكام الصلاة والطهارة والصيام ويجب عليه أن يحافظ على حدود الله ويقف عند أمره ونهيه ويتوب إلى الله سبحانه قبل أن يسخط عليه.

وشروط التوبة الندم على ما فات، والنية ألا يعود إلى ذنب فيما بقى عليه من عمره، وأن يترك المعصية في ساعتها إن كان متلبساً بها، ولا يحل له أن يؤخر التوبة ولا يقول حتى يهديني الله، فإنه من علامة الشقاء والخزلان وطمس البصيرة ويجب عليه حفظ لسانه من الفحشاء والمنكر والكلام القبيح وأيمان الطلاق وانتهار المسلم وإهانته وسبه وتخويفه في غير حق شرعي..

ويجب عليه حفظ بصره عن النظر إلى الحرام ولا يحل له أن ينظر إلى مسلم بنظرة تؤذيه إلا أن يكون فاسقاً فيجب هجرانه، ويجب عليه حفظ جميع جوارحه ما استطاع وأن يحب لله ويبغض لله ويرضى له ويغضب له ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ويحرم عليه الكذب والغيبة والنميمة والكبر والعجب والرياء والسمعة والحسد والبغض ورؤية الفضل على الغير والهمز واللمز والعبث والسخرية والزنا والنظر إلى الأجنبية والتلذذ بكلامها، وأكل أموال الناس بغير طيب نفس. والأكل بالشفاعة أو بالدين، وتأخير الصلاة عن أوقاتها، ولا يحل له صحبة فاسق ولا مجالسته لغير ضرورة ولا يطالب رضاء المخلوقين بسخط الخالق.

قال الله سبحانه وتعالى:

(واللَّهُ ورَسُولُه أحَقُّ أن يرضُوهُ إنْ كَانُوا مُؤْمِنِين).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولا يحل له أن يفعل فعلاً حتى يعلم حكم الله فيه ويسأل العلماء ويقتدي بالمتبعين لسنة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الذين يدلون على طاعة الله ويحذرون من الشيطان، ولا يرضى لنفسه ما رضيه المفلسون الذين ضاعت أعمارهم في غير طاعة الله تعالى فياحسرتهم وياطول بكائهم يوم القيامة. نسأل الله أن يوفقنا لاتباع سنة نبينا وشفيعنا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.اهـ كلام الأخضري رحمه الله.

فإن قلت وما هو المراد بتصحيبح النية:

قلت: كما قال في كتاب المقنع بالقليل ونصه:

وأما تصحيحها فبأن يصرفها عن الأغراض الفاسدة إلى المقاصد الحسنة:

فينوي بفعل المأمور به إمتثال أمر الله تعالى وبفعل المباح أو تركه استعانة على الطاعة، لتكون جميع حركاته وسكناته طاعة.

وأما تنميتها فبأن ينظر فيما عزم عليه من فعل وترك، فإن وجده يحتمل وجوهاً من الخير نواها كلها.

ولا يستبعد بلوغ عدد النية إلى القدر المذكور أو أكثر منه، فقد ذكر في قضاء حاجة الإنسان الذي هو أهون الأمر من الضروريات نيف وسبعون خصلة، فإذا نواها الإنسان حين خروجه للخلاء يحصل نيفاً وسبعين حسنة. فإذا منعه مانع من فعلها فقد ربح تلك الحسنات بنيته، وإذا فعلها حصلت له سبعمائة حسنة ونيف. لحديث الصحيحين: «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كانت له عشر حسنات».

وبالجملة فكل ما يعرض للإنسان من حركة أو سكون لا يخلو من أن يكون مأموراً به وجوباً أو ندباً، أو منهياً عنه نهي تحريم أو كراهة، أو مباحا.

وأقل ما ينوي العاقل بفعل الأول بقسميه امتثال أمر اللّٰه تعالى بفعله، وفي الثاني بقسميه امتثال أمر اللّٰه تعالى بتركه، وفي الثالث أن اللّٰه تعالى تفضل عليه بإباحته له وإنه لو نهاه لزالت الإباحة، فلتجتهد، ولتستكثر من النية في جميع أعمالك حتى تنوي بعمل واحد نيات كثيرة، ولو صدقت نيتك في ذلك لهديت إلى طريقه.

ومثل ذلك الدخول إلى المسجد والقعود فيه فإنه عبادة واحدة والمؤمن ينوي به نيات. منها أن يعتقد أنه بيت ربه، وينوي أنه زائره ويرجو كرمه لأن الكريم المزور يكرم زائره فما ظنك بأكرم الأكرمين، ومنها نية المرابطة المأمور بها في قوله تعالى:

(اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا)[١].

فقد قيل هي انتظار الصلاة بعد الصلاة.

ومنها نية الجوار فإنه مستحب ولا يشترط فيه الصوم ولا إتمام النهار. ومنها نية الخلوة ودفع الشواغل المانعة من التفكر في الآخرة والاستعداد

---

[١] آل عمران: ٢٠٠.

لها. ومنها استماع الذكر وإسماعه فيكون كالمجاهد في سبيل الله تعالى. ومنها إفادة علم واستفادته أو كلاهما كتنبيه من عثر في شيء من أحكام الخير.

ومنها أن يشغل نفسه عن المعاصي. ومنها أن يشغلها عن الفضول ومنها أن يقتدي به غيره في فعل الخير. ومنها غير ذلك مما يستحضره من وفق له.

فقس على هذا سائر أعمال البر. فينوي طالب العلم في كل مسألة تفصيلاً إن قدر وإلا فإجمالاً إذ أن المفروض عليه تعلمه ما يلزمه في خاصة نفسه وما زاد على ذلك ينوي به القيام عن الناس بفرض الكفاية ولا يقتصر فيه على نية الندب لأن أجر الفرض أعظم بكثير.

وينوي أيضاً أن يعمل بما علمه الله تعالى في خاصة نفسه وأن يعلمه كل من أمكنه تعليمه وينوي أيضاً التوسل بتعليمه لينفع الطبقات بالوسائل علماً وعملاً إلى يوم القيامة. وينوي أيضاً أن يشغل نفسه بطاعة الله تعالى عن معصيته ويشغلها عن الفضول الذي لو لم يكن فيه إلا تضييع العمر الذي هو رأس المال لكان كافياً في نفور نفس العاقل عنه.

كيف وفيه مع ذلك أمور منها أن صاحبه يشغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه. ومنها أنه كان يرسل إلى ربه كتاباً من اللغو والهذر. ومنها أنه سيقرأه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد حين يقال له:
(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)[١].

فيخجل في موقف الأهوال والشدائد وهو جوعان عطشان عريان وتشتد حسراته لكونه لم يشتغل في وقت الفضول بالعمل الصالح الذي هو في غاية حسراته الاضطرار إليه في ذلك الوقت.

ومنها أنه يوبخ في ذلك الوقت العظيم فيقال له لم فعلت كذا أو قلت كذا فتنقطع حجته بين يدي علام الغيوب ويبهت ولا يجد جواباً. وإذا كان

---

[١] الإسراء: ١٤.

هذا حاله في الفضول فكيف في المعاصي. نسأل اللّٰه تعالى العفو والعافية. وينبغي أن ينوي بقية الأمور المتقدمة في دخول المسجد.

قال صاحب المدخل رحمه اللّٰه تعالى:

وحكي عن بعض أصحاب سيدي أبي علي حسن الزبيدي رحمه اللّٰه تعالى وكان إماماً معظماً محترماً مقدماً عند من أدركناه من المشائخ مثل سيدي أبي محمد المرجاني وسيدي محمد بن أبي جمرة ونظائرهما قال: كنت مع سيدي حسن في حائط له يعمل فيه وإذا بشخص يدق الباب فمشيت إلى الباب لأنظر من هو فإذا سيدي حسن قد لحقني فسألني عن قيامي بأي نية قمت فقلت قمت لأفتح الباب قالا لا غير قلت هو ذاك أو كما قال قال فعاب ذلك علي وانتهرني وقال فقير يتحرك بحركة عارية عن النية ثم أخبرني أنه قام لفتح الباب وعدد لي ما قام به من النيات فإذا هي نحو خمس وعشرين نية.

ولا يعكر على هذا ما ذهب إليه بعض الناس من أن هذه الطائفة لا تخرج إلا بنية واحدة واستدل بذلك على فعل الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّٰه تعالى لما جاء إلى الحج ووجد بعض أئمة الحديث بمكة والناس يسمعون عليه الحديث فلم يجلس إليه ولم يسمع عليه شيئاً فقيل له في ذلك فقال ما خرجت بهذه النية فلما أن حج ورجع إلى بلده رحل إلى الشيخ المذكور إلى بلده باليمن أو غيره فسمع عليه الحديث.

وهذا منه رحمه اللّٰه تعالى ليس على ظاهره بل لأمر آخر وهو واضح بين إذ أن النبي صلى اللّٰه تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا تجعلوني كقدح الراكب» فأراد الإمام أحمد رحمه اللّٰه تعالى أن يجعل الرحلة لحديث النبي صلى اللّٰه تعالى عليه وآله وسلم. هي الأصل والعمدة وما وقع بعدها من النيات فتبع لها وفرع عنها تحفظاً منه رحمه اللّٰه تعالى أن يجعل حديث النبي صلى اللّٰه تعالى عليه وآله وسلم تبعاً فيكون كقدح الراكب وذلك أن قدح الراكب هو الذي يكون فيه الماء لقضاء مآربه من شرب وغيره لأنه لا يجعله على الدابة إلا بعد أن يفرغ من تحميل

حوائجه كلها عليها فأراد أن يجعل حديث النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أصلاً لا فرعاً كما تقدم.

وهذا تنبيه بقليل على كثير كما سيأتي المزيد إن شاء الله تعالى ومن أراد البسط فعليه بمنهاج العابدين الذي ينسب للإمام الغزالي والمدخل ونحوهما. وبالله تعالى التوفيق والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قلت: قيل أن الشيخ المذكور هو عبد الرزاق اليماني رحمه الله تعالى..

وقال الإمام النووي في المجموع شرح المهذب في الجزء الأول صفحة ٢٨).

فصل - في الإخلاص والصدق وإحضار النية في جميع الأعمال البارزة والخفية:

قال الله تعالى:

(وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِين لَهُ الدِّينَ)[١]. وقال تعالى: (فَاعبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين)[٢]. وقال تعالى: (وَمَنْ يَخرُج مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدرِكْهُ المَوتُ فَقَد وَقَعَ أَجرُهُ عَلَى اللَّه)[٣].

وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه») حديث صحيح متفق على صحته مجمع على عظم موقعه وجلالته وهو إحدى قواعد الإيمان وأول دعائمه وآكد الأركان.

قال الشافعي رحمه الله يدخل هذا الحديث في سبعين بابا من الفقه،

---

[١] البينة: ٥.
[٢] الزمر: ٢.
[٣] النساء: ١٠٠.

وقال أيضاً هو ثلث العلم. وكذا قال أيضاً غيره وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام وقد اختلف في عدها فقيل ثلاثة، وقيل أربعة، وقيل اثنان، وقيل حديث. وقد جمعتها كلها في جزء الأربعين فبلغت أربعين حديثاً لا يستغني متدين عن معرفتها لأنها كلها صحيحة جامعة قواعد الإسلام في الأصول والفروع، والزهد والاداب ومكارم الأخلاق وغير ذلك.

وإنما بدأت بهذا الحديث تأسياً بأئمتنا ومتقدمي أسلافنا من العلماء رضي الله عنهم، وقد ابتدأ به إمام أهل الحديث بلا مدافعة أبو عبد الله البخاري في صحيحه ونقل جماعة أن السلف كانوا يستحبون افتتاح الكتب بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله البارزة والخفية. اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم.

وروينا عن الإمام أبي سعيد عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله قال: لو صنفت كتاباً بدأت في أول كل باب منه بهذا الحديث. وروينا عنه أيضاً قال: من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بهذا الحديث. وقال الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي الشافعي الإمام في العلوم رحمه الله تعالى: كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث الأعمال بالنيات أمام كل شيء ينشأ ويبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها.

وهذه أحرف من كلام العارفين في الإخلاص والصدق. قال أبو العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنما يعطى الرجل على قدر نيته، وقال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا أن تكون حركاته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا. وقال السري رحمه الله تعالى: لا تعمل للناس شيئاً، ولا تترك لهم شيئاً، ولا تعط لهم، ولا تكشف لهم شيئاً.

وروينا عن حبيب بن أبي ثابت التابعي رحمه الله أنه قيل له: حدثنا. فقال: حتى لا تجيء النية. وعن أبي عبد الله سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله قال: ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي إنها تتقلب علي، وروينا عن الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه

الله في رسالته المشهورة قال: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو شيء سوى التقرب إلى الله تعالى. قال: ويصح أن يقال الإخلاص تصفية العقل عن ملاحظة الخلق والصدق والتقى والتنقي عن مطالعة النفس[١].

فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. وعن أبي يعقوب السوسي رحمه الله تعالى قال: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص، وعن ذي النون رحمه الله قال ثلاثة من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة، وعن أبي عثمان رحمه الله قال: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

وعن حذيفة المرعشي رحمه الله قال: الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن. وعن أبي علي الفضيل بن عياض رحمه الله قال: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وعن رويم رحمه الله قال: الإخلاص أن لا يريد على عمله عوضاً من الدارين ولا حظاً من الملكين.

وعن يوسف بن الحسين رحمه الله قال: أعز شيء في الدنيا الإخلاص. وعن أبي عثمان، قال: إخلاص العوام ما لا يكون للنفس فيه حظ وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليهما رؤية ولا بها اعتداد.

وأما الصدق فقال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)[١].

قال القشيري الصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وأقله استواء السر والعلانية. وروينا عن سهل بن عبد الله التستري قال: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره. وعن ذي النون رحمه الله قال: الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلا قطعه. وعن الحارث بن أسد

---

[١] هكذا في نسخة الأذرعي، وفي الأذكار للمؤلف التنقي عن مطاوعة النفس.

المحاسبي بضم الميم رحمه الله قال: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره إطلاعهم على السيئ من عمله لأن كراهيته ذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصديقين.

وعن أبي القاسم الجنيد بن محمد رحمه الله قال: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة والمرائي[٢] يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

قلت: معناه أن الصادق يدور مع الحق حيث دار فإذا كان الفضل الشرعي في الصلاة مثلاً صلى، وإذا كان في مجالسة العلماء والصالحين والضيفان والعيال، وقضاء حاجة المسلم، وجبر قلب مكسور ونحو ذلك فعل ذلك الأفضل وترك عادته وكذلك الصوم والقراءة والذكر والأكل والشرب والجد والمزح والاختلاط والاعتزال والتنعم والابتذال ونحوها فحيث رأى الفضيلة الشرعية في شيء من هذا فعله ولا يرتبط بعادة ولا بعبادة مخصوصة كما يفعله المرائي.

وقد كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحوال في صلاته وصيامه وأوراده وأكله وشربه ولبسه وركوبه ومعاشرة أهله وجده ومزحه وسروره وغضبه وإغلاظه في إنكار المنكر، ورفقه فيه وعقوبته مستحقي التعزير وصفحه عنهم وغير ذلك بحسب الإمكان والأفضل في ذلك الوقت والحال.

ولا شك في اختلاف أحوال الشيء في الأفضلية فإن الصوم حرام يوم العيد واجب قبله مسنون بعده، والصلاة محبوبة في معظم الأوقات وتكره في أوقات وأحوال كمدافعة الأخبثين. وقراءة القرآن محبوبة وتكره في الركوع والسجود وغير ذلك. وكذلك تحسين اللباس يوم الجمعة ويوم العيد وخلافه يوم الاستسقاء وكذلك ما أشبه هذه الأمثلة. وهذه نبذة يسيرة ترشد الموفق إلى السداد وتحمله على الاستقامة وسلوك طريق الرشاد.

---

[١] التوبة: ١١٩.

[٢] هكذا نسخة الأذرعي وفي نسخة أخرى

فصل:

فهاك خلاصة ما جاء في إخلاص النية في العبادة واتباع سنة المصطفى المختار صلي الله تعالى عليه وآله وسلم كما قاله الشيخ العلامة الناسك أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري القبيلي الفاسي الدارمي رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين في كتابه المدخل فقال:

فصل - الإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١].

قال علماؤنا رحمة الله تعالى عليهم: الإخلاص إنما يكون بالقلب وذلك أن لابن آدم جوارح ظاهرة، وجوارح باطنة. فعلى الظاهرة العبادة والامتثال وهو قوله تعالى: [١]

وعلى الباطنة أن تعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مخلصة في ذلك وهو قوله تعالى: [١]

فالأصل الذي تتفرع عنه العبادات على أنواعها هو الإخلاص وذلك لا يكون إلا بالقلب.

فعلى هذا: الجوارح الظاهرة تبع للباطنة فإن استقام الباطن استقام الظاهر جبراً، وإذا دخل الخلل في الباطن دخل في الظاهر من باب أولى. فعلى هذا ينبغي للمؤمن أن تكون همته وكليته في تخليص باطنه واستقامته إذ أن أصل الاستقامة منه تتفرع وهو معدنها.

وقد نص الحديث على هذا وبينه أتم بيان:

فقال عليه الصلاة والسلام:

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذ فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

وقال عليه الصلاة والسلام«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»

فالهجرة على حد واحد في الفعل وإنما كانت هذه لله وهذه لغير الله

---

[١] البينة: ٥.

على ما انطوت عليه الجوارح الباطنة وهي النية وقد قال الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس رحمه الله تعالى: ألا ترى أن الساجد لله تعالى والساجد للصنم في صورة واحدة وإنما كانت هذه عبادة وهذه كفراً بالنية. فينبغي أن يكون المؤمن محافظاً على نيته ابتداء فإذا أراد أن يزيد في عمله ينظر. أولاً في نيته فيحسنها؛ فإن كانت حسنة فينميها، وإن أمكن تنميتها.

وما افترق الناس في غالب أحوالهم إلا من هذا الباب لأن الغالب على بعضهم تقارب أفعالهم ثم إنهم يفترقون في الخيرات والبركات بحسب مقاصدهم وتنمية أفعالهم.

مثال ذلك: ثلاث رجال يخرجون إلى الصلاة أحدهم يخرج وينظر إن كانت له حاجة لنفسه أو لبيته قضاها في طريقه وهو ساه عن نية التقرب بذلك إلى الله تعالى فهذا له أجر الصلاة ليس إلا والخطا التي استعملها للمسجد قد ذهبت لقوله عليه الصلاة والسلام:

«إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة».

خرجه أبو داود وفي البخاري ومسلم «لم ويخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئه».

فشرط عليه الصلاة والسلام في حصول هذا الأجر أنه لا يريد إلا الصلاة وهذا المذكور قد أراد غيرها بالحاجة التي نوى قضاءها.

والثاني خرج إلى الصلاة ليس إلا، ولم يخلط مع هذه النية غيرها فهذا أعظم أجراً من الأول لأنه حصل بركة الخطأ إلى المسجد على ما أخبر به صاحب الشريعة صلوات الله عليه وسلامه.

والثالث خرج بما خرج به الثاني لكنه حين خروجه نظر في نيته إن كان يمكن تنميتها أم لا فوجد ذلك ممكناً متحصلا ففعله فخرج وله من الأجور ما لا يعلمه إلا الله الذي من عليه بذلك.

فإذا كان الأمر كذلك فلا يقتصر على الخروج إلى المسجد ليس إلا؛ بل ذلك في كل الأفعال دقيقها وجليلها كبيرها وصغيرها مهما أمكن تنميتها فعل ذلك فيحصل به الخير العظيم والسعادة العظمى مع راحة

البدن من التعب وغيره؛ لكن ذلك بشرط يشترط فيه وهو أن يكون مهما ظفر بشيء مما نواه وهو يقدر على فعله من غير كراهية للشرع في فعله فليبادر إليه، والحذر الحذر من تركه لأنه إذا تركه وهو قادر عليه كان الأولى به والأفضل ترك النية فيه لأنه إذا نواه وقدر عليه ولم يفعله دخل إذ ذاك في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)[١].

فتكون نيته تحصله فى هذا المقت والعياذ بالله تعالى. وإنما تنمى هذه يتركوه فيحصل لهم أجر النية والعمل، وما لم يحصل حصل لهم أجر النية. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أوقع الله أجره على قدر نيته» انتهى.

فلا يزالون في خير دائم وأجور متزايدة بخلاف غيرهم فإنه قد يسهو حين الفعل أو يفعله بنية فاسدة، أو بفعله وله فيه حسنة واحدة.

كتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما: اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية فمن ثبتت نيته تم عون الله له، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك.

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه: أخلص النية في أعمالك يكفك قليل العمل. وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم: من لم يهتد إلى النية بنفسه فليصحب من يعلمه حسن النية. وقد قال الإمام المحقق يمن بن رزق رحمه الله تعالى: نظرت في هذا الأمر فلم يأتنا إلا من قبل الغفلة عن النية لأني نظرت فوجدت الإنسان لا يخلو من أحد أمرين إما حركة وإما سكون وكلاهما عمل.أهـ. كلامه بالمعنى فإن تحرك الإنسان أو سكن ساهياً أو غافلاً كان ذلك عملاً عارياً عن النية فيخرج أن يكون عملاً شرعياً للحديث المتقدم «إنما الأعمال بالنيات».

فإذا تقرر هذا وعلم تحصل منه أن أعظم الناس منزلة وأكثرهم خيراً وبركة الواقف مع نيته في حركته وسكونه. وبهذا المعنى وقع الفرق بيننا وبين سلفنا وخيار من تقدمنا رضوان الله عليهم لتحسين نياتهم وتحريرها

---

[١] الصف: ٢ ، ٣.

فكانت حركاتهم وسكناتهم كلها عبادة.

ونحن اليوم إنما العبادة عندنا ما كان من الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وهي أصول الدين المعروفة وهذه إنما هي عند الموفقين منا أعني المحافظين على هذه الأفعال المذكورة بواجبها ومندوبها.

وبقي ما عدا هذه الأفعال عندنا على أقسام؛ فمنا من يفعلها للدنيا، ومنا من يفعلها راحة، ومنا من يفعلها غفلة ونسياناً؛ إلى غير ذلك من الأمور العارضة لنا في تصرفنا فبان الفرق بيننا وبين سلفنا.

حكى القشيري رحمه الله تعالى التحبير له قال: قيل إن رجلاً من الصالحين رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ورفع درجاتي. فقيل له بما ذا؟ فقال له: ههنا يعاملون بالجود لا بالركوع والسجود، ويعطون بالنية لا بالخدمة، ويغفرون بالفضل لا بالفعل.

سمعت سيدي أبا محمد رحمه الله يقول وقع قحط بإفريقية، واحتاج الناس إلى الاستسقاء فأرسل بعض الأكابر إلى أخ له في الله يسأله أن يخرج مع الناس إلى الاستسقاء فجاء الرسول إلى الشيخ فلم يجده في بيته فسأل عنه فقيل هو في أرضه يعمل فقعد ينتظره إلى أن جاء عشية ومعه البقر وآلة الحرث؛ فسلم عليه الرسول، وبلغ إليه ما جاء بسببه فسكت عنه ولم يعطه جواباً. فبقي عنده ثلاثة أيام منتظراً رد الجواب فلم يجبه؛ فأراد أن يرجع إلى الذي أرسله، فخرج ومر على الشيخ وهو يعمل في أرضه فقال له: يا سيدي ما أرد لسيدي فلان في الجواب؟ فقال له: لو علمت أنه يخرج مني نفس لغير الله لقتلت نفسي.

فمن يراه يتسبب ويعمل في الأرض يظن أنه طالب دنيا أو مبتغ لها وهو على هذا الحال ولا شك أنه في هذا مع غيره في الصورة واحد وهو لا يخرج منه نفس على ما ذكر إلا لله تعالى فافترق العملان بما احتوى عليه القلب وهي النية وكيفيتها.

حكى صاحب القوت عن بعضهم أنه كان مع شيخه عشية عرفة بالعراق في أرض له يزرع وإذا برجل يمر كالسحاب فوقف مع الشيخ يتحدث معه ساعة والشيخ يقول: لا أقدر. ثم مضى فسألته من هذا الرجل؟ فقا هذا بدل الإقليم الفلاني فقلت له: وما طلب منك حتى امتنعت من فعله؟

فقال: طلب مني أن أقف معه الليلة بعرفة. فقلت له: يا سيدي وما منعك من ذلك؟ فقال لي: كنت نويت زراعة تلك البقعة الليلة. فانظر كيف ترك الوقوف بعرفة لأجل زرع تلك البقعة فلو كانت زراعتها عنده لأمر مباح لتركها ولكن لما كانت النية فيها صالحة بحسب ما نوى لم يقدر أن يتركه لئلا يدخل في قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وفي قوله تعالى(ولا تبطلوا اعمالكم).

وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على الله تعالى.

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُم خَافِيَةٌ)[١]اهـ.

ومن محاسبة النفس تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم بأن يجعله أصلاً ومتبوعاً لا فرعاً تابعاً.

وقد قال الشيخ الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب «الأربعين» في أصول الدين: والنية والعمل بهما تمام العبادة فالنية أحد جزئي العبادة لكنها خير الجزئين لأن الأعمال بالجوارح ليست مرادة إلا لتأثيرها في القلب ليميل إلى الخير وينفر عن الشر فليس المقصود من وضع الجبهة على الأرض وضع الجبهة بل خضوع القلب لأن القلب يتأثر بأعمال الجوارح، وليس المقصود من الزكاة إزالة الملك بل إزالة رذيلة البخل؛ وهو قطع علاقة القلب من المال ثم قال: فاجتهد أن تكثر من النية في جميع أعمالك حتى تنوي لعمل واحد نيات كثيرة ولو صدقت رغبتك لهديت لطريقه ويكفيك مثال واحد وهو أن الدخول إلى المسجد والقعود فيه عبادة ويمكن أن يكون فيه سبعة أمور:

أولها: أن يعتقد أنه بيت الله عز وجل وأن داخله زائر الله تعالى فينوي ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره».

وثانيها: المرابطة لقوله تعالى:

---

(١) الحاقة: ١٨.

(اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا)[١].

قيل معناها انتظروا الصلاة بعد الصلاة.

وثالثها: الاعتكاف ومعناه كف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات المعتادة؛ فإنه نوع صوم قال صلى اللّٰه عليه وسلم: «رهبانية أمتي القعود في المساجد».

ورابعها: الخلوة ودفع الشواغل للزوم السر والفكر في الآخرة وكيفية الاستعداد لها.

وخامسها: التجرد للذكر وإسماعه واستماعه لقوله صلى اللّٰه عليه وسلم: «من غدا إلى المسجد يذكر اللّٰه تعالى ويذكر به كان كالمجاهد في سبيل اللّٰه تعالى».

وسادسها: أن يقصد إفادة علم وتنبيه من يسيء الصلاة ونهياً عن منكر وأمر بمعروف حتى ينتشر بسببه خيرات كثيرة ويكون شريكاً فيها.

وسابعها: أن يترك الذنوب حياء من اللّٰه عز وجل بأن يحسن نيته في نفسه في قوله وعمله حتى يستحيي منه من رآه أن يقارف ذنباً.

وقس على هذا سائر الأعمال فباجتماع هذه النيات تزكوا الأعمال وتلتحق بأعمال المقربين كما أنه بنقصها تلتحق بأعمال الشياطين كمن يقصد من القعود في المسجد التحدث بالباطل والتفكه بأعراض الناس ومجالسة إخوان اللهو، واللعب وملاحظة من يجتاز به من النسوان والصبيان، ومناظرة من ينازعه من الأقران على سبيل المباهات والمراءات باقتناص قلوب المستمعين لكلامه وما يجري مجراه وكذلك لا ينبغي أن يغفل في المباحات عن حسن النية.

ففي الخبر أن العبد يسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينه وعن فتات الطيب بإصبعيه، وعن لمس ثوب أخيه؛ فمثال النية في المباحات أن من يتطيب يوم الجمعة يمكنه أن يقصد التنعيم بلذته، والتفاخر بإظهار ثروته، والتزويق للنساء وأخدان الفساد، ويتصور أن ينوي اتباع السنة وتعظيم بيت اللّٰه تعالى، واحترام يوم الجمعة ودفع الأذى عن غيره بدفع الرائحة الكريهة وإيصال الراحة إليهم بالرائحة الطيبة وحسم باب

---

[١] آل عمران: ٢٠٠.

الغيبة إذا شموا منه رائحة كريهة.

وإلى الفريقين الإشارة بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم:

«من تطيب في الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة». انتهى

وقد نقل الشيخ ابن عبد السلام رحمه الله تعالى إجماع العلماء على محاسبة النفس فالمحاسبة حبس الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات. يبين هذا ويوضحه قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما قيل له ولو قيل لك إنك تموت الآن بماذا كنت تحترف؟ احترف لأهلي بالسوق. ومعلوم بالضرورة القطيعة أنه لا يريد أن يموت إلا على أكمل الحالات فلما أن اختار الموت في هذه الساعة التي يكون فيها في السوق علم عند ذلك مقاصدهم بالسوق ما كانت ولأي شيء كانوا يخرجون إليها وهل هم معرضون في تلك الحال أو حاضرون في العبادة والخير وقد قال رضي الله عنه: إني لأنكح النساء وما لي إليهن حاجة، واطأهن وما لي إليهن شهوة. قيل: ولم ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يخرج الله من ظهري من يكاثر به محمد صلى الله عليه وسلم الأمم يوم القيامة.

فهذا أعظم ملذوذات الدنيا رجع مجرداً للآخرة يتقربون به إلى ربهم فما بالك بما هو أقل منه لذة وشهوة. فسبحان من من عليهم وسقاهم بكأس نبيهم صلى الله عليه وسلم.

ونحن اليوم قد أخذنا في الضد من أحوالهم هذه أحوال دنياهم يتقربون بها إلى ربهم ونحن اليوم قد أخذنا أعظم ما يعمل للآخرة ورددناه إلى الدنيا ولأسبابها. بيان ذلك ما ورد في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام حيث قال: «ما أعمال البر في الجهاد إلا كبصقة في بحر، وما أعمال البر والجهاد في طلب العلم إلا كبصقة في بحر»

فتبين من هذا الحديث أن أعظم أعمال الآخرة إنما هو طلب العلم ولا يخفى على ذي بصيرة أن الغالب من ذلك راجع إلى الدنيا صرفاً. يقعد أحدنا يتعلم العلم ويبحث فيه ثم يطلب ما هو معلوم في الوقت من طلب المناصب به والرياسات ومحبة الظهور والرفعة به على أبناء جنسه،

ومحبة الخطوة وعند الأمراء والسلاطين والعلماء والعوام؛ إن سلم عن اداء العضال وهو التردد إلى أبوابهم؛ وإهانة هذا المنصب الشرعي العظيم بالوقوف به على أبواب الظلمة ومعاينة ما العلم الذي عنده يحرمه ويأمر بتغييره.

قال اللّٰه تعالى: (شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ والمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)[١].

فجعل العلماء في ثاني درجة من ملائكته وفي ثالث مرتبة منه سبحانه وتعالى أعني في الشهادة. فانظر إلى هذا المنصب العظيم والسعادة العظيمة كيف وقع ونزل به هذا الناقد المسكين المتشبه بالعلماء الدخيل فيهم. تسمى باسم لم يستحقه؛ فنزل به إلى أسفل سافلين. لكن العلم والحمد للّٰه لم ينزل وإنما نزل نفسه وبخسها حظها لكونه لم يتصف بالعلم الذي من عليه به. ترك علمه على رأس حجة عليه يوبخه بين يدي ربه ويكون سبباً لإهلاكه.

يبين ذلك ويوضحه الأحاديث الواردة عنه صلوات اللّٰه عليه وسلامه فمنها ما ذكره الشيخ أبو عبد اللّٰه القرطبي رحمه اللّٰه في كتاب التفسير له قال:

روي مسلم عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال: سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول:

«إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت. ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء فقد قيل. ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه الله من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل

[١] آل عمران: ١٨.

تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال فلان جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»

وقال الترمذي: في هذا الحديث ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي وقال:«يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» قال ابن عبد البر وهذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه وعمله وجه الله تعالى.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» وخرج ابن المبارك في رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل في سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتي أقوام يقرؤون القرآن فاذا قرءوه قالوا: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال: هل ترون في أولئك من خير قالوا: لا. قال: أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار».

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها». قال الترمذي حديث حسن.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعوذوا بالله من جب الحزن. قالوا: يارسول الله، وما جب الحزن؟ قال: واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة. قالوا: يارسول الله، ومن يدخله؟ قال: القراء المراؤون بأعمالهم». قال هذا حديث غريب.

وفي كتاب أسد بن موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال«إن في جهنم لوادياً إن جهنم لتتعوذ من شر ذلك الوادي كل يوم سبع مرات وإن في ذلك الوادي لجباً إن جهنم وذلك الوادي ليتعوذان بالله من شر ذلك الجب. وإن في الجب لحية إن جهنم والوادي والجب ليتعوذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات أعدها الله تعالى للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله تعالى» أهـ نقله القرطبي رحمه الله.

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة فانظر إلى ذلك المنصب العظيم والرتبة العليا كيف رجعت في حق هذا القارئ المسكين بهذا الوعيد العظيم والمسكنة العظمى بسبب ما ذكر من حب الرياسات والمناصب والمفاخرة. اسأل

الله تعالى السلامة بعد أن كان في أعلى عليين رجع إلى أسفل سافلين.

ولهذا المعنى كان سيدي أبو محمد رحمه الله تعالى إذا ذكر له واحد من علماء وقته ممن ينسب إلى طرف مما ذكر ويثني عليه إذ ذاك بفضيلة العلم يقول: ناقل ناقل خوفاً منه رحمه الله على منصب العلم أن ينسب إلى غير أهله، وخوفاً من أن يكون ذلك كذباً أيضاً لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة، وإنما هو صانع من الصناع كالخياط والحداد والقصار؛ هذا إذا كان نقله على وجهه في الصحة والأمانة وإلا كان دجالا فيستعاذ بالله منه؛ لأن العلم ليس هو النقل ليس إلا وإنما العلم ما قاله مالك رحمه الله: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما العلم نور يقذفه الله تعالى في القلوب.

ومن كتاب سير السلف للحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني رحمه الله قال إبراهيم الخواص رحمه الله: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم لمن اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم.أهـ.

يبين هذا ويوضحه ما ذكره الشيخ أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره عن أبي بكر الأنباري بإسناده عن خلف بن هشام البزار يقول: ما أظن القرآن إلا عارية في أيدينا وذلك أنا روينا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفظ سورة البقرة في بضع عشرة سنة فلما حفظها نحر جزوراً شكراً لله تعالى وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يدي المعلم فيقرأ ثلث القرآن لا يسقط منه حرفا فما أحسب القرآن إلا عارية في أيدينا.

وقال أهل العلم بالحديث: لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه دون معرفته وفهمه فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل.

وقال معاذ بن جبل: اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله تعالى بعلمه حتى تعملوا.

قال ابن عبد البر: وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل قول معاذ وفيه زيادة أن العلماء مهمتهم الرعاية وأن السفهاء همتهم الرواية.اهـ. نقله القرطبي رحمه الله تعالى.

فهذه الآثار والأحاديث كلها تبين وتوضح مراد الإمام مالك رحمه الله لأن من قذف الله في قلبه نوراً كان بعيداً من كل ما ذكر من الأوصاف المذمومة قد حصلت له الرتبة العليا المذكورة هنيئاً له فمن لم يحصل له طرف من ذلك النور بقي إما دجالاً أو لصاً يكيد الدين وأهله نعوذ بالله من شره قال الله سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ)[١].

وهذا البحث كله إنما هو إذا سلم طالب العلم من عوض يأخذه عليه مما هو معلوم في الوقت فإن كان ثم معلوم يطلبه على علمه فقد زاد ذماً على مذمومات تقدم ذكرها. ولو وقف أمرنا على هذا لكان ذلك رحمة بنا لأنه إذا علم المرء بهذه القاعدة الفاسدة التي احتوى عليها علمه يرجى له أنه مهما قدر على الترك بادر إليه وتاب وأقلع ورجع إلى الأعلى والأكمل لكنا لم نقف عند هذا الحد بل زدنا عليه الداء المضر الذي لا يمكن معه توبة ولا استغفار وهو أنا نرى أنفسنا في طاعة وخير وأن وقوفنا على أبواب من تقدم ذكرهم من باب ما يجب أو يستحب بحسب ما سولت لنا أنفسنا وزين لنا الشيطان. فأي توبة تحدث مع هذا الحال وأي إقالة تقع لأن التوبة إنما ترجى لمن يرى نفسه أنه في غير طاعة وأما الطاعة فلا يتوب أحد منها.

وقد قال صاحب الأنوار رحمه الله تعالى لما تكلم في وقته على شيء ظهر له أقل من هذا: إنا لله وإنا إليه راجعون على موت الأخيار والبقاء مع قوم لا يستحيون من فضيحة ولا عار.أهـ.

وكذلك أيضاً ما نأخذه على العلم من المعلوم نقول فيه إنه إعانة على طلب العلم والعلم في نفس طلبه إنما هو لله وهذا كله خطر عظيم أسأل الله السلامة بمنه ولو قطع عنا ما نأخذه من المعلوم وبقينا على طلب العلم لا نبرح ولا نفتر عما كنا بصدده لكانت دعوانا صحيحة.

ولكن ننظر إلى أنفسنا فنجد الواحد منا إذا قطع عنه المعلوم سخط إذ ذاك ويقول: إذا كان مبتدياً: كيف يقطع عني وأنا قد قرأت الكتاب الفلاني، وحفظت كذا بل لا نحتاج في هذا إلى قطع المعلوم. بل هو

---

[١] النور: ٤٠.

موجود فينا مع وجود المعلوم. تجد الطالب منا يقول: كيف يأخذ فلان كذا وأنا أكثر بحثاً منه، وأكثر فهماً، وأكثر حفظاً للكتب، وأكثر نقلاً إلى غير ذلك من الأمور العارضة لنا الظاهرة للصغير والكبير منا.

بل إذا أراد الطالب في أول أمره أن يبتدئ القراءة يبتدئها بهذا السم إن كان هو الطالب بنفسه وإن كان وليه فكذلك فيدخل أولاً بنية أن ينشط في العلم ويظهر حتى يحصل له من العلوم كفايته، وحتى يحصل عدالته أو غير ذلك من المناصب التي نحن عاملون عليها فكيف يكون هذا العلم لله مع هذا الحال.

وإن كان منتهياً تجد بينه وبين نظائره التنافس على مناصب التدريس، والسعي فيه إلى أبواب من تقدم ذكرهم والتدريس بالمعلوم في الغالب لا يحصل إلا بالوقوف على أبواب هؤلاء ومباشرتهم فكيف يكون معه طرف من النور وذلك بعيد جداً ثم إذا قطع المعلوم تسخط إذ ذاك ويقول أي فائدة لقعودي.

ويبطلون المواضع من الدروس حتى يأتي المعلوم فإذا أتى المعلوم وجدتنا نتسابق إلى تلك المواضع ونهرع إليها فصار حالنا كما قال يمن بن رزق رحمه الله تعالى: فأصبحنا نذم الدنيا بالألسن ونجرها إلينا بالأيادي والأرجل. أسأل الله السلامة من هذا الأمر العظيم.

هذا هو حال السالم من النية السوء اليوم في هذا الأصل وهذا إنما هو تمثيل في المعنى وإلا فأفعالنا الغالب عليها هذا المعنى.

ألا ترى إلى ما جاء في فضل الأذان وما فيه وفي فضل الإمامة وما فيها!. والغالب على أحوالنا اليوم إن كان المسجد له معلوم حينئذ يعمر بالأذان والإقامة في بعض الأوقات دون بعض وإن لم يكن له معلوم ترك مغلقاً حتى يخرب فيتسلط عليه من لا خير فيه بالهدم والبيع.

فانظر بعين البصيرة وميز بين هذين الحالين حال سلفنا في أمور دنياهم وحالنا في الأمور المذكورة التي هي للآخرة تجد إذ ذاك الفرق الذي لا يخفى على من يعرف أن الاثنين أكثر من الواحد وقس على هذا، وانظر بنظرك أي شبه بيننا وبين سلفنا رضي الله عنهم. أخذنا والله في الضد عما كانوا عليه في أكثر الأحوال فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فإذا تقرر هذا وعلم من أحوالنا وأحوال من تقدمنا فلا شك أن البقاء في هذا سخف في العقل وحرمان بين فيحتاج من له لب أن يرجع إلى الله تعالى ويتوب من هذه الأحوال الرديئة وينظر بعين العلم فيها ويصلحها قبل أن يدركه الموت ولا يظن ظان أن صلاحها لا يكون إلا بتركها بل يكون بتركها أو بالإقامة فيها.

هذا راجع إلى أحوال الناس فرب شخص لا ينظفه إلا الترك وآخر لا يحتاج إلى الترك بل يبدل النية ويحسنها ويستقيم حاله على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند أخذ الدرس في المدارس فيلتمس هناك إن شاء الله تعالى ولا يقع الفرق بينهما أعني من هو الأصلح له الترك أو غيره إلا لصاحب الواقعة أو من يباشره بعين البصيرة والتمييز.

فالحاصل من هذا كله أن الفرق الذي وقع بيننا وبين سلفنا في غالب أحوالنا إنما هو من أجل هذه النية التي احتوت عليها سويداء القلوب إذ أنا نصلي كما كانوا يصلون، ونصوم كما كانوا يصومون، ونحج كما كانوا يحجون، وافترقنا لأجل افتراق النيات فبعضنا يكون افتراقه كثيراً، وبعضنا يكون افتراقه قليلاً بحسب الأحوال. فمن له عقل ينبغي له أو يجب عليه بحسب حاله إن أصلح ما وقع من الخلل في نفسه بنفسه فيحسن نيته ويزيل عنها الشوائب ثم ينميها ما استطاع جهده ويلجأ في ذلك كله إلى مولاه ويستغيث به لعله يمن عليه ويلحقه بسلفه وكيفية المأخذ في ذلك قريب إن شاء الله تعالى.

فصل
في كيفية محاولة الأعمال كلها أن ترجع إلى الوجوب أو إلى الندب

قد تقرر في الشرع عنه صلى الله عليه وسلم إخباراً عن ربه عز وجل يقول «لن يتقرب إلي المتقربون بأحب من أداء ما افترضته عليهم ثم لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها».

قال علماؤنا رحمة الله عليهم معناه أنه يبقى تصرفه كله لله تعالى لا لغيره فإن تكلم تكلم لله، وإن سكت سكت لله، وإن نظر نظر لله، وإن غض طرفه غضه لله، وإن بطش بطش لله إلى غير ذلك من حركاته وسكناته.

و،قد كان سيدي محمد المرجاني رحمه الله تعالى يقول: إن الفقير حاله بين الياء والألف يعني أن حركاته وسكناته خالصة لربه قائما فيها إذ أنه لا يدعي لنفسه شيئاً فهو به وإليه. وعلى هذا المعنى حمل المحققون منهم قول الحلاج رحمه الله ونفع به لما قيل له أين الله؟ قال: في الجبة يعني أنه لم يبق في الجبة التي عليه لنفسه تصرف وإنما التصرف كله لله وبالله على مقتضى ما في هذا الحديث الذي نحن بسبيله فأفتى من يشار إليه في وقته من العلماء والصالحين بقتله تحفظا منهم على منصب الشريعة أن يتعرض له غير محقق فيدعي شيئاً من تلك الأمور ويجعل قدوته في ذلك الحلاج رضي الله عنه أعاد الله علينا من بركاتهم بمحمد وآله.

وهذا الذي ذكره هو حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تخلقوا بأخلاق الله» قال الشيخ أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه، وتركه ما يعنيه.

وقد قالوا: إن الذكر على قسمين: ذكر باللسان، وذكر بالقلب؛ وهو ما يحتوي عليه من النيات ومن الوقوف مع الأمر والنهي. ونقل عن حسان ابن أبي سنان أنه قال ذات يوم: لمن هذه الدار؟ ثم رجع إلى نفسه فقال:

ما لي ولهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لا تعنيني. فآلى على نفسه أن يصوم سنة كاملة كفارة لهذه الكلمة. وسبب هذا الواقع منه وقوفه مع نيته والنظر فيها وتحريرها والاهتمام بها.

فإذا تقرر أنه لن يتقرب المتقربون بأعظم من أداء الفرائض فينبغي لمن له لب إن قدر أن يعمل الشيء على جهة الفرض كان أولى به إذ أن ذلك أقرب إلى ربه من غيره فينظر أولاً في الفعل الذي يريد أن يفعله.

والأفعال بالنسبة إلى أحكام الشرع خمسة: واجب، ومندوب، ومباح، ومكروه، ومحرم. فالحرام قد ترك والحمد لله فلا سبيل إلى فعله لأنه قد حرم. والمكروه ما كان في تركه أجر لا ينبغي فعله لأن في فعله ترك الأجر وذلك لا يمكن لأن المؤمن ينبغي أن يكون في دينه نهاباً كما قال بعضهم الليل والنهار ينهبان فيك فانهب فيهما فهو ينهب في الأعمال يفترسها كالأسد على فريسته يغتنمها ويحصلها لأن اليوم الذي مضى عنه لا يرجع إليه أبداً وهو شاهد عليه يوم الحشر والنشر وإذا كان كذلك فلا يمكنه فعله لأجل ترك الأجر فيه. ولما جاء في الحديث عنه صلوات الله عليه وسلامه قال:

«إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الحرام كالراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»

وأما على مذهب أهل الطريق فالمكروه عندهم كالمحرم لا سبيل إلى ذكره فضلاً عن فعله ومن العتبية قال: وسمعته يذكر أن رجلا من الحكماء قال: ما كنت لاعباً لابد أن تلعب به فلا تلعبن بدينك. قال ابن رشد رحمه الله: المعنى في هذا أنه لا ينبغي لأحد أن يسامح أحداً في شيء من دينه وإن لم يكن في مسامحته فيه إثم وإن سامحه في ماله أو في عرضه.

وذلك مثل أن يصبح الرجل صائماً متطوعاً فيدعوه إلى الفطر من صنيع يصنعه. فقد قال مطرف: إنه إن حلف عليه بالطلاق أو بالعتق

ليفطرن فليحنثه ولا يفطر، وإن حلف هو فليكَفِّر ولا يفطر، وإن عزم عليه والداه أو أحدهما في الفطر فليطعهما ولم يحلفا عليه إذا كان ذلك رقة منهما عليه لاستدامة صومه انتهى.

فبقيت الأفعال ثلاثة: واجب، ومندوب، فإذا تقرر ذلك نظرنا إلى المباح فوجدناه والحمد لله ينتقل إلى الندب على ما سيأتي بيانه في أثناء الكلام إن شاء الله تعالى. فبقيت الأفعال فعلين: واجب، ومندوب ليس إلا وقد تقرر أن الواجب أعظم أجراً؛ فإذا تقرر ذلك نظرنا إلى المندوب هل يمكن نقله إلى الواجب أم لا فوجدناه ينتقل إلى أكثر الأعمال والحمد لله على ما سيأتي إن شاء الله تعالى؛ فبقي التصرف في فعل واحد وهو الواجب أعني في غالب الحال والمندوب في وقت دون وقت.

فصل

وقد روي كما في مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه (ج٢٨ ص٢٣-٢٥) أنه قال:

وجماع الدين شيئان:

أحدهما: أن لا نعبد إلا الله تعالى.

والثاني: أن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع، كما قال تعالى: (لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً)[١].

قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه. قيل له: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة.

وكان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وهذا هو دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، وهو الاستسلام لله وحده. فمن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، وقد قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[٢]، ومن استسلم لله ولغيره كان مشركاً" فقد قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ)[٣]، ولهذا كان لله حق لا يشركه فيه أحد من المخلوقين، فلا يعبد إلا الله ولا يخاف إلا الله، ولا يتقي إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يدعى إلا الله، كما قال تعالى: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ* وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)[٤]، وقال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ)[٥]، وقال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ

---

[١] الملك: ٢.

[٢] غافر: ٦٠.

[٣] النساء: ٤٨و١١٦.

[٤] الشرح: ٧ . ٨.

[٥] الإسراء: ٢٣.

هُمُ الفَائِزُونَ)[١]. فالطاعة لله ورسوله، والخشية والتقوى لله وحده، وقال تعالى: (ولَوْ أنَّهم رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ورَسُولُه وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ورَسُولُه-إنَّا إلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)[٢]، فالرغبة إلى الله وحده والتحسب بالله وحده. وأما الإيتاء فلله والرسول كما قال تعالى: (ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا)[٣].

فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه، فليس لأحد من المشايخ والملوك والعلماء والأمراء والمعلمين وسائر الخلق خروج عن ذلك، بل على جميع الخلق أن يدينوا بدين الإسلام الذي بعث الله به رسله، ويدخلوا به كلهم في دين خاتم الرسل وسيد ولد آدم وإمام المتقين خير الخلق وأكرمهم على الله محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً.

وكل من أمر بأمر كائناً من كان عرض على الكتاب والسنة، فإن وافق ذلك قبل وإلا رد، كما جاء في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أي: فهو مردود.

فإذا كان المشايخ والعلماء في أحوالهم وأقوالهم: المعروف والمنكر، والهدى والضلال، والرشاد والغنى، وعليهم أن يردوا ذلك إلى الله والرسول، فيقبلوا ما قبله الله ورسوله، ويردوا ما رده الله ورسوله: فكيف بالمعلمين وأمثالهم؟ وقد قال الله تعالى:

وقال: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمْرِ مِنْكُم فَإن تَنَازَعتُم فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والرَّسُولِ إن كُنتُم تُؤمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيرٌ وأحسَنُ تَأوِيلاً)[٤]، وقد قال تعالى: (كَانَ

---

[١] النور: ٥٢.
[٢] التوبة: ٥٩.
[٣] الحشر: ٧.
[٤] النساء: ٥٩.

النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُم، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [١].

فنسأل الله تعالى أن يهدينا وسائر إخواننا إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. والله سبحانه أعلم.

---

[١] البقرة: ٢١٣.

فصلٌ

قال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه اللّٰه تعالى في مدارج السالكين ج٢ ص٩٣-١٠١:

(منزلة الإخلاص):

ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة (الإخلاص).

قال اللّٰه تعالى: (وما أُمروا إلا ليَعبُدُوا اللّٰه مُخلصينَ لهُ الدِّينَ)[١]وقال: (إِنّا أنزلنا إِليكَ الكتابَ بالحَقِّ فَاعبُدِ اللّٰهَ مُخلصاً لَهُ الدينَ. أَلا للّٰهِ الدينُ الخَالصُ)[٢]وقال لنبيه صلى اللّٰه عليه وسلم: (قلِ اللّٰهَ أعبُدُ مخلِصاً له ديني، فاعبُدُوا ما شئتم من دُونه)[٣]وقال له: (قل إن صلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي للّٰه ربِّ العَالَمينَ. لا شَريكَ لَهُ. وبذَلك أمرتُ وأَنَا أولُ المسلمينَ)[٤] وقال: (الذي خلقَ المَوتَ والحَياةَ ليبلوكَم أَيُّكُم أحسنُ عمَلاً)[٥].

قال الفضيل ابن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصا صواباً، والخالص: أن يكون للّٰه، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى:

(فَمَن كَانَ يرجُو لِقَاءَ ربِّه فَلْيَعمَل عَمَلاً صَالحاً. ولا يُشْرك بعبَادَة رَبِّه أحَداً)[٦]وقال تعالى: (وَمَن أحسَنُ ديناً مِمَن أسلَمَ وَجهَهُ للّٰه وهُوَ مُحْسِن؟)[٧].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل للّٰه. والإحسان فيه: متابعة رسوله صلى اللّٰه عليه وسلم وسنته. وقال تعالى:

(وقَدِمْنَا إلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)[٨].

---

[١] سورة البينة الآية: ٥.
[٢] سورة الزمر الآية: ٢-٣.
[٣] سورة الزمر الآية: ١٤-١٥.
[٤] سورة الأنعام الآية: ١٦٢،١٦٣.
[٥] سورة الملك الآية: ٢.
[٦] سورة الكهف الآية: ١١٠.
[٧] سورة النساء الآية: ١٢٥.
[٨] سورة الفرقان الآية: ٢٣.

وهي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله.
قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إنك لن تُخلَّف، فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى: إلا ازددت به خيراً، ودرجة ورفعة» وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» أي لا يبقى فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله. وتنقيه منه. وتخرجه عنه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلاً. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

و«سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة، ويقاتل حمية: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء».

وفي أثر آخر: يقول له يوم القيامة: «اذهب فخذ أجرك ممن عملت له. لا أجر لك عندنا».

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم».

وقال تعالى: (لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها، ولكن ينالُهُ التقوى منكُم)[١].

---

[١] سورة الحج: ٣٧.

وفي أثر مروي إلهي «الإخلاص: سر من سري، استودعته قلب من أحببته من عبادي».

وقد تنوعت عباراتهم في «الإخلاص» و«الصدق» والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. و«الصدق» التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ولا الصدق إلا بالإخلاص. ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: من شهد في إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه إلى إخلاص. فنقصان كل مخلص في إخلاصه: بقدر رؤية إخلاصه. فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص، صار مخلِصاً مخلَصاً.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء: أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد. لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده. ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل: أي شيء أسد على النفس؟ فقال: الإخلاص. لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازيا سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص. وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي. فكأنه ينبت على لون آخر.

وقال أبو سليمان الداراني. إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

(تعريف الإخلاص):

قال صاحب المنازل:

«الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب».

أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائناً ما كان.

(درجات الإخلاص):

قال: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: إخراج رؤية العمل عن العمل. والخلاص من طلب بالعمل».

يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته، وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به، وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية. فالذي يخلصه من رؤية عمله: مشاهدته لمنة الله عليه، وفضله وتوفيقه له. وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى:
(وَمَا تَشَاؤُونَ إلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ)[١].

فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنه آلة محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواه، وأنه ميت - والميت لا يفعل شيئاً - وأنه لو خلي ونفسه لم يكن من فعله اصلالح شيء ألبتة. فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة. وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء. وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الذي يصدر منها: إنما هو من الله، وبه. لا من العبد، ولا به كما قال تعالى:

---

[١] سورة التكوير الآية: ٢٩.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[١]. وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾[٢]. وقال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[٣]وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾الآية[٤].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته. وهو المحمود عليه. فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة، كرؤيته لصفاته الخلقية: من سمعه وبصره، وإدراكه وقوته. بل من صحته، وسلامة أعضائه، ونحو ذلك. فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله.

فالذي يخلص العبد من هذه الآفة: معرفة ربه، ومعرفة نفسه.

والذي يخلصه من طلب العوض على العمل: علمه بأنه عبد محض. والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة. إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته. فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه، وإحسانه إليه، وإنعام عليه، لا معاوضة. إذ الأجرة إنما يستحقها الحر، أو عبد الغير. فأما عبد نفسه فلا.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان. فقل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب، وإن قل. وللنفس فيه حظ. سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد».

فإذا كان هذا التفات طرفة أو لحظة. فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

---

[١] سورة النور الآية: ٢١.

[٢] سورة الأعراف الآية: ٤٣.

[٣] سورة الإسراء الآية: ٧٤.

[٤] سورة الحجرات الآية: ٧.

وقال ابن مسعود: «لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه: أن لا ينصرف إلا عن يمينه» فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد. فما الظن بما فوقه؟.

وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله: من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين. ويستحيي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله: يحول بينه وبين الرضى بعمله، والرضى عن نفسه.

وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة[١]، ثم يقبض على لحيته ويهزها، ويقول لنفسه: يا مأوى كل سوء؛ وهل رضيتك لله طرفة عين؟

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه. ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها. ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

قال صاحب المنازل:

«الدرجة الثانية: الخجل من العمل، مع بذل المجهود. وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود».

وهذه ثلاثة أمور: «خجله» من عمله. وهو شدة حيائه من الله. إذ لم ير ذلك العمل صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى:

(والَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا أَتَوا وقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ؛ إنَّهُم إلى رَبِّهِم رَاجِعُونَ)[٢].

[١] سورة المؤمنون الآية: ٦٠.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه».

وقال بعضهم: إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني، الذي يراه الناس، حياء من الله عز وجل.

فالمؤمن: جمع إحساناً في مخافة، وسوء ظن بنفسه. والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

الثاني: توفير الجهد باحتمائه من الشهود، أي يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل، محتمياً عن شهوده منك وبك.

الثالث: أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد. فترى في ضوء ذلك النور: أن عملك من عين جوده لا بك، ولا منك.

فقد اشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء: عمل، واجتهاد فيه، وخجل، وحياء من الله عز وجل، وصيانة عن شهوده منك، ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنّه.

قال: «الدرجة الثالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل، تدعه يسير سير العلم. وتسير أنت مشاهداً للحكم، حراً من رق الرسم».

وقد فسر الشيخ مراده بإخلاص العمل من العمل بقوله: «تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهداً للحكم».

ومعنى كلامه: أنك تجعل عملك تابعاً للعلم، موافقاً له، مؤتماً به. تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته. نازلاً منازله، مرتوياً من موارده. ناظراً إلى الحكم الديني الأمري متقيداً به، فعلاً وتركاً وطلباً وهرباً. ناظراً إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهداً للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات. ولا يبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته. فيكون قائماً بالأمر والنهي: فعلاً وتركاً، سائراً بسيره، وبالقضاء والقدر: إيماناً وشهوداً وحقيقة. فهو ناظر إلى الحقيقة. قائم بالشريعة.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُم أن يَستَقِيم.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ)[١]وقال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً. وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)[٢].

فترك العلم يسير سير العلم: مشهد (لِمَن شَاء منكُم أن يستَقيم) وسير صاحبه مشاهداً للحكم: مشهد (ومَا تشَاءونَ إلا أن يشَاءَ اللَّهُ رب العَالَمينَ).

وأما قوله: «حرا من رق الرسم» فالحرية التي يشيرون إليها: هي عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس، والدخول تحت رق عبودية الحق وحده.

ومرادهم بالرسم: ما سوى الله. فكله رسوم. فإن الرسوم هي الآثار. ورسوم المنازل والديار: هي الآثار التي تبقى بعد سكانها. والمخلوقات بأسرها في منزل الحقيقة ورسوم وآثار للقدرة. أي فتخلص نفسك من عبودية كل ما سوى الله. وتكون بقلبك مع القادر الحق وحده. لا مع آثار قدرته التي هي رسوم. فلا تشتغل بغيره لتشغلها بعبوديته. ولا تطلب بعبوديتك له حالاً ولا مقاماً، ولا مكاشفة، ولا شيئاً سواه.

فهذه أربعة أمور: بذل الجهد، وتحكيم العلم، والنظر إلى الحقيقة، والتخلص من الالتفات إلى غيره. والله الموفق والمعين.

«الإخلاص» عدم انقسام المطلوب. و«الصدق» عدم انقسام الطلب.

فحيقة الإخلاص: توحيد المطلوب. وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة. ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة.

فهذه الأركان الثلاثة: هي أركان السير، وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع. وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح. كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عدم الإخلاص والمتابعة: انعكس سيره إلى خلف. وإن لم يبذل جهده ويوحد طلبه: سار سير المقيد.

وإن اجتمعت له الثلاثة: فذلك الذي لا يجارى في مضمار سيره. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

[١] سورة التكوير الآية: ٢٨،٢٩.

[٢] سورة الدهر الآية: ٢٩_٣٠.

التصنيف

قال الشيخ العلامة ابن خلدون في كتابه «مقدمة ابن خلدون» ج١ صفحة ٥٣١-٥٣٢:

الفصل السابع والعشرون

في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم، والوقوف على غاياته كثرة التآليف، واختلاف الاصطلاحات في التعاليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتمليذ باستحضار ذلك؛ وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولابد دون رتبة التحصيل.

ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس، واللخمي، وابن بشير، والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية؛ وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه.

ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة، ولمعنى واحد، والمتعلم مطالب باستحضار جميعها، وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها.

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم ومأخذه قريباً؛ ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها.

ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك كيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغلة منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه

وابن جني وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه.

ودل على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من آلالات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟ ولكن الله يهدي من يشاء.

فصل

قال الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين في مقدمة كتابه قواعد التحديث بما نصه:

فصل في مطالع مهمة:

المطلع الأول - قال الزركشي في قواعده: إن تصنيف العلم فرض كفاية على من منحه الله فهماً واطلاعاً. فلو ترك التصنيف لضيع العلم على الناس وقد قال الله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين)[١]الآية. ولن تزال هذه الأمة في ازدياد وترق في المواهب والعلم). انتهى..

وقال نابغة البلغاء ابن المقفع في مقدمة الدرة اليتيمة[٢](وجدنا الناس قبلنا لم يرضوا لما فازوا به من الفضل لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة؛ فكتبوا به الكتب الباقية، وكفونا مؤونة التجارب والفطن. وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم، والكلمة من الصواب وهو بالبلد غير المأهول فيكتبه على الصخور مبادرة منه للأجل، وكراهية لأن يسقط ذلك على من بعده[٣].

فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده الرحيم بهم الذي يجمع لهم الأموال والعقد[٤]إرادة أن لا تكون عليهم مؤونة في الطلب، وخشية عجزهم إن هم طلبوا. فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم فيكون كأنه إياهم يحاور منهم ويستمع.

غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتخل في آرائهم، والنمتقى من أحاديثهم ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه لا في تعظيم لله عز وجل وترغيب فيما عنده، ولا في

---

[١] سورة آل عمران آية: ٨١.

[٢] ص٩ -بيروت المطبعة الأدبية سنة ١٨٩٧م طبعة ثانية.

[٣] أي: يفوته.

[٤] جمع عقدة ما فيه بلاغ الرجل وكفايته (قاموس).

تصغير للدنيا وتزهيد فيها ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامه وتجزئة أجزائه وتوضيح سبلها، وتبين مآخذهم ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق؛ فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور، فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم، ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس.. انتهى كلامه..

وفي قوله: (وقد بقيت الخ) فتح لباب التصنيف على نحو هذا المعنى، وقد قالوا: ينبغي أن لا يخلو تصنيف من أحد المعاني الثمانية التي تصنف لها العلماء وهي: اختراع معدوم، أو جمع مفترق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مخلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ، كذا عدها أبو حيان ويمكن الزيادة فيها.

قال ملا كاتب حلبي رحمه الله: ومن الناس من ينكر التصنيف في هذا الزمان مطلقاً ولا وجه لإنكاره من أهله وإنما يحمله عليه التنافس والحسد الجاري بين أهل الأعصار ولله در القائل:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان حديثاً وسيبقى هذا الحديث قديماً

واعلم أن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، وتصرفات الأنظار لا تنتهي إلى غاية بل لكل عالم ومتعلم منها حظ يحرزه في وقته المقدر له. وليس لأحد أن يزاحمه فيه لأن العالم المعنوي واسع كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي ليس له انقطاع ولا آخر، والعلوم منح إلهية ومواهب صمدانية. فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما لم يدخر لكثير من المتقدمين فلا تغتر بقول القائل: «ما ترك الأول للآخر» بل القول الصحيح الظاهر «كم ترك الأول للآخر» فإنما يستجاد الشيء ويسترذل لجودته ورداءته في ذاته لا لقدمه وحدوثه.

ويقال: «ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم [ما ترك الأول شيئاً] لأنه يقطع الآمال عن العلم ويحمل على التقاعد عن التعلم فيقتصر الآخر على ما قدم الأول من الظاهر وهو خطر عظيم وقول سقيم فالأوائل وإن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها

كما قال عليه الصلاة والسلام: «أمتي أمة مباركة - لا يدري أولها خير آخرها» وقال ابن عبد ربه في العقد «إني رأيت آخر كل طبقة واضعي كل حكمة ومؤلفي كل أدب أهذب لفظاً وأسهل لغة وأحكم مذاهب وأوضح طريقة من الأول لأنه ناقد متعقب والأول بادئ متقدم».

وفي كتاب (جامع بيان العلم وفضله) للحافظ ابن عبد البر[١]عن علي رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: «واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون، وقدر كل امرئ ما يحسن فتكلموا في العلم تتبين أقداركم» قال ابن عبد البر: ويقال إن قول علي بن أبي طالب «قيمة كل امرئ ما يحسن» لم يسبقه إليه أحد. وقالوا: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها. وقالوا: ولا كلمة أضر بالعلم والعلماء والمعلمين من قول القائل: «ما ترك الأول للآخر شيئاً» انتهى.

المطلع الثاني

التأسي في هذا التصنيف الميمون بقول السيد مرتضى اليماني رحمه الله في كتابه «إيثار الحق على الخلق)[٢](وإنما جمعت هذا المختصر المبارك إن شاء الله تعالى لمن صنفت لهم التصانيف، وعنيت بهدايتهم العلماء وهم من جمع خمسة أوصاف معظمها: الإخلاص، والفهم، والإنصاف، ورابعها وهو أقلها وجوداً في هذه الأعصار الحرص على معرفة الحق من أقوال المختلفين وشدة الداعي إلى ذلك، الحامل على الصبر والطلب كثيراً وبذل الجهد في النظر على الإنصاف ومفارقة العوائد وطلب الأوابد».

قال رحمه الله: «فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلما يعرفه إلا واحد وإذا عظم المطلوب قل المساعد؛ فإن البدع قد كثرت وكثرت الدعاة إليها والتعويل عليها وطالب الحق اليوم شبيه بطلابه في أيام الفترة وهم سلمان الفارسي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأضرابهما رحمهما الله تعالى، فإنهم قدوة الطالب للحق وفيهم له أعظم أسوة؛ فإنهم لما حرصوا على الحق، وبذلوا الجهد في طلبه بلغهم الله إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمة.

---

[١] ص٥٠ القاهرة. مطبعة الموسوعات ١٣٢٠هـ.

[٢] ص٢٤ القاهرة. ١٢١٨هـ مطبعة الآداب والمؤيد.

فكم أدرك الحق طالبه في زمن الفترة، وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبوة، فاعتبر بذلك، واقتد بأولئك فإن الحق مازال مصوناً عزيزاً، نفيساً كريماً، لا ينال مع الإضراب عن طلبه وعدم التشوف والتشوق إلى سببه ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يفاجئ أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان علي وجه الأرض مبطل ولا جاهل ولا بطال ولا غافل» انتهى كلامه رحمه الله تعالى..

قلت: قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: ولو كان كسب العلم أسهل حرفة لما كان ذو جهل على رجه الأرض والوطن.. انتهى.. وكتب محمد المنتقى الكشناوي عفا الله تعالى عنه وعن والديه والمؤمنين آمين.. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المطلع الثالث:

لا خفاء أن من المدارك المهمة في باب التصنيف عزو الفوائد والمسائل والنكت إلى أربابها تبرؤاً من انتحال ما ليس له، وترفعاً عن أن يكون كلابس ثوبي زور، لهذا ترى جميع مسائل هذا الكتاب معزوة إلى أصحابها بحروفها وهذه قاعدتنا فيما جمعناه ونجمعه.

وقد اتفق أني رأيت في (المزهر) للسيوطي هذا الملحظ حيث قال في ترجمة (ذكر من سئل عن شيء فلم يعرف فسأل من هو أعلم منه) ما نصه: [١] «ومن بركة العلم وشكره عزوه إلى قائله؛ قاله الحافظ أبو طاهر السلفي: سمعت أبا الحسن الصيرفي يقول: سمعت أبا عبد الله الصوري يقول: قال لي عبد الغني بن سعيد: «لما وصل كتابي إلى أبي عبد الله الحاكم أجابني بالشكر عليه وذكر أنه أملاه على الناس وضمن كتابه إلي الاعتراف بالفائدة وأنه لا يذكرها إلا عني».

وأن أبا العباس محمد بن يعقوب الأصم حدثهم قال: حدثنا العباس بن محمد الدوري قال: سمعت أبا عبيد يقول: «من شكر العلم أن تستفيد الشيء فإذا ذكر لك قلت خفي علي كذا وكذا ولم يكن لي به علم حتى أفادني فلان فيه كذا وكذا فهذا شكر العلم».

---

[١] ص١٦٤ ج٢ المطبعة الكبرى السنية مصر١٢٨٢هـ.

قال السيوطي: «ولهذا لا تراني أذكر في شيء من تصانيفي حرفاً إلا معزواً إلى قائله من العلماء مبيناً كتابه الذي ذكر فيه. انتهى»..

المطلع الرابع:

قال الحافظ أبو الفضل ابن حجر[١] «وأول من صنف في الاصطلاح القاضي أبو محمد الرامهرمزي، فعمل كتابه (المحدث الفاصل) لكنه لم يستوعب والحاكم أبو عبد الل النيسابوري لكنه لم يهذب ولم يرتب، وتلاه أبو نعيم الأصبهاني فعمل كتابه مستخرجاً وأبقى أشياء للمتعقب، ثم جاء بعده الخطيب البغدادي فعمل على قوانين الرواية كتاباً سماه (الكفاية) وفي آدابها كتاباً سماه (الجامع لآداب الشيخ والسامع) وقل فن من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتاباً مفرداً فكان كما قال الحافظ أبو بكر بن نقطة: «إن المحدثين بعده عيال على كتبه».

---

[١] تدريب الراوي ص٩ (ذ.س).

وممن ترجم للمصنف:

الشيخ العلامة السيد علي بن سليمان البجمعوي الدمنتي المغربي في كتابه نور مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة ص٢.٣ ما يلي:

الحمد لله ذي الجلال والإكرام الكبير المتعال والصلاة والسلام على سيد الأنام وعلى أحبة سيدنا محمد سديد الكلام والفعال (أما بعد فيقول الدمنتي البجمعوي علي بن سليمان الراجي له ولكل الموحدين الغفران من ربه الحنان المنان الرحمن هذا اختصار سادس مما وعدت بوضعه على الكتب الستة وهو - اختصار تعليق الحافظ أبي الفضل السيوطي على سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن ماجه نمط ما اختصرته من تعليقات على الكتب الخمسة راقماً لأولئك الأئمة بالرموز المارة بصدر الصحيحين والترمذي معتمداً في الضبط على ما قدمته هناك وربما وشحته بفوائد جمة فرت عنه وعن غيره من الفحول (سميته نور مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه) وبحوله تعالى أقول وعلى كل الخيرات وضدها أصول وأجول (ترجمة المصنف) قال الإمام أبو القاسم الرافعي بتاريخ قزوين محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني وماجه لقب يزيد والد أبي عبد الله كما رأيته بخط أبي الحسن القطان وهبة الله بن زاذان وقد يقال محمد بن يزيد بن ماجه والأول أثبت وهو إمام من أئمة المسلمين كبير متقن مقبول بالاتفاق صنف التفسير والتاريخ والسنن وتقرن سننه بالكتب الخمس وسمعت الذي يقول عرض كتاب السنن لابن ماجه على أبي زرعة الرازي فاستحسنه وقال لم يخطئ إلا في ثلاث أحاديث سمع بالعراق ومصر والشام وقزوين والري ونيسابور وروى عنه ابن سمويه ومحمد بن عيسى الصغار واسحق بن محمد وعلي بن إبراهيم وسليمان بن يزيد وميسرة بن علي وأحمد بن إبراهيم الخليلي والمشهورون برواية السنن عنه علي بن إبراهيم القطان وسليمان بن يزيد القزوينيان وأبو جعفر بن عيسى المطوعي وأبو بكر حامد بن كينويه الأبهر بأنه ولد ابن ماجه سنة تسع ومائتين ومات سنة ثلاث وسبعين وتولى غسله محمد بن علي القهرمان وإبراهيم بن دينار الوراق وصلى عليه أخوه أبو بكر ودفنه أبو بكر والحسن أخواه وابنه عبد الله ورثاه يحيى بن زكريا الطرائقي فقال:

أيا قبر ابن ماجه غشت قطراً ... ملثا بالغداة والعشي
فقد حزت التقى والبر لما ... تضمنت البري من البري
من الإيمان قولاً ثم فعلاً ... جهاراً ليس ذلك بالخفي
ألا يا عين جودي ثم جدي ... بدمع في البكاء على التقيّ
أبي عبد الاله أبي اليتامى ... أب بربهم حدب حفي
أقول لمقلتيّ ألا ابكياه ... لفقدان لآثار النبي
ونشر مناقب كثرت وطابت ... لآل اللّه كالمسك الذكي
بعقل وافر لا عيب فيه ... كالسيف الصقيل المشرفي
فقيه كان ذا حلم وبر ... وما النعمان كان له بشيء
عليه اللّه صلى ثم صلى ... عليه من الملائكة العلي
وأم الأرض وبل ما أجنت ... به من لو ذعي أحوذي
يحق لكل ذي دين ودنيا ... يبكيه بدمع لا بكي

وقال محمد بن الأسود القزويني:

لقد أوهى دعائم عرش علم ... وضعضع ركنه فقد ابن ماجه
وخاب رجاء ملهوف كئيب ... يداويه من السداء ابن ماجه
ألا للّه ما جنت المنايا ... علينا من تخطفها ابن ماجه
محمد الذي أن عد يوماً ... مصابيح الدنا عدّ ابن ماجه
كمن يرجى لعلم أو لحفظ ... بشرح بسين مثل ابن ماجه
ومن لمصنفات مسندات ... ومنتخباتها بعد ابن ماجه
ومن يعطي الذي أعطاه ربي ... من النبيين والفقه ابن ماجه
أبا عبد الاله مضيت فرداً ... وما خلفت مثلك يا ابن ماجه

قال الرافعي هذا نظم لا قافية له لكن قد يوجد مثله في المنظومات، قلت إن كل كلمة كررت قبل سبعة أبيات إبطاء إلا لفظ الجلالة فيجوز فيه بكل أبيات القصيدة، قلت وكذا كلمة محمد صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم إذ بالجلالة كل لذات الوحدانية القديمة وباسم محمد كل لذات الوحدانية الحديثة وقل من رأى هذا يفهمه حقاً.اهـ. وذكر أبو الحسن بن القطان صاحب ابن ماجه. أن عدة أحاديث سنن ابن ماجه أربعة آلاف.

فصل في التصنيف

وقال في كتاب المقنع بالقليل شرح مختصر خليل في المقدمة الثانية في فوائد التصنيف بما نصه:

روينا في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّٰه تعالى عنه أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالى عليه وآله وسلم قال: «إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له».

وفي الجامع الصغير من علم آية من كتاب اللّٰه أو باباً من العلم أنمى اللّٰه له أجره يوم القيامة. ونسبه إلى ابن عساكر عن أبي سعيد قال العلماء يباركون في العلم لا ينقطع بالموت أنه إذا علم العالم شخصاً فعمل المتعلم بعد موت العالم بما علمه يكتب له أجر تسببه، وهكذا في كل من عمل به إلى يوم القيامة. وإذا علم المتعلم أخر حصل للشيخ أجران لأنه تسبب لتلميذه وتلميذ تلميذه في حصول الأجر لهما فإذا علم التلميذ الثاني ثالثاً حصل للشيخ الأول أربعة أجور زيادة على ما مر لأنه تسبب للتلميذ الأول في أجرين ولكل من الثاني والثالث في أجر فإذا علم الثالث رابعاً حصل للشيخ الأول ثمانية أجور، فإذا علم الرابع خامساً فللأول ستة عشر وللسادس - الخ كذلك.

وفي السابع أربعة وستون وفي الثامن ثمانية وعشرون ومئة وفي التاسع ستة وخمسون ومئتان وفي العاشر اثنا عشر وخمس مئة. فإن ضممت ما في العاشر إلى ما قبله كان ثلاث وعشرين ألفاً حسبما تقرر في الجمع على مثل بيوت الشطرنج والحسنة بعشر أمثالها فيكون ذلك ثلاثين ومئتين وعشرة آلاف وهكذا يتضاعف له الأجر في كل مرتبة إلى منتهى السلسلة.

قلت: هذا في نفس تعليم مسألة واحدة لمتعلم واحد فإذا تعدد التعليم والمتعلمون في كل طبقة تضاعفت الأجور بقدر ذلك وتتضاعف بحسب تعدد العمل بذلك لحديث من علم علماً فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل نسبه في الجامع إلى ابن ماجه عن معاذ بن أنس

فيتناهى إلى غاية لا يعلمها إلا واهب ذلك فالحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده وإلى هذا أشار البوصيري[١]رحمه الله تعالى وإيانا آمين بقوله في داليته التي مدح بها الشاذلي والمرسي نفعنا الله تعالى بهما:

والمرء في ميزانه أتباعه   فقدر ذا قدر النبي محمد

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكفي هذا ترغيباً في التعلم والتعليم فعلى العاقل أن يستفرغ جهده رغبة في هذا الثواب العظيم ولا يحمل الطالب على ترك حضور مجلس العلم كونه لا يفهم فيه شيئاً فقد قال في تحفة الفضلاء قال السمرقندي من جلس عند العالم ولم يفهم مما يقول شيئاً فله سبع كرامات أولها ينال فضل المتعلمين الثانية يحبس عن الذنوب مادام جليسه الثالثة إذا خرج من بيته بنية طلب العلم نزلت عليه الرحمة الرابعة إذا نزلت عليهم الرحمة حصل له منها نصيب. الخامسة مادام يسمع تكتب له طاعة السادسة إذا سمع ولم يفهم وضاق قلبه بحرماته ذلك العلم فيصير ذا غمة وسيلة للرحمة لحديث: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي». السابعة يرى إعزاز الناس للعالم وإزلالهم للفاسد فيرد قلبه عن القسوة ويميل طبعه إلى العلم، ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام بمجالسة العلماء.اهـ. ثم التعليم كما قال العلماء يكون بالمشافهة وبالتأليف والتدريس فكل من فهم مسألة من التأليف فمؤلفه معلمه إياها ومن هنا يظهر أن التعليم بالتأليف أكثر منه بالمشافهة لأن في التأليف ما فيها وزيادة ما يجهل بالكتاب لبقائه وانقطاعها.

وقد يكون التعليم بالكتاب أولى من التعليم بالخطاب لكون المؤلف قلمه أفصح من لسانه ومطالعة كتابه أيسر من مراجعته لشدة خلقه أو بعد مكانه حساً أو تقدم زمانه ولله در القائل في مدح الكتب:

لنا جلساء لا يمل حديثهم   ألباء ما مدفون غيباً ومشهداً

يفيدوننا من علمهم علم من مـ   ـضى وعقلاً وتأديباً ورأياً مسدداً

فلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة   ولايتقي منهم لساناً ولا يداً

فإن قلت أحياء فلست بكاذب   وإن قلت أمواتاً فلست مفنداً

لكن قال الأبي في شرح حديث: «إذا مات ابن آدم» الحديث عن

شيخه ابن عرفة أن التأليف إنما يدخل فيه حيث إذا كانت فيه فائدة وإلا فهو تخسير للكافة. قال الأبي ويعني بالفائدة الزيادة على ما في الكتب السالفة وإذا لم يشتمل إلا على ما في نقل الكتب فهو تخسير للكافة.اهـ.

قال الشيخ أحمد باب في تحفة الفضلاء: وفيه بحث، بل قال ابن حزم وغيره: أقسام التأليف سبعة لا يؤلف العاقل إلا في إحداها: إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو ناقص يتمه، أو مستغلق يبينه، أو طويل يختصره دون إخلال بما فيه أو مفترق يجمعه، أو مختلط يرتبه، أو خطأ يصلحه.اهـ.

نقله أبو عبد الله الحضرمي رحمه الله تعالى وإيانا آمين في فهرسته وغيره.

قلت: ورب تأليف يجمع من غرائب النقول التي لا يكاد يطلع عليها في غيره. انتهى كلام أحمد بابا رحمه الله تعالى وإيانا آمين.

وقد يقال: لا بحث في ذلك لأن جميع ما ذكروا من فوائد زوائد على ما في الكتب السالفة فلا تخرج عما ذكره الأبي.

وقد ذكر المقري في أزهار الرياض الأقسام المذكورة منظومة لبعضهم ولم يحضرني ونظمتها الآن مختصرة في بيت ووطأته بآخر فقلت:

في سبعة حصروا مقاصد العقلا   من التأليف فاحفظها تنل أملاً

بدع تمام بيان الاختصار وفي جمع   ورتب وأصلح يا أخي العملا

وأرجو من فضل الله تعالى أن يكون هذا الشرح مشتملاً من هذه السبعة أو على جلها إن لم يكن مشتملاً عليها كلها. ويمكن ردها إلى اثنين:

تحرير ما نقلوه والتنبيه على ما غفلوه. ومن ذلك جمع القرآن الكريم وتدوينه كما يلي:

فصل وتنبيه

وقد اهتم المسلمون منذ عصر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بتدوين القرآن الكريم وكتابته. وكانت التفاتة طيبة من النبي الكريم أن يقبل من بعض أسارى بدر نظير حريته تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

ولما كان هذا القرآن هو مصدر التشريع فقد اعتنى به الخلفاء بعد الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ فجمعه أبو بكر صحفاً متفرقة من عند الناس وبقيت هذه الصحف عنده حتى اختاره الله إلى جواره فانتقلت إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ثم إلى بيت حفصة أم المؤمنين وزوجة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولما جاء عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه واتسعت رقعة الإسلام وتباعدت أطرافه قرأ كل مصر القرآن بلغة تخالف لغة أهل المصر الآخر، فحضر حذيفة بن اليمان إلى مقر الخليفة وأخبره بما سمع ورأى من اختلاف الناس في قراءة القرآن وبصره بسوء العاقبة إن لم يحتط لنفسه ودينه. فاقتنع عثمان بمشورة حذيفة، وعهد من فوره إلى أربعة من خيار الصحابة أن يكتبوا المصحف كله، فكتبوه في عدة نسخ أرسل منها الخليفة نسخة إلى الكوفة وثانية إلى البصرة وثالثة إلى مكة ورابعة إلى الشام، وأبقى واحدة لأهل المدينة واحتفظ لنفسه بالنسخة السادسة والأخيرة وهي التي كان يتعبد بقراءتها حين دخل عليه الثوار وقتلوه.

ولم تقف همة المسلمين عند تدوين القرآن وكتابته وإنما اهتموا أيضاً بسيرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وما اشتملت عليه من قول أو فعل أو تقرير أو شرح أو توضيح بما عرف بين المسلمين باسم «السنة الشريفة».

وكما رأينا حرص المسلمين أيضاً على تدوين القرآن الكريم وكتابته للسبب الذي أشرنا إليه، فإن بعض الروايات تنبئنا بأن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه هو الذي وضع نواة علم النحو وهو أول من كتب في رقعة: «الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأنا عن المسمى، والفعل ما أنبئ به، والحرف ما أفاد معنى»، وتصادف أن دخل عليه أبو الأسود الدؤلي فألقى إليه بالصحيفة وقال له انح هذا النحو إلى آخره.

وتمضي الأيام وينقضي عصر الخلافة ويعقبه عصر الدولة الأموية حيث يبلغ الفتح الإسلامي مداه، وتظل الدولة الحديثة محتفظة بصبغتها العربية في شئونها وحياتها، ويبذل خلفاؤها وأمراؤها اهتماماً بالغاً بلغة العرب

وأيام العرب، وشرعوا يعيدون إلى الأذهان ذكريات أسلافهم بعد أن باعد عصر القرآن بينهم وبينها فترة من الزمن.

وتنبئنا كتب الأدب بأن الخليفة أو الأمير كان يقض مضجعه مَثَلٌ شارد، أو بيت من قصيدة وما كان يهنأ له عيش، أو يغمض له جفن حتى يحصل علي طلبته ولو من أبعد الآفاق وأقاصي البلاد.

ولما أذن الله لدولة بني العباس كان الموالي من أبناء البلاد المفتوحة قد كبروا واشتد ساعدهم فاتسع نطاق التفكير الإسلامي في رحاب البلاد المفتوحة، ولم تعد الثقافة ولا المعرفة وقفاً على موروث العرب وإنما تعدى ذلك إلى نطاق العلوم العقلية التي مارستها أمم تقدمت على الأمة العربية كالفرس والرومان واليونان.

ولم يكن التأليف في الدولتين الأموية والعباسية وما أتى بعدهما من دول تسير على نمط واحد، بل يلاحظ أنه كان في الدولة الأموية بصفة عامة أن التأليف يمكن أن يقال عن مجموعة أوراق يضم بعضها إلى بعض ليس بينها صفة جامعة إلا الرواية والسند.

أما في الدولة العباسية المشرقية والأموية المغربية فلم يكن التأليف في عصرهم مجرد رواية وإنما كان للاستنباط فيه أثر واضح؛ كما ظهر جليا التنسيق والتبويب والتقسيم كما يتضح من صحيح البخاري ومسلم وهما كما نعلم من صنع الدولة العباسية؛ فكان من نتائج اهتمام المسلمين بالثقافة والمعرفة على اختلافها أن زخرت عواصم العالم الإسلامي في أطرافه المترامية بالعلماء والطلاب وعشاق الثقافة، لا تقف أمامهم الفواصل الطبيعية ولا الحدود السياسية بل صارت الرحلة في طلب العلم تعد من مناقب العالم ومفاخره.

كان من نتائج هذا الاهتمام أن تكوّن لدينا في الحواضر الإسلامية كالقاهرة وبغداد والموصل وقرطبة والقيروان رصيد ضخم من التراث الإسلامي ما نظن أن أمة من الأمم الغابرة تكون لديها مثل هذا التراث.

كان الرجل منهم - أعني العالِم - أمة في نفسه فهو عالم في الفقه والنحو والبلاغة وعلوم القرآن وغير ذلك من العلوم السائدة في عصره إلا أنه كان غالباً ما يشتهر بفن من هذه الفنون. ومن ينظر إلى

تراثهم يجد أنهم قد تركوا لنا ثروة ضخمة في التفسير والحديث والعقائد والفقه والنحو وعلوم البلاغة والطب والهنسة والجغرافيا والرحلات والتاريخ العام والخاص.

كان الأستاذ يجلس وسط حشد كبير من الطلاب والمريدين ويملي عليهم بما يفتح اللّه به عليه فيتلقف الطلاب بدورهم ما يملي عليهم في شغف وحرص ويدونون ما يتلى عليهم من كل أستاذهم وما يكادون يفترقون إلا ويجتمعون أملاً في المعرفة وحباً في العلم.

ومن هذه الإملاءات تعددت نسخ الكتاب الواحد بقدر ما كان الطلاب ينسخون ويدونون في دفاترهم وكراساتهم. وينصرم زمن ويأتي بعده أزمان وتتداول هذه الكراسات وتلك الدفاتر بين الناس فيزيدون فيها أو ينقصون منها مما نشأ عنه تفاوت نسخ الكتاب الواحد . يلمس ذلك جيداً من يعاني تحقيق هذا التراث ونشره. وقد لا يزاد فيها ولا ينتقص منها ولكنها تظل قائمة متداولة مقتناة في مكتبة عامة أو خاصة حتى يهيأ لها من يبعثها من رقادها أو ينفخ فيها روح الحياة.

لقد لفت هذا الثراء الضخم في التأليف والمؤلفين نظر بعض العلماء وأولي الفضل إلى أن يؤلفوا كتباً على شكل موسوعات تضم تاريخاً لهؤلاء العلماء الذين أسهموا بنصيب موفور في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية والفكر الإنساني قبل ظهور المطبعة بمئات السنين.

وهذا النوع من التأليف نراه عاماً ونراه خاصاً. بعضه لا يخص طبقة بعينها ولا إقليماً بذاته والبعض الآخر يقتصر فيه المؤلف على جماعة أو قرن أو مكان مستقل.

ففي الشعر مثلاً نجد:

طبقات فحول الشعراء للإمام محمد بن سلام الجمحي البصري المتوفى سنة ٢٣١هـ.

وفي النحو نجد:

بغية الوعاة في طبقات النحاة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

وفي المصطلح ورجال الحديث نجد:

ميزان الاعتدال في نقد الرجال تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان بن قيماز الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

وفي الفقه نجد:

طبقات الشافعية لتقي الدين بن أبي بكر بن أحمد المتوفى سنة ٨٥١هـ.

وفي سيرة الأولياء والصالحين نجد:

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠هـ.

وفي إقليم بعينه نجد:

الصلة: وهو في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨هـ، وقبله تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد بن الفرضي. وكلاهما مرتب فيه الرجال كل في باب على حسب تقدم وفياتهم.

وفي الصحابة نجد:

١- أسد الغابة في معرفة الصحابة للإمام عز الدين أبي الحسن علي ابن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير.

٢- الإصابة في تمييز الصحابة لقاضي القضاة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني. ثم المصري المعروف بابن حجر العسقلاني الشافعي المتوفى سنة ٨٥٢هـ.

وفي قرن بعينه نجد:

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر أيضاً.

وفي ختام هذه الأمثلة البسيطة المتواضعة يجيء دور الحافظ الإمام أبي عبد الله ابن ماجه؛ الذي نحن بصدد تقديم كتابه وسيأتي إن شاء الله تعالى ترجمته آخر هذه المقدمة في الخاتمة. نسأل الله تعالى حسنها آمين.

التصنيف

قال مقيده رضي اللّٰه تعالى عنه وعن والديه والمؤمنين:

ومن ذلك قول الشيخ المجدد عثمان بن فوديو رحمه اللّٰه تعالى في كتابه نجم الإخوان ونصه «خاتمة» في ترغيب أهل الزمان وحضهم على الاشتغال بتواليف علماء زمانهم والتزامهم بأمور أربعة ينور اللّٰه بها القلوب..

فأقول وباللّٰه التوفيق فاشتغلوا يا إخواني بقراءة تواليف علماء زمانكم لأنهم هم العالمون بما هو الأهم في زمانكم ولأن تواليفهم تفصيل لما أجمل من تواليف من قبله ولذلك اعتنى كل عالم بالتصنيف في زمانه مع أنه وجد كل ما يحتاج إليه في الدين في تواليف من قبله وإلى ذلك أشار محمد بن صالح في نافعة الطلاب بقوله:

وكل عالم بكل قرن　　　مصنف وغيره ذو ذهن

وإلى ذلك أشار الأوجلي في دليل العقائد بقوله:

ولم نجد مختصراً يفوز　　　وما به كفاية يحوز

باعتبار أهل زمانه مع أنه وجد ذلك باعتبار أهل الزمان المتقدم، واشتغلوا بقراءة تواليف أخي عبد اللّٰه لأنه منشغل غالباً بحفظ ظاهر الشريعة، واشتغلوا بحفظ علم السياسة للأمة بحسب الأشخاص والمقاصد والأزمان والأمكنة والأحوال، واشتغلوا بقراءة تواليفي لأنه مشتغل بحفظ الطرفين غالباً وتواليف العلماء المتقدمين تفصيل لما أجمل في تواليف العلماء المتقدمين وتواليف العلماء المتقدمين تفصيل لما أجمل في الكتاب والسنة.

قال عبد الوهاب الشعراني في اليواقيت: سمعت سيدي علي الخواص رحمه اللّٰه يقول: ما تم لنا قول إلا وأصله مجمل في الكتاب والسنة ولولا ذلك ما قال اللّٰه لمحمد صلى اللّٰه عليه وسلم: (لتبين للناس ما نزل إليهم) بل كان يكتفي بتبليغه القرآن من غير بيان. قال: ولما كان من العلوم أنه لا يفصل العبادة نابت الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الحق تعالى في تفصيل ما أجمله تعالى في كتابه العزيز وناب المجتهدون مناب الرسل عليهم الصلاة والسلام في تفصيل ما أجملوه في كلامهم.

وهكذا القول في كلام أهل كل دور من بعدهم إلى وقتنا هذا يفصل كل دور ما أجمله الدور الذي قبله ولولا أن حقيقة هذا الإجمال سارية في العالم ما شرحت الكتب الكتب، ولا ترجمت من لسان إلى لسان، ولا وضع الناس على تفاسير بعضهم وشروحه حواشي، بل ربما وضعوا على الحواشي حواشي، والسر في ذلك أن غير الشارع صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم إذا تكلم على شيء شرعي لا يمكنه أن يستحضر جميع ما يرد على ذلك العبارة من الأسئلة والأحكام حتي يفصح عنها في العبارة بل ينسى أكثر الأحكام بخلاف الشارع صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فإنه لا يتكلم إلا بوحي من ربه معصوم من الخطأ ونقص المعاني وصحة الإيرادات عليه (وما كان ربك نسيا) وغير الشارع صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالعكس قال تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

فاعلم أن أهل كل دور رحمة على من بعدهم كما أن للتابع من الخلق منة على متبوعه من السلف من حيث عمله بعلم متبوعه وكتاب ثواب ذلك في صحائفه.

فعلوم جميع الأمة المحمدية وعملهم في صحائف سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من غير منة عليه صلى الله عليه وسلم بخلاف غيره من المجتهدين ومقلديهم إلى يوم القيامة بإعطائهم المادة التي يستنبطون منها الأحكام وليس للمجتهد منة عليه صلى الله عليه وسلم وإنما لهم المنة على من قلدهم إلى يوم القيامة.

ولولا بيان الشارع صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ما أجمل في القرآن بأحاديث شريعته لبقي القرآن على إجماله إلى وقتنا هذا، وما كنا عرفنا كيفية تأدية الصلاة ولا الطهارة، ولا كنا عرفنا نواقض الطهارة ولا واجبات الصوم ولا الحج ولا مفسداتهما، ولا كيفية العقود والمعاملات، ولا غير ذلك مما هو معلوم. كذلك لولا بيان المجتهدين ما أجمل في الشريعة لمقلديهم لبقيت السنة على إجمالها.

اللهم ارحم أمة محمد رحمة عامة وصل على محمد وعلى آل محمد ملء الدنيا وملء الآخرة...

وهكذا الكلام في كل دور بعدهم إلى يوم القيامة يفصل كل دور ما أجمل في كلام من قبله. ومن زعم أن المجتهدين عرفوا المجمل من القرآن بلا واسطة بيان السنة فليأتنا بمثال ذلك ولعله لا يجده..

وإيضاح ذلك أنه ليس لتابع علم من غير علم متبوعه أبداً، كما أن كشف الأولياء لا يتعدى كتاب نبيهم وسنته أبداً. وبتقدير أنه يأتينا بعلم من طريق كشفه لا يجوز لنا العمل به إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة وموافقته لهما. انتهى..

وأما الأمور الأربعة التي ينور الله بها القلوب فاعلموا يا إخواني أن من أراد أن ينور الله قلبه بأنوار الإيمان فليلزم أربعة أمور.. الأول: الاشتغال بتقوى الله الذي هو امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه..

والثاني: الاشتغال بقراءة القرآن..

والثالث: الاشتغال بقراءة أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم وسيره..

والرابع: الاشتغال بأخبار السلف.

وكل من اشتغل بهذه الأمور الأربعة نور الله قلبه بأنوار الإيمان.. ولا يحتاج ذلك إلى الاستدلال لكونه معلوماً بالضرورة وليس يصح في الأذهان شيء إذا افتقر النهار إلى دليل.

اللهم ارزقنا الاشتغال بهذه الأمور الأربعة، وارزقنا خاتمة السعادة.

وهنا انتهى كتاب نجم الإخوان بعون الله تعالى وسط النهار يوم الإثنين في شهر الله الحرام ذي القعدة سنة شكروا من هجرته صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم. وقد التزمت أول هذا الكتاب أن لا أذكر قولاً إلا نسبته لقائله، أو أذكر الكتاب الذي نقلت منه، لأن ذلك أقرب إلى طمأنينة النفوس. وقد بذلت جهدي في ذلك ووفيته بحمد الله وحسن عونه.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ورضي الله تعالى على السادات التابعين والعلماء العاملين والأئمة الأربعة المجتهدين ومقلديهم إلى يوم الدين...

تنبيه:

وقال الشيخ عثمان بن محمد المعروف بابن فودي في كتابه حصن الأفهام من جيوش الأوهام -يؤكد أهمية التصنيف:

«ومن تلك الأوهام أن بعضهم يعميه الحسد، ويقول: الصواب ترك الاشتغال بالتواليف المؤلفة اليوم لأن مؤلفات الأئمة الأعلام الذين تقدموا لم تترك لنا شيئاً يحتاج إليه. وهم أوفر علماً من الذين يؤلفون اليوم. وهذا أيضاً باطل ووهم على الإجماع لأن كل عالم يراعي في تأليفه همم أهل زمانه وأغراضهم لأنه العالم بذلك ولهذا كان تأليف كل عالم في زمانه أنفع لأهل ذلك الزمان من تأليف غيره ولهذا قال محمد الصالح بن عبد الرحمن بن سليم الأوجلي في دليل العقائد:

ولم نجد مختصراً يفوز   وما به كفاية يحوز

وقال في شرح مزيد الفائد في نسخة العابد في بيان معنى هذا البيت ولقائل أن يقول: المختصرات مما يغني عن هذا الادعاء كثيرة من تواليف الأئمة الأعلام الذين لا يساوى أثر قدمهم في المقام فيقال له: نعم فعلوا رضي الله عنهم وجزاهم خيراً ما يليق بأزمنتهم الفائقة. انتهى...

ولله در القائل:

وكل عالم بكل قرن   مصنف وغيره ذو ذهن

فصــــل

في فضيلة الاشتغال بالعلم وتصنيفه وتعلمه وتعليمه والحث عليه والإرشاد إلى طرقه كما في المجموع للإمام النووي رحمه الله تعالى قال: قد تكاثرت الآيات والأخبار والآثار وتواترت، وتطابقت الدلائل الصريحة وتوافقت؛ على فضيلة العلم والحث على تحصيله والاجتهاد في اقتباسه وتعليمه. وأنا أذكر طرفاً من ذلك تنبيهاً على ما هنالك. قال الله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ)[١]وقال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)[٢]وقال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[٣]وقال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[٤] والآيات كثيرة معلومة.

وروينا عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قَبلَت الماء فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه اللهُ مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلمها». رويناه. والمراد بالحسد الغبطة وهي أن يتمنى مثله. ومعناه ينبغي أن لا يغبط أحداً إلا

---

[١] الزمر: ٩.
[٢] طه: ١١٤.
[٣] فاطر: ٢٨.
[٤] المجادلة: ١١.

في هاتين الموصلتين إلى رضاء الله تعالى.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» رويناه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم. وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير» رواه الترمذي. وقال حديث حسن. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة». رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» رواه الترمذي. وعن أبي هريرة مثله وزاد: «لكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه وما عبد الله بأفضل من فقه في الدين». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً» رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر علي سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». رواه أبو داود والترمذي وغيرهما. وفي الباب أحاديث كثيرة وفيما أشرنا إليه كفاية.

وأما الآثار عن السلف فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. لكن نذكر منها أحرفاً متبركين مشيرين إلى غيرها ومنبهين. عن علي رضي الله عنه: «كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه. وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه». وعن معاذ رضي الله عنه: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة». قال أبو مسلم الخولاني: «مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا».

عن وهب بن منبه قال: «يتشعب من العلم الشرف، وإن كان صاحبه دنيئاً، والعز وإن كان مهيناً، والقرب وإن كان قصياً، والغنى وإن كان فقيراً، والنبل وإن كان حقيراً، والمهابة وإن كان وضيعاً، والسلامة وإن كان سقيماً».

وعن الفضيل قال: «عالم عامل بعلمه يدعى كبيراً في ملكوت السموات»، وقال غيره: أليس يستغفر لطالب العلم كل شيء؟ وقيل العالم كالعين العذبة نفعها دائم. وقيل: العالم كالسراج من مر به اقتبس. وقيل: العلم يحرسك وأنت تحرس المال، وهو يدافع عنك وأنت تدفع عن المال.

وقيل: العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح البصائر في الظلم؛ به تبلغ منازل الأبرار، ودرجات الأخيار. والتفكر فيه ومدارسته ترجح على الصلاة وصاحبه مبجل مكرم. وقيل: مثل العالم مثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها الأقرباء فبينا هي كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها وبقي قوم يتفكنون أي يتندمون.

قال أهل اللغة: الحِمة بفتح الحاء عين ماء حار يشفى بالاغتسال فيها. وقال الشافعي رحمه الله: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. وقال: ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم، وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم. وقال: من لا يحب العلم فلا خير فيه، فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة. وقال: العلم مروءة من لا مروءة له، وقال: إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي.

وقال: ما أحد أورع لخالقه من الفقهاء. وقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وقال البخاري رحمه الله في أول كتاب الفرائض من صحيحه: قال عقبة ابن عامر رضي الله عنه «تعلموا قبل الظانين» قال البخاري يعني الذين يتكلمون بالظن: ومعناه تعلموا العلم من أهله المحققين الورعين قبل ذهابهم ومجيء قوم يتكلمون في العلم بمثل نفوسهم وظنونهم التي ليس لها مستند شرعي.

فصـــل

في ترجيح الاشتغال بالعلم على الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات القاصرة على فاعلها.

قد تقدمت الآيات الكريمات في هذا المعنى كقوله تعالى: (هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) وقوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ) وغير ذلك.

وغير ذلك ومن الأحاديث ما سبق كحديث ابن مسعود: «لا حسد إلا في اثنتين» وحديث: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» وحديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» وحديث: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» وحديث: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً» وحديث: «من دعا إلى هدى» وحديث: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً» وغير ذلك مما تقدم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله ويسألون فقال: «كلا المجلسين إلى خير< أما هؤلاء فيدعون الله تعالى، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل هؤلاء أفضل بالتعليم أرسلت» ثم قعد معهم. رواه أبو عبد الله بن ماجه.

وروى الخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي في كتابه كتاب الفقيه والمتفقه أحاديث وآثاراً كثيرة بأسانيدها المطرقة. منها عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حق الذكر، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم».

وعن عطاء قال مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وأشباه هذا. وعن ابن عمر عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة». وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يسير الفقه خير من كثير العبادة».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فقيه أفضل عند الله من ألف عابد». وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أفضل العبادة الفقه».

وعن أبي الدرداء: ما نحن لولا كلمات الفقهاء. وعن علي رضي الله عنه: العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله. وعن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: باب من العلم تتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوع. وباب من العلم تعلمه عمل به أو لم يعمل أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً. وقالا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: لأن أعلم باباً من العلم في أمر ونهي أحب إلي من سبعين غزوة في سبيل الله. وعن أبي الدرداء: مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة.. وعن الحسن البصري قال: لأن أتعلم باباً من العلم فأعلمه مسلماً أحب إلي من أن تكون لي الدنيا كلها في سبيل الله تعالى.

وعن يحيى بن أبي كثير: دراسة العلم صلاة. وعن سفيان الثوري والشافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم. وعن أحمد بن حنبل وقيل له أي شيء أحب إليك: ليس بالليل أنسخ أو أصلي تطوعاً. قال فنسخك[١]تعلم بها أمر دينك فهو أحب، وعن مكحول: ما عبد الله بأفضل من الفقه.

وعن الزهري: ما عبد الله بمثل الفقه. وعن سعيد بن المسيب قال: ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولكن بالفقه في دينه. يعني ليس أعظمها وأفضلها الصوم بل الفقه. وعن إسحاق بن عبد الله ابن أبي فروة: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم، وأهل الجهاد. فالعلماء دلوا الناس

---

[١] هكذا في الأصل ولعل المعنى لنسخك مسألة الخ.

على ما جاءت به الرسل، وأهل الجهاد جاهدوا على ما جاءت به الرسل. وعن سفيان بن عيينة: أرفع الناس عند الله تعالى منزلة من كان بين الله وعباده وهم الرسل والعلماء. وعن سهل التستري: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء فاعرفوا لهم ذلك.

فهذه أحرف من أطراف ما جاء في ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة. وجاء عن جماعات من السلف ممن لم أذكره نحو ما ذكرته. والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال باعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله سوى ما سبق أن نفع العلم يعم صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به.

ولأن العلم مصحح فغيره من العبادات مفتقر إليه ولا ينعكس، ولأن العلماء ورثة الأنبياء ولا يوصف المتعبدون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتد به مقلد له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعته ولا ينكعس، ولأن العلم صفة لله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية أعني العلم الذي كلامنا فيه، فكان أفضل من النافلة.

وقد قال إمام الحرمين رحمه الله في كتابه الغياثي: فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث أن فاعله يسد مسد الأمة ويسقط الحرج عن الأمة، وفرض العين قاصر عليه وبالله التوفيق.

فصل

فيما أنشدوه في فضل طلب العلم هذا واسع جداً ولكن من عيونه ما جاء عن أبي الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو التابعي رحمه الله:

العلم زين وتشريف لصاحبه فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
لا خير فيمن له أصل بلا أدب حتى يكون على ما زانه حدبا
كم من كريم أخي عي وطمطمة فدم لدى القوم معروف إذا انتسبا
في بيت مكرمة آباؤه نجب كانوا الرؤوس فأمسى بعدهم ذنبا
وخامل مقرف الآباء ذي أدب نال المعالي بالآداب والرتبا
أمسى عزيزاً عظيم الشأن مشتهراً في خده صعر قد ظل محتجباً
العلم كنز وذخر لا نفاد له نعم القرين إذا ما صاحب صحباً
قد يجمع المرء مالاً ثم يحرمه عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلن به دراً ولا ذهباً

وقال غيره:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

ولآخر:

علم العلم من أتاك لعلم واغتنم ما حييت منه الدعاء
وليكن عندك الغني إذا ما طلب العلم والفقير سواء

وللآخر:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهموا على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

وللآخر:

صدر المجالس حيث حل لبيبها فكن اللبيب وأنت صدر المجلس

ولآخر:

عاب التفقه قوم لاعقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ماضر شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

فصل

في ذم من أراد بفعله غير اللّٰه تعالى:

اعلم أن ما ذكرناه من الفضل في طلب العلم إنما هو في طلبه مريداً به وجه اللّٰه تعالى لا لغرض من الدنيا ومن أراده لغرض دنيوي كمال أو رياسة أو منصب أو وجاهة أو شهرة أو استمالة الناس إليه أو قهر المناظرين أو نحو ذلك فهو مذموم.

قال اللّٰه تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)[١]وقال تعالى: (مَن كَان يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً)[٢]الآية وقال تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ)[٣]وقال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)[٤] والآيات فيه كثيرة.

وروينا في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال: سمعت رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

وروينا عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه

---

[١] الشورى: ٢٠.
[٢] الإسراء: ١٨.
[٣] الفجر: ١٤.
[٤] البينة: ٥.

وسلم: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة - يعني ريحها -» رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح.

وروينا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من تعلم علماً ينتفع به في الآخرة يريد به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة». روي بفتح الياء مع فتح الراء وكسرها. وروي بضم الياء مع كسر الراء وهي ثلاث لغات مشهورة ومعناه لم يجد ريحها.

وعن أنس وحذيفة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من طلب العلم ليماري به السفهاء ويكاثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي من رواية كعب بن مالك وقال فيه: «أدخله الله النار» وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينتفع به» وعنه صلى الله عليه وسلم: «شرار الناس شرار العلماء».

وروينا في مسند الدارمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله. وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقاً يباهي بعضهم بعضاً حتى أن الرجل ليغضب على جليسه إن يجلس إلى غيره ويدعه؛ أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى.

وعن سفيان: ما ازداد عبد علماً فازداد في الدنيا رغبة إلا ازداد من الله بعداً. وعن حماد بن سلمة: من طلب الحديث لغير الله مكر به. والآثار به كثيرة.

فصل

في النهي الأكيد والوعيد الشديد لمن يؤذي أو ينتقص الفقهاء والمتفقهين والحث على إكرامهم وتعظيم حرماتهم.

قال اللّٰه تعالى: (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)[١]وقال تعالى: (وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ)[٢]وقال تعالى: (واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)[٣]وقال تعالى: (والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)[٤].

وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أن اللّٰه عز وجل قال: «من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» وروى الخطيب البغدادي عن الشافعي وأبي حنيفة رضي اللّٰه عنهما قالا: إن لم تكن الفقهاء أولياء اللّٰه فليس للّٰه ولي. وفي كلام الشافعي: الفقهاء العاملون.

وعن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما: من آذى فقيهاً فقد آذى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، ومن آذى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقد آذى اللّٰه تعالى عز وجل. وفي الصحيح عنه صلى اللّٰه عليه وسلم: «من صلى الصبح فهو في ذمة اللّٰه فلا يطلبنكم اللّٰه بشيء من ذمته» وفي رواية: «فلا تخفروا اللّٰه في ذمته».

وقال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه اللّٰه: اعلم يا أخي وفقني اللّٰه وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة اللّٰه في هتك أستار منتقصهم معلومة. وإن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب، بلاه اللّٰه قبل موته بموت القلب.

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٥].

---

[١] الحج: ٣٢.
[٢] الحج: ٣٠.
[٣] الحجر: ٨٨.
[٤] الأحزاب: ٥٨.
[٥] النور: ٦٣.

باب - أقسام العلم الشرعي

هي ثلاثة:

أ- القسم الأول: فرض العين وهو تعلم المكلف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به ككيفية الوضوء والصلاة ونحوهما، وعليه حمل جماعات الحديث المروي في مسند أبي يعلى الموصلي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وهذا الحديث وإن لم يكن ثابتاً فمعناه صحيح. وحمله آخرون على فرض كفاية وإما أصل واجب الإسلام وما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقاده اعتقاداً جازماً سليماً من كل شك، ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين.

هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحداً بشيء سوى ما ذكرناه.

وكذلك الخلفاء الراشدون ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول بل الصواب للعوام وجماهير المتفقهين والفقهاء الكف عن الخوض في دقائق الكلام مخافة من اختلال يتطرق إلى عقائدهم يصعب عليهم إخراجه بل الصواب لهم الاقتصار على ما ذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم وقد نص على هذه الجملة جماعات من حذاق أصحابنا وغيرهم.

وقد بالغ إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى في تحريم الاشتغال بعلم الكلام أشد مبالغة، وأطنب في تحريمه وتغليظ العقوبة لمتعاطيه وتقبيح فعله وتعظيم الإثم فيه فقال: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام. وألفاظه بهذا المعنى كثيرة مشهورة.

وقد صنف الغزالي رحمه الله في آخر أمره كتابه المشهور الذي سماه «إلجام العوام عن علم الكلام» وذكر أن الناس كلهم عوام في هذا الفن من الفقهاء وغيرهم إلا الشاذ النادر الذي لا تكاد الأعصار تسمح بواحد منهم. والله أعلم.

ولو تشكك والعياذ بالله -في شيء من أصول العقائد مما لابد من اعتقاده ولم يزل شكه إلا بتعليم دليل من أدلة المتكلمين- وجب تعلم ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل.

(فرع) اختلفوا في آيات الصفات وأخبارها هل يخاض فيها بالتأويل أم لا؟ فقال قائلون تتأول على ما يليق بها. وهذا أشهر المذهبين للمتكلمين وقال آخرون لا تتأول بل يمسك عن الكلام في معناها، ويوكل علمها إلى الله تعالى ويعتقد مع ذلك تنزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحادث عنه.

فيقال مثلاً: نؤمن بأن الرحمن على العرش استوى. ولا نعلم حقيقة معنى ذلك. والمراد به مع أنا نعتقد أن الله تعالى (ليس كمثله شيء) وأنه منزه عن الحلول وسمات الحدوث وهذه طريقة السلف وجماهيرهم وهي أسلم إذ لا يطالب الإنسان بالخوض في ذلك، فإذا اعتقد التنزيه فلا حاجة إلى الخوض في ذلك والمخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه، فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء في هذا والله أعلم.

(فرع) ولا يلزم الإنسان تعلم كيفية الوضوء والصلاة وشبههما إلا بعد وجوب ذلك الشيء فإن كان بحيث لو صبر إلى دخول الوقت لم يتمكن من تمام تعلمها مع الفعل في الوقت فهل يلزمه التعلم قبل الوقت؟ تردد فيه الغزالي والصحيح ما جزم به غيره أنه يلزمه تقديم التعلم كما يلزم السعي إلى الجمعة لمن بعد منزلة قبل الوقت، ثم إذا كان الواجب على الفور كان تعلم الكيفية على الفور، وإن كان على التراخي كالحج فعلى التراخي، ثم الذي يجب من ذلك كله ما يتوقف أداء الواجب عليه غالباً دون ما يطرأ نادراً فإن وقع وجب التعلم حينئذ، وفي تعلم أدلة القبلة أوجه: أحدها فرض عين، والثاني كفاية، وأصحهما فرض كفاية إلا أن يريد سفراً فيتعين لعموم حاجة المسافر إلى ذلك.

(فرع) أما البيع والنكاح وشبههما مما لا يجب أصله فقال إمام الحرمين والغزالي وغيرهما يتعين على من أراده تعلم كيفيته وشرطه. وقيل لا يقال يتعين بل يقال يحرم الإقدام عليه إلا بعد معرفة شرطه وهذه العبارة أصح، وعبارتهما محمولة عليها. وكذا يقال في صلاة النافلة يحرم التلبس

بها على من لم يعرف كيفيتها ولا يقال يجب تعلم كيفيتها.

(فرع) يلزمه معرفة ما يحل وما يحرم من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها مما لا غنى له عنه غالباً وكذلك إحكام عشرة النساء إن كان له زوجة وحقوق المماليك إن كان له مملوك ونحو ذلك.

(فرع) قال الشافعي والأصحاب رحمهم الله: على الآباء والأمهات تعليم أولادهم الصغار ما سيتعين عليهم بعد البلوغ فيعلمه الولي الطهارة والصلاة والصوم ونحوهما، ويعرفه تحريم الزنا واللواط والسرقة وشرب المسكر والكذب والغيبة وشبهها، ويعرفه أن بالبلوغ يدخل في التكليف، ويعرفه ما يبلغ به. وقيل هذا التعليم مستحب والصحيح وجوبه وهو ظاهر نصه.

وكما يجب عليه النظر في ماله وهذا أولى وإنما المستحب ما زاد على هذا من تعليم القرآن وفقه وأدب. ويعرفه ما يصلح به معاشه ودليل وجوب تعليم الولد الصغير والمملوك قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُم وأَهْلِيكُم نَاراً).

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومجاهد وقتادة: معناه علموهم ما ينجون به من النار. وهذا ظاهر وثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كلكم راع ومسئول عن رعيته».

ثم أجرة التعليم في النوع الأول في مال الصبي فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته.

وأما الثاني فذكر الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي صاحب التهذيب فيه وجهين وحكاهما غيره: أصحهما في مال الصبي لكونه مصلحة له.

والثاني في مال الولي لعدم الضرورة إليه. واعلم أن الشافعي والأصحاب إنما جعلوا للأم مدخلاً في وجوب التعليم لكونه من التربية وهي واجبة عليها كالنفقة والله أعلم.

(فرع) أما علم القلب وهو معرفة أمراض القلب كالحسد والعجب وشبههما فقال الغزالي معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين. وقال غيره: إن رزق المكلف قلباً سليماً من هذه الأمراض المحرمة كفاه

ذلك ولا يلزمه تعلم دوائها، وإن لم يسلم نظر، إن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلم لزمه التطهير كما يلزمه ترك الزنا ونحوه من غير تعلم أدلة الترك. وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين حينئذ والله أعلم.

ب- القسم الثاني: فرض الكفاية وهو تحصيل ما لابد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية كحفظ القرآن والأحاديث وعلومهما، والأصول، والفقه، والنحو، واللغة، والتصرف. ومعرفة رواة الحديث، والإجماع، والخلاف. وأما ما ليس علماً شرعياً ويحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب ففرض كفاية أيضاً نص عليه الغزالي. واختلفوا في تعلم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالخياطة والفلاحة ونحوهما واختلفوا أيضاً في أصل فعلها فقال إمام الحرمين والغزالي: ليست فرض كفاية.

وقال الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري المعروف بالكيا الهراسي صاحب إمام الحرمين: هي فرض كفاية وهذا أظهر. قال أصحابنا: وفرض الكفاية المراد به تحصيل ذلك الشيء من المكلفين به أو بعضهم ويعم وجوبه جميع المخاطبين، فإذا فعله من تحصل به الكفاية سقط الحرج عن الباقين وإذا قام به جمع تحصل الكفاية ببعضهم فكلهم سواء في حكم القيام بالفرض في الثواب وغيره، فإذا صلى على جنازة جمع ثم جمع ثم جمع فالكل يقع فرض كفاية. ولو أطبقوا كلهم على تركه أثم كل من لا عذر له ممن علم ذلك وأمكنه القيام به أو لم يعلم وهو قريب أمكنه العلم بحيث ينسب إلى تقصير، ولا يأثم من لم يتمكن لكونه غير أهل أو لعذر.

ولو اشتغل بالفقه ونحوه وظهرت نجابته فيه ورجي فلاحه وتبريزه فوجهان: أحدهما يتعين عليه الاستمرار لقلة من يحصل هذه المرتبة. فينبغي ألا يضيع ما حصله وما هو بصدد تحصيله. وأصحهما: لا يتعين لأن الشروع لا يغير المشروع فيه عندنا إلا في الحج والعمرة.

ولو خلت البلدة من مفت فقيل يحرم المقام بها والأصح لا يحرم إن

أمكن الذهاب إلى مفت. وإذا قام بالفتوى إنسان في مكان سقط به فرض الكفاية إلى مسافة القصر من كل جانب.

واعلم أن للقائم بفرض الكفاية مزية على القائم بفرض العين لأنه أسقط الحرج عن الأمة. وقد قدمنا كلام إمام الحرمين في هذا في فصل ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة القاصرة.

جـ - القسم الثالث: النفل وهو كالتبحر في أصول الأدلة، والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية، وكتعلم العامي نوافل العبادات لغرض العمل لا ما يقوم به العلماء من تمييز الفرض من النفل فإن ذلك فرض كفاية في حقهم والله أعلم.

فصل

قد ذكرنا أقسام العلم الشرعي: ومن العلوم الخارجة عنه ما هو محرم، أو مكروه، ومباح.

فالمحرم كتعلم السحر فإنه حرام على المذهب الصحيح وبه قطع الجمهور وفيه خلاف يذكره في الجنايات حيث ذكره المصنف إن شاء الله تعالى. وكالفلسفة والشعبذة والتنجيم وعلوم الطبائعيين وكل ما كان سبباً لإثارة الشكوك ويتفاوت في التحريم.

والمكروه كأشعار المولدين التي فيها الغزل والبطالة.

والمباح كأشعار المولد التي ليس فيها سخف ولا شيء مما يكره ولا ما ينشط إلى الشر ولا ما يثبط عن الخير ولا ما يحث على خير أو يستعان به عليه.

فصل - تعليم الطالبين، وإفتاء المستفتين فرض كفاية فإن لم يكن هناك من يصلح إلا واحد تعين عليه وإن كان جماعة يصلحون فطلب ذلك من أحدهم فامتنع فهل يأثم ذكروا وجهين في المفتي. والظاهر جريانهما في المعلم وهما كالوجهين في امتناع أحد الشهود والأصح لا يأثم.

ويستحب للمعلم أن يرفق بالطالب ويحسن إليه ما أمكنه؛ فقد روى الترمذي بإسناده عن أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول: مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

باب آداب المعلم

هذا الباب واسع جداً وقد جمعت فيه نفائس كثيرة لا يحتمل هذا الكتاب عشرها فاذكر إن شاء الله تعالى نبذاً منه.

فمن آدابه أدبه في نفسه وذلك في أمور:

منها أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى ولا يقصد توصلاً إلى غرض دنيوي كتحصيل مال أو جاه أو شهرة أو سمعة أو تميز عن الأشباه أو تكثر بالمشتغلين عليه أو المختلفين إليه أو نحو ذلك. ولا يشين علمه وتعليمه بشيء من الطمع في رفق تحصل له من مشتغل عليه من خدمة أو مال أو نحوهما وإن قل، ولو كان على صورة الهدية التي لولا اشتغاله عليه لما أهداها إليه.

ودليل هذا كله ما سبق في باب ذم من أراد بعلمه غير الله تعالى من الآيات والأحاديث. وقد صح عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إليّ حرف منه، وقال رحمه الله تعالى: ما ناظرت أحداً قط على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه. وقال ما كلمت أحداً قط إلا وددت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ.

وعن أبي يوسف رحمه الله تعالى قال: يا قوم أريدوا بعلمكم الله فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى افتضح.

ومنها أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها وحث عليها، والخلال الحميدة، والشيم المرضية التي أرشد إليها من التزهد في الدنيا، والتقلل منها وعدم المبالات بفواتها، والسخاء، والجود، ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة، والحلم، والصبر، والتنزه عن دنيء الاكتساب، وملازمة الورع، والخشوع، والسكينة، والوقار، والتواضع، والخضوع، واجتناب الضحك والإكثار من المزح، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية كالتنظيف بإزالة الأوساخ، وتنظيف الإبط وإزالة الروائح الكريهة، واجتناب الروائح المكروهة، وتسريح اللحية.

ومنها الحذر من الحسد، والرياء، والإعجاب، واحتقار الناس، وإن كانوا دونه بدرجات. وهذه أدواء وأمراض يبتلى بها كثيرون من أصحاب الأنفس الخسيسات.

وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة اللّٰه تعالى اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة ولم[١]يذم اللّٰه احترازاً من المعاصي.

وطريقه في نفي الرياء أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة؛ فلا يتشاغل بمراعاتهم، فيتعب نفسه، ويضر دينه، ويحبط عمله، ويرتكب سخط اللّٰه تعالى، ويفوت رضاه.

وطريقه في نفي الإعجاب أن يعلم أن العلم فضل من اللّٰه تعالى ومعه عارية فإن للّٰه ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه وليس مالكاً له ولا على يقين من دوامه.

وطريقه في نفي الاحتقار التأدب بما أدبنا اللّٰه تعالى قال اللّٰه تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)[٢]وقال تعالى: (إن أكرمكم عند اللّٰه أتقاكم)[٣]فربما كان هذا الذي يراه دونه أتقى للّٰه وأطهر قلباً وأخلص نية وأزكى عملاً ثم إنه لا يعلم ماذا يختم له به ففي الصحيح: «إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة» الحديث نسأل اللّٰه العافية من كل داء.

ومنها استعماله أحاديث التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات وسائر الآداب الشرعيات.

ومنها دوام مراقبته للّٰه تعالى في علانيته وسره محافظاً على قراءة القرآن ونوافل الصلوات والصوم وغيرهما معولاً على اللّٰه تعالى في كل أمره معتمداً عليه مفوضاً في كل الأحوال أمره إليه.

ومنها وهو من أهمها أن لا يذل العلم، ولا يذهب به إلى مكان ينتسب إلى من يتعلمه منه وإن كان المتعلم كبير القدر بل يصون العلم

---

[١] هكذا في نسخة وفي أخرى ولم يذمه اللّٰه وكلتا العبارتين تحتاج إلى تأمل وتحرير.

[٢] النجم: ٣٢.

[٣] الحجرات: ١٣.

عن ذلك كما صانه السلف. وأخبارهم في هذا كثيرة مشهورة مع الخلفاء وغيرهم. فإن دعت إليه ضرورة أو اقتضت مصلحة راجحة على مفسدة ابتذاله رجونا أنه لا بأس به مادامت الحالة هذه، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف في هذا.

ومنها أنه إذا فعل فعلاً صحيحاً جائزاً في نفس الأمر، ولكن ظاهره أنه حرام، أو مكروه، أو مخل بالمروءة ونحو ذلك فينبغي له أن يخبر أصحابه ومن يراه يفعل ذلك بحقيقة ذلك الفعل لينتفعوا ولئلا يأثموا بظنهم الباطل. ولئلا ينفروا عنه ويمتنع الانتفاع بعلمه ومن هذا الحديث الصحيح «إنها صفيةَ»[١].

---

[١] كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمشي ليلاً مع صفية زوجته رضي اللّه عنها فرآه بعض الصحابة فأسرعوا بالابتعاد عنه فناداهم رسول اللّه وقال: (إنها صفية، وإنما فعل ذلك ليقطع على الشيطان طريق الوسوسة إليهم.

فصل

ومن آدابه أدبه في درسه واشتغاله، فينبغي أن لا يزال مجتهداً في الاشتغال بالعلم قراءة وإقراءاً، ومطالعة، وتعليقا، ومباحثة، ومذاكرة، وتصنيفا، ولا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين أو في علم آخر؛ بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده وإن كان دونه في جميع هذا.

ولا يستحيي من السؤال عما لم يعلم؛ فقد روينا عن عمر وابنه رضي الله عنهما قالا: من رق وجهه رق علمه. وعن مجاهد: لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين». وقال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالماً ما تعلم فإذا ترك العلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون.

وينبغي أن لا يمنعه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه؛ فقد كان كثيرون من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم. وقد ثبت في الصحيح رواية جماعة من الصحابة عن التابعين، وروى جماعات من التابعين عن تابعي التابعين. وهذا عمرو بن شعيب ليس تابعياً وروى عنه أكثر من سبعين من التابعين.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: (لم يكن الذين كفروا) على أبي بن كعب رضي الله عنه وقال: «أمرني الله أن أقرأ عليك»، فاستنبط العلماء من هذا فوائد: منها بيان التواضع وأن الفاضل لا يمتنع من القراءة على المفضول. وينبغي أن تكون ملازمة الاشتغال بالعلم هي مطلوبه ورأس ماله فلا يتشغل بغيره فإن اضطر إلى غيره في وقت فعل ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم.

وينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له فيه يطلع على حقائق العلم ودقائقه ويثبت معه لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة والاطلاع على مختلف كلام الأئمة، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد.

وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه. وليحذر أيضاً من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها؛ فلا يوضح إيضاحاً ينتهي إلى الركاكة، ولا يوجز إيجازاً يفضي إلى المحق والاستغلاق.

وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يسبق إليه أكثر. والمراد بهذا أن لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها مع ضم ما فاته من الأساليب. وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج إليه، وليعتن بعلم المذهب فإنه من أعظم الأنواع نفعاً وبه يتسلط المتمكن على المعظم من باقي العلوم.

ومن آدابه: آداب تعليمه؛ اعلم أن التعليم هو الأصل الذي به قوام الدين، وبه يؤمن إمحاق العلم فهو من أهم أمور الدين، وأعظم العبادات، وآكد فروض الكفايات.

قال اللّٰه تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ)[١]وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا)[٢]الآية.

وفي الصحيح من طرق أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب» والأحاديث بمعناه كثيرة، والإجماع منعقد عليه.

ويجب على المعلم أن يقصد بتعليمه وجه اللّٰه تعالى لما سبق وألا يجعله وسيلة إلى غرض دنيوي فيستحضر المعلم في ذهنه كون التعليم آكد العبادات ليكون ذلك حاثاً له على تصحيح النية ومحرضاً له على صيانته من مكدراته ومن مكروهات مخافة فوات هذا الفضل العظيم والخير الجسيم.

---

[١] آل عمران: ١٨٧.

[٢] البقرة: ١٥٩، وتمامها: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ؛ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ).

قالوا: وينبغي أن لا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية فإنه يرجى له حسن النية. وربما عسر في كثير من المبتدئين بالاشتغال تصحيح النية لضعف نفوسهم وقلة أنسهم بموجبات تصحيح النية فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم مع أنه يرجى ببركة العلم تصحيحها إذا أنس بالعلم.

وقد قالوا: طلبنا العلم لغير اللّٰه فأبى أن يكون إلا للّٰه. معناه كانت عاقبته أن صار للّٰه. وينبغي أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية والشيم المرضية، ورياضة نفسه بالآداب والدقائق الخفية وتعوده الصيانة في جميع أموره الكامنة والجلية.

فأول ذلك أن يحرضه بأقواله وأحواله المتكررات على الإخلاص، والصدق، وحسن النيات، ومراقبة اللّٰه تعالى في جميع اللحظات، وأن يكون دائماً على ذلك حتى الممات، ويعرفه أن بذلك تنتفح عليه أبواب المعارف، وينشرح صدره وتتفجر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف، ويبارك له في حاله وعلمه، ويوفق للإصابة في قوله وفعله وحكمه، ويزهده في الدنيا، ويصرفه عن التعلق بها، والركون إليها، والاغترار بها، ويذكره أنها فانية والآخرة آتية باقية. والتأهب للباقي والإعراض عن الفاني هو طريق الحازمين ودأب عباد اللّٰه الصالحين.

وينبغي أن يرغبه في العلم ويذكره بفضائله وفضائل العلماء وأنهم ورثة الأنبياء صلوات اللّٰه وسلامه عليهم، ولا رتبة في الوجود أعلى من هذه. وينبغي أن يحنو عليه ويعتني بمصالحه كاعتنائه بمصالح نفسه وولده ويجريه مجرى ولده في الشفقة عليه والاهتمام بمصالحه والصبر على جفائه وسوء أدبه ويعذره في سوء أدب وجفوة تعرض منه في بعض الأحيان، فإن الإنسان معرض للنقائص، وينبغي أن يحب له ما يحب لنفسه من الخير، ويكره له ما يكرهه لنفسه من الشر، ففي الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وعن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال: أكرم الناس عليّ جليسي الذي يتخطى الناس حتى يجلس إليّ، لو استطعت ألا يقع الذباب على وجهه لفعلت. وفي رواية: إن الذباب يقع عليه فيؤذيني.

وينبغي أن يكون سمحاً يبذل ما حصله من العلم سهلاً بإلقائه إلى مبتغيه متلطفاً في إفادته طالبيه مع رفق ونصيحة، وإرشاد إلى المهمات، وتحريض على حفظ ما يبذله لهم من الفوائد النفيسات، ولا يدخر عنهم من أنواع العلم شيئاً يحتاجون إليه إذا كان الطالب أهلاً لذلك، ولا يلقي إليه شيئا لم يتأهل له لئلا يفسد عليه حاله؛ فلو سأله المتعلم عن ذلك لم يجبه ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه وأنه لم يمنعه ذلك شحاً بل شفقة ولطفاً.

وينبغي أن لا يتعظم على المتعلمين بل يلين لهم ويتواضع فقد أمر بالتواضع لآحاد الناس. قال الله تعالى: (واخفض جناحك للمؤمنين)[١].

وعن عياض بن حماد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا» رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» رواه مسلم.

فهذا في التواضع لمطلق الناس فكيف بهؤلاء الذين هم كأولاده مع ما هم عليه من الملازمة لطلب العلم ومع ما لديهم عليه من حق الصحبة وترددهم إليه واعتمادهم عليه.

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لينوا لمن تعلمون، ولمن تتعلمون منه». وعن الفضيل بن عياض رحمه الله: إن الله عز وجل يحب العالم المتواضع ويبغض العالم الجبار. ومن تواضع لله تعالى ورثه الحكمة.

وينبغي أن يكون حريصاً على تعليمهم، مهتماً به، مؤثراً له على حوائج نفسه ومصالحه ما لم تكن ضرورة. ويرحب بهم عند إقبالهم إليه لحديث أبي سعيد السابق. ويظهر لهم البشر وطلاقة الوجه ويحسن إليهم بعلمه وماله وجاهه بحسب التيسير، ولا يخاطب الفاضل منهم باسمه بل بكنيته ونحوها، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكني أصحابه إكراماً لهم وتسنية لأمورهم».

[١] الحجر: ٨٨.

وينبغي أن يتفقدهم ويسأل عمن غاب منهم. وينبغي أن يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصاً على هدايتهم، ويفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه فلا يعطيه ما لا يحتمله ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة ويخاطب كل واحد على قدر درجته ويحسب فهمه وهمته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً محققاً، ويوضح العبارة لغيره ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار.

ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن لا ينحفظ له الدليل فإن جهل دليل بعضها ذكره له ويذكر الدلائل لمحتملها ويذكر هذا ما بينا على هذه المسألة وما يشبهها وحكمه حكمها وما يقاربها وهو مخالف لها ويذكر الفرق بينهما ويذكر ما يرد عليها وجوابه إن أمكنه.

ويبين الدليل الضعيف لئلا يغتر به فيقول: استدلوا بكذا وهو ضعيف لكذا. ويبين الدليل المعتمد ليعتمد ويبين له ما يتعلق بها من الأصول والأمثال والأشعار واللغات وينبههم على غلط فيها من المصنفين، فيقول مثلاً: هذا هو الصواب، وأما ما ذكره فلان فغلط أو فضعيف، قاصداً النصيحة لئلا يغتر به لا لتنقص للمصنف، ويبين له على التدريج قواعد المذهب التي لا تنخرم غالباً كقولنا: إذا اجتمع سبب ومباشرة قدمنا المباشرة، وإذا اجتمع أصل وظاهر ففي المسألة غالباً قولان، وإذا اجتمع قولان قديم وجديد، فالعمل غالباً بالجديد إلا في مسائل معدودة سنذكرها قريباً إن شاء الله تعالى.

وأن من قبض شيئاً لغرضه لا يقبل قوله في الرد إلى المالك ومن قبضه لغرض المالك قبل قوله في الرد إلى المالك لا إلى غيره، وأن الحدود تسقط بالشبهة وأن الأمين إذا فرط ضمن، وأن العدالة والكفاية شرط في الولايات وأن فرض الكفاية إذا فعله من يحصل به المطلوب سقط الحرج عن الباقين وإلا أثموا كلهم بالشرط الذي قدمناه.

وأن من ملك إنشاء عقد ملك الإقرار به، وأن النكاح والنسب مبنيان على الاحتياط، وأن الرخص لا تباح بالمعاصي، وأن الاعتبار في الأيمان بأنه أو العتاق أو الطلاق أو غيرها بنية الحالف إلا أن يكون المستحلف قاضياً فاستحلفها لله تعالى لدعوى اقتضته فإن الاعتبار بنية القاضي أو

نائبه إن كان الحالف يوافقه في الاعتقاد فإن خالفه كحنفي استحلف شافعياً في شفعة الجوار ففيمن نعتبر نيته وجهان، وأن اليمين التي يستحلف بها القاضي لا تكون إلا بالله تعالى وصفاته. وأن الضمان يجب في مال المتلف بغير حق سواء كان مكلفاً أو غيره بشرط كونه من أهل الضمان في حق المتاب عليه.

فقولنا من أهل الضمان اختراز من إتلاف المسلم مال حربي ونفسه وعكسه، وقولنا في حقه احتراز من إتلاف العبد مال سيده إلا أن يكون المتلف قاتلاً خطأ أو شبه عمد فإن الدية على عاقلته.

وأن السيد لا يثبت له مال في ذمة عبده ابتداء، وفي ثبوته دواماً وجهان، وأن أصل الجمادات الطهارة إلا الخمر، وكل نبيذ مسكر، وأن الحيوان على الطهارة إلا الكلب والخنزير وفرع أحدهما.

ويبين له جملاً مما يحتاج إليه وينضبط له من أصول الفقه وترتيب الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس واستصحاب الحال عند من يقول به، ويبين له أنواع الأقيسة ودرجاتها وكيفية استثمار الأدلة.

ويبين حد الأمر والنهي والعموم والخصوص والمجمل والمبين والناسخ والمنسوخ وأن صيغة الأمر على وجه وأنه عند تجرده يحمل على الوجوب عند جماهير الفقهاء وأن اللفظ يحمل على عمومه وحقيقته حتى يرده دليل تخصيص ومجاز.

وأن أقسام الحكم الشرعي خمسة: الوجوب، والندب، والتحريم، والكراهة، والإباحة. وينقسم باعتبار آخر إلي: صحيح وفاسد؛ فالواجب ما يذم تاركه شرعاً على بعض الوجوه احترازاً من الواجب الموسع، والمخير، وقيل ما يستحق العقاب تاركه فهذان أصح ما قيل فيه. والمندوب ما رجح فعله شرعاً وجاز تركه، والمحرم ما يذم فاعله شرعاً والمكروه ما نهى عنه الشرع نهياً غير جازم، والمباح ما جاء الشرع بأنه لا فرق بين فعله وتركه في حق المكلف، والباطل والفاسد خلاف الصحيح.

ويبين له جملاً من أسماء المشهورين من الصحابة رضي الله عن جميعهم؛ فمن بعدهم من العلماء الأخيار وأنسابهم وكناهم وأعصارهم وطرف حكايتهم، ونوادرهم وضبط المشكل من أنسابهم وصفاتهم وتمييز المشتبه من

ذلك وجملاً من الألفاظ اللغوية والعرفية المتكررة في الفقه ضبطاً لمشكلها وخفي معانيها؛ فيقول هي مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة مخففة أو مشددة مهموزة أو لا، عربية أو عجمية أو معربة وهي التي أصلها عجمي وتكلمت بها العرب، مصروفة أو غيرها مشتقة أم لا. مشتركة أم لا، وأن فيها لغة أخرى أم لا.

ويبين ما ينضبط من قواعد التصريف كقولنا ما كان على فعل بفتح الفاء وكسر العين فمضارعه يفعل بفتح العين إلا أحرفاً جاء فيهن الفتح والكسر من الصحيح والمعتل، فالصحيح دون عشرة أحرف كنعم وبئس وحسب، والمعتل كوتر ووبق وورم وورى الزند وغيرهن، وأما ما كان من الأسماء والأفعال على فعل بكسر العين جاز فيه أيضاً إسكانها مع فتح الفاء وكسرها فإن كان الثاني أو الثالث حرف حلق جاز فيه وجه رابع فعل بكسر الفاء والعين.

وإذا وقعت مسألة غريبة لطيفة أو مما يسأل عنها في المعايات نبهه عليها وعرفه حالها في كل ذلك، ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجاً شيئاً فشيئاً لتجتمع لهم مع طول الزمان جمل كثيرات.

وينبغي أن يحرضهم على الاشتغال في كل وقت ويطالبهم في أوقات بإعادة محفوظاتهم ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات، فمن وجده حافظه مراعياً له أكرمه وأثنى عليه وأشاع ذلك ما لم يخف فساد حاله بإعجاب ونحوه. ومن وجده مقصراً عنفه إلا أن يخاف تنفيره ويعيده له حتى يحفظه حفظاً راسخاً. وينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً ولا يحسد أحداً منهم لكثرة تحصيله فالحسد حرام للأجانب؛ وهنا أشد فإنه بمنزلة الولد وفضيلته يعود إلى معلمه منها نصيب وافر، فإنه مربيه وله في تعليمه وتخريجه في الآخرة الثواب الجزيل وفي الدنيا الدعاء المستمر والثناء الجميل.

وينبغي أن يقدم في تعليمهم إذا ازدحموا الأسبق فالأسبق ولا يقدمه في أكثر من درس إلا برضا الباقين وإذا ذكر لهم درساً تحرى تفهيمهم بأيسر الطرق، ويذكره مترسلاً مبيناً واضحاً، ويكرر ما يشكل من معانيه وألفاظه إلا إذا وثق بأن جميع الحاضرين يفهمونه بدون ذلك، وإذا لم

يكمل البيان إلا بالتصريح بعبارة يستحيى في العادة من ذكرها فليذكرها بصريح اسمها، ولا يمنعه الحياء ومراعاة الأدب من ذلك فإن إيضاحها أهم من ذلك وإنما تستحب الكناية في مثل هذا إذا علم بها المقصود علماً جلياً.

وعلى هذا التفصيل يحمل ما ورد في الأحاديث من التصريح في وقت، والكناية في وقت، ويؤخر ما ينبغي تأخيره ويقدم ما ينبغي تقديمه ويقف في موضع الوقف، ويصل في موضع الوصل.

وإذا وصل موضع الدرس صلى ركعتين فإن كان مسجداً تأكد الحث على الصلاة ويقعد مستقبلاً القبلة على طهارة متربعاً إن شاء وإن شاء محتبياً وغير ذلك ويجلس بوقار وثيابه نظيفة بيض. ولا يعتني بفاخر الثياب ولا يقتصر على خلق ينسب صاحبه إلى قلة المروءة.

ويحسن خلقه مع جلسائه ويوقر فاضلهم بعلم أو سن أو شرف أو صلاح ونحو ذلك، ويتلطف بالباقين، ويرفع مجلس الفضلاء ويكرمهم بالقيام لهم على سبيل الاحترام وقد ينكر القيام من لا تحقيق عنده، وقد جمعت جزءاً فيه الترخيص فيه ودلائله والجواب عن ما يوهم كراهته.

وينبغي أن يصون يديه عن العبث وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة ويلتفت إلى الحاضرين التفاتاً قصداً بحسب الحاجة للخطاب ويجلس في موضع يبرز فيه وجهه لكلهم. ويقدم على الدرس تلاوة ما تيسر من القرآن ثم يبسمل ويحمد الله تعالى ويصلي ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعو للعلماء الماضين من مشايخه ووالديه والحاضرين وسائر المسلمين، ويقول حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم إني أعوذ بك أن أضِل أو أُضل، أو أزل أو أُزَل، أوْ أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهَل عليّ.

حديث

فإن ذكر دروساً قدم أهمها فيقدم التفسير، ثم الحديث، ثم الأصولين، ثم المذهب، ثم الخلاف، ثم الجدل. ولا يذكر الدرس وبه ما يزعجه كمرض، أو جوع، أو مدافعة الحدث، أو شدة فرح وغم، ولا يطول مجلسه تطويلاً يملهم أو يمنعهم فهم بعض الدروس أو ضبطه لأن المقصود إفادتهم وضبطهم

فإذا صاروا إلى هذه الحالة فإنه المقصود.

وليكن مجلسه واسعاً، ولا يرفع صوته زيادة على الحاجة، ولا يخفضه خفضاً يمنع بعضهم كمال فهمه، ويصون مجلسه من اللغط، والحاضرين عن سوء الأدب في المباحثة. وإذا ظهر من أحدهم شيء من مبادئ ذلك تلطف في دفعه قبل انتشاره ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة بل شأننا الرفق والصفاء واستفادة بعضنا من بعض واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة.

وإذا سأل سائل عن أعجوبة فلا يسخرون منه، وإذا سئل عن شيء لا يعرفه أو عرض في الدرس مالاً يعرفه؛ فليقل لا أعرفه أو لاأتحققه، ولا يستنكف عن ذلك فمن علم العالم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم أو الله أعلم.

فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإنه من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) رواه البخاري. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نهينا عن التكلف. رواه البخاري.

وقالوا ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري: معناه يكثر منها، وليعلم أن معتقد المحققين أن قول العالم لا أدري لا يضع منزلته بل هو دليل على عظم محله وتقواه وكمال معرفته لأن المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة؛ بل يستدل بقوله لا أدري على تقواه وأنه لا يجازف في فتواه؛ وإنما يمتنع من لا أدري من قل علمه، وقصرت معرفته، وضعفت تقواه؛ لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين الحاضرين وهو جهالة منه؛ فإنه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم ولا يرفعه ذلك عما عرف له من القصور؛ بل يستدل به على قصوره.

لأنا إذا رأينا المحققين يقولون في كثير من الأوقات لا أدري؛ وهذا القاصر لا يقولها أبداً، علمنا أنهم يتورعون لعلمهم وتقواهم؛ وأنه يجازف لجهله وقلة دينه؛ فوقع فيما فر عنه واتصف بما احترز منه لفساد نيته وسوء طويته، وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

فصل

وينبغي للمعلم أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل؟ ويختبر بذلك أفهامهم، ويظهر فضل الفاضل، ويثني عليه بذلك ترغيباً له وللباقين في الاشتغال والفكر في العلم، وليتدربوا بذلك ويعتادوه، ولا يعنف من غلط منهم في كل ذلك إلا أن يرى تعنيفه مصلحة له، وإذا فرغ من تعليمهم أو إلقاء درس عليهم أمرهم بإعادته ليرسخ حفظهم له فإن أشكل عليهم منه شيء ما عاودوا الشيخ في إيضاحه.

فصل

ومن أهم ما يؤمر به ألا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره، وهذه مصيبة يبتلى بها جملة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله تعالى الكريم وقد قدمنا عن علي رضي الله عنه الإغلاظ في ذلك والتأكيد في التحذير منه، وهذا إذا كان المعلم الآخر أهلا فإن كان فاسقاً أو مبتدعاً أو كثير الغلط ونحو ذلك فليحذر من الاغترار به وبالله التوفيق.

باب آداب المتعلم

أما آدابه في نفسه ودرسه فكآداب المعلم وقد أوضحناها، وينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره.

ففي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». وقالوا: تطييب القلب للعلم كتطييب الأرض للزراعة. وينبغي أن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد في التحصيل ويرضى باليسير من القوت ويصبر على ضيق العيش.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح. وقال أيضاً: لا يدرك العلم إلا بالصبر على الذل. وقال أيضاً: لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس فقيل ولا الغني المكفي؟ فقال: ولا الغني المكفي. وقال مالك بن أنس رحمه الله: لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل شيء. وقال أبو حنيفة رحمه الله: يستعان على الفقه بجمع الهم ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا يزد.

وقال إبراهيم الآجري: من طلب العلم بالفاقة ورث الفهم. وقال الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لآداب الراوي والسامع: يستحب للطالب أن يكون عزباً ما أمكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم واحتج بحديث: «خيركم بعد المائتين خفيف الحال وهو الذي لا أهل له ولا ولد»[١]وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله: من تعود أفخاذ النساء لم يفلح، يعني اشتغل بهن. وهذا في غالب الناس لا الخواص. وعن سفيان الثوري: إذا تزوج الفقيه فقد ركب البحر

---

[١] الخطيب البغدادي الذي ذكر هذا الحديث في كتابه ليس من علماء فن الحديث ولم يذكر من أين نقله ولا من أخرجه فلا يعول عليه ولا يحتج بمثل هذا الحديث.

فإن ولد له فقد كسر به.

وقال سفيان لرجل: تزوجت؟ فقال: لا، قال: ما تدري ما أنت فيه من العافية. وعن بشر الحافي رحمه الله: من لم يحتج إلى النساء فليتق الله ولا يألف أفخاذهن.

قلت: هذا كله موافق لمذهبنا فإن مذهبنا أن من لم يحتج إلى النكاح استحب له تركه وكذا إن احتاج وعجز عن مؤنته. وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء»[١].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعلمون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

وينبغي له أن يتواضع للعلم والمعلم فبتواضعه يناله، وقد أمرنا بالتواضع مطلقاً فهنا أولى. وقد قالوا: العلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي. وينقاد لمعلمه ويشاوره في أموره ويأتمر بأمره كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح وهذا أولى لتفاوت مرتبتهما.

قالوا: ولا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته وسيادته. فقد قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

ولا يكفي في أهلية التعليم أن يكون كثير العلم بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية فإنها مرتبطة ويكون له دربة ودين وخلق جميل وذهن صحيح

---

[١] المراد بالنساء هنا وفي الحديث بعده النساء الفاجرات، أما الحرائر فلا وقد حث رسول الله على الزواج حتى أنه صلى الله عليه وسلم لما علم أن بعض الصحابة عزم على الإضراب عن الزواج قال له: «أما أنا فأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني».

واطلاع تام.

وقالوا: ولا تأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب من غير قراءة على شيوخ أو شيخ حاذق. وينبغي أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على أكثر طبقته فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه.

وقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحاً رفيقاً هيبة له لئلا يسمع وقعها. وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له.

قال حمدان بن الأصفهاني: كنت عند شريك رحمه الله فأتاه بعض أولاد المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا ثم عاد فعاد لمثل ذلك فقال: أتستخف بأولاد الخلفاء؟ فقال شريك: لا ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضعه فجثا على ركبتيه فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه ولا تشيرن عنده بيدك، ولا تعمدن بعينك غيره، ولا تقولن قال فلان خلاف قوله، ولا تغتابن عنده أحداً ولا تسار في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته؛ فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

ومن آداب المتعلم: أن يتحرى رضى المعلم وإن خالف رأي نفسه، ولا يغتاب عنده، ولا يفشي له سراً. وأن يرد غيبته إذا سمعها فإن عجز فارق ذلك المجلس. وألا يدخل عليه بغير إذن وإذا دخل جماعة قدموا أفضلهم وأسنهم. وأن يدخل كامل الهيبة، فارغ القلب من الشواغل، متطهراً، متنظفاً بسواك وقص شارب وظفر وإزالة كريه رائحة، ويسلم على الحاضرين كلهم بصوت يسمعهم إسماعاً محققاً. ويخص الشيخ بزيادة إكرام

وكذلك يسلم إذا انصرف. ففي الحديث الأمر بذلك ولا التفات إلى من أنكره، وقد أوضحت هذه المسألة في كتاب الأذكار.

ولا يتخطى رقاب الناس ويجلس حيث انتهى به المجلس إلا أن يصرح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدم والتخطي أو يعلم من حالهم إيثار ذلك. ولا يقيم أحداً من مجلسه فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه إلا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين بأن يقرب من الشيخ ويذاكره مذاكرة ينتفع الحاضرون بها ولا يجلس وسط الحلقة ولا بين صاحبين إلا برضاهما.

وإذا فسح له قعد وضم نفسه، ويحرص على القرب من الشيخ ليفهم كلامه فهماً كاملاً بلا مشقة، وهذا بشرط أن لا يرتفع في المجلس على أفضل منه. ويتأدب مع رفقته وحاضري المجلس، فإن تأدبه معهم تأدب مع الشيخ واحترام لمجلسه.

ويقعد قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين، ولا يرفع صوته رفعاً بليغاً من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يكثر الكلام بلا حاجة. ولا يعبث بيده ولا غيرها. ولا يلتفت بلا حاجة بل يقبل على الشيخ مصغياً إليه ولا يسبقه إلى شرح مسألة أو جواب سؤال إلا أن يعلم من حال الشيخ إيثار ذلك ليستدل به على فضيلة المتعلم.

ولا يقرأ عليه عند شغل قلب الشيخ وملله وغمه ونعاسه واستيفازه ونحو ذلك مما يشق عليه، أو يمنعه استيفاء الشرح. ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه.

ولا يلح في السؤال إلحاحاً مضجراً، ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه ويتلطف في سؤاله. ويحسن خطابه ولا يستحيي من السؤال عما أشكل عليه بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رق وجهه رق علمه. ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال.

وإذا قال له الشيخ أفهمت فلا يقل نعم حتى يتضح له المقصود إيضاحاً جلياً لئلا يكذب ويفوته الفهم. ولا يستحيي من قوله لم أفهم لأن استيثاقه يحصل له مصالح عاجلة وآجلة. فمن العاجلة حفظه المسألة

وسلامته من كذب ونفاق بإظهار فهم ما لم يكن فهمه. ومنها اعتقاد الشيخ اعتناءه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه وعدم نفاقه، ومن الآجلة ثبوت الصواب في قلبه دائماً واعتياده هذه الطريقة المرضية والأخلاق الرضية.

وعن الخليل بن أحمد رحمه الله: منزلة الجهل بين الحياء والأنفة. وينبغي إذا سمع الشيخ يقول مسألة أو يحكي حكاية وهو يحفظها أن يصغي لها إصغاء من لم يحفظها إلا إذا علم من حال الشيخ إيثاره علمه بأن المعلم حافظها.

وينبغي أن يكون حريصاً على التعلم مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً، حضراً وسفراً، ولا يذهب من أوقاته شيئاً في غير العلم إلا بقدر الضرورة لأكل ونوم قدراً لابد منه ونحوهما كاستراحة يسيرة لإزالة الملل وشبه ذلك من الضروريات.

وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوتها. وقد قال الشافعي رحمه الله في رسالته: حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه.

وفي صحيح مسلم عن يحيى بن أبي كثير قال: لا يستطاع العلم براحة الجسم. ذكره في أوائل مواقيت الصلاة. قال الخطيب البغدادي: أجود أوقات الحفظ الأسحار، ثم نصف النهار، ثم الغداة؛ وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع. قال: وأجود أماكن الحفظ الغرف، وكل موضع بعد عن الملهيات. وقال: وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق لأنها تمنع غالباً خلو القلب.

وينبغي أن يصبر على جفوة شيخه وسوء خلقه، ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله، ويتأول لأفعاله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق.

وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار وأظهر أن الذنب له والعتب

عليه، فذلك أنفع له ديناً ودنيا، وأبقى لقلب شيخه. وقد قالوا: من لم يصبر على ذل التعلم بقى عمره في عماية الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا. ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالباً فعززت مطلوباً.

ومن آدابه الحلم والأناة وأن يكون همته عالية فلا يرضى باليسير مع إمكان كثير، وأن لا يسوف في اشتغاله، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلت إذا تمكن منها، وإن أمن حصولها بعد ساعة لأن للتأخير آفات ولأنه في الزمن الثاني يحصل غيرها.

وعن الربيع قال: لم أر الشافعي آكلاً بنهار، ولا نائماً بليل لاهتمامه بالتصنيف، ولا يحمل نفسه ما لا تطيق مخافة الملل. وهذا يختلف باختلاف الناس، وإذا جاء مجلس الشيخ فلم يجده انتظره ولا يفوت درسه إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بأ يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه فلا يشق عليه بطلب القراءة في غيره.

وقال الخطيب: وإذا وجده نائماً لا يستأذن عليه بل يصبر حتى يستيقظ أو ينصرف. والاختيار الصبر كما كان ابن عباس والسلف يفعلون. وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب، وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة. فقد روينا عن عمر رضي الله عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا. وقال الشافعي: تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.

ويعتني بتصحيح درسه الذي يتحفظه تصحيحاً متقناً علي الشيخ ثم يحفظه حفظاً محكما ثم بعد حفظه يكرره مرات ليرسخ رسوخا متأكدا ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيداً ويبتدئ درسه بالحمد لله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم والدعاء للعلماء ومشايخه ووالديه وسائر المسلمين ويبكر بدرسه لحديث: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

ويداوم على تكرار محفوظاته ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالاً بل يصحح على الشيخ كما ذكرنا فالاستقلال بذلك من أضر المفاسد وإلى هذا

أشار الشافعي رحمه اللّٰه بقوله: من تفقه من الكتب ضيع الأحكام.

وليذاكر بمحفوظاته وليدم الفكر فيها ويعتني بما يحصل فيها من الفوائد وليرافق بعض حاضري حلقة الشيخ في المذاكرة.

قال الخطيب البغدادي: وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل. وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك، وكان جماعة منهم يبدؤون من العشاء فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح. وينبغي أن يبدأ من دروسه على دروسه على المشايخ. وفي الحفظ والتكرار والمطالعة بالأهم فالأهم.

وأول ما يبتدئ به حفظ القرآن العزيز فهو أهم العلوم وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن. وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان.

وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصراً ويبدأ بالأهم. ومن أهمها الفقه والنحو ثم الحديث والأصول، ثم الباقي على ما تيسر، ثم يشتغل باستشراح محفوظاته، ويعتمد من الشيوخ في كل فن أكملهم في الصفات السابقة فإن أمكنه شرح دروس في كل يوم فعل وإلا اقتصر على الممكن من درسين أو ثلاثة وغيرها؛ فإذا اعتمد شيخاً في فن وكان لا يتأذى بقراءة ذلك الفن على غيره فليقرأ أيضاً على ثان وثالث وأكثر ما لم يتأذوا فإن تأذ المعتمد اقتصر عليه وراعى قلبه فهو أقرب إلى انتفاعه، وقد قدمنا أنه ينبغي أن لا يتأذى من هذا.

وإذا بحث المختصرات انتقل إلى بحث أكبر منها مع المطالعة المتقنة والعناية الدائمة المحكمة وتعليق ما يراه من النفائس والغرائب، وحل المشكلات مما يراه في المطالعة أو يسمعه من الشيخ. ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أي فن كانت بل يبادر إلى كتابتها ثم يواظب على مطالعة ما كتبه، وليلازم حلقة الشيخ، وليعتن بكل الدروس، ويعلق عليها ما أمكن فإن عجز اعتنى بالأهم ولا يؤثر بنوبته فإن الإيثار بالقرب مكروه فإن رأى الشيخ المصلحة في ذلك في وقت فأشار به امتثل أمره.

وينبغي أن يرشد رفقته وغيرهم من الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة ويذكر لهم ما استفاده على جهة النصيحة والمذاكرة وبإرشادهم يبارك له في علمه ويستنير قلبه وتتأكد المسائل معه مع جزيل ثواب الله عز وجل ومن بخل بذلك كان بضده فلا يثبت معه وإن ثبت لم يثمر، ولا يحسد أحداً ولا يحتقره ولا يعجب بفهمه وقد قدمنا هذا في آداب المعلم.

فإذا فعل ما ذكرناه وتكاملت أهليته، واشتهرت فضيلته اشتغل بالتصنيف، وجد في الجمع والتأليف محققاً كل ما يذكره متثبتاً في نقله واستنباطه متحرياً إيضاح العبارات وبيان المشكلات مجتنبا العبارات الركيكة والأدلة الواهية مستوعبا معظم أحكام ذلك الفن غير مخل بشيء من أصوله منها على القواعد؛ فبذلك تظهر له الحقائق، وتنكشف المشكلات، ويطلع على الغوامض وحل المعضلات. ويعرف مذاهب العلماء والراجح من المرجوح، ويرتفع عن الجمود على محض التقليد، ويلتحق بالأئمة المجتهدين أو يقاربهم إن وفق الله لذلك وبالله التوفيق.

فصل - في آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

ينبغي لكل واحد منهما أن لا يخل بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يمكن معه الاشتغال ويستشفي بالعلم، ولا يسأل أحداً تعنتاً وتعجيزاً فالسائل تعنتاً وتعجيزاً لا يستحق جوابا. وفي حديث النهي عن غلوطات[١]المسائل.

وأن يعتني بتحصيل الكتب شراء واستعارة ولا يشتغل بنسخها إن حصلت بالشراء لأن الاشتغال أهم إلا أن يتعذر الشراء لعدم الثمن أو لعدم الكتاب مع نفاسته فيستنسخه وإلا فلينسخه ولا يهتم بتحسين الخط بل بتصحيحه، ولا يرتضي الاستعارة مع إمكان تحصيله ملكا. فإن استعاره لم يبطئ به لئلا يفوت الانتفاع به على صاحبه ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه ولئلا يمتنع من إعارته غيره.

وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نثراً ونظماً. ورويناها في كتاب الخطيب وهو حبسها عن أصحابها. وعن الفضيل: ليس من أفعال أهل الورع ولا من أفعال الحكماء أن يأخذ سماع رجل وكتابه فيحبسه عنه. ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه.

وقال الخطيب: وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها، ثم روى في ذلك جملاً عن السلف وأنشد فيه أشياء كثيرة.

والمختار استحباب الإعارة لمن لا ضرر عليه في ذلك لأنه إعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل. وروينا عن وكيع: أول بركة الحديث إعارة الكتب.

---

[١] قوله غلوطات هكذا في نسخة الأذرعي بدون همزة وفي نسخة أخرى أغلوطات بالهمز وهما روايتان والحديث في سنن أبي داود قال المنذري: وفي روايته مجهول وهو عبد الله بن سعد أراد بالغلوطات المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فيهيج ذلك شر وفتنة. وإنما ينهى عنها لأنها غير نافعة في الدين ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع.

وعن سفيان الثوري: من بخل بالعلم ابتلي بإحدى ثلاث: أن ينساه، أو يموت ولا ينتفع به، أو تذهب كتبه. وقال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك. قال: إني أكره ذلك. فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره فأعاره، ويستحب شكر المعير لإحسانه.

فهذه نبذ من آداب المعلم والمتعلم وهي وإن كانت طويلة بالنسبة إلى هذا الكتاب فهي مختصرة بالنسبة إلى ما جاء فيها وإنما قصدت بإيرادها أن يكون الكتاب جامعاً لكل ما يحتاج إليه طالب العلم وبالله التوفيق.

خلاصة معنى باب العلم وطلبه والاستدلال بفضله بالآيات القرآنية:

قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث المسلمين على التفقه في الدين وهذا الخير نفسه. والفقه تفهم مسائل الدين من صلاة وصوم ومعاملة ونكاح وعلوم الشريعة وثمرته الزهد في الدنيا والورع واجتناب الشبه والإنكار من العمل والعبادة. والفقيه قدوة حسنة ومثل كامل وعنوان المكارم.

وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: (فَاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ)[١]وفي سورة فاطر: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ)[٢]لأن العلم أرشدهم إلى كمال قدرته وبديع صفاته فزاده هيبة وإجلالاً وقد شبه الله جل وعلا العالم بالبصير والسميع والجاهل بالأعمى والأصم وفي المساواة بينهم فقال جل شأنه في سورة هود: (مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأعْمَى والأصَمِّ والبَصِيرِ والسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أفَلا تَذَكَّرُونَ)[٣]وفي سورة فاطر: (ومَا يَسْتَوِي الأعْمَى والبَصِيرُ* ولا الظُّلُمَاتُ ولا النُّورُ* ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ* ومَا يَسْتَوِي الأحْيَاءُ ولا الأمْوَاتُ)[٤].

فهناك فرق شاسع وقد شبه الله تعالى العلم بالنور والجهل بالظلمات، ونفى الفرق بينهما؛ كما لا يستوي الظل الذي ينتفع به بالحرور الذي

---

[١] الأنبياء: ٧.

[٢] فاطر: ٢٨.

[٣] هود: ٢٤.

[٤] فاطر: ١٩-٢٢.

يتضرر به، وكذلك لا يستوي الأحياء بنور العلم ولا الأموات الذين غفلت قلوبهم عن الله ونسوا الله فنسيهم وعصوا الله فأمات قلوبهم عند الله جل وعلا إذا ذكرهم بعد ملائكته الأبرار قال تعالى في سورة آل عمران: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم)[٥].

اعترف العلماء مع الملائكة أن الله واحد فعبدوه بحق ودعوا الناس إلى طاعته والإخلاص إليه في العمل والالتجاء إليه في الأمور ونبذ ما سواه والتوكل عليه وحده فهو الفعال. على أن العلماء شهداء مع الله على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في سورة الرعد: (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وبَيْنَكُم ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَاب)[٦]أقروا بالرسالة وتركوا الجهالة وسفهوا العاصين ووبخوا الكافرين.

والعلماء في كل زمان ومكان قادة وسادة يردون الناس إلى الله ويدعون إليه ويبعدونهم عن الفسوق ويقولون الحق. وقد حكى الله عن قارون وماله وكبريائه وافتتان الناس به ومنع العلماء تمني مثله فقال جل شأنه في سورة القصص: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً)[٧].

---

[٥] آل عمران: ١٨.
[٦] الرعد: ٤٣.
[٧] القصص: ٨٠.

وهذه وظيفة العلماء يرشدون الجاهل ويردون الضال قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم﴾[١] إشارة إلى أن العلماء ورثة الأنبياء في توضيح المبهم وإضاءة الحكم في كشف حكم الله جلا وعلا ودعوة الناس إلى الاستظلال بظلهم الوارف رجاء الفوز دنيا وأخرى كما قال جل شأنه: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ من سورة العنكبوت.

قال الله تعالى -يعني- بالكلمة العلماء الذين كمل دينهم وتم عقلهم فتحلوا بالمكارم جمعاء، واتصفوا بالمحامد عامتها وفيهم يقول جل شأنه من سورة الرعد: ﴿أَفَمَن يَعلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيكَ من رَبِّكَ الحَقُّ كَمَن هُوَ أَعمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلبَابِ* الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ولا يَنقُضُونَ المِيثَاقَ* والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ* والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِم وأَقَامُوا الصَّلاَةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقنَاهُم سِراً وعَلاَنِيَةً وَيَدرَؤُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُم عُقْبَى الدَّارِ* جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِم وَأَزوَاجِهِم وذُرِّيَّاتِهِم والمَلاَئِكَةُ يَدخُلُونَ عَلَيهِم مِن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُم فَنِعمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٢].

يا أخي المسلم تفكر قليلاً في آيات العلماء العاملين الذين أنار الله بصائر الخلق إلى ما فيه منفعتهم. والعلم بالشيء البصير والجاهل به

---

[١] النساء: ٨٣.

[٢] الرعد: ١٩-٢٤.

كالأعمى الذي ختم اللّه على قلبه فلم يستضئ بنور العلم ولم يتذكر ما يضره وما ينفعه، ولا يتذكر إلا أصحاب العقول الراجحة والبصائر المستنيرة.

وقد وصف اللّه العلماء أصحاب العقول الكاملة

التي استخدموها في مرضاة ربهم بصفات هي عنوان الإخلاص وشمس القبول ودليل التوفيق ولن تجد أحسن منها:

١- صلة جميع الأقارب وموالاة المؤمنين ومودة الصالحين العاملين وعدم هجرانهم.

٢- خوف اللّه تعالى وخشيته فلا شفيع منهم ولا أذى مخلوق ولا ترك واجب ولا فعل معصية ولذا قيل: «رأس الحكمة مخافة اللّه».

٣- الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق بإطاعة أوامر اللّه واجتناب نواهيه وإرشاد الخلق إلى ذلك لأنهم قدوة حسنة.

٤- الخوف من الحساب يوم القيامة فيجتهد العالم في العمل الصالح وتطهير صحائفه لينقى وينجو من الشدائد.

٥- الصبر وهو حبس النفس على المكروه وإيجاد العزيمة على احتمال المشاق في أعمال الخير.

٦- إقامة الصلاة وفي أوقاتها كافة الأركان والشروط ويأمر أهله ويصطبر عليها.

٧- التصدق بالمال في السر والجهر ليدل على سماحة النفس وطهارتها من البخل وثقتها باللّه المعطي.

٨- مقابلة السيئة بالحسنة لوقف الشرور وخجل المسيء والبرهان على سعة الصبر وطهارة القلب للّه في اللّه.

هؤلاء العلماء والمؤمنون الذين آمنوا باللّه وعملوا بكتابه وسنة حبيبه سيدخلهم ربهم جنته ويكرم عليهم برضوانه ويجمعهم على الصالحين من آبائهم وأزواجهم وأمهاتهم وأولادهم ليتم أنسهم، ويزيد سرورهم.

يا أخي اعرض هذه الصفات على نفسك أولاً وعلى غيرك ثانياً فمن

اتصف بها فصاحبه وجالسه وزره وتودد إليه. ومن لم يفعل فاقطع صحبته وتجنبه - وهذا لعمري مصداق قوله تعالى:

(والَّذي جَاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ* لَهُم مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِم ذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ* لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُم أسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ* أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)[١]. يقول البيضاوي: هنا اللام للجنس ليتناول الرسل والمؤمنين والعلماء ورثة الأنبياء. وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم والمراد هو من تبعه من الذين أقبلوا على العلم فهبوا نفوسهم فوصلوا إلى ربهم بالتقوى والعمل الصالح ويرشد إلى ذلك قول الله تبارك وتعالى:

(ويَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ ويَهْدِي إِلَى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ)[٢]من سورة سبأ.

[١] الزمر: ٣٣-٣٦.
[٢] سبأ: ٦.

خلاصة باب فضل العلم

فأنت ترى أن تعليم العلم هو الخير كله وذلك بالذهاب إلى العلماء والبحث عن دقائقه وهو سبب الخشية والقرب منه جل وعلا وتمام الثقة به. وفيه الهداية والإلهام للرشد وتنوير القلب ويدعو إلى الورع ويبعد عن الفتن والكبرياء والخيلاء والإعجاب وطالبه يسلك طريق الجنة وكذا من ساعده وأمده وأعانه واجتماع قوم لدراسة القرآن سبب رحمة الله وفيضه وغوثه هذا إلى أن كل شيء يطلب المغفرة للعالم العامل بعلمه.

والعلم عنوان العز، ومعين البر، وباب العلا، ونور الحق والخلق الوفي، والصاحب الصديق الموصل في الجنة إلى جوار الأنبياء والشهداء، الجاري ثوابه بعد الممات وهو خير مكتسب وأعظم مطلب يهدي إلى الحق، ويزيل الأذى.

وطلبه أفضل من صلاة النافلة وطالبه كأرض مخصبة وشجرة مثمرة والجاهل كالصحراء يهدي إلى الحق ويزيل الأذى وطالبه فيمن يحب له الخير يوم القيامة والله أعلم وعد ألا يعذبه.

وهو عدو ألد للشيطان يهدم بنيانه ويسفه رأيه ويحارب أنصاره ويحذر الناس من غوايته ويطلب من الناس أن ينتفعوا بميراث محمد صلى الله عليه وسلم وهو اتباع الكتاب والسنة. وخير العلم ما قربك إلى ربك وصرفك عن السفلة والجدل والإلحاد والزندقة. وإن موت العالم خسارة على الأمة وخلل في بنيانها وكوكب غاب في سمائها.

أسأل الله أن يعلمنا فنعمل ويوفقنا فنسعد إنه قدير.

فصل - في فضيلة العلم وآدابه

وفيه فصلان:

الأول: في فضيلته من الكتاب والسنة والمعنى.

أما الكتاب: فمن وجوه:

الأول: أن تقول خير البرية من يخشى اللّه. وكل من يخشى اللّه تعالى فهو عالم. فخير البرية عالم.

تبيان الأولى قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ البَرِيةِ)[١]إلى قوله: (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ربه)[١]فأثبت الخشية لخير البرية وهو المطلوب.

تبيان الثانية قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخشَى اللَّهَ من عِبادِهِ العُلَمَاءُ)[٢]أضاف الخشية إلى كل عالم على وجه الحصر، فيكون كل من يخشى اللّه تعالى فهو عالم، وهو المطلوب.

الثاني: قوله تعالى:

(شهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ والمَلائِكَةُ وأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ)[٣]بدأ بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلث بالعلماء، دون سائر خلقه، فيكون من عداهم دونهم وهو المطلوب.

الثالث: قوله تعالى:

(وأَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وكَانَ فَضْلُ اللّه حماره، وغشي عليه؛ فلما أفاق وأخذ في الاستواء للجلوس قال: ما بكم تكأكأتم علي ولا تكأكؤكم على ذي جنة؟ افرنقعوا عني. قوله: تكأكأتم: أي تجمعتم، وافرنقعوا أي: تنحوا بلغة أهل اليمن. فهذا الرجل كان إماماً في اللغة وكانت هذه الحالة لا تقتضي أنه يقصد هذه الألفاظ بل هي دأبه فسبق لسانه إليها.

---

[١] البينة الآية: ٦. وجزء من الآية ٧.

[٢] فاطر: ٢٨.

[٣] آل عمران: ١٨.

عَلَيْكَ عَظِيماً)[١]وعادة العرب في سياق الامتنان تأخير الأفضل وتقديم المفضول على الأفضل، فتكون موهبته عليه السلام من العلم أفضل من موهبته من الإنزال المتضمن للنبوة والرسالة، وهذا شرف «شب فيه عمرو عن الطوق».

الرابع: قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام في أمر الهدهد: (لأُعَذِّبَنَّه عَذَاباً شَدِيداً) فلما جاء الهدهد فقال: (أَحطتُ بِمَا لَم تُحِط بِه) اشتدت نفسه، واستعلت بما عَلِمَه، على سيد أهل الزمان. ورسولَ المَلِك الديان، مع عظم ملكه وهيبة مجلسه، وعِلْمِ الهدهد بحقارة نفسه، وما تقرر عند سليمان من جريمته، والعزم على عقوبته.

فلولا أن العِلم يرفع من الثرى إلى الثريا، لما عَظُم الهدهد بعد أن كان نسياً منسياً. فلا جرم أبدل له العقوبة بالإكرام النفيس، وأسبغ عليه خلع الرسالة إلى بلقيس.

وأما السنة فمن وجوه:

الأول: ما في الموطأ: «من يرد اللّٰه به خيراً يفقهه في الدين».

والقاعدة أن المتبدأ محصور في الخبر، والشرط اللغوي محصور في مشروطه، لأنه سبب فيكون المراد: الخير محصور في المتفقه، فمن ليس بمتفقه لا خير فيه.

الثاني: ما في أبي داود. قال عليه السلام:

«من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك اللّٰه به طريقاً من طرق الجنة.

وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم.

وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء.

---

[١] النساء: ١١٣.

وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وإن العلماء ورثة الأنبياء، لم يورثوا ديناراً، ولا درهماً وورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

فأما الطريق التي تسلك به فيها إلى الجنة فمعناه: أن هذه الحالة سبب موصل إلى الجنة.

وأما وضع الملائكة أجنحتها، فقيل تكف عن الطيران. لتجلس فتسمع منه، وقيل تكف عن الطيران توقيراً له، وقيل تكف عن الطيران لتبسط أجنحتها له بالدعاء، ولو لم تعلم الملائكة أن منزلته عند الله تستحق ذلك لما فعلته.

فينبغي لكل أحد من الملوك فمن دونهم أن يتواضعوا لطلبة العلم، اتباعاً لملائكة الله تعالى، وخاصة ملكه.

وأما استغفارهم: فهو طلب ودعاء له بالمغفرة، وأحدنا يسافر البلاد البعيدة للرجل الصالح لعله يدعو له، فما ظنك بدعاء قوم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؟ فياحبذا هذه النعمة.

[وأما تشبيه فضله] بالبدر ففيه فوائد:

[منها]: أن العالم يكمل بقدر اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي هو الشمس، لقوله تعالى:

(إِنَّا أَرسَلنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)[١]. والسراج هو الشمس، لقوله تعالى: (وَجَعَلنَا فِيهَا سِرَاجاً وَهَّاجاً) ولما كان القمر يستفيد ضوءه من الشمس، وكلما كثر توجهه إليها كثر ضوؤه حتى يصير بدراً، فكذلك العالم: كلما كثر توجهه للنبي وإقباله عليه توفر كماله.

[ومنها]: أن العالم متى أعرض عن النبي بكليته كسف باله، وفسد حاله، كما أن القمر إذا حيل بينه وبين الشمس كسف، خلافاً لمن يزعم

---

[١] الأحزاب: ٤٥،٤٦.

أن العلوم تُتَلقى بالتوجه ولا يحتاج فيها إلى [النبي صلى الله عليه وسلم].

[ومنها]: أن الكوكب مع البدر كالمطموس الذي لا أثر له، وضوء البدر عظيم المنفعة منتشر الأضواء، منبعث الأشعة في الأقطار براً وبحراً، وهذا هو شأن العالم، وأما العابد فكالكواكب حينئذ لا يتعدى نوره محله، ولا يصل نفعه إلى غيره.

الثالث: ما في الترمذي أنه عليه السلام، ذُكر له رجلان: عالم وعابد، فقال عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال عليه السلام: «وإن الله تبارك وتعالى وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها يصلون على معلمي الناس الخير».

وهذا الحديث أبلغ من الأول بكثير جداً، فإن فضله عليه السلام على أدناهم أعظم من فضل القمر على الكواكب أضعافاً مضاعفة.

الرابع: ما روى ابن أبي زيد عن ابن القاسم أنه قال: روي أنه عليه السلام قال: «ما جميع أعمال البر في الجهاد إلا كنقطة في بحر، وما جميع أعمال البر والجهاد في طلب العلم إلا كنقطة في بحر».

ويؤيده ما في الخبر: «يوزن مداد العلماء ودم الشهداء يوم القيامة فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء».

ومعلوم أن أعلى ما للشهيد دمه، وأقل ما للعالم مداده، فإذا رجح الأدنى على الأعلى فما الظن بالأعلى مع الأدنى.

الخامس: أنه عليه السلام قال: «ما عند الله شيء أفضل من فقه في الدين، ولفقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد، ولكل شيء قوام وقوام الدين الفقه، ولكل شيء دعامة ودعامة الدين الفقه».

السادس: أنه عليه السلام قال: «قليل الفقه خير من كثير العبادة».

السابع: «أنه عليه السلام قال: «إن الله يجمع العلماء في صعيد واحد فيقول: إني لم أوتكم علمي وحكمتي إلا لخير أردته بكم، أشهدكم أني قد غفرت لكم ما كان منكم».

وأما المعنى فمن وجوه:

الأول: أن العلم معتبر في الإلهية، وكفى بذلك شرفاً عند كل عاقل، على العبادات، وغيرها.

وثانيها: أن كل خير مكتسب في العالم فهو بسبب العلم، وكل شر يكتسب في العالم فهو بسبب الجهل، والاستقراء يحقق ذلك.

وثالثها: أن الله تعالى لما أراد بيان فضل آدم على الملائكة، وإقامة الحجة عليهم، علمه أسماء الأشياء أو علاماتها. على الخلاف في ذلك. ثم سألهم فلم يعلموا، وسأله فعلم وعلم، فاعترفوا حينئذ بفضيلته، وأمرهم بالسجود له في وقت واحد، تعظيماً لمنزلته، وخالف إبليس في ذلك فباء من الله تعالى بقبيح لعنته. وهذا حال العلم بأسماء الأشياء أو علاماتها، فكيف بالعلم بحدود الدين وما يتوصل به إلى رب العالمين.

ورابعها: أن الكلب أخس الأشياء، لقذارته وأذيته، وسوء حالته، فإذا اتصف بعلم الاصطياد شرفه الله وعظمه، وجعل صيده حينئذ قوام الأجساد، ومحترماً عن الإفساد.

وخامسها: أن العالم ينقل عن الحق للخلق، فيقول: «إن الله تعالى حرم عليكم كذا، وأوجب عليكم كذا، وأذن لكم في كذا، وأمركم بتقديم كذا، وتأخير كذا» فهو القائم بأمر الله تعالى في خلقه، وموصله إلى مستحقيه، والدافع عنه تحريف المحرفين، وتبديل المبدلين، وشبه المبطلين، وهذا هو معنى مقام المرسلين.

ولهذا ينبغي لطالب العلم أن يتصور نفسه في هذا المقام، ويعاملها بما يليق بها من الاحترام، فإن الرسول إذا ورد من عند ملك عظيم، قبح عليه أن يمشي إلى بيوت الأمراء، وفي الأسواق، أو يتقاصر عن مكارم الأخلاق، صونا لتعظيم مرسله، وهذا معلوم في العوائد، فكذلك طالب العلم ينبغي له أن يبعد نفسه عن الدناءات، بل عن الكثير من المباحات، صونا لشرف منصبه، وتعزيزاً لثمرات مطلبه.

وسادسها: أن قيمة الإنسان ما يَعلمه، لا ما يُعْلمه لقول علي رضي الله عنه: «المرء مخبوء تحت لسانه» وما قال تحت ثيابه. ومعنى هذا الاختباء أنه إن نطق بشر ظهرت خسته ودناءته، وبخير ظهر شرفه. وإن لم ينطق بشيء فهو عدم محض، عند مُشاهده.

وقال علي رضي الله عنه: «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه» ولم يقل: بيديه، أي هو معتبر بهما، فإن رفعاه ارتفع وإن وضعاه اتضع، فالقلب معان الحكم، واللسان ترجمانه، وما عداه في حكم الأعوان البعيدة التي لا عداد بها.

وأنشد علي رضي الله عنه في هذا المعنى:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
فإن أتيت بفخر من ذوي نسب فإن نسبتنا: الطين والماء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

وسابعها: أن العلم على عظيم قدره وشريف معناه يزيد بكثرة الإنفاق، وينقص مع الإشفاق، وهذه فضيلة جليلة آخذة بآفاق الشرف، جعلنا الله تعالى من أهله القائمين بحقوقه بمنه وكرمه.

وثامنها: أن العلماء وصلوا بحقيقة العلم إلى عين اليقين، فشاهدوا الأخطار والأوطار بالأفق المبين، فاستلانوا ما استوعره المترفون، واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وفازوا بما قعد عنه المقصرون، فهم مع جلسائهم بأشباحهم، وفي الملأ الأعلى بأرواحهم، فلا جرم هم أحياء وإن ماتت الأبدان، على مر الدهور والأزمان، غابت أعيانهم عن العيان، وصورهم مشاهدة في الجَنان والجِنان، جعلنا الله ممن أخذ من هداهم بأوثق نصيب، ونافس في نفائسهم إنه قريب مجيب.

الفصل الثاني: في آدابه:

اعلم أن:

أعظمها: الإخلاص لله سبحانه وتعالى، فإنه إذا فقد انتقل العلم من أفضل الطاعات إلى أقبح المخالفات.

قال الله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* [الَّذِينَ هُمْ] يُرَاءُونَ}[١].

وروى ابن أبي زيد أنه عليه السلام قال: «ويل لمن علم ولم ينفعه علمه» -سبع مرات- ثم قال: «ويل لمن لم يعلم، ولو شاء الله لعلمه» -ثلاث مرات-.

ويروى عنه عليه السلام: «يأمر الله تعالى بطائفة من العلماء والقراء والمجاهدين إلى النار، ويقول لكل طائفة منهم: إنما عملت ليقال. وقد قيل» الحديث بطوله.

وروى ابن أبي زيد أنه عليه السلام قال: «من تعلم العلم ليماري به أو ليباهي به أو ليواري به أوقفه الله موقف الذل والصغار، وجعله عليه حجة يوم القيامة، يوم يكون العلم زيناً لأهله».

وروي أيضاً عنه عليه السلام: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة».

وحقيقة الرياء: أن تستعمل الطاعة لله وللناس، ويسمى رياء الشرك أو للناس خاصة، ويسمى رياء الإخلاص، وكلاهما يصير الطاعة معصية.

وأعراض الرياء الباغية عليه منحصرة في ثلاثة: جلب الخيور، ودفع الشرور، والتعظيم.

ويلحق بالرياء التسميع: وهو أن يقول: علمت كذا أو حفظت كذا، أو غير ذلك من أعمال البر.

والتسميع يكون بعد انعقاد العبادة معصية على الرياء، وبعد انعقادها طاعة مع الإخلاص، لكن في الأول يكون جامعا بين معصيتين: الرياء والتسميع: وفي الثاني هو عاص بالتسميع فقط. فتقابل سيئة التسميع حسنة الطاعة المسمع بها في الموازنة، فربما استويا، وربما رجحت إحداهما،

---

[١] الماعون: ٤-٦.

على حسب تقادير الطاعات والتسميع.

والأصل في التسميع قوله عليه السلام: «من سمّع سمّع اللّه به أمام خلقه يوم القيامة»، أي ينادي مناد من قبل اللّه تعالى: عبدي فلان عمل عملاً لي ثم تقرب به لغيري، نسأل اللّه العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

واعلم يا أخي أن هذا مقام تشيب منه النواصي، ولا يعتصم منه بالصياصي، فينبغي لك أن توفر العناية عليه، والجد فيه، مستعيناً باللّه تعالى، فمن لم يساعده القدر لم ينفعه الحذر، ولقد قطع [داء] الكبر [دابر] من [استكبر].

إذا لم يكن عونٌ من اللّه للفتى   فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

ولكن أدلك على أعظم الوسائل، مع بذل الاجتهاد، وهو: أن تكون مع بذل جهدك شديد الخوف، عظيم الافتقار، ملقياً للسلاح، معتمداً على ذي الجلال، مخرجاً لنفسك من التدبير، فإن هذه الوسيلة هي العروة الوثقى لماسكها، وطريق السلامة لسالكها، واللّه تعالى هو المسئول، المبتهل لجلاله في السلامة من عذابه.

فما لجلدي بنضج النار من جَلَد   ولا لقلبي بهول الحشر من قِبَل

واعلم: أنه ليس من الرياء قصد اشتهار النفس بالعلم لطلب اقتداء، بل هو من أعظم القربات، فإن سعى في تكثير الطاعات، وتقليل المخالفات وكذلك قال إبراهيم عليه السلام: (واجعَل لي لِسَانَ صدق في الآخِرِين) قال العلماء معناه: يقتدى بي من بعدي. ولهذا المعنى أشار عليه السلام بقوله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به» الحديث. حضاً على انتشار العلم ليبقى بعد الإنسان لتكثير النفع، ومنه وقوله تعالى: (ورَفَعنا لَكَ ذِكْرَك) على أحد الأقوال.

وقال العلماء باللّه ينبغي للعابد السعي في الخمول والعزلة، لأنهما أقرب للسلامة، وللعالم السعي في الشهرة والظهور، تحصيلاً للإفادة، ولكنه مقام كثير الخطر، فربما غلبت النفس وانتقل الإنسان من هذا المعنى إلى طلب حب الرئاسة، وتحصيل أعراض الرياء، واللّه المستعان، وهو حسبنا في الأمر كله.

الثاني: ينبغي لطالب العلم أن يحسن ظاهره وباطنه، وسره وعلانيته، وأفعاله وأقواله.

فالعيب في الجاهل المغمور مغمور وعيب ذي الشرف المذكور مذكور
كقلمة الظفر تخفي من حقارتها ومثلها في سواد العين مشهور

ولهذا المعنى قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: (إذاً لأذقناكَ ضِعْفَ الحَيَاة وضِعْفَ المَمَات» أي لو فعلت ذلك لعذبناك، مثل عذاب غيرك في الدنيا مرتين، ومثل عذابه في الآخرة مرتين، وكذلك في قوله تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبيِّ مَن يَأتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَينِ). وهذه عادة الله تعالى في خلقه، من عظمت عليته نعمته اشتدت عليه نقمته، ولذلك رجم المحصن في الزنا، وجلد البكر. لأن اشتهاره بالخير، يبعث على الاقتداء به فيحصل له كمال السعادة، ويصير للمتقين إماماً، واشتهاره بالزنا ينفر النفوس منه فتفوته هذه المنزلة.

بل ينبغي له أن يكتم من الحق ما تنفر منه عقول جلسائه، أو أهل زمانه، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم، فإنه إن لم يفعل ذلك لا يحصل مقصوده من إظهار ذلك الحق ولا من غيره، وفي الحديث: «من خاطب قوماً بما لم تصل إليه عقولهم، كان عليهم فتنة» اللهم إلا أن يكون مما أوجب الله تعالى إظهاره كقواعد الدين، وإبطال شبه الضالين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيعتمد قوله تعالى: (وقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَن شَاءَ فَلْيُؤمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر». ومن رضى الله تعالى عنه فلا يضره غضب غيره.

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً عليَّ شرارها

قال مالك [كما] في المختصر: حقٌ على طالب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة، وخشية واتباع لأثر من مضى قبله.

وقال الحسن: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في وجهه وتخشعه ولسانه ويده وصلواته.

وقال عليه السلام: «ما ضُم شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم».

وقال عمر رضي الله عنه: «تعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه، وإياكم أن تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم».

وقال أبو حازم: كان العالم فيما مضى إذا لقي من فوقه في العلم كان يوم غنيمة، أو من هو مثله ذاكره، أو من هو دونه لم يزه عليه، ثم كان -هذا الزمان- أن صار الرجل إذل لقي من فوقه انقطع عنه، حتى لا يرى الناس أن به حاجة إليه، وإذا لقي من هو مثله لم يذاكره، ويزهو على من هو دونه.

وقال ابن أبي ليلى: أدركت عشرين ومائة من الصحابة والأنصار ما منهم أحد يسأل عن شيء إلا ود أن صاحبه كفاه الفتيا.

وقال مالك: جنة العالم لا أدري، فإذا أخطأ أصيبت مقاتله. وقال: كان الصديق يسأل عن الشيء فيقول: لا أدري، وأحدكم اليوم يأنف أن يقول لا أدري.

قال مطرِّف: ما رأيت أكثر قولاً من مالك لا أدري. وقال بعض الفضلاء: إذا قلت لا أدري علمت حتى تدري، وإذا قلت أدري سئلت حتى لا تدري. فصار لا أدري وسيلة إلى العلم، وأدري وسيلة للجهل، ولذلك قال أبو الدرداء: قول الرجل فيما لا يعلم: لا أعلم، نصف العلم.

ولما تعلم الحسن العلم أقام أربعين سنة لم يتكلم به، وأفتى مالك بعد أربعين سنة، وحلق ابن سبع عشرة سنة، وكان يقول: لا يفتي العالم حتى يراه الناس أهلاً للفتوى. قال سحنون: يريد العلماء. قال ابن هرمز: ثقة أهلاً لذلك.

الثالث: أن يوفي للأمانة في العلم، فلا يعطيه لغير أهله، ولا يمنعه من أهله، فإن العلم يزيد النفس الشريرة شراً، والخيرة خيراً. قال المحاسبي: العلم كالغيث ينزل من السماء، كله حلو، فيزيد الحلو حلاوة

والمر مرارة. قال الغزالي: تعليم العلم لأهل الشر كبيع السيف من قاطع الطريق.

وبعث الشافعي لمحمد بن الحسن رضي الله عنهما يستعير منه كتباً فتوقف عليه، فكتب إليه:

قل للذي لم تر عين من رآه مثله

حتى كأن من رآه قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهلــه

لعلــه يبذلــه لأهلــــه لعلـــه

فبعث إليه وقر بعير. فقوله ينهى أهله أن يمنعوه أهله، يفيد الدفع للأهل والمنع من غير الأهل، والأصل في هذه القاعدة قوله عليه السلام: «لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها».

فإن قلت: إذا كان الغالب على الناس اليوم في طلب العلم الرياء والمباهاة وسوء الحالة، فالمعلم لهم معين لهم على هذه المعاصي، والإعانة على المعصية معصية فيحرم التعليم حينئذ على الإطلاق، نظراً إلى الغالب.

[فالجواب أن] هذا سؤال مشكل، وقد اضطربت فيه فتاوي العلماء، فمنهم من يقول لو اعتبرنا هذا انحسمت مادة التعليم، والإقراء، فينقطع الشرع، ويفسد النظام، فيؤدي ذلك إلى إطفاء نور الحق، وإضلال الخلق، حتى يطبق الأرض الكفر، ومعلوم أن هذه المفاسد أعظم من الرياء الذي قد يقع وقد لا يقع، فإنا وإن قطعنا بوقوعه في الجملة، لكنا لا نعلم حال كل أحد على انفراده، فإن الله تعالى متولي السرائر، فما استوى الأمران ولا وقوعهما.

ولأن العلم قربة محققة، وهذه المعاصي أمور عارضة، الأصل عدمها في كل شخص معين.

ومنهم من يقول: بل يتعين ذلك، ولا يجوز التعليم إلا لمن يغلب على الظن سلامته من هذه المعاصي، طرداً لقاعدة: إلحاق الوسائل بالمقاصد.

وأما قول الأولين: إن اعتبار ذلك يؤدي إلى انقطاع الشرع، وتطبيق الكفر، فأجاب الغزالي عنه فقال: لا نسلم أنه يلزم من تحريم التعليم انقطاع الشرع، لأن الطباع مجبولة على حب الرئاسة، ولا سيما بألقاب العلوم، ومناصب النبوة، واستتباع الخلق، كما لم يلزم من عدم إيجاب النظر في المعجزة عدم النظر فيها، بل ناب الطبع مناب الشرع، في النظر، فإن الطباع مجبولة على رؤية المستغربات، والفكرة فيها، وكذلك لم يلزم من تحريم الزنا وغيره من المحرمات عدمها.

الرابع: ينبغي لطالب العلم إذا تعلم مسألة أن ينوي تعليمها كل من هو أهل لها، وكذلك إذا علمها أن ينوي التوسل إلى تعليم كل من يتعلم، ممن علمه، ليكون المنوي في الحالين عدداً لا يعد ولا يحصى، وله بكل واحد من ذلك العدد حسنة، فإن وقع منويا كان له عشر، لقوله عليه السلام: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها فله عشر» وهذا متجر لا غاية لربحه، أعاننا اللّٰه تعالى على الخير كله.

وقال ابن السبكي في كتابه «الحل المقفول» في المثال السادس والأربعين، صفحة (٨٥-١١٩) بما نصه:

المثال السادس والأربعون: العلماء وهم فرق كثيرة منهم المحدث، والمفسر، والفقيه، والأصولي، والمتكلم، والنحوي، وغيرهم. وتتشعب كل فرقة من هؤلاء شعوباً وقبائل، ويجمع الكل أنه حق عليهم إرشاد المسلمين، وإفتاء المستفتين، ونصح الطالبين، وإظهار العلم للسائلين فمن كتم علماً ألجمه اللّٰه تعالى بلجام من نار، وأن لا يقصدوا بالعلم الرياء والمباهاة والسمعة، ولا جعله سبيلا إلى الدنيا، فإن الدنيا أقل من ذلك. قال الفضيل رحمه اللّٰه تعالى: إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغنى افتقر، وعالما تلعب به الدنيا. وأنشد بعضهم:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري دنياه بالدين أعجب

فأقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا، وخستها، وكدورتها، وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها وصفاءها. وأن تعلم أنهما متضادتان

وأنهما ضرتان متى أرضيت واحدة أسخطت الأخرى، وكفتا ميزان إذا رجحت إحداهما خفت الأخرى؛ كالمشرق والمغرب متى قربت إحداهما بعدت الأخرى وكقدحين أحدهما مملوء فقدر ما تصب منه في الآخر يفرغ من الأول.

فمن لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بالهموم فاسد العقل، فإن المشاهدة والتجربة ترشد العقلاء إلى ذلك فكيف يكون في العلماء من لا عقل له ومن لا يعلم عظم أمر الأخرة ودوامها فهو كافر لا إيمان له فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم أنهما ضرتان، والجمع بينهما بعيد؛ فهو جاهل.

ومن علم هذا كله وآثر الدنيا على الآخرة فهو أسير الشيطان وقد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من العلماء من هذه درجته. وحق الحق إني لأعجب من عالم يجعل علمه سبيلاً إلى حطام الدنيا وهو يرى كثيراً من الجهال وصلوا فما بالنا نشريها بأنفس الأشياء وهو العلم.

وينبغي أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى والترقي إلى جوار الملأ الأعلى. والكلام في العلماء وما ينبغي لهم يطول ولكنا ننبه على مهمات.

فمن هؤلاء من يطلب العلم للعلو في الدنيا والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء كما ذكرناه وحب المناصب والجاه فيؤدي ذلك إلى أن قلبه يظلم بهذه الأكدار ويزول صفاؤه بهذه الأمور التي تظلم القلوب وتبعد عن علام الغيوب وإلى أنه يشتغل بهم وبها عن الزدياد في العلم.

فكم رأينا فقيهاً تردد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه ونسي ما كان يعلمه وإلى فساد عقيدة الأمراء في العلماء، فإنهم يستحقرون المتردد إليهم ولا يزالون يعظمون الفقيه حتى يسألهم في حوائجه ويؤول ذلك إلى أنهم يظنون في أهل العلم السوء ولا يطيعونهم فيما يفتون، وينقصون العلم وأهله. وذلك فساد عظيم وفيه فساد العالم. وإن قال لك فقيه: إن التردد إلى أبواب السلاطين لإعزاز الحق ولنصرة الدين ولغرض من

الأغراض الصحيحة؛ فقل له: إن صح ما تقول وأنت أخبر بنفسك فأنت على خطر عظيم لأنك قد انغمست في الدنيا وأنت تدعي أنك تقصد بها الآخرة وإن ثبت هذا فما نأمن عليك أن تنجر مع الدنيا.

ولذلك كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا دعوك لتقرأ عليهم قل هو الله أحد، فلا تمض ولا تقرأها وبالجملة فأنت أخبر بنفسك فابحث عنها.

أنشدني الحافظ أبو العباس بن المظفر الأشعري بقراءتي عليه قال أنشدنا الحسن بن علي بن أبي بكر بن محمد بن الخلال بقراءتي قال أنشدنا جعفر الهمداني سماعاً أنشدنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن يحيى العثماني الديباجي الإمام قال: كتب إلى العلامة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري من مكة المشرفة وأجازني حينئذ، وكتب إلي أحمد بن علي الحنبلي، وزينب بنت الكمال، وفاطمة بنت أبي عمر عن محمد بن عبد الهادي عن الحافظ ابن أبي طاهر السلفي عن الزمخشري قال: أنشدنا أحمد بن محمد بن إسحاق الخوارزمي أبو سعد المحسن بن محمد الجشمي، أنشدنا الحاكم أبو الفضل إسماعيل بن محمد الحسن، أنشدنا القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني لنفسه:

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أكرما

وما كل برق لاح لي يستفزني
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت
أقلب كفي إثره متندما

ولم أقض حق العلم إن كان كلما
بدا طمع صيرته لي سلما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة
إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أذلوه فهان ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

فلقد صدق هذا القائل لو عظموا العلم لعظمهم. وأنا أقرأ قوله لعظما بفتح العين فإن العالم إذا عظم تعظم وهو في نفسه عظيم ولهذا أقول ولكن أهانوه فهانوا. ولكن الرواية فهان ولعظم بضم العين والأحسن ما أشرت إليه.

ولقد نحا شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد نحو هذه الأبيات فقال:

يقولون لي هلاّ نهضت إلى العلا — فما لذ عيش الصابر المتقنع
وهلا شددت العيس حتى تحلها — بمصر إلى ظل الجناب المرفع
ففيها من الأعيان من فيض كفه — إذا شاء أروى سيله كل بلقع
وفيها قضاة ليس يخفى عليهم — تعين كون العلم غير مضيع
وفيها شيوخ الدين والفضل والأولى — يشير إليهم بالمعلى كل أصبع
وفيها وفيها والمهانة ذلة — فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت نعم أسعى إذا شئت أن — أرى ذليلا مهانا مستخفا بموضع
وأسعى إذا ما لذ لي طول موقفي — على باب محجوب اللقاء ممنع
وأسعى إذا كان النفاق طريقتي — أروح وأغدو في ثياب التصنع

وأسعى إذا لم يبق في بقية أراعي بها حق التقى والتورع
فكم بين أرباب الصدور مجالسا تشب بها نار الغضا بين أضلعي
وكم بين أرباب العلوم وأهلها إذا بحثوا في المشكلات بمجمع
مناظرة تحمي النفوس فينتهي وقد سرعوا فيها إلى سر مصرعي
من السفه المزري بمنصب أهله أو الصمت عن حق هناك مضيع
فإما توقى مسلك الدين والتقى وإما تلقى غصة المتجرع

ومنهم من يضيع كثيراً من وقته في طلب القضاء وغيره من المناصب فإن كان مراده القوت فالقوت يجيء بدون ذلك وإن كان مراده الدنيا فقد كان اشتغاله بصنعة الأجناد والدواوين وغيرهم من العامة ما لعله أنجح من مقصده فإن الدنيا في أيدي أولئك.

ومن هذه الطائفة من يقول أكرهت على القضاء وأنا إلى الآن لم أر من أكره على القضاء الإكراه الشرعي. وقد ضرب جماعة من السلف على أن يلوا القضاء فأبوا وسمر باب على ابن خيران مدة وما ذاك إلا لأنهم يخشون أن لا يقيموا فيه الحق لفساد الزمان وإلا فالقضاء إذا أمكن فيه نصر الحق من أعظم القربات. ولكن أين نصر الدين وهم لا يدخلون فيه إلا بالسعي؟ وربما بذلوا عليه الذهب.

ومذهب كثير من العلماء أن من يبذل الذهب على القضاء لا تصح أحكامه ولا يخفى أنه إذا فسق ببذل الذهب لم يكن نافذ الأحكام وكأني بأحمق من الفقهاء يقول: تعين على طلب القضاء وأنا لا يخفى علي ما قاله الفقهاء فيمن تعين عليه ولكن من الذي تعين عليه فقائل هذا الكلام إما أنه لبست عليه نفسه واستزله الشيطان من حيث لا يدري، أو ممن يريد التلبيس على الناس فهو إبليس من الأبالسة نعوذ بالله تعالى منه.

وما فعلت هذه الطائفة ولا كان ثمرة علمها إلا أن جعلت العلم الذي هو من أقرب الطاعات إلى الله تعالى سبيلاً إلى حطام الدنيا ثم أخذت تداجي في دين الله تعالى وتلبس على الخلق وتأكل الدنيا بالدين فقبحها الله تعالى من طائفة.

أخبرتنا شفراء بنت يعقوب بن إسماعيل بن عبد الله بن عمر قاضي اليمن قراءة عليها وأنا أسمع قالت: أخبرنا جدي إسماعيل وأخوه إسحاق قالا: نبأنا عبد اللطيف بن شيخ الشيوخ أنبأنا أبي شيخ الشيوخ أبو البركات إسماعيل بن أبي سعيد بن أحمد النيسابوري الصوفي أنبأنا الشيخ أبو القاسم علي بن محمد الكوفي النيسابوري سنة تسعين وأربعمائة قال سمعت القاضي أبا مسعود يعني صالح بن أحمد بن القاسم بن يوسف من مشايخي يقول: سمعت أبا الحسن علي بن أحمد البصروي التمار يقول: سمعت أبا بكر محمد بن يحيى العدوي يقول: سمعت عبد السميع بن سليمان يقول: سمعت عبد الله بن المبارك يقول وقد بلغه عن ابن علية رحمهما الله تعالى أنه قد ولي الصدقات بالبصرة فكتب إليه بهذه الأبيات:

يا جاعل العلم له بازيا ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين
وصرت مجنونا بها ... بعدما كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك في سردها ... أألفي ترك أبواب السلاطين
إن قلت أكرِهت فما كان ذا ... زل حمار العلم في الطين

فلما بلغت هذه الأبيات ابن علية بكى واستعفى وأنشأ يقول:

أفٍّ لدنيا أبت تواتيني ... إلا بنقضي لها عرى ديني
عيني لحيني ضير مقلتها ... تطلب ما ساءها لترضيني

وأنشدنا بعضهم في قاضيين عزل أحدهما وولي الآخر:

عندي حديث ظريف ... بمثله يُتَغَنّى
في قاضيين يعزى ... هذا وهذا يهنى
هذا يقول أكرهونا ... وهذا يقول استرحنا
ويكذبان جميعا ... ومن يصدق منا

فإذا ابتلى الله تعالى أهل هذه الخرقة بولاية الجهال عليهم، ووصول وظائف القضاء ومناصب الدين لغير أهله أليس ذلك عدلاً من الله تعالى.

ومنهم المؤرخون وهم على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أعراض الناس وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق فلابد أن يكون المؤرخ عالماً حافظاً عدلاً عارفاً بحال من يترجمه ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما يحمله على الغض منه، وربما كان الباعث له على الصنعة أنه من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال فيقع فيهم أو يقصر في الثناء عليهم لذلك.

وكثيراً ما يتفق هذا لشيخنا الذهبي في حق الأشاعرة والذهبي أستاذنا والحق أحق أن يتبع لا يحل لمؤمن يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر أن يعتمد عليه في الضعة من الأشاعرة.

وقد أطلنا في تقرير هذا الفصل في الطبقات الكبرى وحكينا في ترجمة أحمد بن صالح المصري ما ذكره الشيخ الإمام في شروط المؤرخ ومن كلام أبي عمر بن عبد البر وغيره ما يزداد به الإنسان بصيرة ومن ذلك فقهاء عصر واحد فلا ينبغي سماع كلام بعضهم في بعض.

وقد عقد ابن عبد البر باباً في أن كلام العلماء بعضهم في بعض لا يقبل وإن كان كل منهم بمفرده ثقة حجة ومنهم من يأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب ويركب الصعب والذلول في العصبية وهذا من سوء أخلاقهم. ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره ويا ويح هؤلاء أين هم من الله تعالى ولو كان الشافعي وأبو حنيفة حيين لشددا النكير على هذه الطائفة.

وليت شعري لِمَ لم يتركوا أمر الفروع الذي العلماء فيه على قولين من قائل: كل مجتهد مصيب، ومن قائل: المصيب واحد ولكن المخطئ يؤجر، واشتغلوا بالرد على أهل البدع والأهواء وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله تعالى الحمد في العقائد واحدة كلهم على

رأي أهل السنة والجماعة يدينون لله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري لا يحيد عنها إلا رعاع من الحنفية والشافعية لحقوا بالاعتزال، ورعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم وبرأ الله تعالى المالكية فلم نر مالكيا إلا أشعري العقيدة.

وبالجملة عقيدة الأشعري هي ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول ورضوا بها عقيدة.

وقد ختمنا كتابنا جمع الجوامع بعقيدة ذكرنا أن سلف الأمة عليها وهي وعقيدة الطحاوي وعقيدة أبي القاسم القشيري والعقيدة المسماة بالمرشدة مشتركات في أصول أهل السنة والجماعة.

فقل لهؤلاء المتعصبين في الفروع ويحكم ذروا التعصب ودعوا عنكم هذه الأهوية ودافعوا عن دين الإسلام وشمروا عن ساق الاجتهاد في حسم مادة من يسب الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، ويقذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الذي نزل القرآن ببراءتها وغضب الرب تعالى لها حتى كادت السماء أن تقع على الأرض، ومن يطعن في القرآن وصفات الرحمن. والجهاد في هؤلاء واجب فهلا شغلتم أنفسكم به.

ويا أيها الناس بينكم النصارى واليهود قد ملؤوا بقاع البلاد فمن الذي انتصب منكم للبحث معهم والاعتناء بإرشادهم، بل هؤلاء أهل الذمة في البلاد الإسلامية تتركونهم هملاً تستخدمونهم وتستبطنونهم ولا نرى منكم فقيهاً يجلس مع ذمي ساعة واحدة يبحث معه في أصول الدين لعل الله تعالى يهديه على يديه. وكان من فروض الكفايات ومهمات الدين أن تصرفوا بعض همتكم إلى هذا النوع. فمن القبائح أن بلادنا ملأى من علماء الإسلام ولا نرى فيها ذمياً دعاه إلى الإسلام مناظرة عالم من علمائنا بل إنما يسلم من يسلم منهم إما لأمرين: من الله تعالى لا مدخل لأحد فيه، أو لغرض دنيوي.

ثم ليت من يسلم من هؤلاء يرى فقيهاً يمسكه ويحدثه ويعرفه دين الإسلام لينشرح صدره لما دخل فيه بل والله يتركونه هملاً لا يدري ما

باطنه هل هو كما يظهر من الإسلام أو كما كان عليه من الكفر لأنهم لم يروا من الآيات والبراهين ما يشرح صدره.

فيا أيها العلماء في مثل هذا فاجهدوا وتعصبوا. أما تعصبكم في فروع الدين وحملكم الناس على مذهب واحد فهو الذي لا يقبله الله تعالى منكم ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد. ولو أن الشافعي وأبا حنيفة ومالكاً وأحمد أحياء يرزقون لشدوا النكير عليكم وتبرؤوا منكم فيما تفعلون.

فلعمر الله لا أحصي عدد من رأيته يشمر عن ساعد الاجتهاد في الإنكار على شافعي يذبح ولا يسمي، أو حنفي يلمس ذكره ولا يتوضأ، أو مالكي يصلي ولا يبسمل، أو حنبلي قدم الجمعة على الزوال وهو يرى من العوام ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى يتركون الصلاة التي جزاء من تركها عند الشافعي ومالك وأحمد ضرب العنق ولا ينكرون عليه.

بل لو دخل الواحد منهم بيته لرأى كثيراً من نسائه يتركن الصلاة وهو ساكت عنهن!! فيا لله للمسلمين أهذا فقيه على الحقيقة؟!! قبح الله تعالى مثل هذا الفقيه.

ثم ما بالكم تنكرون مثل هذه الفروع ولا تنكرون المكوس والمحرمات المجمع عليها ولا تأخذكم الغيرة للشافعي وأبي حنيفة والمدارس المزخرفة فيؤدي ذلك إلى افتراق كلمتكم وتسلط الجهال عليكم وسقوط هيبتكم عند العامة وقول السفهاء في أعراضكم ما لا ينبغي فتهلكون السفهاء بكلامهم فيكم لأن لحومكم مسمومة على كل حال لأنكم علماء وتهلكون أنفسكم بما ترتكبونه من العظائم.؛

ومنهم طائفة تبعت طريقة أبي نصر الفارابي وأبي علي بن سينا وغيرهما من الفلاسفة الذين نشؤوا في هذه الأمة واستغلوا بأباطيلهم وجهالاتهم وسموها الحكمة الإسلامية ولقبوا أنفسهم حكماء الإسلام وهم أحق بأن يسموا سفهاء جهلاء. من أين يسمون حكماء إذ هم أعداء أنبياء الله تعالى ورسله عليهم السلام والمحرفون الكلم الشرعي عن مواضعه عكفوا

على دراسة ترهات هؤلاء الأقوام وسموها الحكمة واستجهلوا من عري عنها. ولا تكاد تلقى أحداً منهم يحفظ قرآناً ولا حديثاً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. ولعمر الله إن هؤلاء لأضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يلبسون لباس المسلمين، ويزعمون أنهم من علمائهم فيقتدي العامي بهم وهم لا يعتقدون شيئاً من دين الإسلام بل يهدمون قواعده وينقضون عراه عروة عروة:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا لصون دمائهم ألا تسالا
فيأتون المناكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالى

فالحذر الحذر منهم. وقد أفتى جماعة من أئمتنا ومشيختنا ومشيخة مشيختنا بتحريم الاشتغال في الفلسفة. وأما المنطق فقد ذكرنا كلام الأئمة والشيخ الإمام فيه في أوائل شرح مختصر ابن الحاجب والذي نقوله نحن إنه حرام على من لم ترسخ قواعد الشريعة في قلبه ويمتلئ جوفه من عظمة هذا النبي الكريم وشريعته، ويحفظ الكتاب العزيز وشيئاً كثيراً جداً من حديث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على طريقة المحدثين، ويعرف من فروع الفقه ما يسمى به فقيهاً مفتياً مشاراً إليه من أهل مذهبه إذا وقعت حادثة فقهية أن ينظر في الفلسفة.

وأما من وصل إلى هذا المقام فله النظر فيها للرد على أهلها ولكن بشرطين: أحدهما أن يثق من نفسه بأنه وصل إلى درجة لا يزعزعها رياح الأباطيل وشبه الأضاليل وأهواء الملاحدة والثاني: أن لا يمزج كلامهم بكلام علماء الإسلام فلقد حصل ضرر عظيم على المسلمين بمزج كلام الحكماء بكلام المتكلمين، وأدى الحال إلى طعن المشبهة وغيرهم من رعاع الخلق في أصحابنا وما كان ذلك إلا في زماننا وقبله بيسير منذ نشأ نصير الطوسي ومن تبعه لا حياهم الله تعالى.

فإن قلت فقد خاض حجة الإسلام الغزالي والإمام فخر الدين الرازي في علوم الفلاسفة ودونوها وخلطوها بكلام المتكلمين فهلا تنكر عليهما؟ قلت: إن هذين إمامان جليلان ولم يخض واحد منهما في هذه العلوم حتى صار قدوة في الدين وضربت الأمثال باسمهما في معرفة علم الكلام على طريقة أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم فإياك أن تسمع شيئاً غير ذلك فتضل ضلالاً مبيناً، فهذان إمامان عظيمان وكان حقاً عليهما نصر المؤمنين، وإعزاز هذا الدين بدفع ترهات أولئك المبطلين فمن وصل إلى مقامهما لا يلام عليه بالنظر في الكتب الفلسفية بل هو مثاب مأجور.

وأما طائفة في زماننا هذا أو قبله بيسير عكفت على هذه الحكمة المفتنة من حين نشأت لا تدري شيئاً سواها اشتبه عليها أقوال كفارها بأقوال علماء الإسلام وتصرفت فيها بعقل خسيف لم يقم بكتاب وسنة ولم يضئ له نور ببرهان من النبوات ثم تعتقد أنها على شيء فتلك الفرقة الخاسرة الضالة المضلة.

وقد اعتبرت -ولا ينبئك مثل خبير- فلم أجد أضر لأهل عصرنا وأفسد لعقائدهم من نظرهم في الكتب الكلامية التي أنشأها المتأخرون بعد نصير الدين الطوسي وغيره ولو اقتصروا على مصنفات القاضي أبي بكر الباقلاني، والأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني وهذه الطبقة لما جرى إلا الخير.

ورأيي فيمن أعرض عن الكتاب والسنة واشتغل بمقالات ابن سينا ومن نحا نحوه وترك قول المسلمين: قال أبو بكر وقال عمر رضي الله تعالى عنهما وقال الشافعي وقال أبو حنيفة وقال الأشعري وقال القاضي أبو بكر إلى قوله قال الشيخ الرئيس يعني ابن سينا وقال خواجا نصير ونحو ذلك أن يضرب بالسياط ويطاف به في الأسواق وينادي عليه هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بأباطيل المبتدعين أو ما يستحيي من يتخذ أقوال ابن سينا وتعظيمه شعاراً من الله تعالى إذا قرأ قوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[١].

ويذكر إنكار ابن سينا لحشر الأجساد وجمع العظام. ومنهم -أعني هؤلاء- فرقة ضمت إلى هذا القدر من الحكمة النظر في كتاب الكشاف للزمخشري من التفسير وقالت نحن متشرعون وعارفون بتفسير كتاب الله تعالى واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته يضع من قدر النبوة كثيراً ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله ولقد كان الشيخ الإمام يقرئه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكوير ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ الآية أعرض عنه صفحاً وكتب ورقة حسنة سماها «سبب الإنكفاف عن إقراء الكشاف» وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى عفا الله عنك وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة.

فانظر كلام الشيخ الإمام الذي برز في جميع العلوم وأجمع الموافق والمخالف على أنه بحر البحار، منقولاً ومعقولاً، في هذا الكتاب الذي اتخذت الأعاجم دراسته في هذا الزمان ديدنها. والقول عندنا فيه أنه لا ينبغي أن يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج السنة لا تزحزحه شبهات القدرية.

ومنهم فرقة ترفعت عن هذه الفرقة وقالت لابد من ضم علم الحديث إلى التفسير فكان قصاراها النظر في مشارق الأنوار للصاغاني، فإن ترفعت ارتفعت إلى مصابيح البغوي فظنت أنها بهذا القدر تصل إلى درجة المحدثين وما ذاك إلا لجهلها بالحديث فلو حفظ من ذكرنا هذين الكتابين

---

[١] القيامة: ٣-٤.

عن ظهر قلب وضم إليهما من المتون مثليهما لم يكن محدثاً حتى يلج الجمل في سم الخياط، فإن رامت بلوغ الغاية في الحديث على زعمها اشتغلت بجامع الأصول لابن الأثير، وإن ضمت إليه كتاب علوم الحديث لابن الصلاح أو مختصره المسمى بالتقريب والتيسير للنووي ونحو ذلك حينئذ ينادى من انتهى إلى هذا المقام محدث المحدثين وبخاري العصر وما ناسب هذه الألفاظ الكاذبة؛ فإن من ذكرناه لا يعد محدثاً بهذا القدر.

وإنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل، وأسماء الرجال، والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون، وسمع الكتب الستة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية هذا أقل درجاته؛ فإذا سمع ما ذكرناه وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم على العلل والوفيات والأسانيد كان في أول درجات المحدثين ثم يزيد الله تعالى من يشاء ما يشاء.

ومنهم فرقة ترفعت وقالت: نضم إلى الحديث الفقه فكانت غايتها البحث في الحاوي الصغير لعبد الغفار القزويني والكتاب المذكور أعجوبة في بابه بالغ في الحسن أقصى الغايات إلا أن المرء لا يصير به فقيهاً ولو بلغ عنان السماء وهذه الطائفة تضيع في تفكيك ألفاظه وفهم معانيه زماناً لو صرفته إلى حفظ نصوص الشافعي وكلام الأصحاب لحصلت على جانب عظيم من الفقه ولكن التوفيق بيد الله تعالى.

ومنهم طائفة صحيحة العقائد حسنة المعرفة للفروع إلا أنها لم ترع جانب الله تعالى حق الرعاية فكان علمها وبالاً عليها في الحقيقة قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «أشد الناس عذاباً عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه» وعنه صلى الله عليه وسلم: «أول ما يسعر النار يوم القيامة رجل عالم فيندلق لسانه فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه؛ فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا هذا أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه» وفي الحديث أيضاً أن: «أشد الناس حسرة يوم القيامة رجلان: رجل علم علماً فيرى غيره يدخل به الجنة لعمله به وهو يدخل به النار

لتضييعه العمل به، ورجل جمع المال من غير وجهه وتركه لوارثه فعمل به الخير فيرى غيره يدخل به الجنة وهو يدخل به النار».

وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي يستعيذ بالله من هذا العلم حيث كان يقول نعوذ بالله من علم يكون حجة علينا وينشد:

علمت ما حلل المولى وحرمه فاعمل بعلمك إن العلم للعمل

وفي مثل هذه الطائفة يقول الشاعر وهو أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلاّ لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا	كيما تصح به وأنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا	أبدا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى	بالقول منك ويقبل التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

فهذه الطائفة إذا واخذها الله تعالى فلا ينبغي أن تعتب ولو تقول نحن من أهل العلم فإن صنعها ليس بصنع أهل العلم بل هؤلاء كما قال الله تعالى:

(لا يَعلَمُونَ* يَعلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا)[١]الآية فما قوبلوا إلا بعدل من الله تعالى.

ومنهم طائفة لا تترك الفرائض ولكنها أحبت العلم والمناظرة وأن يقال فلان اليوم فقيه البلدة حباً اختلط بعظمها ولحمها، واستغرقت فيه أكثر أوقاتها، واستهانت بالنوافل، ونسيت القرآن بعد حفظه، وشمخت بآنافها مع ذلك وقالت نحن العلماء وإذا قامت لصلاة الفريضة قامت أربعاً لا يذكر الله تعالى فيها إلا قليلاً مزجت صلاتها بالفكر في باب الحيض ودقائق

---

[١] الروم: ٦-٧.

الجنايات وربما جاء ليقول (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فسبق لسانه إلى ما هو فيه مفكر من جزئيات الفروع فينطق به. ثم إذا سألت واحداً من هذه الطائفة أصليت سنة الظهر؟ قال لك: قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. أو قلت له: أخشعت في صلاتك؟ قال لك: ليس الخشوع من شرائط صحة الصلاة. أو قلت له: أنسيت القرآن الكريم؟ قال لك: لم يقل إن نسيانه كبيرة إلا صاحب العمدة وما الدليل على ذلك وأنا لم أنس الجميع فإني أحفظ الفاتحة وكثيراً من القرآن غيرها!! فقل له: أيها الفقيه، كلمة حق أريد بها باطل، إن الشافعي لم يعن ما أردت فلكلامه تقرير لسنا له الآن ويخشى على من هذا شانه المروق من الدين رأساً.

أخبرنا الحافظ أبو العباس بن المظفر بقراءتي عليه أنبأنا أحمد ابن هبة الله بن عساكر قراءتي عليه أخبرنا الإمام أبو بكر القاسم ابن الإمام أبي سعيد عبد الله بن عمر الصفار إجازة نا جدي الإمام عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور بن الصفار قال: سمعت جدي يقول سمعت الأستاذ أبا القاسم القشيري يقول: من استهان بأدب من الآداب الإسلامية عوقب بحرمان السنة. ومن ترك سنة عوقب بحرمان الفريضة، ومن استهان بالفرائض قيض الله تعالى له مبتدعاً يوقع عنده باطلاً فيوقع في قلبه شبهة.

قلت: وبلغنا أن الإمام الغزالي أم مرة بأخيه أحمد في صلاة فقطع أخوه أحمد الاقتداء به فلما قضى الصلاة سأله الغزالي؟ فقال: لأنك كنت متضمخاً بدماء الحيض؛ ففكر الغزالي فذكر أنه عرضت له في الصلاة فكرة في مسألة من مسائل الحيض. فانظر فهؤلاء أهل الله تعالى الذين هم أعرف منك أيها الفقيه قد عرفوك أن ما تعتمده يجرك إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

ومنهم فرقة سلمت من جميع ما ذكرناه إلا أنها استهانت ببعض صغائر الذنوب كالغيبة والاستهزاء بخلق الله تعالى وغير ذلك، أو كان لها معصية ابتلاها الله تعالى بها فلم تستتر وقالت: علمنا يغطي معصيتنا.

وهذا جهلٌ لا علم؛ فالصغيرة تكبر من هذا العالم فإن هو جاهر بها ازداد أمرها. والمعصية مع العلم فوق المعصية مع الجهل من وجوه.

وإذا كان النبي صلى اللّٰه تعالى عليه وسلم يقول: «من بُلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر اللّٰه تعالى» الحديث. فالعالم أولى أن يستتر إن لم يرجع فإنه قدوة ولذلك كان بعض العارفين لا يظهر لتلميذه إلا على أشرف أحواله خوفاً أن يقتدي به في مسيئها أو يسوء ظنه فلا ينتفع.

فينبغي للعالم الكف عن صغائر المعاصي وكبارها فإن هو لم يكف فلا أقل من التستر صيانة لمنصب العلم وإلى هذا المعنى أشار الشيخ الجليل فتح الدين علي بن منصور الدمياطي فأنشد لنفسه:

أيها العالم إياك الزلل ... واحذر الهفوة والخطب الجلل
هفوة العالم مستعظمة ... إذ بها أصبح في الخلق مثل
وعلى زلته عمدتهم ... فبها يحتج من أخطا وزل
لا تقل يستر علمي زلتي ... بل بها يحصل في العلم الخلل
إن تكن عندك مستحقرة ... فهي عند الله والناس جبل
ليس من يتبعه العالم في ... كل ما دق من الأمر وجل
مثل من يدفع عنه جهله ... إن أتى فاحشة قيل جهل
انظر الأنجم مهما سقطت ... من رآها هي تهوي لم يبل
فإذا الشمس بدت كاسفة ... وجل الخلق لها كل الوجل
وتراءت نحوها أبصارهم ... في انزعاج واضطراب ووجل
وسرى النقص لهم من نقصها ... فغدت مظلمة منها السبل
وكذا العالم في زلته ... يفتن العالَمَ طُراً ويضل

ومنهم فرقة سلمت عن جميع ما ذكرناه إلا أنه غلب عليها الطعن في أمة قد سلفت، والاشتغال بعلماء قد مضوا. وغالب ما يؤتى هؤلاء من المخالفة في العقائد؛ فقلَّ أن نرى من قِبَل الحنابلة إلا ويضع من الأشاعرة وهذا شيخنا الذهبي كان سيد زمانه في الحفظ مع الورع والتقوى ومع

ذلك يعمد إلى أئمة الإسلام من الأشاعرة فيظهر عليه من التعصب عليهم ما ينفر القلوب عنه، وإلى طائفة من المجسمة فيظهر عليه من نصرتهم ما يوجب سوء الظن به وما كان والله إلا تقياً نقياً ولكن حمله التعصب واعتقاده أن مخالفيه على خطأ.

وقل أن ترى أشعرياً من الشافعية والحنفية والمالكية إلا ويبالغ في الطعن على هؤلاء ويصرح بتكفيرهم. وإذا كانت الأئمة المعتبرون كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد والأشعري على أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة فلم هذا التعصب وما لنا لا نسكت عن أقوام مضوا إلى ربهم ولِمَ ندر على ماذا ماتوا؟ وإن يبد لنا أحد بدعة قابلناه، وأما الأموات فلِمَ ننبش عظامهم؟! هذا والله مالا ينبغي.

ومن الفقهاء متنسكة تجري على ظواهر الشرع وتحسن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه إلا أنها تهزأ بالفقراء وأهل التصوف، ولا تعتقد فيهم شيئاً ويعيبون عليهم السماع وأموراً كثيرة والسماع قد عرف اختلاف الناس فيه.

وتلك الأمور قلّ أن يفهمها من يعيبها والواجب تسليم أحوال القوم إليهم. وإنا لا نأخذ أحداً إلا بجريمة ظاهرة ومتى أمكننا تأويل كلامهم وحمله على محمل حسن لا نعدل عن ذلك لا سيما من عرفناه منهم بالخير ولزوم الطريقة ثم لو ندرت لفظة عن غلطة وسقطة فإنها عندنا لا تهدم ما مضى.

وهذه الطائفة من الفقهاء التي تنكر على المتصوفة مثلها مثل الطائفة التي من الترك التي تنكر على الفقهاء. وقد جربنا فلم نجد فقيهاً ينكر عى الصوفية إلا ويهلكه الله تعالى، وتكون عاقبته وخيمة ولا وجدنا تركياً يهزأ بالفقهاء إلا ويهلكه الله تعالى وتكون عاقبته شديدة فلنسأل هذه الطائفة التوبة إلى الله تعالى. وحسن الظن بخلق الله تعالى أولى لا سيما من انقطع إلى الله تعالى، واعتكف على عبادته، ورفض الدنيا وراء ظهره. هذا علاج داء هذه الطائفة.

وأنا أظنهم يتوبون فإني جربت فوجدت القلوب منقسمة إلى قابل للصلاح وطريق الفقر وذلك تراه منقاداً لطريق الفقهاء معتقداً من غير تعليم، وغير قابلة فلا تراها تنقاد وإن انقادت في الظاهر لم يفدها الانقياد لأن هؤلاء القوم لا يعلمون بالظواهر ولا يفيد معهم إلا الباطن ومحض الصفاء؛ وهم أهل الله تعالى وخاصته نفعنا الله تعالى بهم وأكثر من يقع فيهم لا يفلح.

ومن أهل العلم طائفة طلبت الحديث وجعلت دأبها السماع على المشايخ ومعرفة العالي من المسموع والنازل وهؤلاء هم المحدثون على الحقيقة. إلا أن كثيراً منهم يجهد نفسه في تهجي الأسماء والمتون وكثرة السماع من غير فهم لما يقرؤه. ولا تتعلق فكرته بأكثر من أني حصلت جزءاً من ابن عرفة عن سبعين شيخاً، جزء الأنصاري عن كذا كذا شيخاً؛ جزء ابن الفيل؛ جزء البطاقة نسخة أبي مسهر. وأنحاء ذلك.

وإنما كان السلف يسمعون فيقرؤون فيرحلون فيفسرون، ويحفظون فيعملون.

ورأيت من كلام شيخنا الذهبي في وصية لبعض المحدثين في هذه الطائفة ما حظ واحد من هؤلاء إلا أن يسمع فيروي فقط فليعاقبن بنقيض قصده، وليشهرنه الله تعالى بعد أن ستره مرات، وليبقين مضغة في الألسن وعبرة بين المحدثين، ثم ليطبعن الله تعالى على قلبه ثم قال: فهل يكون طالب من طلاب السنة يتهاون بالصلوات أو يتعالى تلك القاذورات وانحس منه محدث بكذب في حديثه، ويختلق الفشار؛ فإن ترقت همته المهينة إلى الكذب في النقل والتزوير في الطباق فقد استراح. وإن تعافى في سرقة الأجزاء أو كشط الأوقاف فهذا لص ليس بمحدث فإن جمل نفسه بتلوط أو قيادة فقد تمثله الإفادة. وإن استعمل من العلوم قسطاً فقد ازداد مهانة وخبطاً. إلى أن قال: فهل في مثل هذا الضرب خير لا كثر الله تعالى منهم انتهى. ولبعضهم:

إن الذي يروي ولكنه يجهل ما يروي وما يكتب
كصخرة تنبع أمواهها تسقي الأراضي وهي لا تشرب

وقال بعض الظرفاء في الواحد من هذه الطائفة: وهو نثر أنه قليل المخبرة والمعرفة يمشي ومعه أوراق ومحبرة ومعه أجزاء يدور بها على شيخ، وعجوز لا يعرف ما يجوز وما لا يجوز وقال الشاعر:

ومحدث قد صار غايةُ علمه ... أجزاء يرويها عن الدمياطي
وفلانةٌ تروي حديثا عاليا ... وفلان يروي ذاك عن أسباط
والفرق بين عزيرهم وغريزهم ... وافصح عن الخياط والخباط
وأبو فلان ما اسمه ومن الذي ... بين الأنام ملقب بسباط
وعلوم دين الله نادت جهرة ... هذا زمان فيه طي بساطي

ومن العلماء طائفة استغرق حب النحو واللغة قلبها وملأ فكرها فأداها إلى التقعر في الألفاظ وملازمة حواشي اللغة بحيث خاطبت به من لا يفهمه ونحن لا تنكر أن الفصاحة من المطلوب واستعمال غريب اللغة عزيز حسن ولكن مع أهله ومن يفهمه كما حكي أن أبا عمرو بن العلاء قصده طالب ليقرأ عليه فصادفه بكلأ البصرة وهو مع العامة يتكلم بكلامهم لا يفرق بينه وبينهم فنقص من عينه؛ ثم لما نجز شغل أبي عمرو مما هو فيه تبعه الرجل إلى أن دخل الجامع فأخذ يخاطب الفقهاء بغير ذلك اللسان فعظم في عينه وعلم أنه كلم كل طائفة بما يناسبها من الألفاظ.

فهذا هو الصواب فإن كل أحد يكلم على قدر فهمه. ومن اجتنب اللحن وارتكب العالي من اللغة والغريب منها، وتحدث بذلك مع كل أحد فهو ناقص العقل وربما أتى بعض هذه الطائفة من ملازمة هذا الفن بحيث اختلط بلحمهم ودمهم فسبق لسانهم إليه.

وإن كانوا يخاطبون من لا يفهمه كما أخبرنا أحمد بن علي الحريري إذنا عن محمد بن عبد الهادي عن الحافظ أبي طاهر اسللفي أنبأنا المبارك ابن عبد الجبار أنا عبد الكريم بن محمد المحاملي أنا إسماعيل بن سعيد المعدل ثنا محمد بن أحمد بن قطر السمسار قال قال أبو العباس أحمد بن إبراهيم الوراق: ازدحموا على عيسى بن عمر النحوي وقد سقط عن

حماره وغشي عليه فلما أفاق وأخذ في الاستواء للجلوس قال : ما بكم تكأكأتم علىّ تكأكؤكم على ذي جنة ، افرنقعوا عني.

قوله : تكأكأتم اي تجمعتم وافرنقعوا اي تنحو بلغة اهل اليمن.

فهذا الرجل كان اماما في اللغة وكانت هذه الحالة لا تقتضي انه يقصد هذه الالفاظ بل هي دأبه فسبق لسانه اليها. اهـ

قاله تاج الدين عبد الوهاب السبكي الشافعي.

قال مقيده عفا الله عنه ومن مستحسن ما قيل في ابواب العلم ونقلناه هنا لك برمته لعظيم فائدته ما وقفنا عليه من ....

من كتاب

تقييد العلم

للحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي

ولد سنة ٣٩٢هـ - وتوفي سنة ٤٦٣هـ

صدّره وحققه وعلّق عليه

يوسف العش

١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

نشرته

دار إحياء السنة النبوية

الكتاب يحفظ العلم

حدثني محمد بن أحمد الدقاق، حدثنا أحمد بن إسحاق النهاوندي، حدثنا الحسن بن عبد الرحمن، حدثنا ابن معدان الغزا، حدثنا محمد بن عبد الله ابن يزيد، حدثنا أبو صالح الفرا، قال: سألت ابن المبارك عن كتاب الحديث فقال: «لولا الكتاب ما حفظنا»[١].

أخبرنا محمد بن أبي القاسم الأزرق، أخبرنا محمد بن الحسن بن زياد النقاش إجازة، حدثنا ابن جمهور[٢]الفقيه، حدثنا الربيع قال خرج علينا الشافعي ذات يوم، ونحن مجتمعون، فقال لنا: «اعلموا رحمكم الله أن هذا العلم يند، كما تند الإبل، فاجعلوا الكتب له حماة، والأقلام عليه رعاة».

أخبرني أحمد بن علي بن الحسين المحتسب، أخبرنا إسماعيل بن سعيد المعدل، أخبرنا أبو علي الحسين بن القاسم الكوكبي، حدثنا أبو الفضل البرعي عن أبيه قال: قال أبو المليح الرقي[٢٦٨ب] «يعيبون علينا أن نكتب العلم وندونه وقد قال الله تعالى: (علمها عند ربي في كتاب)[٤].

قلت هذا إنما يحفظ عن أبي المليح الهذلي، وهو من أهل البصرة عن أيوب، وقد ذكرناه عنه فيما تقدم.

أخبرنا أحمد بن أبي جعفر القطيعي، حدثنا علي بن محمد بن عبد الله العسكري، أخبرنا عبد الله بن مروان، حدثنا أحمد بن أبي طاهر، أخبرني سليمان بن سلم المصاحفي قال: قال الخليل بن أحمد: «ما سمعت شيئاً إلا كتبته، ولا كتبت شيئاً إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً إلا انتفعت به»[٥].

أخبرنا الحسن بن علي بن عبد الله المقري، أخبرنا محمد بن جعفر التميمي الكوفي، أخبرنا أبو بكر الخياط قال: قال المبرد: نظر أعرابي إلى

[١] مثله باللفظ من الحسن بن عبد الرحمن في المحدث الفاصل ٤:٢٤.

[٢] في ب جمهور.

[٣] في ظ الرقى.

[٤] مثله بتقارب وبسند مختلف في سنن الدارمي ١:١٢٦ وانظر ما يوافقه في الفاصل ٤:٢٢.

[٥] مثله بالمعنى عن المبرد ولا سند: جامع بيان العلم ١:٧٧.

رجل وهو لا يسمع شيئاً إلا كتبه فقال: «ما تترك نقارة إلا انتقرتها، ولا نماصة إلا انتمصتها، وإنك لملقفة الكلمة الشرود».

قرأت على إبراهيم بن عمر البرمكي عن عبد العزيز بن جعفر الفقيه، حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال أخبرني الميموني أنه قال لأبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل: قد كره قوم كتاب الحديث بالتأويل قال: «إذاً يخطئون إذا تركوا كتاب الحديث» قال ابن حنبل: «حدثونا قوم من حفظهم وقوم من كتبهم، فكان الذين حدثونا من كتبهم اتقن».

وقال الخلال، أخبرنا أحمد بن محمد بن حازم، حدثنا إسحاق بن منصور قال قلت لأحمد: «من كره كتابة العلم؟» قال: «كرهه قوم كثير ورخص فيه قوم» قلت: «لو لم يكتب، ذهب العلم» قال أحمد: «ولولا كتابته، أي شيء كنا نحن؟»[١].

أخبرنا إبراهيم بن مخلد إجازة، وحدثنا محمد بن علي السمّاك عنه قال: أخبرني أحمد بن أبي طالب الكاتب، قال حدثني أبي، قال أنشدني أحمد بن إسماعيل:

يا طالب العلم إذا سمعته من الثقة
فاكتبه محتاطاً ولو بخنجر في حدقة
فرب علم فات من ضيعه أن يلحقه

قد أوردت من مشهور الآثار ومحفوظ الأحاديث والأخبار، عن رسول رب العالمين وسلف الأمة الصالحين، صلى الله عليه ورضي عنهم أجمعين، في جواز كتب العلم وتدوينه، وتجميل ذلك الفعل وتحسينه، ما إذا صادف بمشيئة الله قوي شك رفعه، أو عارض ريب قمعه ودفعه، وأنا أذكر نبذة من أقوال أهل الأدب في فضل اقتناء الكتب، والأمر باتخاذها، والحث على جمعها، وإدامة النظر فيها، والتحفظ لعيون مضمونها، ووصف الشعراء لها ليكون كتابي هذا جامعاً لمعنى ما يتعلق بتقييد العلم وحراسته، وباعثاً على صرف المرء عنايته، إلى قراءته[١]ودراسته. والله تعالى أسأل توفيقي للصواب، وعليه سبحانه توكلت وإليه مثاب.

---

[١] مثله بالمعنى من إسحاق بن منصور في جامع بيان العلم: ١٥ وبزيد (قال إسحاق بن المنصور وسألت إسحاق بن راهوية فقال كما قال أحمد سواء) وانظر قول أحمد في الكتابة في جامع بيان العلم ١: ٧٥، ٧٦.

(فضل الكتب وما قيل فيها)

(الفصل الأول)
باب في فضل الكتب وبيان منافعها

أخبرنا أبو الطيب عبد العزيز بن علي بن محمد القرشي، أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس الخزاز، أخبرنا محمد بن محمد الباغندي، حدثنا عبد الوهاب بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا يزيد بن يوسف عن يزيد بن يزيد بن جابر عن مكحول عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم: (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا)[١] قال: «صحف علم خبأها لهما أبوهما».

أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله المعدل، أخبرنا دعلج ابن أحمد حدثنا ابن شيرويه، حدثنا إسحاق هو ابن راهويه، أخبرنا وكيع، حدثنا علي بن صالح عن ميسرة يعني ابن حبيب النهدي عن النهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا) قال: «ما كان ذهباً ولا فضة» قال: «صحفاً علماً».

أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد بن إبراهيم الحازمي البخاري، حدثنا إسحاق بن أحمد بن خلف الأزدي الحافظ، حدثنا محمد بن إسماعيل إملاء، حدثنا علي بن قادم، حدثنا الحسن بن صالح عن ميسرة بن حبيب النهدي الكوفي عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا) قال: «علم صحف» قال الحسن بن صالح: «وأي كنز أفضل من العلم».

---

[١] القرآن العظيم سورة الكهف الآية ٨٣ قال الطبري في جامع البيان ١٦:٥. اختلف أهل التأويل في ذلك فقال بعضهم (كان صحفاً فيها علم مدفونة) ثم استطرد إلى رواية قول من قال بذلك وهم ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد لكن سنده يختلف عن سند الخطيب ولذلك لم نجمع بينهما.

قال بعض الحكماء: لن يصان العلم بمثل بذله، ولن تكافأ النعمة فيه بمثل نشره، وقراءة الكتب أبلغ في إرشاد المسترشد من ملاقاة واضعيها، إذ كان مع التلاقي يقوى التصنع، ويكثر التظالم، وتفرط النصرة، وتشتد الحمية، وعند المواجهة يملك حب الغلبة وشهرة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع والأنفة من الخضوع، وعن جميع ذلك يحدث التضاغن ويظهر التباين.

وإذا كانت القلوب على هذه الصفة امتنعت من المعرفة، وعميت عن الدلالة، وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة، لأن المتوحد بقراءتها والمتفرد بعلم معانيها لا يباهي نفسه، ولا يغالب عقله - قال: . والكتاب قد يفضل صاحبه، ويرجح على واضعه بأمور منها:

أن الكتاب يقرأ في كل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان، وموجود في كل زمان، مع تفاوت الأعصار، وبعد ما بين الأمصار[١]، وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب والمنزع بالمسألة والجواب وقد يذهب العالم، وتبقى كتبه، ويفنى العقل، ويبقى أثره[٢]، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها وخلدت من فنون حكمها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بذلك ما غاب عنا، وأدركنا به ما بعد عنا[٣]، وجمعنا إلى كثيرهم قليلنا، وإلى جليلهم يسيرنا، وعرفنا ما لم نكن لنعرفه إلا بهم، وبلغنا الأمد الأقصى بقريب رسومهم، إذاً لحسر طلاب الحكمة، وانقطع سببهم عن المعرفة، ولو ألجينا إلى مدى قوتنا، ومبلغ ما تقدر على حفظه خواطرنا، وتركنا مع منتهى تجارتنا، لما أدركته حواسنا وشاهدته نفوسنا، لقلت المعرفة، وقصرت الهمة، وضعفت المنة وماتت الخواطر، وتبلد العقل، ونقص العلم فكان ما دونوه في كتبهم أكثر نفعاً، وما تكلفوه من ذلك أحسن موقعاً، ويجب الاقتفاء لآثارهم، والاستضاء بأنوارهم، فإن المرء مع من أحب، وله أجر ما احتسب.

[١] انظر ما يقوله في هذا المعنى ابن الجوزي في صيد الخاطر، ١٨٥.

[٢] العبارات التي بعد هذه الكلمة وردت منسوبة للجاحظ في جملة وصفه للكتاب في المحاسن والمساوئ للبيهقي ص٥.

[٣] ويضيف في المحاسن والمساوئ ٥ (وفتحنا بها كل منغلق علينا).

أخبرنا الحسن بن محمد الخلال، أخبرنا أحمد بن محمد بن عمران، قال: سمعت الصولي يقول: قال ذو الرمة لعيسى بن عمر: (اكتب شعري، فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ. إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة. فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشده الناس، والكتاب لا ينسى، ولا يبدل كلاماً بكلام)[١].

قال بعض الشعراء: (من الخفيف):

صنف الكتب يبق ذكرك واحرص   إن تصون العلوم والآدابا
إن في جوهر الخواطر علما   يلقح العقل حكمة وصوابا

وللسري بن أحمد الكندي فيما يقال: (من الكامل):

كن للعلوم مصنفا أو جامعا   يبقى لك الذكر الجميل مخلدا
كم من أديب ذكره بين الورى   غض وقد أودى به صرف الردى
وأرى الأديب يهابه أعداؤه   وبعده السادات فيهم سيدا
ينسى أواخرنا الأوائل كلهم   إلا أخا العلم الذي جاز المدى

وقال آخر: (من الوافر):

أرى العلماءَ أطولَنا حياةً   وإن أضحوا رفاتا في القبور
أناس غيبوا وهم شهود   بما ابتدعوه من علم خطير
كأنهم حضور حين تجري   محاسن ذكرهم عند الحضور[٢]
لئن ملئت قبورهم ظلاما   فإن ضياءهم ملء الصدور

أخبرنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن أبي الفوارس الحافظ، أخبرنا أبو محمد علي بن عبد الله بن المغيرة، حدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي قال، قال عبد الله بن المعتز «الكتاب والج للأبواب جريء على الحجاب، مفهم لا يفهم، وناطق لا يتكلم، وبه يشخص المشتاق إذا أقعده الفراق، فأما

---

[١] مثله في الحيوان ١:٤١ ونهاية الأرب للنويري ٧:١٨.

[٢] وفي أن الكتب أثر يخلد انظر هدية الأمم ٢٨ والحيوان للجاحظ ١:٩٦.

القلم فمجهز لجيوش الكلام، يخدم الإرادة، ولا يمل الاستزادة، ويسكت واقفا، وينطق سائرا على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء، وكأنه يقبل بساط سلطان، أو يفتح باب بستان»[٣].

حدثني أبو طاهر محمد بن أحمد بن أبي الصقر الأنباري بها، أخبرنا محمد بن المغلس البزاز بمصر، أخبرنا الحسن بن شريق، حدثنا أحمد بن جعفر السرمدي، حدثني العباس بن مجتاح قال: قال بعض العلماء: «الكتاب جليس، لا مؤونة عليك فيه»[٤].

أخبرنا أبو علي محمد بن الحسين الجازري قال سمعت القاضي أبا الفرج المعافى بن زكريا يقول: «قد قيل في الكتاب ما معناه: إنه حاضر نفعه، مأمون ضره، ينشط بنشاطك، فينبسط إليك، ويمل بملاك فينقبض عنك، إن أدنيته دنا، وإن أنأيته نأى، لا يبغيك شراً ولا يغشى عليك سراً ولا ينم عليك ولا يسعى بنميمة إليك».

أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمر بن أحمد الدلال، حدثنا أبو محمد جعفر ابن محمد بن نصير الخلدي إملاء، حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق، قال قرأت في كتاب: (من الكامل):

أخبرني علي بن أبي علي البصري، حدثنا محمد بن العباس الخزاز، أنشدني جعفر بن محمد الخلدي: (من الكامل):

نعم المحدث والرفيق كتابُ ... تلهو به إن خانك الأصحاب
لا مفشيا للسر إن أودعته ... وينال منه حكمة وصواب

أخبرني علي بن أبي علي البصري، حدثنا محمد بن العباس الخزاز، أنشدني جعفر بن محمد الخلدي: (من الكامل)

نعم النديم إذا خلوت كتاب ... إن خانك الندماء والأصحاب
فأبحه سرك قد أمنت لسانه ... أو أن يغيبك عنده مغتاب
وإذا هفوت أمنت غرب لسانه ... إن العتاب من النديم عذاب

---

[٣] مثله باللفظ المتقارب في الآداب لابن المعتز ص٩٦ وزهر الآداب للحصري ٢:١٢٦.

[٤] مثله بالمعنى دون سند في المحاسن والمساوئ ص٢.

قلت: ومع ما في الكتب من المنافع العميمة والمفاخر العظيمة، فهي أكرم مال، وأنفس جمال، والكتاب آمن جليس، وآسر أنيس[١]، وأسلم نديم وأفصح كليم[٢].

وقد وصفه أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، فيما بلغنا عنه، فقال[٣]: (الكتاب نعم الذخر والعقدة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم القرين والدخيل والوزير والنزيل) قال: (والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي طرفاً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره وعجبت من غرائب فوائده، وإن شئت شجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مله، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وبشيء يجمع لك الأول والآخِر، والناقص والوافر، والشاهد والغايب، والحسن وضده [٤]

قال: «ولا أعلم جاراً أبر ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، ولا أقل خيانة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً، ولا أقل صلفاً وتكلفاً من كتاب [٥]

وبعد: فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة في كف، وحجراً ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، أبر من أرض، وأكتم للسر من صاحب

---

[١] في ب: وأنس.

[٢] وعن حفظ الكتاب للسر انظر مطالع البدور ٢: ١٧٢ واستدراكات ابن الخشاب على الحريري الآستانة مطبعة الشركة المطبعية ١٣٢٨، ص٢.

[٣] وصفه لمن عاب تصنيف الكتب لا بل عاب الكتاب. وتجد هذا الوصف في الحيوان ١:٣٨ فما بعده والمحاسن والمساوئ ٢.٦ وورد مقطعاً أو مختصراً في كنز الفوائد للكراجكي ١٢. ومحاضرات الأدباء للراغب ١:٥٥ وربيع الأبرار للزمخشري ١٤.٢٥. ومحاضرة الأبرار لابن عربي ١:٢.٤ ونهاية الأرب ٧:١٧.١٨ ومطالع البدور للغزولي ٢:١٧٢ ونسبه إلى بعض الحكماء المسعودي في مروج الذهب ٣.١٢٦.١٢٨ وتابعه ياقوت في الإرشاد ١:٩٢ وفي النصوص اختلاف في الألفاظ وزيادة.

[٤] ويأتي بعد هذا في الحيوان ١:٣٩؛ وبعد فما رأيت بستاناً... إلخ مما يأتي فيما بعد عندنا فقد غير مؤلفنا ترتيب الجاحظ.

[٥] ويعود كتابنا إلى ما كان أهمله من النقص الوارد في الحيوان ويفوته ما يأتي في ١:٤٢.

السر، وأضبط لحفظ الوديعة من أرباب الوديعة[١]، صامت ما أسكته، وبليغ إذا استنطقته، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه، ومن لك بزاير، إن شئت جعلت زيارته غبا، وورده خما، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك مكان بعضك.

والكتاب مكتف بنفسه، ولا يحتاج إلى ما عند غيره. وهو الجليس الذي يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والمستمنح الذي لا يزيدك، والجار الذي لا يستبطك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يختال لك بالكذب.

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك، وبسط لسانك وجود بيانك، وفخم ألفاظك، وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم وكد الطلب والوقوف بباب المكتسب بالتعليم، والجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً وأكرم منه عرقاً.

وهو المعلم الذي إن افتقرت لم يحقرك، وإن قطعت المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعدائك لم يتقلب [٢] عليك.

أخبرني أبو علي الحسن بن علي بن عبد الله المقري، حدثنا أبو الفرج عبيد الله بن عمر المصاحفي، قال أنشدنا أبو طاهر بن أبي هشام، قال: أنشدنا إسماعيل بن يونس، قال أنشدنا أبو حاتم السجستاني، وذكرت الكتب والدفاتر بحضرته فقال: ما أحسن ما قال ابن يسير (من البسيط):

---

[١] يزيد في الحيوان: ١:٤٠ شيئاً ينتهي به وصف الكتاب غير ما يرد في ١:٥١.

[٢] والمعاني التي أوردها الجاحظ لها شبيه فيما ذكر عمن وصف لعبد الملك الكتاب، انظر محاسن الوسائل للشبلي، وفيما ذكر في مطالع البدور.

فردا تحدثني الموتى وتنطق لي ... عن علم ما غاب عني منهم الكتب
هم مؤنسون وآلاف عنيت بهم ... فليس لي في جليس غيرهم أرب
لله من جلساء لا جليسهم ... ولا عشيرهم للشر يرتقب

هذه الأبيات الثلاثة حسب، رويت لنا وما أورده بعدها فليس بالإسناد المذكور:

لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم ... ولا يلاقيه منه منطق ذَرِبُ
أبقوا لنا حكما تبقى مناقبها ... أخرى الليالي على الأيام وانشعبوا
فأيما أدب منهم مددت يدي ... إليه فهو قريب من يدي كثب
إن شئت من محكم الآثار يرفعها ... إلى النبي ثقات خيرة نجب
أو شئت من غرر علما تأولها ... في الجاهلية تأتيني به العرب
أو شئت من سير الأملاك من عجم ... تنبي وتخبر كيف الرأي والأدب
حتى كأني قد شاهدت عصرهم ... وقد مضت دونه من دهرهم حقب
يا قايلا قصرت في العلم همته ... أمسى إلى الجهل فيما قال ينتسب
إن الأوائل قد بانوا بعلمهم ... خلاف قولي ما ماتوا ولا ذهبوا
ما مات منا أمرؤ أبقى لنا أدبا ... نكون منه إذا ما مات نكتسب[١]

أخبرني أبو الحسين محمد بن الحسين بن الفضل القطان، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن[٢] بن زياد المقري النقاش أن عبد الله ابن محمود الشيخ الصالح أخبره قال: أخبرني يحيى بن أكثم قال: قال المأمون لعبد الله بن الحسن العلوي: «ما بقي من لذتك يا أبا علي؟» قال: «اللعب مع الصغير من ولدي، ومحادثة الموتى». قال أبو بكر النقاش يعني النظر في الكتب - وبلغني عن المأمون أنه قال: «لا شيء آثر للنفس، ولا أشرح للصدر، ولا أوفر للعرض، ولا أذكى للقلب، ولا أبسط للسان، ولا أشد للجنان، ولا أكثر وفاقاً، ولا أقل خلافاً، ولا أبلغ إشارة، ولا أكثر

---

[١] وردت هذه القصيدة مع اختلاف في اللفظ في الحيوان ١:٩٤-٩٦ وفي أولها خمسة أبيات أغفلت هنا ووردت في جامع بيان العلم ٢:٢٠٣ ومحاسن الوسائل٢ زائدة عن نصها هنا ببيتين ورد بعضها مشابهاً لنص الحيوان في ربيع الأبرار ٢٣٤.

[٢] في ب: الحسين.

عبارة من كتاب تكثر فائدته، وتقل مؤونته، وتسقط غائلته وتحمد عاقبته، وهو محدث لا يمل، وصاحب لا يخل، وجليس لا يتحفظ، ومترجم عن العقول الماضية، والحكم الخالية، والأمم السالفة، يحيي ما أماته الحفظ، ويجدد ما أخلقه الدهر، ويبرز ما حجبته الغبارة، ويصل إذا قطع الثقة، ويدوم إذا خان الملوك).

قرأت في كتاب محمد بن عبد الملك النارنجي بخطه حدثني أبو توبة يعني صالح بن محمد بن دراج قال حدثني الحسن بن سهل قال: كان المأمون ينام والدفاتر حول فراشه، ينظر فيها متى انتبه من نومه وقبل أن ينام[١].

أخبرنا علي بن الحسين بن أحمد التغلبي بدمشق، أخبرنا عبد الرحمن ابن عمرو بن نصر قال: حدثني العباسي بن محمد الرافقي قال حدثني محمد بن علي النحوي قال: ودع رجل صديقاً له فقال له: «استعن على وحشة الغربة بقراءة الكتب، فإنها ألسن ناطقة وعيون رامقة».

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحسن أخو الخلال، أخبرنا إبراهيم ابن عبد الله الشطي بجرجان قال أنشدنا أبو محمد الجابري قال أنشدني ابن المعتز: (من البسيط):

إذا جفاني ندمان ومؤتلفُ ... نادمت،كتْبي،فشاهدت الألى سلفوا
وكانت الراح أيضا لي منادمة ... نعم النديمانِ صفو الراحِ والصحف
الراح تطرب نفسي حين أشربها ... والكتب،يؤمن،منها الزهو والصلف

وأخبرنا أخو الخلال[٢]، أخبرنا الشطي قال أنشدنا أبو محمد الجابري قال: أنشدنا ابن المعتز: (من الكامل):

لا شيء أنفع من كتاب يُدرَسُ ... فيه السلامة وهو خلٌّ مؤنسُ
رسم يفيد كما يفيد ذوو النهى ... أعمى أصم عن الفواحش أخرس

---

[١] وجدنا هذا الخبر مضافاً على هامش نسخة ظ منسوباً للمؤلف إجازة ولم يرد في نسخة ب.

[٢] في ب: أبو الخلال.

قرأت في كتاب القاضي أبي الحسن أحمد بن علي بن الحسين التوزي الذي سمعه من أبي محمد عبد الحميد بن عبد الرحيم التوزي قال: (الكتاب حميم، خيره عميم. الكتاب أخ غير خوان، فتفرد به عن الإخوان، الكتاب سمير سليم الظاهر والضمير).

أنشدني أبو عبد الله الحسين بن محمد القاسم العلوي لبعضهم: (من المتقارب):

مجالسة السوق مذمومةً	وفيها مجالس قد تستحب
فلا تقصدن غير سوق الدواب	وسوق السلاح وسوق الكتب
فتلك مجالس أهل الهوى	وهذي مجالس أهل الأدب[١]

قيل لبعضهم: أما تستوحش؟ فقال: يستوحش من معه الأنس كله؟ قيل وما الأنس؟ قال: الكتب[٢].

وتأخر عن بعض الرؤساء نديم له فقال: يا غلام علي بالنديم الذي لا يتغير ولا يتغيب. قال من هو؟ قال: الكتاب.

وقال بعض الوزراء: يا غلام ائتني بأنس الخلوة ومجمع السلوى؟ فظن جلساؤه أنه يستدعي شراباً، فأتاه بسفط فيه كتب.

وقيل لرجل من يؤنسك؟ فضرب بيده إلى كتبه. وقال: هذه، فقيل: من الناس؟ فقال: الذين فيها.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن رزق البزاز، حدثنا عثمان ابن أحمد الدقاق، حدثنا إسحاق بن سنيز الختلي، حدثنا الحسين بن علي بن يزيد، حدثنا محرز بن جبير المروزي قال: قيل لابن المبارك: «يا أبا عبد الرحمن، لو خرجت فجلست مع أصحابك» قال: «إني إذا كنت في المنزل جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم» يعني النظر في الكتب.

أخبرنا أحمد بن أبي جعفر القطيعي، حدثنا محمد بن المظفر الحافظ، حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، حدثنا عبد الصمد بن

---

[١] وردت هذه الأبيات بلفظ يختلف في الخطط للمقريزي ٢:١٠٢.

[٢] انظر عن أنس الكتاب محاسن الرسائل، ٣.

يزيد مردويه قال: سمعت شقيق بن إبراهيم البلخي يقول: قلنا لابن المبارك: إذا صليت معنا، لم لا تجلس معنا؟ قال: أذهب فأجلس مع التابعين والصحابة، قال: قلنا: فأين التابعون[١]والصحابة، فقال: أذهب أنظر في علمي، فأدرك آثارهم وأعمالهم، ما أصنع معكم؟ أنتم تجلسون تغتابون الناس، فإذا كان سنة مائتين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله تعالى فر من الناس كفرارك من الأسد، وتمسك بدينك، يسلم لك لحمك ودمك.

قيل لبعضهم: لم لا تعاشر فلاناً الشريف؟ فقال: أنا أعاشر أباه وجده، ومعاشرة أبيه وجده أحب إليّ من معاشرته. فقيل: إن أباه وجده قد ماتا، فكيف تعاشرهما؟ فقال: بأخبارهما وآثارهما في الكتب التي إذا قرأتها[٢]، قد عاشرتهما بها.

وقيل لحكيم من الحكماء: ألا تدعو قوماً يؤنسونك، فقال: كم جهد ما يمكن مثلي أن يدعو من الناس ليستأنس بهم؟ فقالوا: الاثنين والثلاثة، فقال: قد يؤنسني ألوف وألوف وعشرات الألوف فقيل: أنى لك كل هؤلاء؟ وهل تسع دارك جمعهم؟ فقال: مجمعهم في الكتب المسطورة والأخبار المأثورة.

وقال بعض الشعراء (من الكامل):

لولا العلوم لما سمعت لهالك ... ذكراً ولا خبراً من الأخبارِ
كم من أديب حاضر في مصره ... وحديثه المشهور في الأمصارِ
ينسى الأنام وذو العلوم مخلدٌ ... في الناس من باق هناك وسارِ

أخبرنا أبو بكر عبد الله بن علي حموية بن أبرك الهمذاني بها، أخبرنا أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي قال: أنشدني القاسم بن أبي بكر القفال لأبيه، وزعموا أنه كتب على باب خزانة كتبه، قال أحمد ابن عبد الرحمن فإن لا يكن هو أنشدني فانشدني غيره لأبي بكر القفال: (من الطويل):

---

١) وردت في النسختين: التابعين وهو سهو من المؤلف عجيب.

[٢] في ب "قرأتهما فكأني". وانظر عن معاشرة الناس في قراءة آثارهم في ربيع الأبرار للزمخشري، ظاهرية أدب ٩٢. ١٥ والمحاسن والمساوىء للبيهقي، ١٥ ومحاضرة الأبرار لأبن عربي ٤:١.

خليـلي كتابي لا يعاف وصاليا — وإن قل لي مال وولّى جمـاليا
وفى لي على حالي شباب وكبرة — ولـم يتجهمـني الشيـب قذاليا
على حين خانتني الحسان عهودها — وقطعن من بعد اتصال حباليا
تجافين عني إذ تجافت شبيبتي — وأنكرنني لما تنكـرت حـاليـا
كتابي عشيقي حين لم يبق معشق — أغازله لـو كان يـدري غـزاليا
كتـابي أب بـر وأم شـفيقـة — هما هو، إذ لا أم أو لا أبا ليا
كتابي جليسي لا أخاف ملاله — محـدث صـدق لا يخاف ملاليا
محدث أخبار القرون التي مضت — كأنـي أرى تلك القـرون الخواليا
فهـم جلسـائي لا بهائـم رتـع — حمير سدي ما يخطرون بباليـــا
كتابي بحر لا يغيض عطـاؤه — يفيض علي المال إن غاض ماليا
وتلفظ لي أفـلاذ أكبـاد كنزه — لجيـنا وعـقيـانا ودرا لآلـيـا
أدل بعـلـمـي إن أذل لجاهـل — ويعقل عقلـي أن يحـل عقاليا
كتابي دليل لي على خير غاية — فمـن ثـم إدلالي ومنـه دلاليا
إذا زغت عن قصد السبيل أقامني — وإن ضل ذهني ردني عن ضلاليا
فهذا خليـلي لا أزال خليـلـه — وخيـر خـلالـي أن أديم خلاليا

حدثني محمد بن أبي الحسن الساحلي، أخبرنا القاضي أبو الحسن عبيد الله بن القاسم بن علي الهمذاني بطرابلس، حدثنا أبو الحسن محمد ابن أحمد بن طالب البغدادي قال أنشدنا أبو بكر بن الأنباري عن بعضهم (من المتقارب):

إذا ما خلوت مـن المؤنسين — جعلت المؤانس لـي دفتر
فلم أخل من شاعر محسـن — ومـن عـالـم صـالح منذر
ومـن حِكَـمٍ بيـن أثنائهـا — فوائد للناظر المفكـر
فإن ضاق صدري بأسراره — وأودعـتـه السـر لم يظهـر
وإن صرّح الشعر باسم الحبيب — لم احتشـمـه ولـم أحصـر
وإن عدت من ضجرة بالهجاء — وسـب الخليفة لم أحذر
ونادمت فيه كريم المغيب — لـندمـانـه طيـب المخبـز
فلست أرى مُؤْثَراً ما حييت — نديما عليـه إلى المحشر

أخبرني أبو عبد اللّه الحسين بن محمد بن جعفر الخالع فيما أجاز لي، وحدثني محمد بن علي بن محمد (١) البيع عنه قراءة قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن الفضل المعروف بسندانة عن عبد اللّه بن المعتز قال قال محمد بن أحمد بن طباطبا يصف كتاباً: (من الخفيف):

صدف شق عن لآلـى ذر ... أم كتاب قد فض عن نظم شعر
وقواف مقومات لدى الأبـ ... ـيات موزونـة بقسـطاس فكـر

قال بعض العلماء: الكتاب تؤدبك عجايبه، وتسرك طرايفه، وتضحكك ملحه ونوادره، وهو نزهة الأديب عند لذته، ومتعته عند خلوته، وتحفته عند نشاطه، وأنسه عند انبساطه، ومستراحه من همه، ومسلاته من غمه، وعوضه من جليس السوء، وسخف الأماني، ومستقبح الشهوات، وهو روضة مجلسه، وبستان يده [٢]، وأنيس يتقلب معه.

وقد جعل بعض الشعراء الكتاب قسماً أقسم به في شعره لعظمه عنده، وجلالة قدره فقال فيما أخبرنا أبو الحسين محمد بن الحسن بن أحمد الأهوازي، أخبرنا أبو أحمد الحسن بن عبد اللّه بن سعيد العسكري، فيما أذن أن ترويه عنه، قال: أخبرنا محمد بن يحيى الصولي، قال: قال أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي الأصبهاني: (من الخفيف):

لا وأنســي وفـرحتـي بكتـاب ... أنا منه في حُسْنِ أضحى وفِطْرِ
ما دجا ليلٌ وِحشتي قطُّ إلا ... كنت لي فيه طالعا مثل بدرِ
بحديث يقيم للأنس شوقا ... ولثام يكف لوعة صدري

أخبرنا الحسين بن محمد أخو الخلال، أخبرنا إبراهيم بن عبد اللّه الشطي، قال أنشدنا أبو محمد الجابري لنفسه (من الكامل):

---

[١] في ب زيادة (بن محمد) آخر.
[٢] وفي أن الكتاب بستان العقلاء انظر المحاسن والمساوئ للبيهقي٢ ومحاسن الوسائل١و٢ ومطالع البدور ٢:١٧٤ ومحاضرة الأبرار ١:٥.

نعم المسامر والنديم الدفتر إن ضاق صدرك أو علاك تفكر
يلهي ويؤنس، وهو خل كلما أبدى بحضرته فغيب مضمر

بلغني أن هذا الشعر لعتّاب بن ورقاء (من المنسرح).

لوعلم الجاهلون ما الأدب لأيقنوا أنه هو الطرب
لو يعلم العاشقون ما لذة العلم ولم يعرفوه ما نصبوا
من كان يلهو وكان ذا أنس فالعلم لَهْوي وأنسي الكتب
لو عجبوا من مقالتي فهم ما عجبوا من مقالتي العجب

***** **** *****

أخبرنا أبو القاسم عبيد اللّه بن أحمد بن عثمان الصيرفي وأبو يعلى أحمد بن عبد الواحد بن محمد الوكيل قالا: أنشدنا أحمد ابن محمد العروضي في الدفاتر وفضلها: (من المقتضب):

إن جمع الدفاتر عدة للبصائر
قد حوت كل فاخر من صنوف الجواهر
وعلوم قد أوضحت كل ماض وغابر
وعجيب من الأمو ر بعيد وحاضر
يكتفي كل عالم بارع النفظ باهر
برياض مقيمة في بطون الدفاتر
يتناجون صامتين بما في الضماير
وهم إن خبرتهم بين ناه وزاجر
ومشير بما يراه وداع وآمر
فتمسك بها تفز بسنى الذخائر

أنشدني محمد بن أبي نصر الأندلسي قال: أنشدني أبو محمد عبد اللّه ابن عثمان العمري الأديب بالأندلس، قال: أنشدني أبو أحمد عبد العزيز ابن عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري الكاتب لأبيه من قصيدة طويلة (من الكامل):

واعلم بأن العلم أرفع رتبة … وأجل مكتسب وأسنى مفخر
فاسلك سبيل المتقين له … سدان السيادة تقتنى بالدفتر
والعالم المدعو حبرا إنما … سماه باسم الحبر حمل المحبر
والعالم ليس بنافع أربابه … ما لم يفد عملا وحسن تبصر
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها … لا ترضى بالتضييع دون المخسر
سيان عندي علم من لم يستفد … عملا به وصلاة من لم يطهر

أنشدنا علي بن أبي علي أبو القاسم البصري، قال: أنشدنا أبو علي أحمد بن علي الهايم، قال: أنشدنا السري بن أحمد الرفاء لنفسه يدعو أبا بكر المراغي النحوي ويصف له كتباً عنده وبستاناً في داره ويصف الشطرنج (من الكامل):

عندي إذا ما الروض أصبح ذابلا … تحف أغض من الرياض شمائلا
خرس تحدث آخر عن أول … بعجائب سلفت ولسن أوائلا
سقيت بأطراف اليراع ظهورها … وبطونها طلأ أحم ووابلا
تلقاك في حمر الثياب وسوادها … فتخالهن عرائشا وتواكلا
وتريك ما قد فات من دهر مضى … حتى تراه بعين فكرك ماثلا
وإذا خلوت بهن ظمآن الحشا … منحتك من صوب العقول مناهلا
ولها إذا حلت نتاج غرائب … يمكثن ما زرت بهن حوامل
يلبسن أردية الأديم كأنما … رقرقت فيهن الخلوق السئلا
فإذا مددت لها يمينك فاتحا … عبقت يمينك راحة وأناملا
نشرت حدائقها على أمثالها … حللا مدبجة وحليا كاملا
روض تزخرفه العقول وروضة … باتت تزخرفها هواطلا
وكتيبتا زنج وروم أذكتا … حربا يسل بها الذكاء مناصلا
في معرك قسم النزال بقاعة … بين الكماة المعلمين منازلا
لم يسفحا فيه دما وكأنما … رشح الدماء أعاليا وأسافلا
يبدي لعينك كلما عاينته … قرنين جالا مقدما ومجاولا
فكأن ذا صاح يسير مقوماً … وكأن ذا نشوان يخطر مائلا
أعجبْ بها حرباً تثير إذا التظت … فضل الرجال ولا تثير قساطلا

أنشدني أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصوري لنفسه (من الرمل):

قيمة الكتب أجل القيم عند من يعرف رضع الكلم
جمعت من كل فن حسن وغريب من ضروب الحكم
بين منظوم بديع نظمه حياكة كل أديب فهم
ثم يتلو النظم نثر مشبه زهر الروض عقيب الديم
فإذا ما نطقت في مجلس تركت أفصحنا كالأعجم
فلنا منها جليس ممتع ليس بالعي ولا بالمفحم
ناظم طورا وطورا ناثر حكما فيها لقاح الفهم
نحن منه في سرور لا كمن هو في جلاسه في مأتم
يكتم السر إذا بحنا به وإذا في سويداه ولم يستكتم
الندمان يوما سئموا فاحفظ مجلسا لم تلفه بالسئم
الكتب ففي بذلكها ندم ما شئت كل الندم

وأنشدني أبو عبد الله الصوري لنفسه أيضاً [١] من المجتث:

نعم الأنيس كتاب إن خانك الأصحاب
يحوي ضروب علوم تزينه االآداب
تنال منه فنونا تحظى بها وتثاب
لا مظهر لك سرا ولا عليه حجاب
ولا يصدك عنه إذا جئته بواب
ولايسوؤك منه تغضب أو عتاب
ولا يعيبك إن كا ن فيك شيء يعاب
خلاف قوم تراهم ليست لهم ألباب
لكنهم كذئاب طلس عليهم ثياب
إذا تقربت منهم أرضاك منهم خطاب
وإن تباعدت منهم فكلهم مغتاب
ما هؤلاء بناس بل هم لعمري كلاب
فالبعد منهم ثواب والقرب منهم عقاب

أخبرني أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد بن جعفر، أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن محمد بن زكريا الخزاز، أخبرنا محمد ابن خلف بن المرزبان قال: كتب بعض الأدباء إلى صديق له، وأهدى له دفتراً: «قد أهديت لك من فنون كلامي، وعيون مقالي دفتراً طريف[١]المعاني، شريف المباني، صحيح الألفاظ، يلذ بأفواه الناطقين، ويلين على أفواه الصامتين».

وقال ابن المرزبان أخبرني علي بن الحسن الكاتب قال: أهدى بعض أهل الأدب إلى بعض الكتاب، في يوم نوروز، كتاباً فيه أخبار وآداب، فاستصغره، واستقله، فكتب إليه المهدي:

هدية تصغر لكنها ... في عين من يعرفها تكبر

بعثتها كالروض في حسنه ... أنوارها مشرقة تزهر

كالعقد في النظم حوى جوهر ... ا ما مثله في حسنه جوهر

جونة عطار[٢] إذا استفتحت ... يفوح منها المسك والعنبر

كالوشي في الحسن ولكنه ... أحسن ما يطوي وما ينشر

لا تحقر الدفتر وانظر إلى ... ما قد حوى من علمه الدفتر

من نادر الأخبار أو ... محكم الأشعار أو مكرمة تؤثر

كالدر في الأصداف ماضمت ... الأوراق مما خطت الأسطر

أنكرت منها ياأبا جعفر ... ما مثله عندك لا ينكر

[١] في ب طريف.

[٢] في ب: جونة والجونة سلسلة مغشاة ادما تكون مع العطارين: القاموس المحيط ٤:٢١١.

(الفصل الثاني)

ومما ترجم به الكتب [١]

أخبرنا علي بن أبي علي البصري، قال: أنشدنا أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول التنوخي، قال: أنشدنا أبو سعد داود بن الهيثم بن إسحاق بن البهلول لنفسه، وكتبهما بخطه على ظهر دفتر جمع فيه أخباراً وأشعاراً، جعلهما ترجمة له (من الخفيف):

نتف من طرائف الأخبار وشذور المقطعات القصار

نزهة للقلوب فيها رياض زينتها بدائع الأشعار

أخبرني محمد بن عبد الواحد الأكبر، أخبرنا محمد بن العباس الخزاز أخبرنا محمد بن خلف بن المرزبان، أخبرني علي بن سعيد ابن زيد البصري عن نصر بن علي الجهضمي، قال: أهدى أحمد بن المعدل إلى أبي يحيى عيسى بن أبي حرب دفتراً فيه دعاء، وكتب إليه: (من البسيط):

فيه دعاء إذا ما الأمر أعضلني واستحكم الهم في قلبي فأرقني

ناديت معتمدي في كل نائبة فلم أتمه حتى هو[٢] يخلصني

حدثني أبو القاسم عبد العزيز بن علي بن أحمد الوراق، قال سمعت علي بن عبد الله بن الحسن الهمذاني يقول: سمعت أبا الطيب محمد بن جعفر الوراق يقول قرأت على ظهر كتاب لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (من الكامل):

هذا كتاب فوائد مجموعة جمعت بكد جوارح[٣] الأبدان

جمعت على بعد المشقة والنوى والسير في فيافي البلدان

أنشدني القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي قال: أنشدني أبو الحسن النصيبي مؤدبي لنفسه وترجم به كتاباً (من الوافر):

كتاب يحتوي جمل السرور ويكسو القلب أنواع الحبور

به أنس الوحيد إذا تخلى بلوعته وبالدمع الغزير

---

[١] وانظر غير ما ورد عن هذا الفصل المحاسن والمساوئ ٢، محاضرة الأبرار ١:٤ ديوان ابن نباتة ٢٥٢، وطالع البدور ٢:١٧٥ و١٧٧ و١٧٤ و١٧٢، محاسن الوسائل٢ والفهرست١١ وهدية الأمم٥٦ و٢٧ و٥١.

[٢] كذا في النسختين.

[٣] كذا في النسختين.

(الفصل الثالث)
الإكثار من الكتب [١]

أخبرنا أبو الحسن محمد بن رزقويه، أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق، حدثنا حنبل بن إسحاق، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا موسى بن عقبة قال: وضع عندنا كريب حمل بعير من كتب ابن عباس، فكان علي بن عبد الله بن عباس، إذا أراد الكتاب، كتب إليه: ابعث لنا بصحيفة كذا وكذا، فينسخها ويبعث بها[٢].

قال بعض أهل العلم: ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم وأن يستكثر منها ولا يعتقد الغنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال، احتاج إليها في حال وإن سئمها في وقت ارتاح إليها في وقت، وإن شغل عنها في يوم، فرغ لها في يوم، وأن لا يسرع ويعجل، فيندم ويوجل، فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده، ثم رامه فتعذر عليه مرامه. وابتغى إليه وصولاً فلم يجد إليه سبيلاً، فأتعبه ذلك وأنصبه، وأقلقه طويلاً وأرقه.

كالذي حكي عن بعض العلماء، قال: بعت في بعض الأيام كتاباً ظننت أني لا أحتاج إليه، فلما كان ذات يوم هجس في صدري شيء كان في ذلك الكتاب، فطلبته في جميع كتبي فلم أجده، فاعتمدت أن أسأل عنه عالماً عند الصباح، فمازلت قائماً على رجلي إلى الصباح، قيل: فهلا قعدت؟ قال: لطول أرقي وشدة قلقي.

وباع آخر كتاباً، ظن أنه لا يحتاج إليه، ثم أنه احتاج إليه فالتمس نسخة به، فلم يجدها بعارية ولا ثمن، وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلى

---

[١] وانظر عن الإكثار من الكتب وفضل جمعها الحيوان ١:٥٥ المحاسن والمساوئ ١٤ ومحاضرات الأدباء ١:٥٥، ربيع الأبرار١٤، كنز الفوائد للكراكجي١٣٩.

[٢] مثله بتقارب اللفظ من زهير في طبقات ابن سعد ٥:٣١٦ وباختصار دون سند ٢٥ في شذرات الذهب ١:١١٤.

بلده فشخص إليه، وسأله الإقالة وارتجاع الثمن منه فأبى عليه. فسأله إعارته لنسخ الكلمة منه، فلم يجبه، فانكفأ قافلاً وآلى على نفسه أن لا يبيع كتاباً أبداً.

وباع آخر كتاباً ظن أنه لا يحتاج إليه ثم إنه احتاج إلى كلمة منه فقصد صاحبه وسأله أن يكتبه تلك الكلمة، فقال: والله ما تكتبها إلا بثمن الكتاب كله، فرد عليه ثمن الكتاب وكتب تلك الكلمة.

وقيل لآخر: ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها، فقال: إن لم أحتج إليها اليوم احتجت إليها بعد اليوم.

واشترى رجل كتاباً، فقيل له: اشتريت ما ليس من علمك، فقال: اشتريت ما ليس من علمي ليصبح من علمي.

وقيل لآخر: ألا تشتري كتباً تكون عندك، فقال: ما يمنعني من ذلك إلا أنني لا أعلم، فقيل: إنما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم.

وكان آخر يشتري كل كتاب يراه، فقيل له: إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه. فقال: ربما احتجت إلى ما لا أحتاج إليه.

ومما يعزى إلى السري بن أحمد الكندي (من الكامل):

لا تخدعن عن العلوم فإنها ... سرج يزيد على الزمان ضياؤها

تنسى القرون[١] فلا يشيد بذكرها ... أحد ويذكر دائباً علماؤها

فاحرص على جمع العلوم فإنها ... ري القلوب من الصدى وشفاؤها

كان بعض القضاة يشتري الكتب بالدين والقرض، فقيل له في ذلك، فقال أفلا أشتري شيئاً بلغ بي هذا المبلغ، قيل: فإنك تكثر، فقال: على قدر الصنعة تكون الآلة.

واحتاج بعض النجارين إلى بيع فأسه ومنشاره فباعهما، وحزن عليهما، وندم على بيعهما إلى أن رأى جاراً له من أهل العلم في سوق الوراقين، وهو يبيع كتبه، فقال: إذا باع العالم آلته، فالصانع أعذر منه، وسلا بذلك.

---

[١] في ب: القران.

حدثت عن أبي الحسين أحمد بن عبيد الله الكلوزاني، قال: حدثني محمد بن سليمان الجوهري قال: كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل، قال: فخرجنا يوماً لنزهة، فبينا نحن على باب جامع البصرة، ننتظر شيئاً أردناه، إذ عارضتنا امرأة، معها أوراق مقطعة فعرضت ذلك علينا، فلم نجد فيها طائلاً، فتركناها وانصرفنا، وتخلف معها الجاحظ، ونحن ننتظره، فأطال ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً، وأخذ الأوراق، وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله، فلما عاد أخذنا نهزأ به، ونقول: فزت بقطعة من العلم وافرة وضحكنا، فقال: أنتم حمقى، والله إن فيها ما لا يوجد إلا فيها، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس.

وأما القاضي أبو الوليد بن رشد فقد قال في المقدمات ج١ صفحة ١٢-٤٣ ما نصه:

(فصل): وإذا علمنا صحة نبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علمنا صدقهم فيما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى من الشرائع وغيرها وأنه أوجب على عباده أن يؤمنوا به ويوحدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً لأنه قال في كتابه الذي أنزله على رسوله:

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً)[١].

وقال تعالى: (فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)[٢].

وقال تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)[٣].

---

[١] الفتح: ١٣.

[٢] الانشقاق: ٢٠-٢٥.

[٣] النساء: ١٣٦.

والأمر على الوجوب ومن قال من أصحابنا إن الأمر ليس على الوجوب فقد وافقنا على أن الأمر بالإيمان على الوجوب لما اقترن به من الإجماع. وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم والَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ) [١].

وقال تعالى: (واعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) [٢]. وقال تعالى: (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ واعبُدُوهُ واشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [٣].

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُم وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ) [٤].

وهذا في القرآن كثير وأما قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ) [٥]. فإنها آية عامة وليست على عمومها والمراد بها السعداء من الجن والإنس لأنهم هم الذين خلقهم اللّٰه تعالى لعبادته وأما الأشقياء منهم فإنما خلقهم لما يسرهم له واستعملهم به من الكفر والضلال قال اللّٰه تبارك وتعالى:

(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ

---

(١) البقرة: ٢١
(٢) النساء: ٣٦
(٣) العنكبوت: ١٧
(٤) الحج: ٧٧
(٥) الذاريات: ٥٦

يَجعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)[١]وقال تعالى: (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ ويَهْدِي مَن يَشَاءُ)[٢].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل ميسر لما خلق له» وجاء في الحديث: «وأن رجلاً من مزينة أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون أشيء قضي عليهم ومضى أو فيما يستقبلون؟ فقال: شيء قضي عليهم ومضى قال فلم نعمل إذاً؟ قال: من خلقه الله لواحدة من المنزلتين فهو يستعمل لها» تصديق ذلك في كتاب الله: (ونفسٍ وما سوّاها * فَألهَمَهَا فُجورَهَا وتَقْوَاهَا)[٣]وقد قيل إن معنى الآية وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي. وقيل معناها ليذعنوا لي بالعبودية ويعترفوا لي بالربوبية لأن معني العبادة التذلل للمعبود فكل الخلق على هذا التأويل متذلل لأمر الله مذعن لقضائه لأنه جار عليه تعالى لا قدرة له على الامتناع منه إذا نزل به وإن خالف الكافر أمر الله تعالى فيما أمره به من الإيمان والطاعة فالتذلل لقضاء الله الجاري عليه موجود منه.

(فصل) وحكم الله تعالى أن لا يعذب الخلق على ترك ما أمرهم به وإتيان ما نهاهم عنه إلا بعد إقامة الحجة عليه ببعثة الرسل إليهم قال تعالى:

(ومَا كُنَّا مُعذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)[٤].

---

[١] الأنعام: ١٢٥.

[٢] المدثر: ٣١.

[٣] الشمس: ٧، ٨.

[٤] الإسراء: ١٥.

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُم خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿وَلَقَد بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[٢].

فبعث الله عز وجل في كل أمة رسولاً بما أوجب عليهم من الإيمان به والانقياد لعبادته والتزام طاعته واجتناب معصيته فكان من آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وأمين رب العالمين أكرم البشر وأفضل الأنبياء والرسل بعثه الله إلى الخلق كافة كما قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيكُم جَمِيعاً﴾[٣].

بالمعجزات التي دلت على نبوته وأوجب العلم بصحة رسالته، فدعا إلى الإسلام والإيمان، ونهى عن عبادة غير الرحمن، وبين مجمل التنزيل، ودل علي طرق العلم ووجوه التأويل؛ لأن الله تعالى فصل كتابه فجعل منه نصا جلياً، ومتشابها خفياً ابتلاء واختباراً؛ ليرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات بتدبرهم آياته واعتبارهم بها واستنباطهم منها الأحكام التي فرض الله عليهم امتثالها وتعبدهم بها لأنه تعالى رد إليهم الأمر في ذلك بعد الرسول عليه الصلاة والسلام فقال تعالى:
﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُم﴾[٤].

فجعل المستنبط من الكتاب علماً، والمصير إليه عند عدم النص والإجماع فرضاً.

---

[١] الملك: ٨.
[٢] النحل: ٣٦.
[٣] الأعراف: ١٥٨.
[٤] النساء: ٨٣.

(فصل في الطريق إلى معرفة أحكام الشرع)

وأحكام شرائع الدين تدرك من أربعة أوجه:

(أحدها): كتاب اللّٰه عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(والثاني): سنة نبيه عليه الصلاة والسلام الذي قرن اللّٰه تعالى طاعته بطاعته وأمرنا باتباع سنته فقال عز وجل:

(وأَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ)[١]وقال تعالى:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)[٢]وقال:

(ومَا آتاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا)[٣]وقال:

(واذْكُرنَ مَا يُتلَى فِي بيُوتِكُنَّ من آيَاتِ اللَّهِ والحِكْمَةِ)[٤]والحكمة السنة. وقال: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ).

(والثالث): الإجماع الذي دل تعالى على صحته بقوله:

(ومَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وسَاءَت مَصِيراً)[٥].

لأنه عز وجل توعد باتباع غير سبيل المؤمنين فكان ذلك أمراً واجباً باتباع سبيلهم وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم:

«لا تجتمع أمتي على ضلالة».

---

[١] المائدة: ٩٢.

[٢] النساء: ٨٠.

[٣] الحشر: ٧.

[٤] الأحزاب: ٣٤.

[٥] النساء: ١١٥.

(والرابع): الاستنباط وهو القياس على هذه الأصول الثلاثة التي هي الكتاب والسنة والإجماع؛ لأن الله تعالى جعل المستنبط من ذلك علماً وأوجب الحكم به فرضاً فقال عز وجل:

(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُم)[١]وقال عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيكَ الكِتَابَ لِتَحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)[٢] أي بما أراك فيه من الاستنباط والقياس لأن الذي أراه فيه من الاستنباط والقياس هو مما أنزل الله عليهم بالحكم به حيث يقول:

(وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ)[٣].

(فصل) فإذا ثبت هذا فالكتاب ينقسم إلى قسمين: مجاز وحقيقة.

فالمجاز ما تجوز به في اللفظ عن موضوعه وهو في القرآن كثير ينقسم على أربعة أضرب:

زيادة؛ كقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)[٤]، وقوله: (فَبِما نَقضِهِم مِيثَاقَهُم)[٥].

ونقصان؛ كقوله تعالى: (واسْأَلِ القَرْيَةَ)[٦]. وقوله: (فَمَا بَكَت عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ) [٧].

---

[١] النساء: ٨٣.
[٢] النساء: ١٠٥.
[٣] المائدة: ٤٩.
[٤] الشورى: ١١.
[٥] النساء: ١٥٥.
[٦] يوسف: ٨٢.
[٧] الدخان: ٢٩.

وتقديم وتأخير؛ كقوله: (أَخْرَجَ الْمَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)[١]. وإنما تقدير الكلام حقيقة أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء.

واستعارة؛ كقوله: (قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُم)[٢]. والإيمان لا يأمر في الحقيقة. وكقوله: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[٣]. والصلاة لا تنهى في الحقيقة. وكقوله: (جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)[٤]. والموات لا تصح منه الإرادة وكقوله تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)[٥]. والذل لا جناح له في الحقيقة وهو في القرآن كثير أكثر من أن يحصى عدداً.

وقد ذكر ابن خوايز منداد من أصحابنا أن القرآن لا مجاز فيه وحجته أن القرآن حق ومحال أن يكون حقاً ما ليس بحقيقة وهو خطأ واضح لأن الحق ليس من الحقيقة بسبيل لأن الحق ضد الباطل والحقيقة ضد المجاز وقد يؤتى بحقيقة اللفظ[٦]ويكون الكلام باطلا ويؤتى بالمجاز فيه ويكون الكلام حقاً لو رأيت رجلاً قد قاتل فأبلى بلاء عظيماً فقلت رأيت اليوم أسداً قاتل فأبلى بلاء عظيماً كنت قد قلت الحق ولم تأت بالحقيقة في اللفظ إذ عبرت عن الرجل بالأسد وليس بأسد على الحقيقة ولو قلت قاتل فلان اليوم قتالاً شديداً وهو لم يفعل لكنت قد قلت الباطل رأيت بحقيقة اللفظ دون تجوز فيه.

---

[١] الأعلى: ٤، ٥.

[٢] البقرة: ٩٣.

[٣] العنكبوت: ٤٥.

[٤] الكهف: ٧٧.

[٥] الإسراء: ٢٤.

[٦] ولعل هذا هو مراد شيخنا محمد الأمين الذي يقول في أمثاله بأنه أسلوب من أساليب العرب أي فما ذكر عن كلمة المجاز إلى كلمة الأسلوب بحمد الله وبعد، والله تعالى أعلم. محمد المنتقى.

فصل: والحقيقة تنقسم إلى قسمين: مفصل ومجمل. فأما المجمل فهو ما لا يفهم المراد به من لفظه ويفتقر في البيان إلى غيره مثل قوله تعالى:

(وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)[١]. فلا يفهم من لفظ الحق جنسه ولا مقداره إلا بعد البيان مثل قوله تعالى: (وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ)[٢]. و(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)[٣] (ولِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً)[٤].

قد قيل في هذه الآية أنها عامة وليست بمجملة والصحيح أنها مجملة وهو مذهب مالك رحمه الله فقد قال: الحج كله في كتاب الله والصلاة والزكاة ليس لها في كتاب الله بيان ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ذلك.

(وأما المفصل) فإنه ينقسم على وجهين محكم ومنسوخ (فالمنسوخ) ما نسخ حكمه وبقي خطه وهو في القرآن كثير مثل قوله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)[٥]ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وأَطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ)[٦]. ومثل قوله: (إنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا

---

[١] الأنعام: ١٤١.
[٢] البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠. النساء: ٧٧.
[٣] البقرة: ١٨٣.
[٤] آل عمران: ٩٧.
[٥] المجادلة: ١٢.
[٦] المجادلة: ١٣.

أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ* الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُم)[١]ثم نسخ ذلك بالآية التي بعدها.

(وأما المحكم): فإنه ما لم ينسخ وهو ينقسم إلى قسمين محتمل وغير محتمل؛ (فأما المحتمل) فهوالنص، وحده ما رقى في بيانه إلى أبدع غاية، مأخوذ من النص في السير وهو أبعده وقيل إنه مأخوذ من منصة العروس التي ترفع عليها لتجلى للناس وذلك مثل قوله تعالى: (والمُطَلَّقَاتُ يتربصنَ بِأنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ)[٢].

فهو نص في الثلاثة لا يحتمل غير ذلك مثل قوله تعالى: (إطعَامُ عشرة مَسَاكِينَ) و(صيَامُ شهرينِ مُتَتَابعين).

(فصل): ويجري مجرى النص عندنا ما عرف المراد به من جهة عرف التخاطب إن لم يكن نصاً نحو قوله تعالى: (حرِّمت عليكم أمهَاتكم وبنَاتُكُم)[٣]، و(حرِّمت عليكم المَيتة)[٤]، إذ ليس بنص في تحريم وطء الأمهات وسائر المحرمات على الأعيان والمراد به تحريم الأفعال في الأعيان لأن اللفظ إذا كثر استعماله فيما هو فيه مجاز خرج عن حد المجاز ولحق بالمفصل لفهم المراد به من جهة عرف التخاطب نحو قوله تعالى: (أو جاء أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الغَائط)[٥]، ونحو ذلك فقد علم وفهم من لغة العرب أن التحريم والتحليل إذا علق على عين من الأعيان فالمراد به تحريم الفعل المقصود. فالمقصود من الميتة أكلها والمقصود من النساء الاستمتاع بهن بالوطء فما دونه وهو الذي وقع عليه التحريم دون ما سواه لأنه الفعل المقصود منه وإن قال له حرمت عليك الفرس فهم منه تحريم ركوبه لأنه المقصود منه وإن قال حرمت عليك الجارية فهم منه تحريم الوطء.

---

[١] الأنفال: ٦٥، ٦٦.

[٢] البقرة: ٢٢٨.

[٣] النساء: ٢٣.

[٤] المائدة: ٣.

[٥] النساء: ٤٣.

(فصل): وأما لحن الخطاب وهو الضمير الذي لا يتم الكلام إلا به نحو قوله تعالى:

(فَمَن كَانَ مِنكُم مَرِيضاً أو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أيَّامٍ أُخَرَ)[١] معناه فأفطر فعدة من أيام أخر وقوله تعالى: (ذَلِكَ كَفَّارَةُ أيْمَانِكُم إذَا حَلَفْتُم)[٢] معناه فحنثتم فجرى مجرى النص سواء عند الجميع وكذلك فحوى الخطاب مثل قوله تعالى: (وَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا)[٣].
يفهم منه المنع من الضرب أو الشتم ويجري مجرى النص سواء في وجوب العمل به عند الجميع ولا خلاف في ذلك

(فصل): وأما المحتمل فإنه ينقسم إلى قسمين، أحدهما أن لا يكون أحد محتملاته أظهر من الآخر. والثاني أن يكون أحد محتملاته أظهر من الآخر.

فأما القسم الأول: وهو أن لا يكون أحد محتملاته أظهر من الآخر فإنه يجري مجرى المجمل في أنه لا يصح امتثال الأمر به إلا بعد البيان.
وأما القسم الآخر: وهو أن يكون بعض محتملاته أظهر من الآخر نحو الأوامر التي ترد والمراد بها الوجوب والندب والإباحة والتعجب إلا أنها أظهر في الوجوب عند أكثر أصحابنا فنحمل عليه ونحو ألفاظ العموم فإنها قد ترد والمراد بها الخصوص، وترد المراد بها العموم إلا أنها في العموم أظهر فتحمل عليه عند أكثر أصحابنا حتى يدل الدليل على تخصيصها ويندرج تحت هذا النحو من الخطاب الحكم بالقياس لأنا قد استدللنا عليه بعموم قوله تعالى: (فَاعتَبِروا يَا أُولِي الأبصَار) وما أشبه ذلك أيضاً من

---

[١] البقرة: ١٨٤.
[٢] المائدة: ٨٩
[٣] الاسراء: ٢٣

الألفاظ ومن ذلك أيضاً ألفاظ الحصر مثل إنما وما أشبه ذلك الظاهر منها أنها ترد لتحقيق الحكم في المنصوص عليه ونفيه عما سواه فيحمل على ذلك وإن كانت قد ترد لإيجاب الحكم في المنصوص عليه لا لنفيه عما سواه.

(فصل): والسنة تنقسم إلى أربعة أقسام سنة:

لا يردعها إلا كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهي ما نقل بالتواتر فحصل العلم به ضرورة كتحريم الخمر وأن الصلوات خمس وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأذان وأن القبلة هي الكعبة وما أشبه ذلك.

وسنة: لا يردها إلا أهل الزيغ والزلل والتعطيل إذ قد أجمع أهل السنة على تصحيحها وتأويلها كنحو أحاديث الشفاعة والرؤية وعذاب القبر وما أشبه ذلك.

وسنة: توجب العلم والعمل وإن خالف فيها مخالفون من أهل السنة وذلك نحو الأحاديث في المسح على الخفين وأن ما دونه مأذونه حرام.

وسنة: توجب العمل ولا توجب العلم وهو ما ينقله الثقة عن الثقة وهو كثير في كل نوع من أنواع الشرائع وهو نحو ما أمر الله به من الحكم بشهادة الشاهدين العدلين وإن كان الكذب والوهم جائزاً عليهما فيما شهدا به.

(فصل): والإجماع لا يصدر إلا عن دليل إما توقيف عن النبي عليه الصلاة والسلام، وإما استدلال من الكتاب والسنة، وإما اجتهاد كنحو إجماعهم على جلد شارب الخمر وما أشبه ذلك وهو ينقسم قسمين: فمنه ما يجتمع فيه العلماء والعامة كالوضوء والصلاة والزكاة والصيام، ومنه ما يجتمع عليه العلماء دون العامة غير أن العامة مجتمعة على أن ما اجتمعت عليه العلماء من ذلك فهو الحق وهو فروع العبادات وأحكام الطلاق والحدود وما أشبه ذلك.

(فصل في وجوب الحكم بالقياس)

وأما الاستنباط: وهو القياس فالتعبد به جائز في العقل وواجب في الشرع والذي يدل على أنه أصل من أصول الشرع الكتاب والسنة وإجماع الأمة فأما الكتاب فقوله تعالى:
(فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبصَارِ)[١]. والاعتبار تمثيل الشيء بالشيء وإجراء حكمه عليه.

روي عن ثعلب أنه فسر قوله تعالى: (فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ)[١]بأن المراد به القياس وقال الاعتبار هو القياس وهو أن الله تعالى كلفنا تنفيذ الأحكام وأعلمنا أن جميع ذلك في القرآن بقوله تعالى: (تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ)[٢]. وقوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ)[٣]. فلما لم توجد جميع الأحكام في القرآن نصاً علمنا أنه أراد أنه نص على بعضها وأحال على الاستنباط والقياس في سائرها فمن منع من الاستنباط وهو القياس فقد كذب بقوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ)[٣]. إذ لا يجوز له أن يدعي أنه نص على جميع الأحكام في القرآن نصاً.

ودليل آخر من الكتاب وهو قوله تعالى: (وَلَقَد عَلِمتُم النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ)[٤]فوبخهم على إنكارهم النشأة الثانية مع أن لهم طريقاً

[١] الحشر: ٢.
[٢] النحل: ٨٩.
[٣] الأنعام: ٣٨.
[٤] الواقعة: ٦٢.

إلى معرفتها وهو القياس على النشأة الأولى التي يقرون بها وهي في معناها ومثل ذلك: (أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوات والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم)[١]ومثله في القرآن كثير.

وأما السنن الواردة في ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام فكثيرة أيضاً ترفع العذر وتوجب القطع عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ فحكم بالرأي والاجتهاد وأقر أصحابه على ذلك في زمنه ومع وجوده ونزول الوحي؛ فكيف به اليوم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي.

ومن ذلك الخبر المشهور لمعاذ بن جبل حين أنفذه إلى اليمن حاكماً فقال له: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسوله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي. قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضي رسوله».

ومن ذلك قوله للخثعمية: «أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته؟ قالت: نعم. قال: فدين الله أحق أن يقضى» فقاس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوب قضاء دين الخالق على وجوب قضاء دين المخلوق. وقال صلى الله عليه وسلم في لحوم الأضاحي: «إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت عليكم» فأعلمهم بالعلة ليعتبروها؛ وهذا نص منه على وجوب الحكم والقياس.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الرطب بالتمر فقال: «أينقص الرطب إذا يبس؟ فقالوا: نعم. فقال: فلا إذاً». ففي سؤاله إياهم هل ينقص الرطب إذا يبس دليل واضح على أنه إنما أراد بذلك تنبيههم على العلة في بيع الرطب بالتمر وتوقيفهم عليها ليعتبروها حيثما وجدوها؛ إذ لا جائز أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام يجهل أن الرطب إذا يبس ينقص وإنما أراد أن يعلمهم أن معنى نهيه عن بيع التمر بالتمر

---

[١] يس: ٨١.

متفاضلاً موجود في بيع الرطب بالتمر مثلاً بمثل وهذا بين.

وروت أم سلمة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إني أقضي بينكم بالرأي فيما لم ينزل به وحي ومصداق هذا الخبر في كتاب الله عز وجل: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)[١] وقال تعالى: (وشاورهم في الأمر)[٢].

(فصل): وأما الإجماع في ذلك فمعلوم حصوله وتقرره قبل خلق أهل الظاهر القائلين بنفيه والدليل على ذلك أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم اختلفوا في أشياء كثيرة كتوريث الجد والعول في الفرائض وديات الإنسان وما أشبه ذلك. واحتج كل واحد منهم على صاحبه بمذهبه في القياس وشاع ذلك منهم وذاع من غير نكير؛ ولو كان باطلاً ومنكراً لتسارعوا إلى إنكاره على ما وصفهم الله تعالى به في كتابه حيث يقول: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)[٣].

ولو لم يوجد في ذلك إلا حديث عمر في أمر الوباء لصح به الإجماع ووجب له الانقياد والاتباع حين خرج إلى الشام بأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فلما كان بسرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا عليه فمنهم من قال له لا تفر من قدر الله، ومنهم من قال: لا نقدم ببقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الوباء؛ ثم دعا الأنصار فاختلفوا كاختلاف المهاجرين قبلهم، ثم دعا من حضر من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فلم يختلفوا عليه وأمروه بالرجوع.

ولم يكن منهم أحد ذكر في ذلك آية من كتاب الله، ولا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أشار كل واحد منهم عليه برأيه وما أداه اجتهاده إليه، ولم ينكر عليه أحد فعله فقال عمر إني مصبح على

---

[١] النساء: ١٠٥.

[٢] آل عمران: ١٥٩.

[٣] آل عمران: ١١٠.

ظهر فأصبحوا عليه فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرار من قدرا الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل في واد له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله.

فاعترض عليه أبو عبيدة بالرأي وجاوبه عمر بالرأي والقياس ولم يحتج أحدهما في ذلك بكتاب ولا سنة ولا إجماع.

ثم شاعت هذه القضية وذاعت ولم يكن في المسلمين من أنكر على واحد منهم القول بالرأي وما أعلم مسألة يدعى الإجماع فيها أثبت في حكم الإجماع في هذه المسألة والتوفيق من عند الله .

قلت: ثم بعد ذلك ذكر لهم ابن عوف حديثاً عنه عليه السلام أن لا يدخل أرض الوباء إن كان خارجها وأن لا يخرج منها إن كان فيها وقت حدوث الوباء.

(فصل): وإنما منع من الحكم بالقياس أهل التعطيل والزيغ فقال منهم قائلون إنه محال لا يصح ورود الشرع به. وقال داود وابنه ليس من المستحيل. ولو ورد في الشرع لكان جائزاً ولكنه لن يرد به شرع فمنهم من يدعي أنه لا نازلة إلا وفي الكتاب عليها نص. ومن يبلغ هذا الحد فقد سقط تكليمه لأنه عاند الحق وجحد الضرورة وإن كلمناه مسامحة وأوردنا عليه نوازل مثل العول في الفرائض، وتقدير أروش الجنايات، وتقويم المتلفات، ومقاسمة الجد الإخوة والأخوات، ومثل ثوب أطارته الريح في قدر صباغ ودينار وقع في مجمرة رجل وما أشبه ذلك. وطالبناه بالنص على ذلك من الكتاب فلا شك في عجزه عن ذلك والحذاق منهم يقرون أن النص لم يحط بجميع أحكام النوازل، وأن منها عفواً مسكوتاً عنه لا حكم لك فيه، وأنه قد بين في الكتاب والسنة لأنه لا حكم له فيما سكت عنه.

وقائل هذه المقالة لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يحكم في هذه النوازل عند نزولها بهواه فيقع في أشد مما أنكر علينا لأنا لا نحكم فيها بالهوى، وإنما نحكم فيها بأدلة الشرع لأن الله تعالى قد نهى عن الحكم به فقال:

(ولا تتّبعِ الهوَى فيُضِلّكَ عنْ سَبيلِ اللّهِ)[١]، وقال: (ونَهى النّفْسَ عَنِ الهوَى * فَإنّ الجَنّةَ هِيَ المأوَى)[٢].

وإما أن يترك الحكم فيها فيؤول ذلك إلى إبطال الأحكام ووقوع الحرب والقتال وهو باطل بإجماع.

ومنهم من يقول إن ما لا نص فيه فهو باق على حكم العقل من حظر وإباحة كل على مذهبه وهذا باطل إذ لا يمكن من جهته تنفيذ الأحكام ولو أمكن ذلك لما صح اعتقاده لأنه يبطل فائدة قول الله تعالى: (مَا فرّطنَا فِي الكِتَابِ مِن شيء)[٣].

(فصل): فالقياس هو حمل الفرع على الأصل في إثبات الحكم أو إسقاطه لعلة يدل الدليل على أن الحكم إنما ثبت في الأصل أو سقط منه لتلك العلة وتكون تلك العلة موجودة في الفرع فيقتضي ذلك إلحاقه بالأصل في إثبات ذلك الحكم فيه أو إسقاطه منه.

(فصل): فإذا علم الحكم في الفرع صار أصلاً، وجاز القياس عليه بعلة أخرى مستنبطة منه وإنما سمي فرعاً ما دام متردداً بين الأصلين لم يثبت له الحكم بعد. وكذلك إذا قيس على ذلك الفرع بعد أن ثبت أصلاً بثبوت الحكم فيه فرع آخر بعلة مستنبطة منه أيضاً فثبت الحكم فيه صار أصلاً وجاز القياس عليه إلى ما لا نهاية له.

---

[١] ص: ٢٦.

[٢] النازعات: ٤٠، ٤١.

(٣) الانعام: ٣٨

وليس كما يقول بعض من يجهل أن المسائل فروع فلا يصح قياس بعضها على بعض؛ وإنما يصح القياس على الكتاب والسنة والإجماع وهذا خطأ بين إذ الكتاب والسنة والإجماع هي أصول أدلة الشرع فالقياس عليها أولا ولا يصح القياس على ما استنبط منها إلا بعد تعذر القياس عليها؛ فإذا نزلت النازلة ولم توجد لا في الكتاب ولا في السنة ولا فيما أجمعت عليه الأمة نصاً ولا وجد في شيء من ذلك كله علة تجمع بينه وبين النازلة ووجد ذلك فيما استنبط مما استنبط منها وجب القياس على ذلك.

(فصل): واعلم أن هذا المعنى مما اتفق عليه مالك وأصحابه ولم يختلفوا فيه على ما يوجد في كتبهم من قياس المسائل بعضها على بعض وهو صحيح في المعنى، وإن خالف فيه مخالفون لأن الكتاب والسنة والإجماع أصل في الأحكام الشرعيات؛ كما أن علم الضرورة أصل في العلوم العقليات؛ كما يبنى العلم العقلي على علم الضرورة أو على ما بني على علم الضرورة.

هكذا أبداً من غير حصر بعدد على ترتيب ونظام الأقرب على الأقرب ولا يصح أن يبنى الأقرب على الأبعد؛ فكذلك العلوم السمعيات تبنى على الكتاب والسنة، وإجماع الأمة أو على ما يبنى عليها، أو ما يبنى على ما يبنى عليها بصحته هكذا أبداً إلى غير نهاية ونظام الأقرب على الأقرب ولا يصح بناء الأقرب على الأبعد.مثال هذا الذي ذكرناه أني أعلم نفسي ضرورة فإذا علمتها ضرورة نظرت هل أنا محدث أو قديم، فعلمت بالنظر أني محدث ولا يصح أن أنظر هذا النظر قبل علمي بوجود نفسي فعلمي بأني محدث علم نظري مبني على علم الضرورة فإذا علمت أني محدث نظرت هل لي محدث أم لا فعلمت بالنظر أن لي محدثاً وهذا علم نظري مبني على علم الضرورة؛ فإذا علمت بأن لي محدثاً نظرت هل محدثي قديم أو محدث فعلمت بالنظر أنه قديم وهو الله رب العالمين فعلمي بأنه قديم علم نظري مبني على علم نظري وهو أن لي محدثاً والعلم أن لي محدثاً مبني على علم بالضرورة وهو العلم بوجود نفسي.

(فصل): والعلة الشرعية لا توجب الحكم في الأصل بنفسها وإنما توجبه بجعل صاحب الشرع لها علة مثال ذلك: أن السكر قد كان موجوداً في الخمر ولم يدل ذلك على تحريمها حتى جعله صاحب الشرع علة في تحريمها؛ فليست علة عن الحقيقة وإنما هي أمارة على الحكم وعلامة عليه.

(فصل): والذي يدل على صحة العلة في الأصل الكتاب والسنّة وإجماع الأمة والتأثير المالكي وشهادة الأصول. والتأثير هو أن يعدم الحكم بعدم العلة. والعلة في موضع ما وشهادة الأصول هو مثل أن يستدل المالكي على الحنفي بأن القهقهة لا تنقض الوضوء في الصلاة كما لا تنقضه قبل الصلاة كالكلام فيطالب عن صحة العلة فيقول الأصول متفقة على التسوية بين الأمرين.

(فصل): وهذا كله يرجع إلى وجهين:

(أحدهما): أن تكون العلة معلومة قد ثبتت بدليل قاطع لا يحتمل التأويل من نص كقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت عليكم». أو تنبيه كقوله: «أينقص الرطب إذا يبس؟ قالوا: نعم. قال: فلا إذاً».

ودليل أولى كنهيه عن التضحية بالعوراء فإنه يدل على أن العمياء بذلك أولى. أو مفهوم من اللفظ من غير جهة الأولى كنهيه عن البول في الماء الدائم، والأمر بإراقة السمن الذائب إذا ماتت فيه فأرة، لأن هذا يعرف من لفظه أن الدم مثل البول، وأن الزيت مثل السمن الذائب. أو إجماع كإجماعهم على أن حد العبد إنما نقص لرقه وما أشبه ذلك. وهذا كله هو القياس الجلي وإن كان بعضه أجلى من بعض.

(والثاني): أن تكون العلة مظنونة غير معلومة إذا لم تثبت بدليل قاطع لا يحتمل التأويل كنحو ما عرف بالاستنباط وحمل عليه التأثير كالشدة المطربة في الخمر فإنه لما وجد التحريم بوجودها وزال بزوالها دل على أنها هي العلة ولا يقطع على ذلك لأن أبا حنيفة يقول: إنما حرمت لاسمها. وهو محتمل لأن الاسم يوجد بوجود الشدة ويزول بزوالها.

وكنحو علة الربا التي اختلف فيها الفقهاء وفي أوصافها وشروطها فذهب كثير من المالكيين إلى أنها كون الجنس الواحد مطعوماً مدخراً مقتاتاً أو مصلحاً للقوت. وزاد بعضهم في صفات العلة أصلاً للمعاش غالباً. وذكر كثير من الشافعيين أن الطعم بالضراوة هو العلة حتى حرم التفاضل في السقمونيا والطين الأرميني.

وذهب الحنفيون إلى أن العلة فيه الكيل والوزن فكل واحد من هؤلاء الفقهاء يغلب على ظنه ترجيح علته على علة صاحبه وما منهم أحد يعلم أنها العلة، ولا يدعي أن له عليها نصاً من الكتاب والسنة، أو ما يقوم مقام النص من التنبيه. وإنما الدليل عليه عنده غلبة ظنه على صحتها فهي مظنونة والحكم بها إذا غلب الظن صحتها معلوم مقطوع على وجوبه.

وهذا النوع من القياس هو القياس الخفي وكذلك العلة المنصوص عليها مظنونة أيضاً إذا جلي النص عليها في السنة من طريق الآحاد، والحكم بها معلوم.

مثال هذا الذي ذكرناه وبيناه شهادة الشاهدين على عدالتهما وإنما يقال إنهما عدلان لغالب الظن فإذا غلب على ظن الحاكم عدالة الشاهدين كان الحكم عند غلبة ظنه بذلك معلوماً مقطوعاً عليه.

(فصل): فكل قايس حامل لأحد المعلومين على الآخر بالمعنى الجامع بينهما، وقالوا إنه على ثلاثة أضرب: قياس العلة، وقياس الدلالة، وقياس الشبهة.

فقياس العلة: نحو قياس الأرز على البر، وقياس النبيذ على الخمر، وقياس الأكل في رمضان على الجماع بالعلة الجامعة بين كل واحد من ذلك وبين صاحبه وما أشبه ذلك.

وقالوا بقياس الدلالة: إن ذلك مثل أن يستدل على منع وجوب سجود التلاوة بجواز فعلها على الراحلة فإن جوازه على الراحلة من أحكام النوافل، ومثل أن يستدل بنظير الحكم على الحكم فنقول الصبي لا تجب الزكاة في ماله فلا يجب العشر في زرعه ولا يلزمه الظهار فلا يلزمه الطلاق فيستدل بربع العشر على العشر وبالظهار على الطلاق.

وقالوا في قياس الشبهة: إنه يحمل الفرع على الأصل بضرب من الشبهة وذلك مثل أن يتردد الفرع بين أصلين ويشبه أحدهما في ثلاثة أوصاف ويشبه الآخر في وصفين فيرد إلى أشبه الأصلين به؛ وذلك كالعبد يشبه الحر في أنه آدمي مخاطب مثاب معاقب ويشبه البهيمة في أنه مملوك مقوم فيلحق بما هو أشبه به. وهذان القياسان يسندان إلى العلة وإن لم يكونا قياس علة على التحقيق وبالله التوفيق.

(فصل): والقياس لا يكون إلا ما رد إلى أصل وهو أحد أقسام الاجتهاد؛ لأن الاجتهاد يقع على ما رد إلى أصل وعلى ما لم يرد إلى أصل نحو أروش الجنايات، ونفقات الزوجات وما يحمل الرجل من العاقلة من الديات وما أشبه ذلك. وكل قايس مجتهد وليس كل مجتهد قايساً فالاجتهاد أعم من القياس فأما الرأي فهو اعتقاد إدراك صواب الحكم الذي لم يرد فيه نص فلا يكون إلا بعد كمال الاجتهاد.

(فصل): وكل ما ذكرنا من أصول الدين وأصول الفقه وأقسام الكتاب ومعاني الخطاب ووجوب العمل بالقياس وتبيين وجوهه وشرح معانيه مما يحتاج إليه ولا يستغنى عنه من انتدب إلى ما ندب الله إليه في كتابه وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من التفقة في دينه والعلم بشرائعه وأحكامه.

(فصل في وجوب طلب العلم)

وطلب العلم والتفقه في الدين من فروض الكفاية كالجهاد أوجبه اللّٰه تعالى على الجملة فقال تعالى:

(فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُونَ)[١].

ومن للتبعيض فإذا قام به بعض الناس سقط الفرض عن سائرهم إلا ما لا يسع الإنسان جهله من صفة وضوئه وصلاته وصومه وزكاته إن كان ممن تجب عليه الزكاة؛ فإن ذلك واجب عليه لا يسقط عنه الفرض معرفة غيره به وكذلك من كان فيه موضع للإمامة والاجتهاد فطلب العلم عليه واجب قاله مالك رحمه اللّٰه تعالى وقد سئل عن طلب العلم أواجب هو أم لا؟ فقال: أما على كل الناس فلا. وروي عنه أن ابن وهب كان جالساً معه فحضرت الصلاة فقام إليها فقال له: ما الذي قمت إليه بأوجب عليك من الذي قمت عنه.

وهذا كلام فيه نظر كيف يكون طلب العلم على أحد أوجب عليه من صلاة الفريضة فالمعنى في ذلك عندي إن صحت الرواية أنه أراد ما الذي قمت إليه بأوجب عليك في هذا الوقت من الذي قمت عنه لأن الصلاة لا تجب بأول الوقت إلا وجوباً موسعاً فأراد رضي اللّٰه تعالى عنه أن اشتغاله بتقييد ما يخشى فواته من العلم آكد عليه من البدار إلى الصلاة في أول الوقت.

(فصل): وكما يجب على المتعلم فكذلك يجب على العالم التعليم. قال اللّٰه عز وجل:

(بِمَا كُنتُم تُعَلِّمُونَ الكتَابَ وبِمَا كُنتُم تَدْرُسُونَ)[٢].

---

[١] التوبة: ١٢٢.

[٢] آل عمران: ٧٩.

ويقرأ تعلمون وتعلمون بمعنى تتعلمون فتجمع القراءات الثلاث العلم والتعلم والتعليم وقال الله عز وجل:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَه)[١]. وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ)[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية»، وقال صلى الله عليه وسلم: «ألا ليبلغ الشاهد الغائب».

وروي عن أبي ذر أنه قال: لو وضعتم الصمصامة على هذا وأشار إلى قفاه ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجهزوا علي لأنفذتها.

(فصل): ولا يحصل العلم إلا بالعناية والملازمة والبحث والنصب والصبر على الطلب كما حكى الله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال للخضر:

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ولا أَعصِي لَكَ أَمْراً)[٣]. وأنه قال لفتاه: (لَقَد لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً)[٤].

وقال سعيد بن المسيب: إني كنت لأرحل في طلب العلم والحديث الواحد مسيرة الأيام والليالي وبذلك ساد أهل عصره وكان يسمى سيد التابعين.

---

[١] البقرة: ١٨٧.

[٢] البقرة: ١٥٩.

[٣] الكهف: ٦٩.

[٤] الكهف: ٦٢.

وقال مالك رحمه الله: أقمت خمس عشرة سنة أغدو من منزلي إلى منزل ابن هرمز وأقيم عنده إلى صلاة الظهر، مع ملازمته لغيره وكثرة عنايته. وبذلك فاق أهل عصره وسمي إمام دار الهجرة. وأقام ابن القاسم متغرباً عن بلده في رحلته إلى مالك عشرين سنة حتى مات مالك رحمه الله.

ورحل سحنون أيضاً إلى ابن القاسم فكان مما قرأ عليه مسائل المدونة والمختلطة ودونها فحصلت أصل علم المالكين وهي مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك رحمه الله. ويروى أنه ما بعد كتاب الله كتاب أصح من موطأ مالك رحمه الله، ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة.

والمدونة هي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو وككتاب إقليدس عند أهل الحساب، وموضعها من الفقه كموضع أم القرآن من الصلاة تجزئ من غيرها ولا يجزئ غيرها منها. وكانت مؤلفة على مذهب أهل العراق فسلخ أسد بن الفرات منها الأسئلة، وقدم بها المدينة يسأل عنها مالكا رحمه الله ويردها على مذهبه، فألفاه قد توفي فأتى أشهب ليسأله عنها؛ فسمعه يقول: أخطأ مالك في مسألة كذا، وأخطأ في مسألة كذا.

فتنقصه بذلك وعابه ولم يرض قوله فيه وقال: ما أشبه هذا إلا كرجل بال إلى جانب البحر فقال: هذا بحر آخر؛ فدل على ابن القاسم فأتاه فرغب إليه في ذلك فأبى عليه، فلم يزل به حتى شرح الله صدره لما سأله فجعل يسأله مسألة مسألة فما كان عنده فيها سماع عن مالك قال سمعت مالكا يقول فيها كذا وكذا وما لم يكن عنده فيه سماع ولا بلاغ قال لم أسمع من مالك في ذلك شيئاً ولا بلغني يتجنبه حينئذ، والذي أراه فيه كذا وكذا حتى أكملها.

فرجع إلى بلده فطلبها منه سحنون فأبى عليه فتحيل سحنون حتى صارت الكتب عنده فانتسخها ثم رحل بها إلى ابن القاسم فقرأها عليه فرجع منها عن مسائل.

وكتب إلى أسد بن فرات أن يصلح كتبه على ما في كتب سحنون فأنف أسد من ذلك وأباه، فبلغ ذلك ابن القاسم فدعا عليه أن لا يبارك له فيها وكان مجاب الدعوة فأجيبت دعوته ولم يشتغل بكتبه، ومال الناس إلى قراءة المدونة ونفع الله بها وكان سحنون إذا حث على طلب العلم والصبر عليه تمثل بهذا البيت:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

(فصل) وفي أفضل ما يستعان به على طلب العلم تقوى الله العظيم فإنه عز وجل يقول: (واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمَكُمُ اللهَ)[١] .

(فصل): ويجب على طالب العلم أن يخلص النية لله تعالى في طلبه فإنه لا ينفع عمل لا نية لفاعله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» وقال عليه الصلاة والسلام: «نية المرء خير من عمله» وقال صلى الله عليه وسلم: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

ويجب عليه أيضاً أن لا يريد بتعلمه الرياء والسمعة ولا عرضاً من أعراض الدنيا فإن الله تبارك وتعالى يقول:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الحَياةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُم فِيهَا وهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أولئكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُم فِي الآخِرَةِ إلا النَّارُ وحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[٢]. وقال تعالى:

(مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ومَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا ومَا لَهُ فِي الآخِرَةِ من نَصِيبٍ)[٣].

---

[١] البقرة: ٢٨٢.

[٢] هود: ١٥ ، ١٦.

[٣] الشورى: ٢٠.

وقال تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَن أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً)[١].

وروي أن رهطاً من أهل العراق مروا على أبي ذر فسألوه فحدثهم ثم قال لهم: تعلمون أن هذه الأحاديث التي يبتغى بها وجه الله لن يتعلمها أحد يريد بها عرض الدنيا يجد عرف الجنة وعرفها ريحها.

وروي عن سفيان الأصبحي أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع الناس عليه فقال من هذا فقالوا أبو هريرة قال فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فكلما سكت وخلى قلت له أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته ثم نشغ أبو هريرة نشغة فسكت قليلاً ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم نكس حتى أفاق، فمسح وجهه ثم قال: أفعل لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ثم مال خاراً على وجهه فاشتد به طويلاً، ثم أفاق، فقال: «حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى العباد ليقضي بينهم؛ فكل أمة جاثية. فأول ما يدعى به رجل جمع قرآناً، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال والصدقة فيقول الله تعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول: بلى يارب. فيقول: ماذا عملت فيما علمت؟ فيقول: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة له كذبت، ثم يقول الله له: أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى

[١] الإسراء: ١٨ ـ ١٩.

أحد؟ فيقول: بلى يارب. فيقول: فماذا عملت فيما آتيتك؟ فيقول: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة له كذبت، ويقول الله له: بل أردت بذلك أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك. ويؤتى بالرجل الذي قتل في سبيل الله فيقال له: فيماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له: كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبته فقال: يا أبا هريرة. أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

حدث سفيان بهذا الحديث معاوية فقال: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق فمسح على وجهه وقال: صدق الله ورسوله:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُم فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ)[١]الآية، وروي عن مجاهد أنه قال في قول الله تعالى: (والَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ)[٢]أنه الرياء.

(فصل): وهذا الوعيد والله أعلم إنما هو لمن كان أصل عمله الرياء والسمعة فأما من كان أصل عمله لله تعالى وعلى ذلك عقد نيته فلا تضره إن شاء الله الخطرات التي تقع بالقلب ولا تملكه.

ولقد سئل مالك وربيعة عن الرجل يحب أن يلقى في طريق المجد ويكره أن يلقى في طريق السوء. فأما ربيعة فكره ذلك وأما مالك فقال: إذا كان أول ذلك وأصله لله تعالى فلا بأس بذلك إن شاء الله تعالى قال الله عز وجل:

---

[١] هود: ١٥، ١٦.

[٢] فاطر: ١٠.

(وألقيتُ عليكَ محبةً مني)[١]وقال:

(واجعل لي لسانَ صدقٍ في الآخرينَ)[٢].

وقال عمر بن الخطاب لابنه: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا إذ أخبره بما كان وقع في نفسه من أن الشجرة التي مثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجل المسلم وسأل أصحابه عنها فوقعوا في شجر البوادي هي النخلة. قال فأي شيء هذا إلا هذا فإنما هذا أمر يكون في القلب لا يملكه هذا إنما يكون من الشيطان ليمنعه من العمل؛ فمن وجد ذلك فلا يكسل عن التمادي في فعل الخير ولا ييأس من الأجر وليدفع الشيطان عن نفسه ما استطاع ويجرد النية لذلك. ولقد روي عن بعض المتقدمين أنه قال: طلبنا العلم لغير الله فردنا لله، وقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام ما يؤيد ما ذهب إليه مالك.

وقع في جامع المستخرجة في سماع ابن قاسم من رواية معاذ ابن جبل أنه قال: «يا رسول الله إنه ليس من بني سلمة إلا مقاتل فمنهم من القتال طبيعته، ومنهم من يقاتل رياء، ومنهم من يقاتل احتساباً فأي هؤلاء الشاهدين من أهل الجنة؟ فقال: يا معاذ ابن جبل من قاتل على شيء من هذه الخصال أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا فقتل فهو شهيد من أهل الجنة».

وروي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله الرجل يعمل العمل فيخفيه فيطلع عليه الناس فيسره؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له أجر السر وأجر العلانية».

(فصل): ويجب على من تعلم العلم أن يعمل به فإن لم يعمل به كان حجة عليه يوم القيامة وحسرة وندامة. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وسيخلو به ربه كما يخلو

---

[١] طه: ٣٩.

[٢] الشعراء: ٨٤.

أحدكم بالقمر ليلة البدر أو قال ليلته ثم يقول: يا ابن آدم ما غرك بي ابن آدم ما غرك بي ابن آدم ما عملت فيما علمت ابن آدم ماذا أجبت المرسلين».

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: شر الناس منزلة يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه. وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجّة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها».

(فصل): وكان العلم في الصدر الأول والثاني في صدور الرجال ثم انتقل إلى جلود الضأن وصارت مفاتحه في صدور الرجال فلابد لطالب العلم من مفتاح يفتح عليه، ويطرق له. وقد قال بعض الحكماء العلم يفتقر إلى خمسة أشياء متى نقص منها شيء نقص من علمه بقدر ذلك وهي: ذهن ثاقب، وشهوة باعثة، وعمر طويل، وجدة، وأستاذ، وله خمس مراتب: أولها أن تنصت وتستمع ثم أن تسألٍ فتتفهم ما تسمع ثم أن تحفظ ما تفهم ثم أن تعمل بما تعلم ثم أن تعلّم ما تعلم.

(فصل): وطلب العلم إذا أريد به وجه اللّه تعالى وأخلصت النية فيه للّه من أفضل أعمال البر وأجل نوافل الخير قال اللّه تعالى:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[١]. وقال تعالى: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[٢]. وقال تعالى: (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)[٣]. وقال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

---

[١] المجادلة: ١١.

[٢] الزمر: ٩.

[٣] العنكبوت: ٤٣.

الْعُلَمَاءُ)[١]. وقال تعالى: (وَمَن يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَد أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)[٢]. جاء في التفسير أنه الفقه في دين اللّه. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

جاء في التفسير أنه الفقه في دين اللّه. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

«من يرد اللّه به خيراً يفقهه في الدين». وقال: «من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سهل اللّه له طريقاً إلى الجنة».

وروي: «أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما صنع».

وقال أبو هريرة: من غدا أو راح إلى المسجد لا يريد غيره ليعمل خيراً أو ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل اللّه رجع غانماً.

وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما أعمال البر كلها في الجهاد إلا كبصقة في بحر، وما أعمال البر كلها والجهاد في طلب العلم إلا كبصقة في بحر» فنص في هذا الحديث على أن طلب العلم أفضل من الجهاد ومعناه في الموضع الذي يكون الجهاد فيه فرضاً على الكفاية إذا كان قد قيم به بأنه لا يكون له نافلة وأما القيام بفرض الجهاد أو الجهاد في الموضع الذي يتعين فيه الجهاد على الأعيان فلا شك أنه أفضل من طلب العلم واللّه أعلم.

وظاهر الحديث يدل على أن طلب العلم أفضل من الصلاة. وما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه سئل عن أفضل الأعمال فقال الصلاة لأول ميقاتها معناه في الفرائض وأما في النوافل فطلب العلم أفضل لنا على ظاهر الحديث المذكور واللّه أعلم.

وقد سئل مالك عن القوم يتذاكرون الفقه القعود أحب إليك في ذلك أم الصلاة. وروي عنه أن العناية بالعلم أفضل وليس ذلك عندي اختلافاً

---

[١] فاطر: ٢٨.

[٢] البقرة: ٢٦٩.

من قوله ومعناه أن طلب العلم أفضل من الصلاة لمن ترجى إمامته والصلاة أفضل من طلب العلم لمن لا ترتجى إمامته إذا كان عنده ما يلزمه في خاصة نفسه من صفة وضوئه وصلاته وصيامه وقال سحنون يلزم أثقلهما عليه.

(فصل): والأجر في العناية بالعلم على قدر النية فيه قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إن الله تبارك وتعالى قد وضع أجره على قدر نيته والله تبارك وتعالى قد قسم بين عباده الأعمال وفضل عليهم بالثواب».

روي أن بعض العباد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس فكتب إليه مالك يقول: إن الله قد قسم بين عباده الأعمال كما قسم الأرزاق فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصيام، ورب رجل فتح له في الصيام ولم يفتح له في الصلاة، ورب رجل فتح له في كذا ولم يفتح له في كذا فعدد أشياء ثم قال وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه وكلانا على خير إن شاء الله والسلام.

الإيمان بالله تعالى وبوحدانيته وبما هو عليه من صفات ذاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وكل ما جاؤوا به من عنده والإيمان هو التصديق الحاصل في القلب قال الله عز وجل:

(ومَا أَنْتَ بِمؤْمِنٍ لَنَا)[١] أي بمصدق لنا، (ولَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)[١].

وأما الإسلام فهو إظهار الإيمان والإعلان به مأخوذ من الاستسلام وهو الانقياد لأن من أظهر الإيمان فقد انقاد واستسلم لجريان حكمه عليه. وكل مؤمن مسلم لأن من اعتقد الإيمان في الباطن فهو معلن به في الظاهر وليس كل مسلم مؤمناً لأن المنافق والزنديق يظهران الإسلام ويعتقدان الكفر فهما مسلمان في الظاهر كافران في الباطن. والإسلام أعم من الإيمان وهذا في مبدأ الإسلام حيث يجب على المؤمن إظهار إيمانه ولا يحل له كتمه.

---

[١] يوسف: ١٧.

وأما في بلد الحرب إذا أكره على الكفر فواجب عليه إذا خاف على نفسه فأظهر الكفر أن يعتقد الإيمان بقلبه فيكون إذا فعل ذلك مؤمناً غير مسلم لأن الله تبارك وتعالى قد سماه مؤمناً في كتابه فقال:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِن آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)[١]وقال: (إلا مَنْ أُكرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمَانِ)[٢].

وليس بمسلم إذا لم يستسلم بإظهار الإيمان وقد قيل إن الإسلام والإيمان اسمان واقعان على معنى واحد. واحتج من ذهب إلى هذا بقول الله عز وجل وقوله الحق:

(فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ من الْمُسْلِمِينَ)[٣].

وهذا لا حجة فيه لأن المؤمنين إذا أظهروا الإيمان مسلمون بإظهار الإيمان كما بيناه والدليل على أن الإيمان غير الإسلام قول الله تبارك وتعالى:

(قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا -أي انقدنا- ولَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ في قُلُوبِكُم)[٤].

فنفى عنهم الإيمان الحاصل في القلب وأوجب لهم الإسلام الذي هو الانقياد بإظهار الإيمان دون اعتقاده وما روي أيضاً: «أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي وقال: يا محمد ما الإيمان؟ فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره حلوه ومره فقال: فما الإسلام؟ فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت. فقال: صدقت».

---

[١] غافر: ٢٨.

[٢] النحل: ١٠٦.

[٣] الذاريات: ٣٥، ٣٦.

[٤] الحجرات: ١٤.

ففرق صلى الله عليه وسلم بين الإيمان والإسلام بأن جعل الإيمان من أفعال القلوب الباطنة والإسلام من أفعال الجوارح الظاهرة والإيمان خصلة من خصال الإسلام التي ينقاد بها المكلف لأمر الله تعالى كما ينقاد للصوم والصلاة والحج وسائر العبادات.

(فصل): فهذا هو الإيمان في الشرع وأما في اللغة فكل من ظهر منه التصديق يسمى مؤمناً فالمسلم في اللغة مؤمن ويصح أن يسمى في الشرع مؤمناً مجازاً لأن إظهار الشهادة يدل على الإيمان فيحكم لمن أظهرها بحكمه في الدنيا لأنه إيمان ينتفع به في الآخرة. والعرب قد تسمي الشيء باسم ما قرب منه ويصح على هذا أن يسمى ما يظهر من أعمال الطاعات كلها إيماناً لأنها دالة على الإيمان ومن أفعال المؤمنين وشمائلهم.

ووجه آخر أيضاً صحيح جيد وهو أن أعمال الطاعات كلها لا تكون طاعة وقربة إلا مع مقارنة الإيمان لها ومتى لم يقارنها لم تكن طاعة ولا قربة فسميت الطاعات باسم الأصل الذي لا يثبت لها الحكم بأنها طاعة وقربة إلا به. وهذا بين في المعنى عليه ويحتمل قول من قال من أهل السنة إن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح.

وروي أن معنى قول الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم)[١]أي صلاتكم إلى البيت المقدس كانت مقارنة الإيمان ولذلك حصل الانتفاع بها والجزاء عليها فبان بما قلناه وأوردناه أن أنفس الطاعات من الأقوال والأفعال إذا لم يصح مفارقتها له ولا أنها الإيمان كالصفة القديمة لا يصح أن يقال إنها هي الموصوف ولا أنها غيره.

(فصل): وأما قول من قال من أهل السنة إن الإيمان يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقص الأعمال؛ ففيه تأويلان، أحدهما: أن المعنى في ذلك أن ثواب الإيمان يزيد مع الطاعة وينقص مع تركها بمعنى أنه يتجدد ثواب الإيمان عن ثواب الإيمان عن ثواب الطاعة إذا تركها إلى مباح أو معصية فلا يكون ثواب الإيمان في حال الصلاة كثوابه في حال الجلوس

---

[١] البقرة: ١٤٣.

ولا كثوابه في حال المعصية. يؤيد هذا التأويل ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» أي ليس هو في تلك الحال مؤمناً يثاب على إيمانه فيها مثل ما كان يثاب عليه لو كان في عمل مباح أو مندوب إليه أو واجب عليه.

على هذا يحمل الحديث إذ لا يصح أن يقال إن المؤمن في حال المعصية منسلخ عن الإيمان. وقد قيل في معنى هذا الحديث إن الإيمان إيمانان: فإيمان يؤمن به من الخلود في النار، وإيمان يؤمن به دخول النار؛ فالإيمان الذي يؤمن به من دخول النار هو الإيمان الذي لا معصية معه، والإيمان الذي يؤمن به من الخلود في النار هو الإيمان الذي معه المعاصي فالزاني والسارق في حال السرقة والزنا ليس بمؤمن من الإيمان الذي يؤمن به من دخول النار لأنه في تلك الحال مصر على المعصية، غير تائب منها فإنما نفى عنه على هذا التأويل الإيمان الممدوح. وكان بعض الشيوخ يرويه لا يشرب بكسر الباء على معنى الأمر يقول: إذا كان مؤمناً فلا يشرب الخمر ولا يسرق ولا يزنِ.

وقد قيل في معنى الحديث إن الإيمان لما كان أحد مضمناته تصديقاً بالوعيد بالعقاب على هذه الكبائر صار كالمناقض للشهوة الباعثة فأيهما غلب صاحبه نفاه؛ فلما كان مرتكب الكبائر في حال ارتكابه إياها قد غلبت شهوته تصديقه وخوفه جاز أن يوصف بانتفاء الإيمان عنه على ضرب من التوسع والمجاز وقد قيل إن معنى الحديث إنما هو فيمن زنى أو سرق وهو مستحل لذلك.

والتأويل الثاني في معنى زيادة الإيمان بزيادة الأعمال ونقصانه بنقصان الأعمال أنه يزيد بتكراره بفعل الطاعة لأن الطاعة لا تكون طاعة إلا مع مقارنة الإيمان لها فإذا كثر عمله زادت أجزاء إيمانيه بتكررها وإذا نقص عمله نقصت أجزاء إيمانه على قدر ما كانت لو كثر عمله وهذا كما يقال نقص ماء العين وزاد. على هذا التأويل لا يخرج الكلام عن الحقيقة إلى المجاز بخلاف التأويل الأول لأن حقيقة المراد بالزيادة في الشيء هو

أن يضاف إليه غيره وحقيقة المراد بالنقصان منه هو أن ينقص منه بعض أجزائه وأما الشيء الواحد فلا ينقص في نفسه ولا يزيد في نفسه لأن ذلك من المحال.

(فصل): وقد نص الله تبارك وتعالى على زيادة الإيمان فقال:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُم إِيمَاناً وَهُم يَسْتَبْشِرُونَ﴾[١].

ومعنى ذلك زيادة اليقين في الإيمان والبعد من دخول الشك فيه عليه لأن آيات الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله وما ينزل عليه يصدق بعضه بعضاً وذلك يوجب زيادة اليقين. فالإيمان والاستبصار في التمسك به والبعد من دخول الشك عليه.

(فصل): فالإيمان يتفاضل في زيادة اليقين والقوة فيه والعلم به والبعد عن دخول الشك عليه فيه. فكما قوي اليقين بالله والعلم به فمن عرفه كان أبعد من طروق الشكوك عليه؛ فليس من آمن بالله ولم يعرفه بالاستدلال عليه كمن عرفه به، ولا من عرفه بوجه واحد كمن عرفه من وجوه كثيرة، ولا من عرفه بالأدلة دون معاينة الآيات كمن شاهدها وعاينها كحضرة النبي عليه الصلاة والسلام في قوة اليقين في القلب وبعده عن أن يفتن فيه أو يزيغه الشيطان عنه.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أصحابي مَن الإيمان في قلبه أثبت من الجبال الرواسي» وقال في بعض أصحابه أراه أبا بكر: «لو رفع له الغطاء ما زاد يقيناً».

ويروى أن عمر بن الخطاب أتاه منكر ونكير فقالا له: من ربك وما دينك؟ فقال لهما: أما أنا فالله ربي والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي وأنتما فمن ربكما وما دينكما؟ فنظر بعضهما إلى بعض فقال: إنه عمر وانصرفا فهل يساويه أحد من أهل هذا الزمان في قوة اليقين هذا ما لا يكون والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

[١] التوبة: ١٢٤.

(فصل في زيادة الإيمان ونقصانه)

يكون على هذه الوجوه الثلاثة زيادة في اليقين وزيادة في العدد وزيادة في الثواب وهو أبعد التأويلات لأن الكلام يحمل في هذا التأويل على المجاز وحمله على الحقيقة أولى. وقد روي عن مالك رحمه الله أنه كان يطلق القول بزيادة الإيمان وكف عن إطلاق نقصانه إذ لم ينص الله تعالى إلا على زيادته فروي عنه أنه قال عند موته لابن نافع وقد سأله عن ذلك: قد أبرمتموني أني تدبرت هذا الأمر فما من شيء يزيد إلا وينقص وهو الصحيح والله سبحانه وتعالى أعلم.

(فصل): وهذا هو حقيقة القول في الإيمان والإسلام على مذاهب أهل السنة. وذهبت المعتزلة إلى أن الإيمان هو فعل الواجبات من العبادات وترك المحظورات وأنه قد نقل هذا الاسم في الشرع على مقتضى اللغة فجعل اسماً لجميع الواجبات وترك المحظورات؛ فكفروا المسلمين بالذنوب. وقال منهم قائلون إنه أعم في الدين لجميع الطاعات فرائضها ونوافلها. وقالت طائفة من المرجئة إن الإيمان هو الإقرار باللسان وإن وجد مع عدم المعرفة وهذا كله باطل يرده القرآن.

(فصل): وهذا الذي قلناه من أن أول الواجبات الإيمان بالله تعالى على مذهب من يرى أن الإيمان بالله هو التصديق الحاصل في القلب وليس من شروط صحته المعرفة هو الذي اختاره القاضي أبو الوليد الباجي واحتج له. وأما على مذهب من رأي أن الإيمان بالله تعالى لا يصح إلا بعد المعرفة فيقول إن أول الواجبات النظر والاستدلال لأن الله تبارك وتعالى لا يعلم ضرورة وإنما يعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصبها لمعرفته وإلى هذا ذهب البخاري، في كتابه فبوب باب العلم والعمل لقول الله عز وجل: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ)[١]فبدأ بالعلم وهو الذي ركن إليه القاضي أبو بكر ابن الباقلاني لأنه قال إن الإيمان هو العلم وكل مؤمن بالله فهو عالم به، والذي ذهب إليه أن من لم يكن عالماً بالله تعالى فهو جاهل به والجاهل بالله تعالى كافر به وليس ذلك بين لأن الإيمان يصح باليقين الذي قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد وبأول وهلة من

---

[١] محمد: ١٩.

الاعتبار بما أرشد الله تعالى إلى الاعتبار به في غير ما آية من كتابه فإذا قال إن الإيمان بالله هو العلم به، والعلم به لا يصح إلا بالنظر والاستدلال وقد قال القاضي أبو بكر المذكور في بعض كتبه إن الإيمان ليس هو العلم وإنما سبيله أن يتضمن العلم فإن الإيمان في اللغة هو التصديق والتصديق هو من قبيل الأقوال التي تكون في النفس ويعبر عنها تارة بالقول وذلك القول الموجود بالقلب لا يصح وجوده مع الجهل فلابد أن يكون متضمناً للعلم قال بعض من تكلم على قوله من الفقهاء: وهذا هو التحقيق الذي يمر مع النظر.

وقد حكى القاضي أبو الوليد عن شيخه القاضي أبي جعفر أنه كان يقول القول بأن النظر أول الواجبات مسألة من مسائل الاعتزال بقيت في المذهب عند من التزمها لأن من جعله أول الواجبات أوجبه بالعقل إذ لا يصح أن يعلم أحد أن الله أوجب عليه النظر وهو لا يعلم الله إلا بعد النظر ومن أصول أهل السنة أن العقل لا حظر فيه ولا إباحة.

وليس قوله عندي بصحيح لأن الشيء الواجب في ذاته لا يخرجه عن الوجوب في حق أحد جهله بمعرفة وجوبه عليه ألا ترى أن الإيمان واجب بالشرع على من لا يعلم الشرع عند من جعله أول الواجبات. فكذلك يكون النظر واجباً بالشرع على من لا يعلم الشرع عند من جعله أول الواجبات.

وقد استدل الباجي على من قال إن النظر والاستدلال أو الواجبات بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلدين مؤمنين. قال فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صح أن يسمى مؤمناً إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال.

قال: وأيضاً لو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم لا يحل لكم قتلنا لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل. وهذا يؤدي إلى تركهم على كفرهم وأن لا يقاتلوا حتى ينظروا ويستدلوا.

وقال: ولا خلاف في بطلان هذا. وهذا لا يلزم لأن من جعل النظر والاستدلال أول الواجبات لا يقفهما على الحد الذي رتبه أهل الكلام من الاستدلال.

شرح حديث رسول الله ﷺ :
«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين...»

قال رسول الله ﷺ :

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

أخرجه البخاري في كتاب العلم وفي كتاب الاعتصام ومسلم في كتاب الزكاة وفي كتاب الإمارة.

قوله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» أي يفهمه ويجعله فقيهاً في الدين. والتنوين في قوله خيراً للتعظيم أي خيراً عظيماً جامعاً لخيرات الدنيا والآخرة. وخيراً هنا اسم ليس بأفعل التفضيل وهو ضد الشر.

وقوله من يرد الله بضم أوله من الإرادة وهي صفة مخصصة لأحد طرفي الممكن المقدر بالوقوع ومفهومه أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد به خيراً. بل حرمه الله من الخير. ومن في قوله من يرد موصول فيه معنى الشرط. ونكر خيراً ليفيد التعميم لأن النكرة في سياق الشرط تعم كالنكرة في سياق النفي، وفي سياق النهي بالهاء، وفي سياق الامتنان؛ فهذه النكرات الأربع تعم كما حررناه في غير هذا الموضع وبينا أمثلته.

والفقه في اللغة الفهم وعرفاً العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية كما تقدم لنا عند حديث من وضع هذا إلى قوله اللهم فقهه في الدين. والمناسب هنا المعنى اللغوي ليتناول فهم كل علم من علوم الدين، وفي المحكم: الفقه العلم بالشيء والفهم له. وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر العلوم. يقال فقه الرجل بالكسر يفقه فقهاً إذا فهم وعلم وفقه بالضم إذا صار فقيهاً عالماً.

وقد جعل العرف الفقه خاصا بعلم الشريعة ومخصصاً بعلم الفروع خاصة وإنما خص علم الشريعة بالفقه لأنه علم مستنبط بالقوانين والأدلة والأقيسة

والنظر الدقيق بخلاف علم اللغة والنحو وغيرهما. هكذا قال بعضهم. وقد يقال إن علم النحو مستنبط بالأقيسة أيضاً كالفقه لأنه في الاصطلاح علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها. وقد اختلف في اللغة هل تثبت بالقياس أم لا. كما هو مقرر في محله من علم الأصول.

ومما ينبغي أن يتنبه له أن اسم الدين يشمل الإيمان والإسلام والإحسان لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث تعليم جبريل الناس الأمور الثلاثة بسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عنها والنبي عليه الاصلاة والسلام يجيبه عنها بحضرة الصحابة رضوان الله عليهم: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم» كما أخرجه الشيخان وقد تقدمت إشارتنا لهذا عند حديث: من وضع هذا إلى قوله اللهم فقهه في الدين.

وإذا علم شمول الدين لمقام الإحسان الذي هو أساس علم التصوف الذي هو روح العبادة ووصفها الأكمل تبين بذلك أن مدح الفقه في الدين لا يختص بفقه علم الفروع الظاهرة دون فقه علم التصوف المشتمل عليه كتاب الإحياء للإمام الغزالي وغيره من كتبه النافعة وكتب سيدي أحمد زروق. كعدة المريد. وكقواعد التصوف له. ومنظومة عيوب النفس ومنشئها وأدويتها له. ومدخل ابن الحاج الذي هو تصوف الفقيه حقيقة. وشبه ذلك.

وقد كنت أبين في المذكرات لأهل العلم أنه لا دليل لمفضل علماء الظاهر على علماء التصوف في حديث: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». لأن الدين شامل لعلم التصوف بل هو أولى بالدخول فيه. لأنه النتيجة والثمرة المقصودة بالذات من العلم. لأنه علم تحصل به تصفية البواطن من عيوب النفس وتعلمه واجب على يد من هو أهل له من الكمل العارفين الجامعين بينه وبين علم الظاهر على الوجه الأتم كما أشار إليه ابن زكري التلمساني في محصل المقاصد بقوله:

علم به تصفية البواطن ... من كدرات النفس في المواطن

وذاك واجب على المكلف ... تحصيله يكون بالمعرف

وقوله المعرف بكسر الراء المشددة اسم فاعل والمراد به الشيخ المربي الكامل لأنه هو المعرف لهذا الفن الموقف على دقائقه. لأنه سلك مسالكه سابقاً وعرف طرق مخاوفه وكيفية النجاة، منها وعرف عيوب نفسه ومنشأها وأدويتها. وانتهى من ذلك كله على الصفة التي بسطها صاحب المباحث الأصلية.

فهذا التصوف المحمود الذي أراد الشيخ أحمد زروق الجمع بينه وبين علم الظاهر في كتاب قواعد التصوف. لا شك أنه داخل دخولاً أولياً في لفظ الدين الذي أطلقه على الإيمان والإسلام والإحسان سيد المرسلين عليه وعلى آله وأصحابه أتم الصلاة والسلام إلى يوم الدين.

(أما تصوف متصوفة هذا الزمان) فلا دخل له في شيء من ذلك. بل هو غالباً يجر لأنواع المهالك. لأن أهله جعلوه ذريعة للمعيشة ولم يبنوه على أصل صحيح كحسن التوجه إلى الله تعالى والنظر إلى قواعد الشرع، وما هم إلا كما قال فيهم صاحب المباحث الأصلية:

عاش بها القوم بخير عيشة فصيرت من بعدهم معيشة
يدعى الذي يمشي عليها سالك وسالكوها اليوم حزب هالك

ومما يبين خروجهم عن مشارب أهل الديانة. ما صار شعاراً لهم مما هو للإسلام في الحقيقة إهانة مثل زنبيرهم وصياحهم عند ذكر الله. ورقصهم المخالف للشرع واجتماع الرجال والنساء انتهاكاً لحرمات الله. فهم باتباع عبدة عجل السامري أولى منهم باتباع سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام وامتثال ما هو منها الأولى.

وقد تولى العالم العامل الشيخ عبد الرحمن الأخضري صاحب السلم والجوهر المكنون وغيرهما بسط بدع متصوفة زمانه وتحريفهم لذكر الله وهو من أهل القرن العاشر في منظومته في التصوف المسماة بالجوهرة القدسية. في الآداب والأخلاق الصوفية. وكأنه استعجل ذكر فظائعهم قبل إبانه. لأن ذلك انتشر انتشاراً بعد العلامة الأخضري وزمانه. لأن ما وقع في زمانه وزمان شيخه سيدي أحمد زروق من مناكرهم وبدعهم قليل جداً بالنسبة لما

وقع منهم في هذا الزمان. أسأل اللّٰه السلامة والعافية من محنه والحاده والموت بالمدينة على الإيمان. فمن ذلك قوله فيها مضمناً أبياتاً لبعض الأفاضل:

وقال بعض السادة المتبعة ... في رجز يهجو به المبتدعه
ويذكرون الله بالتغيير ... ويشطحون الشطح كالحمير
وينبحون النبح كالكلاب ... طريقهم ليست على صواب

وقال قبل ذلك مبيناً عدم جواز إسقاط بعض حروف اسم الله في الذكر وعدم جواز الرقص والصياح والتصفيق لا في وقت الذكر ولا في غيره:

ومن شروط الذكر أن لا يسقطا ... بعض حروف الإسم أو يفرطا
في البعض من مناسك الشريعة ... عمدا فتلك بدعة شنيعة
والرقص والصراخ والتصفيق ... عمدا بذكر الله لا يليق
وإنما المطلوب في الأذكار ... الذكر بالخشوع والوقار
وغير ذا حركة نفسيه ... إلا مع الغلبة القوية
فواجب تنزيه ذكر الله ... على اللبيب الذاكر الأواه
عن كل ما تفعله أهل البدع ... ويقتدي بفعل أرباب الورع
وقد رأينا فرقة إن ذكروا ... تبدعوا وربما قد كفروا
وصنعوا في الذكر صنعا منكرا ... صعبا فجاهدهم جهاداً أكبرا
خلوا من إسم الله حرف الهاء ... فألحدو في أعظم الأسماء
لقد أتوا والله شيئا إدا ... تخر منه الشامخات هدا
والألف المحذوف قبل الهاء ... قد أسقطوه وهو ذو خفاء
وغرهم إسقاطه في الخط ... وكل من يتركه فمخطي
قد غيروا اسم الله جل وعلا ... وزعموا نيل المراتب العلى

إلى أن قال:

حاشا بساط القدس والكمال تطؤه حوافر الجهال
قد أدعوا من الكمال منتهى يكل عن تحصيله أولوا النهى
والجاهلون كالحمير الموكفه والعارفون سادة مشرفة
وهل يرى بساحل الأنوار من لج في بحر الظلام الجاري

وقال فيها أيضاً:

من كان في نيل الكمال راجياً وعن شريعة الرسول نائيا
فإنه ملبس مفتون أو عقله مختبل مجنون
هذا محال لا يصح أبدا لأن سيد الورى باب الهدى
وقال بعض السادة الصوفية مقالة جليلة وفية
إذا رأيت رجلا يطير أو فوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع فإنه مستدرج ويدعي

وقال في وصف السائرين على الطريق الحق المتمسكين بالشرع وكمال الرفق:

عجبت من مسافر يشكو الظما وحوله عذب فرات أي ما
ما حل وفد الراصدين مرصدا ورام حزب الواردين موردا
إلا بإخماص البطون والسهر والصمت والعزلة عن كل البشر
والزهد في الدنيا وتقصير الأمل وفكرة القلب وإكثار العمل
والخوف والذكر بكل حال والصبر والقوت من الحلال
وفعل أنواع المعاملات وفعل أركان المجاهدات
من بعد تحصيل فروض العين علما وأعمالا بغير مين
فأين حال هؤلاء القوم من سوء حال فقراء اليوم
قد ادعوا مراتبا جليلة والشرع قد تجنبوا سبيله
قد نبذوا شريعة الرسول فالقوم قد حادوا عن السبيل
لم يدخلوا دائرة الطريقه فضلا على دائرة الحقيقه
لم يقتدوا بسيد الأنام فخرجوا عن ملة الإسلام

لم يدخلوا دائرة الشريعة ... وأولعوا ببدع شنيعه
لم يعملوا بمقتضى الكتاب ... وسنة الهادي إلى الصواب
قد ملكت قلوبهم أوهام ... فالقوم إبليس لهم إمام
كفاك في جمعهم خيانه ... أن جلبوا الدنيا بالديانه
وانتهكوا محارم الشريعه ... وسلكوا مسالك الخديعه

إلى أن قال:

هذا زمان كثرت فيه البدع ... واضطربت عليه أمواج الخدع
وخفت شمس الهدى وأفلت ... من بعد ما قد بزغت وكملت
والدين قد تهدمت أركانه ... والزور أطبق الفضا دخانه
وظلمات الزور والبهتان ... تزخرفت في جملة الأوطان
لم يبقى من دين الهدى إلا اسمه ... ولا من القرآن إلا رسمه
هيهات قد غاضت ينابيع الهدى ... وفاض بحر الجهل والزيغ بدا
أين دعاة الدين أهل العلم ... قد سلفوا والله قبل اليوم
وهاجت الطائفة الدجاجله ... السالكون للطريق الباطله
وكثرت أهل الدعاوى الكاذبة ... وصارت البدعة فيهم غالبه
فالقوم إذ زاغوا أزاغ الله ... قلوبهم فانسلخوا وتاهوا
وجاء الحديث عن خير الورى ... لن يخرج الدجال أعني الأكبرا
حتى تجيء قبله دجاجلة ... كل يلوذ بطريق باطله
من لم يلذ بالمنهج المحمدي ... باء بسخط الله طول الأمد
هيهات أن يطمع في نيل الوفا ... من حاد عن شرع النبي المصطفى
فإنه هو السراج الأنور ... وباب حضرة الإله الأكبر
فكل من يرغب عن سنته ... فليس عند الله من أمته
من حاد عن سنته فقد غوى ... وفي غيابات الضلال قد هوى
والمصطفي خير وسيلة إلى ... إلهنا رب السموات العلى
صلى الله عليه ما هب الصبا ... وما إليه عاشق صبا

وقد قال أخي شقيقي وشيخي العلامة المحقق ذو المناقب. الجامع للشريعة والحقيقة الشيخ محمد عاقب. واعلم أن الشيخ في العرف من حيث هو يطلق على ثلاثة أقسام:

(الأول): شيخ التعليم ووظيفته الإخبار بالأحكام وتبيين المحتاج إليه منها.

(الثاني) شيخ الترقية بالقاف ووظيفته التوجه إلى اللّٰه تعالى في إصلاح المريد ويحيل عليه همته في ذَلك فينتفع به.

(الثالث) شيخ التربية بالباء الموحدة بعدها ياء مثناة مشددة ووظيفته تدريج المريد في طريقه ومعالجته بما يصلح به حاله.

وضربوا لذلك مثلاً. قال الحسن اليوسي وذلك أن المريد لو وجد في نفسه صفة كالكبر مثلاً فإن شيخ التعليم يخبره بأنها من المحرمات المهلكات. وشيخ الترقية ينبهه على الطريقة والأدب ويتوجه إلى اللّٰه تعالى في أن يطهره منها بحوله وقوته تعالى فيرقيه بهمته. وشيخ التربية يأخذ معه في معالجتها على ما يجد ببصيرته النورانية وفراسته الربانية كأن يأمره مثلاً بحزمة من حطب يحملها ويشق بها الأسواق ومجامع المعارف كما كان السيد أبو هريرة رضي اللّٰه عنه يفعله اختباراً لنفسه، أو يأمره بأمر صعب لا تأباه الشريعة، أو يلقنه دعاء أو غير ذلك.

وقد تجتمع هذه الأمور في واحد فيعلم ويربي ويرقي وهو الكامل وقد يكون اثنان منها يعلم ويرقي بهمته وهو الذي في زماننا. فقد نص شيوخ الطريق على انقطاع التربية المصطلح عليها منذ زمان وكرهوا السلوك بهااهد من خطه رحمه اللّٰه مع إصلاح يسير. وقد تقدم لنا الكلام على انقسام الشيخ إلى هذه الأقسام الثلاثة وذم الرقص في حال الذكر وبيان منافع الذكر عند حديث: «مثل البيت الذي يذكر اللّٰه تعالى فيه... الخ».

تنبيهات:

الأول: ويناسب، عند حديث المتن الذي هو: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.. الخ» أن نتكلم على العالم والعابد ومن يطلق عليه اسم العالم في هذا الزمان فأقول: العالم من اتصف بالعلم. واختلف في العلم هل هو إدراك المسائل أو الملكة أو القواعد أنفسها؛ فله إطلاقات ثلاث. وشاع إطلاقه على الملكة الراسخة في النفس.

قال العلامة سيدي محمد الطالب بن العلامة حمدون بن الحاج في أوائل حاشيته على شرح المرشد المعين: والعالم إنما يطلق بلا قيد على من يعلم العلوم الشرعية وهي الفقه والحديث والتفسير ولابد في إطلاقه عليه أن يعلم من كل باب ما يهتدي به للباقي.اهـ. ثم قال: ولا يقال له عالم حقيقة إلا إذا كان عاملاً فغير الجاري على مقتضى علمه هو والجاهل سواء. قال الشاعر:

وإذا الفتى قد نال علماً ثم لم يعمل به فكأنه لم يعلم

وفي الحديث: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» وقد قلت في دليل السالك في الكلام على من يطلق عليه العالم:

لكنه لابد من إلمام له بجل العلم والأحكام

والتحقيق أن العالم يطلق في العرف على المتوسط في كل فن من العلوم الشرعية وعلوم الشرع ولابد من أن تكون درايته بالعلوم الشرعية الثلاثة كاملة. لأنها هي المقصودة بالذات إذ بها يعرف علم الحلال والحرام والعبادات. أما علوم الشرع فهي آلات للعلوم الشرعية وبقدر رسوخ المرء فيها يكمل رسوخه في العلوم الشرعية المقصودة بالذات.

والعالم بهذا المعنى أفضل من العابد ووجه ذلك أن نفع العالم متعد لمن تعلم منه أو من مؤلفاته أو من تلامذته فيكون له أجر ذلك لما رواه ابن ماجه عن معاذ بن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«من علم علماً فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل». وأخرج أبو نعيم في الحلية عن معاذ رضي اللّٰه عنه أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وقد قال العلامة المحقق الشيخ علي الصعيدي العدوي في حاشيته على شرح أبي الحسن للرسالة عند ذكر هذا الحديث ما نصه: أراد بالعالم من صرف زمانه للتعليم والإفتاء والتصنيف ونحو ذلك وبالعابد من انقطع للعبادة تاركاً ذلك وإن كان عالماً. ولا يراد أن العالم المفضل عار عن العمل والعابد عن العلم بل المراد أن علم ذلك غالب على عمله وعمل هذا غالب على علمه والمراد بالفضل كثرة ثواب ما يعطيه اللّٰه للعبد في الآخرة من درجات الجنة ولذاتها ومأكلها ومشربها ونعيمها الجسماني. أو ما يمنح من مقامات القرب ولذة النظر إليه وسماع كلامه ولذة المعارف الإلهية الحاصلة عند كشف الغطاء.

قال ابن الملقن: فيه أن نور العلم يزيد على نور العبادة كما مثل بالقمر بالنسبة لسائر الكواكب اهـ. وقد علم من قول العدوي ولا يراد أن العالم المفضل عار عن العمل، والعابد عن العلم. إلخ. إن العابد إذا كان عارياً عن العلم لا يسمى في عرف الشرع عابداً بل يسمى فاسقاً لأنه بدوام تركه تعلم فروض العين لا يزال فاسقا كما أشار إليه بعض علمائنا الأجلاء بقوله:

وجاهل لفرض عين لم يجز   إطلاق صالح عليه فاحترز
لأنــه بتركـه التعلمـا   لم ين فاسقاً يقول العلما

وقوله لم ين معناه لم يزل لأنه من ونى بمعنى زال أي يقول العلماء إنه لم يزل فاسقاً بتركه التعلم الواجب عليه فالصالح لا يطلق شرعاً إلا على القائم بحقوق اللّٰه وحقوق العباد، ولا يمكن ذلك بدون العلم. وقد أشار الناظم المذكور إلى هذا بقوله:

وقائم بحق ربه وحق   عباده فصالحاً قد استحق

فالصالح مرادف للعابد لأن عبادة العابد بدون علم لا تسمى عبادة. لأن ما يفسده صاحبها أكثر مما يصلحه كما أشار إليه الناظم بقوله:

إن الذي بدون علم يعبد   لا يحس العمل لكن يفسد

فترد أعماله ولا تقبل لخلوها عن العلم كما أشار له العلامة الشيخ أحمد بن رسلان الشافعي في خطبة نظمه المسمى بالزبد بقوله:

وكل من بغير علم يعمل   أعماله مردودة لا تُقبل

وقد علم مما ذكرنا أن العابد هو العالم الذي غلب عمله على علمه ولم يشتغل بتعليم الناس؛ بخلاف العالم فإن الغالب عليه التعليم والإفتاء والتصنيف كما تقدم.

الثاني: في ذكر الخلاف في أفضلية العلماء العاملين على الأولياء العارفين. وذلك أن كل واحد من الصنفين له في الدين رتبة عالية فإن اللّٰه تعالى أثنى على العلم والعلماء وبين الكتاب والسنة بون ما بين العالم ومن ليس بعالم كقوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ). وقوله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ). وقوله تعالى: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ).

وفي الصحيحين حديث المتن عندنا وهو: «من يرد اللّٰه به خيراً يفقهه في الدين» وقد أثنى اللّٰه تعالى أيضاً على أهل الولاية ثناء عظيماً ووعدهم وعداً جميلاً بقوله تعالى:

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُم يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

ولما بين لنا أولياءه تعالى هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، عرفنا أيضاً من معنى الآية أنهم الذين: قالوا ربنا الله ثم استقاموا. وقد قال تعالى فيهم:

(تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ المَلائِكَة) إلى قوله: (نُزُلاً مِن غَفُورٍ رَحِيمٍ) إلى غير ذلك من الثناء على أولياء الله.

فلما وجدنا الشريعة تمدح كل واحدة من الطائفتين والإنسان في زماننا لا يقدر عادة على حملها معاً كما كان للصحابة الذين جمعوا بين المرتبتين بلا شك ولا ريب. احتيج لعلم أي الطائفتين أفضل ليعمل المجد جهده فيه فيفوز بأعلى المراتب في الآخرة فأقول:

قد فضل جماعة من السلف كإمامنا مالك والسفيانين وغيرهم من العلماء العاملين وفضل جماعة كالقشيري والبرزلي والغزالي وعز الدين بن عبد السلام الأولياء العارفين. وقد أشار إلى هذا الخلاف العلامة المجدد للعلم بقطر شنقيط سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم بقوله:

فكم أتى بين الولي العارف ... والعالم العامل من تخالف
فاختار بعض القوم تفضيل الولي ... وهو القشيري وتلاه البرزلي
كذا الغزالي وعز الدين ... لكن خلاف قول الأكثرين
كابن عيينة ومعه مالك ... سفيان وافقهما في ذلك
واختاره جماعة م العلما ... حكى ابن الأزرق إمام الحكما

ووجه القول بتفضيل العلماء كما قال البلقيني بأن الفتوحات التي يفتح بها على العلماء في الاهتداء كاستنباط المسائل المشكلة من الأدلة أعم نفعاً وأكثر فائدة مما يفتح به على الأولياء العارفين من الاطلاع على بعض المغيبات فإن ذلك قد لا يحصل به نفع.

ولا شك أن المصالح المتعدية تقدم مراعاتها على القاصرة ووجه القول بتفضيل الأولياء العارفين؛ بأن العلوم الظاهرة قد تقطع عن طريق الله وتمنع صاحبها عن التحقيق والاتصاف بعلوم الباطن المثمرة للخشية والزهد في الدنيا وطلب الآخرة وغير ذلك من الأوصاف الحميدة.

واعلم أن كل ما ورد في فضل العلماء وتفضيلهم إنما هو بالنسبة للعاملين بعلمهم الواقفين على حدود الله تعالى لا علماء الدنيا الطالبين جاهها وحطامها إذ العلم حقيقة هو ما أورث صاحبه عملاً وخشية وإلا كان زيادة وبال وخيبة عى صاحبه فمن خلا من الخشية فهو جاهل مليم لا عالم كما أشار إليه العلامة المحقق أحمد بن عبد العزيز الهلالي في نصيحته بقوله:

والعلم ما أكسب خشية العليم　　فمن خلا منها فجاهل مليم

لأنــه ميــراث الأنبيـــاء　　فلـم ينله غير الأتقيـاء

وقد ورد في الأخبار أن علماء السوء الذين لا يعملون بعلمهم أول من تسعر بهم النار كما أشار إليه سيدي أحمد زروق في منظومته بقوله:

وعلماء السوء في الأخبار　　أول من يصلى سعير النار

أعاذنا الله تبارك وتعالى من ذلك، وختم لنا بالإيمان الكامل بالمدينة المنورة وأنجانا من جميع المهالك. وبالجملة فلا يتم علم العالم ولا يثمر حتى يعمل بمقتضى علمه ويعرض عما يصده عن العمل لخالقه تعالى.

وقد أطال العلامة المحقق سيدي محمد الطالب ابن العلامة سيدي حمدون بن الحاج في الأزهار الطيبة النشر في الكلام على العالم والولي أيهما أفضل بما يتعين الوقوف عليه لعظم فائدته. ثم قال في آخر كلامه ناقلاً عن أبي إسحاق الشاطبي المسئول عن هذه المسألة ما نصه: فالذي تلخص مما تقدم أن الاشتغال بالعلم طلباً وحفظاً وتعليماً ونشراً إذا أخذ بشرطه لا توازيه مرتبة الولاية أصلا. فهذا ما ظهر تقييده بحسب الوقت والحال في المسألة المسئول عنها والله الموفق للصواب اهـ.

وهذا الخلاف المذكور في العالم العامل والولي العارف أيهما أفضل، مبني على القول بتغايرهما لا على القول بترادفهما. أما على القول به المشار له بقول ابن عمنا علامة زمانه فريد عصره وأوانه الشيخ المختار بن بون في وسيلة السعادة:

والأولياء المؤمنون الأتقيا　　فالعلماء العاملون أوليا

أخذاً من قوله تعالى:

(ألا إنَّ أولياءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُم يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

فهما بمعنى واحد وإلى هذا مال بعض المحققين ووجهه ظاهر جداً في العلماء العاملين ولو لم يشهروا عند الناس إلا بالعلم والتدريس والإفتاء والقضاء كشيخنا العلامة الشيخ أحمد بن أحمد بن الهادي صاحب مغني قراء المختصر فقد شاهدت منه الكشف العجيب ونبهني عليه رحمه الله تعالى لما حصل فزادني ذلك عجباً على عجب.

(الثالث) ينبغي لمن أراد التفقه في الدين في أول طلبه أن يمزجه بالتعبد إذ أنه ليس ثم عمر طويل في الغالب في هذا الزمان حتى يترك له برهة منه فيخشى عليه أن يموت وهو في السبب قبل وصوله للمقصود كما نبه عليه ابن الحاج في كتاب المدخل في فصل أوراد طالب العلم قال: وليحذر أن يتكلف من العمل ما عليه فيه مشقة أو يخل باشتغاله بالعلم إذ أن اشتغاله بالعلم أفضل كما تقدم.

قال: وهذا باب كثيراً ما يدخل الشيطان على المشتغلين بالعلم إذا عجز عن تركهم له فيأمرهم بكثرة الأوراد حتى ينقص اشتغالهم لأن العلم هو العدة التي يتلقى بها ويحذر منه بها فإذا عجز عن الترك رجع إلى باب النقص وهو باب قد يغمض على كثير من طلبة العلم لأنه باب خير.

وعادة الشيطان أن لا يأمر بخير فيلتبس الأمر على الطالب فيخل بحاله. قال: وكان سيدي أبو محمد رحمه اللّه تعالى يقول: ينبغي لطالب العلم أن يكون عمله في علمه مثل الملح في العجين إن عدم منه لم ينتفع به والقليل منه يصلحه قال: وإذا كان ذلك كذلك فينبغي له أن يشد يده على مداومته على فعل السنن والرواتب وما كان منهما تبعاً للفرض قبله أو بعده فإظهارها في المسجد أفضل من فعلها في بيته كما كان عليه الصلاة والسلام يفعل ما عدا موضعين فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يفعلها إلا في بيته وهما الركوع بعد صلاة الجمعة والركوع بعد

صلاة المغرب اهـ منه. ثم ذكر علة كونه عليه الصلاة والسلام كان من عادته فعل الركوع بعد صلاة الجمعة والركوع بعد صلاة المغرب في بيته. ثم قال:

وهذا كله بعد تحصيل الفرائض وكذلك قضاء الفوائت إن كانت عليه لأنه لا يفعل السنن وعليه شيء من ذلك. يعني أن ما ذكر من فعل طالب العلم السنن والرواتب على الوصف المذكور لا يطلب منه إلا بعد تحصيل الفرائض وقضاء الفوائت إن كانت عليه. لأنه إن فعل السنن وعليه شيء من الفرائض حاضرة كانت أو فوائت كان مخالفاً للشرع إذ لا يجوز تنفل من عليه القضاء كما هو معلوم ثم قال:

وكذلك لا يخلي نفسه من ركوع الضحى لقول عائشة رضي الله عنها: لو، نشر لي أبواي ما تركتها. ومعناه لو أحييا لي وقاما من قبريهما ما اشتغلت بهما عنها. وكذلك يحافظ على قيام الليل ولا يخلي نفسه منه. وهو خمس تسليمات غير الوتر ويقرأ فيها بما خف من القرآن يكون له في تلك الركعات حزب معلوم من حزبين أو ثلاثة لأن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل. كما جاء في الحديث. فإن كان الحزب على هذا المقدار فالغالب أنه قل أن يفوت لقلة المشقة فيه. وإن كان حافظاً للقرآن فهذا المقدار من التلاوة يكفيه مع اشتغاله بالعلم ولا ينسى الختمة في الغالب إذا دام على ذلك اهـ.

ثم ذكر فوائد قيام الليل فقال: وفي قيام الليل من الفوائد جملة. فلا ينبغي لطالب العلم أن يفوته منها شيء فمنها أنه يحط الذنوب كما يحط الريح العاصف الورق اليابس من الشجرة. الثاني: أنه ينور القلب. الثالث: أنه يحسن الوجه. الرابع: أنه يذهب الكسل وينشط البدن. الخامس: أن موضعه تراه الملائكة من السماء كما يتراءى الكوكب الدري لنا في السماء.

وقد روى الترمذي عن بلال وأبي أمامة قالا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الحسد»

وروى أبو داود في سننه عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين».

ولعلك تقول إن طالب العلم إن فعل ما ذكرتموه تعطلت عليه وظائفه من الدرس والمطالعة والبحث!!

فالجواب: أن نفحة من هذه النفحات تعود على طالب العلم بالبركات والأنوار والتحف بما قد يعجز الواصف عن وصفه وببركة ذلك يحصل له أضعاف ذلك فيما بعد. مع أن هذا أمر عزيز قل أن يقع إلا للمعني به.

والعلم والعمل إنما هما وسيلتان لمثل هذه النفحات وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله»اهـ. ثم ذكر بعد ذلك في آخر الفصل أن طالب العلم يكون حاله في جميع الأعمال فلا يخلي نفسه من شيء منها. قال: ويكون الغالب عليه اشتغاله بالدرس والمطالعة والتفهم والبحث مع الإخوان الذين يرتجى النفع بهم ولقاء مشايخ العلم الذين جعلهم الله سببا للفتح والخير. ويواظب على ذلك. اهـ. المراد منه.

فإذا علمت ما حققه ابن الحاج في المدخل فيما نقلناه عنه هنا من أنه يتأكد على طالب العلم أن يشد يده على الرواتب وشبهها وأن لا يخلي نفسه من جميع أعمال البر في أثناء طلب العلم غير أنه يكون الغالب عليه اشتغاله بالدرس والمطالعة والتفهم والبحث في مسائل فاعلم أن ذلك لا نزاع في أنه الأفضل له ولكن ينبغي أن يكون ذلك في ابتداء أمره كالملح في الطعام كما نقله هو.

وبه قال غيره. فلا يتبتل لكثرة الأوراد لأن الغالب فيمن فعل ذلك في أول أمره أن ينقطع عن العلم مرة واحدة فإذا حصل الطالب ما يجب عليه تعلمه من العلم فينبغي إكثاره من الأوراد ما استطاع لأن العمل هو المقصود بالذات والعلم وسيلة له.

وبهذه المناسبة أذكر سؤالاً لبعض علمائنا بالقطر الشنقيطي في هذا المعنى وجوابه فأقول: قد سأل العلامة الأديب الشهير محمد بن حنبل الحسني الشنقيطي إقليماً علماء عصره عن اشتغال شباب ذلك العصر عن العلوم بالأوراد هل هو نعمة في الدين تشكر أم هو مصيبة في الدين في أبيات فقال:

يا خائضين بحور العلم مسألة عنها أجيبوا بأفهام ذكيات
عن اشتغال شباب العصر قاطبة عن العلوم بأوراد سنيات
أهذه نعمة في الدين نشكرها أم هي في ديننا إحدى المصيبات

فأجابه بعض العلماء نظماً وفضل الاشتغال بالعلم بعد أن أثنى على الأوراد ولم أحفظ من جوابه إلا قوله:

لكن الأغلب في ذي الورد أزمننا ترك التعلم مع تضييع الأوقات
يؤخر الفرض عمداً والتعلم لا يراه من مذهب الهادي البريات

وأجابه العارف بالله الجامع بين الحقيقة والشريعة شيخنا الشيخ ماء العينين الذي قا فيه بعض العلماء الأفاضل:

من فاته المصطفى المختار من مضر
وفاته الشيخ ما العينين مغبون

بأبيات لا أحفظها وحاصلها أنه لا ينبغي له الإكثار منها قبل التضلع من العلم إلا إذا كان ممن فسدت طويته وكان الرين غالباً على قلبه فإن الورد هو المرهم النافع له. هذا محصل أبياته.

وقد تولى بسط الجواب في هذه المسألة في بحر السؤال ورويه أخونا شقيقنا ذو المناقب حريري زمانه المرحوم الشيخ محمد العاقب فقال:

العلم نور وقلب الحبر مطلعه والقلب في الصدر مصباح بمشكاة
والورد للقلب مرآة ومصقلة وذم قلب بلا صقل ومرآة
فمن تكن صلحت بالروض مضغته فالعلم في حقه أحرى المهمات
وإن تكن فسدت فالورد مرهمها وكم شفي الورد من داء وعلات
قال الغزالي في إحيائه وكفى به أخا ثقة سباق غايات
أولى وظائف من رام التعلم أن يطهر القلب من رجس الرعونات

والفقه قحا تقسي القلب كثرته   وتلك،في،القلب،من،أدهى المصيبات
ومن،يحاشي،إلى الفقه التصوف لم   يجد لنهج الفسوق من محاشاة
والعلم للخير هاد،وهو للغرض المـ   ـقصود والعمل المقصود بالذات
فالجن والإنس،جل الله عن غرض   لم يخلقا قبل إلا للعبادات
وللمقامات بالأوراد فاسع لها   كسب،وما،الدرس،من،كسب،المقامات
ومن يكن عاملا بالعلم ورثة الـ   ـعليم سبحانه علم الخفيات
قال السمرقندي للأعمال طائفة   مالت وأخرى إلى علم الروايات
والمرء،يدأب في تحصيل منفعة   لنفسه قبل جلب النفع للنات
ويل لذي الجهل قالوا مرة ولذي   علم بغير اقتداء سبع مرات
قد ريء طيف ابن قاسم ببرزخه   فقال ما النفع إلا من ركيعات
ومن معاصره ليم الإمام على   تضييعه العمر في حل العويصات
فقال كل على هدى وموعدنا   رضا الإله. وكان وعده ماتي
ثم انتهى نادما وقال يا أسفي   على تولي الفتاوي والحكومات
وقولهم قد أبى العلم المراد لغـ   ـير الله الإله من أوهى المقالات
مزية قصرت على الحديث وما   أوحى الإله من الآي الكريمات
فالوحي قول ثقيل والحديث له   صدع وجذب لقلب المغشم العاتي
فنون رب غبي من بلادته   للعلم تدريسه تضييع أوقات
فهل على،مثل ذا المسكين معتبة   إذا تجلى بأوراد سنيات
وفي نوازله أجاب إذا سئل الـ   ـكنتي عن جاهل علم الضرورات
نعم يجوز له دخول سلسلة الـ   ـأشياخ إذ هي مفتاح الفتوحات
أما التبتل قبل سد جوعته   من العلوم فمن أصل الضلالات
لا تحسب العلم والأوراد جمعهما   كالضب والنون لكن جمع ضرات
فالجزم أن يقسم المريد بينهما   مسافة العمر من يوم وليلات
لا يترك،الورد،قال،التاج نجل عطا   ء الله إلا جهول ذو خرافات
على م لا يترك الجنيد سبحته   وقد أناخ بحضرة المصافات
هذا وما كان ورد القوم ترهة   عوجا وما كان عن هوى بمقتبات
لنا مشائخ في الأوراد كلهم   أب ونحن له أبناء علات
توارثوا الورد كل عن أخي ثقة   ثبت وما احتاج حالق لمرساة

عن جلة في العلوم عن جهابذة في الدين عن قادة للخير أثبات
إلى الجنيد،وليس من يسير على قصد السبيل كمن يقرو البنيات
فهاك في البحر والروي مسألة عنها أجبنا بأفهام ذكيات
نعوذ بالله من إدحاض حجتنا غداً ومن فتن الدنيا المضلات

(وقوله: وما احتاج حالق لمرساة) أراد رحمه الله تعالى أن مشائخه كل واحد منهم ثبت راسخ في الدين كالجبل المنيف الراسي الثابت الذي لا يتزلزل وإذا كان كذلك فهو غير محتاج لمرساة بكسر الميم تثنية وترسية لاستغنائه عن ذلك بالرسوخ وعدم التزلزل فهذا المعنى هو المشار له بقوله هنا. وما احتاج حالق لمرساة لأن الحالق بالحاء المهملة وبالقاف بصيغة اسم الفاعل الجبل المرتفع المنيف كما في القاموس وشرحه والأساس والمرساة بكسر الميم أنجر السفينة الذي هو خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير صخرة إذا رست السفينة. أي وما احتاج جبل رأس لمرساة تثبته.

وقول الناظم رحمه الله قبل جلب النفع للنات معناه للناس لأن قلب السين تاء لغة بعض العرب وهو من البدل كما في تاج العروس وورد ذلك في لفظ الناس وغيره ففي القاموس وللنات الناس. ومن شعر علباء ابن أرقم:

يا قبح اللهُ بني السعلات عمرو بن يربوع شرار النات
ليسو عفاء ولا أكيات.

فقوله النات وأكيات بقلب السين فيهما تاء لموافقتها إياها في الهمس والزيادة وتجاور المخارج وقد كثر إستعمال هذا في شعر البلغاء.

وقول الناظم رحمه الله ناسباً للشيخ قنون قنون رب غبي من بلادته الخ. لم أقف عليه في حاشية الشيخ قنون على حواشي الزرقاني في المدرس ولكن وقفت على ما هو قريب منه في الطالب المتعلم في هذه الحاشية عند قول خليل في باب القضاء كالمفتي والمدرس ونصه: وفي الموافقات في الطالب الذي لا قابلية له أن تعلقه بالتعلم من باب العبث بالنسبة إلى المصلحة المجتلبة. ومن تكليف ما لا يطاق في حقه. وكلاهما

باطل شرعا. والذي يكون فيه قابلية قد يكون التعلم فرض عين عليه اهـ.

فإن كان مراد الناظم المرحوم كلام الشيخ قنون هذا المنسوب للموافقات فهو في الطالب لا في المدرس فكان الأولى في التعبير أن يكون بلفظ:

قنون رب غبي من بلادته للعلم تطلابه تضييع أوقات

الخ؛ وإن كان كلام الشيخ قنون المذكور في المدرس وقد نقله في موضع آخر فالله أعلم بذلك. على أن الظاهر أنه ليس إلا في الطالب كما هو الموجود له هنا في باب القضاء لأن المدرس غالباً لا يوصف بالبلادة إذ أقل أحواله أن يكون عارفاً بمدلولات الألفاظ التي يبينها للطلبة وإلا فليس من شأن من قصر عن ذلك أن يتعرض للتدريس للناس غالباً وقوله في أول هذه القصيدة:

والفقه قحا تقسي القلب كثرته وتلك في القلب من أدهى المصيبات

أشار به رحمه الله لما في حاشية الشيخ قنون المذكورة في كتاب الجنائز بعد قول خليل. وزيارة القبور بلا حد. بنحو ثلاث ورقات ونصه (فائدة) قال ابن عرفة زيارة القبور محمودة وكان بعضهم يقول إذا رأيت الطالب في ابتداء أمره يستكثر من زيارتها ومن نظر رسالة القشيري فاعلم أنه لا يفلح لاشتغاله عن طلب العلم بما لا يجدي شيئاً اهـ.

واعترضه أبو زيد الفاسي بأن ما ذمه أنفع للقلب وفي الآخرة من التجرد لما ذكره وإنما العلم الخشية لله لا مجرد الطلب بل التمادي فيه قسوة للقلب. ثم نقل عن الشيخ زروق أنه قال: كتب سيدي عبد الرحمن بن أحمد لزوج جدتي أبي العباس بن الفحل: أقلل من العلم الظاهر فإنه يقسي القلب. قلت: لما يعرض له لا لذاته اهـ.

قال في القواعد: من كان استمتاعه بالنفس استفاد سوء الحال فمن ثم لا يزداد طالب العلم للدنيا مسألة إلا إزداد إدباراً عن الحق اهـ. وكان الشيخ السنوسي يقول: إياك أن تستغرق جميع أوقاتك في التدريس لأن ذلك يقسي القلب بسبب مخالطة الناس؛ وفي الإحياء التجرد لمسائل الفقه على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما هو مشاهد من المتجردين له اهـ.

قلت: ولعل ما قاله بعضهم محمول على ما قبل تحصيل فرض العين من العلم كما يفيده قوله في ابتداء أمره أو على من يتعاطى العلم الكفائي بنية حسنة فلا يخالف ما قاله أبو زيد وغيره فتأمله بإنصاف والله أعلم اهـ.

وفي المدخل لابن الحاج في صدر فصل زيارة الأولياء والصالحين أنه ينبغي أن لا يخلي الطالب نفسه من زيارتهم إذ بها يحيي الله القلوب الميتة كما يحيي الأرض بوابل المطر فتنشرح بهم الصدور الصلبة. وتهون برؤيتهم الأمور الصعبة إذ هم وقوف على باب الكريم المنان فلا يرد قاصدهم. ولا يخيب مجالسهم، ولا معارفهم ولا محبهم إذ هم بباب الله المفتوح لعباده. قال ومن كان كذلك فتتعين المبادرة إلى رؤيتهم واغتنام بركتهم ولأنه برؤية بعض هؤلاء يحصل له من الفهم والحفظ وغيرهما ما قد يعجز الواصف عن وصفه.

ولأجل هذا المعنى نرى كثيراً ممن اتصف بما ذكر تحصل له البركة العظيمة في علمه وفي حاله فلا يخلي نفسه من هذا الخير العظيم. لكن بشرط أن يكون محافظاً على اتباع السنة في ذلك كله. فليحذر أن يزور أحداً من أهل البدع وممن لا خطر له في الدين إلا بالتمويه وبعض الإشارات والعبارات.. إلخ. كلامه وهو نفيس فليراجعه من شاء.

(وبالجملة) فالمطلوب من طالب العلم تصحيح نيته أولاً فلا يقصد بعلمه إلا وجه الله تعالى ولا يضره إن قصد مع ذلك إزالة الجهل عن نفسه فإن أخلص لله تعالى في طلب العلم ظفر بنيل الخلد في المقام الأكبر الذي قال الله فيه: (وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً) وهو الجنة وإن طلب العلم لغير وجهه تعالى بل ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يشم رائحة الجنة لقوله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة». رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه وابن ماجه في سننه والحاكم في المستدرك وروي عن أحمد بن سلمة: «من طلب العلم لغير الله مكر به» وإلى هذا أشار صاحب طلعة الأنوار

بقوله:

لله أخلص في العلوم تظفر بنيل خلد في المقام الأكبر
فطالب لغيره علماً مكر به وعرف جنة الله حظر

والناس في طلب العلم ثلاثة أقسام كما للغزالي: شخص طلبه لوجه الله تعالى والدار الآخرة فهو من الفائزين. وآخر طلب به العز والشرف والمال وهو مع ذلك مستشعر خسة مقصده فهذا إن تاب وتدارك ما فرط فيه التحق بالفائزين. فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وإن مات قبل التوبة خيف عليه سوء الخاتمة أعاذنا الله منه ومما يجر إليه. والثالث: من أراد به المال والشرف مع اعتقاده أنه عند الله تعالى بمكان لاتسامه بسيمة العلماء في الزي والمنطق فهذا من الهالكين لحجابه عن التوبة باعتقاده أنه على الحق.

وإلى أقسامه هذه أشار أخونا وشيخنا العلامة المرحوم الشيخ محمد العاقب في مقدمة نظمه لفتاوي المالكية لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي بقوله:

من طلب العلم احتسابا وابتغا رضى العليم فاز بالذي ابتغى
ومن به نهج المباهاة سلك وظن نفسه على خير هلك
وقاصد الدنيا به إذا درى خسة قصده الخسيس خاطرا
فإن يتب قبل الممات سلما من خطر الذنب وإلا أسلما

(واعلم) أن قراءة العلم محبة له ليست بمذمومة. ونقل عن القرافي ما معناه أن من أقرأ العلم للناس ليشتهر ويذكر لم يكن ذلك سبباً لترك الأخذ عنه بل قال عز الدين: إنه يثاب على ذلك. وكان بعضهم يقول إن قراءته محبة له ليست بمذمومة ولا يبعد أن يثاب لأنه إيثار لصفة الكمال. قال وقراءته ليتخلص به من الجهل من وجوه قراءته محبة له وقد نصوا على أنه لا خلاف في أن العلم يشرف فمن قال لا مزية للعالم على الجاهل فإنه يقتل لأنه خرق الإجماع وكذب القرآن والسنة وتكذيب قائل ذلك للقرآن ظاهر لقوله تعالى:

(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله تعالى (وما يعقلها إلا العالمون) إلى غير ذلك من الآيات.

وهل للأب أن يقول للصبي اقرأ لتشرف على أقرانك أم لا. قيل يجوز فإذا كبر بدل النية وأما الكبير فلا يجوز له ذلك لئلا تفسد نيته ابتداء وإنما يتعلمه بشروط ليخرج به من الجهل وليحيي به سنة النبي صلى الله عليه وسلم وليعلمه الناس وليعمل به. وقال ابن الفارس: يجوز أن يقرأ العلم ليشرف به على غيره. وقال ابن العربي يجوز أن يقرأ لتسقط عنه الوظائف. وقال جسوس قال القلشاني عند قوله في الرسالة والعلم دليل إلى الخيرات وقائد إليها ما نصه: هذا إشارة إلى أنه يطلب من الإنسان الاجتهاد في طلب العلم ولو لم تحسن نيته فإن العلم يجره إلى الخير. وقد روي عن بعض المتعلمين أنه قال: طلبنا العلم لغير الله فردنا إلى الله اهـ.

وقد أشار بعض أجلاء علماء قطرنا الشنقيطي إلى مضمون ما ذكرناه هنا بقوله:

ليس يذم الشخص إن فعله ... قراءة العلم محبة له
يبعد إذ آثر وصفا كملا ... وكونه عليه قد يشاب لا
طلبه لقول بعض السلف ... واطلب ولو لم تحسن النية في
ـكن صار ذا إلى الإله آيلا ... إنا تعلمنا لغير الله لـ
ما لم تكن تجده في الحال ... إذ ربما تجد في المآل
لابن بشير أحمد المفيد ... فانظره في القلشاني والمفيد
لشرف على سوى من طلبا ... وقد أجاز بعضهم أن يطلبا
وقصده أن تدفع الوظائف ... وجاز أن يطلب شخص خائف
وإنما الأعمال بالنيات ... قلت ولكن في الحديث يأتي
واجعل زوال الجهل أيضا ذخرا ... لذا رضي الرب أقصدن والأخرى
أيضا به أحياء دين أحمد ... عنك وسائر الأنام واقصد
على محمد ومن به اقتدى ... ثم الصلاة والسلام أبدا

ومن أهم ما يتعين على طالب العلم تصحيح نيته بإخلاص طلبه لله تعالى كما أشرنا إليه سابقاً وقال الهلالي: في نور البصر ينوي طالب العلم في كل مسألة تنصيلاً، وإلا فإجمالاً أداء المفروض عليه بتعلمه ما يلزمه في خاصة نفسه وما زاد على ذلك ينوي به القيام عن الناس بفرض الكفاية.

ولا يقتصر فيه على نية الندب لأن أجر الفرض أعظم بكثير وينوي أيضاً أن يعمل بما علمه الله تعالى في خاصة نفسه وأن يعلمه كل من أمكنه تعليمه. وينوي أيضاً التوصل بتعليمه لنفع الطبقات بالوسائط علماً وعملاً إلى يوم القيامة وينوي أيضاً أن يشغل نفسه بطاعة الله تعالى عن معصيته ويشغلها عن الفضول الذي لو لم يكن فيه إلا تضييع العمر الذي هو رأس المال لكان كافياً في نفور نفس العاقل عنه. كيف وفيه مع ذلك أمور منها أن صاحبه يشغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه. ومنها أنه سيقرؤه يوم القيامة على رءوس الأشهاد حين يقال له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً. فيخجل في موقف الأهوال والشدائد وهو جائع وعطشان وعريان وتشتد حسرته لكونه لم يشتغل في وقت الفضول بالعمل الصالح الذي هو في غاية الاضطرار إليه في ذلك الموقف.

ومنها أنه يوبخ في ذلك الموقف العظيم. فيقال له: لم فعلت هذا وقلت هذا فتنقطع حجته بين يدي علام الغيوب. ويبهت ولا يجد جواباً. وإذا كان هذا هو حاله في الفضول فكيف بالمعاصي. نسأل الله تعالى سبحانه العفو والعافية اهـ.

فإخلاص النية في طلب العلم واجب شرعاً فمن طلبه لمباهاة العلماء، أو لمماراة السفهاء أو لنيل الجاه عند الناس أدخله الله النار، فقد أخرج الترمذي عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله في النار». وأخرج ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من

طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار».

وإلى معنى هذين الحديثين أشار سيدي أحمد زروق في منظومة عيوب النفس بقوله:

من طلب العلم يباهي الفقها بعلمه أو ليماري السفها
أو لينال الجاه عند الناس باء بنار وهو ذو إفلاس

الرابع: في بيان أن العلم هو ما كان عن دليل سواء كان علم عقائد أو غيرها وأن التقليد ليس بعلم. وفي الكلام على العلوم الشرعية وعلوم الشرع وفي بيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم العلم إلى ثلاثة أقسام: آية محكمة. أو سنة قائمة. أو فريضة عادلة. الخ.

وفي وجوب إخلاص العالم نيته لله تعالى في تعليم العلم تدريساً كان أو تأليفاً (أما بيان أن العلم ما كان عن دليل وأن التقليد ليس بعلم) فقد صرح به غير واحد من علماء الأصول. ويكفي من ذلك حدهم للتقليد بأنه التزام قول الغير دون علم دليله. فمفهومه أن القول بالشيء مع معرفة دليله يسمى علماً لا تقليداً.

وممن صرح بهذا الأبي في شرح صحيح مسلم في أول كتاب العلم منه ومثله السنوسي في هذا الموضع ونص الأبي: والعلم والمعرفة ما كان عن دليل. والتقليد ليس بعلم. لأنه لا عن دليل. وأقام صلى الله عليه وسلم منذ بعث يدعو إلى الله تعالى ويبين البراهين ويرشد العقلاء إلى ما في فطرهم من معرفة علم التوحيد حتى ظهر الدين وتهدمت قواعد الكفر.

وصرح الباقلاني بأن التقليد حرام واستدل على حرمته. وقال بحرمته ونهى عنه جماعة من الصحابة فعن علي رضي الله عنه: الناس ثلاثة: عالم ومتعلم وهمج رعاع. لكل ناعق أتباع. يميلون مع كل ريح ولا يستضيئون بنور العلم ولا يلجأون إلى ركن وثيق. وعن ابن مسعود: ولا تكن إمعة إن كفر الناس كفرت معهم وإن آمن الناس آمنت معهم اهـ. وكلامه صريح في علم التوحيد وعلم دلائله لقوله بعد هذا.

قال الباقلاني: ولما ثبت التكليف واستحال أن يقوم بحقائق الأمر من لا يعرف الأمر وجب النظر في دلائل التوحيد. قال ولا يكفي في ذلك الأدلة السمعية وحدها لأنها لا تثبت إلا بعد ثبوت قواعد العقائد. فمن لا يعرف وجود الصانع لا يمكنه الإقرار بالرسالة.

وبتقرير دلائل التوحيد جاء القرآن. قال اللّٰه تعالى: (لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللّٰهُ لَفَسَدَتَا) إلى غيرها من الآيات. قال الطرطوشي: جملةُ آي القرآن ستة آلاف وخمسمائة. منهَا خمسة آلافَ في التوحيد. وبقيتها في الأحكام والقصص والمواعظ اهـ المراد منه. ونحوه في السنوسي. وقد نظمت ما ذكره الأبي والسنوسي هنا بقولي:

العلم عند علماء الشرع ... ما هو مع جلب الدليل مرعي
فما يكون عن دليل يدعى ... علما وما التقليد علما شرعا
والباقلاني حرم التقليد مع ... جمع من السلف نورهم سطع
ذكر ذا الأبي والسنوسي في ... صدر كتاب العلم جزما واصطفي
إذ كل ما علم بالدليل ... علم قطعا من ذوي التحصيل
أما الذي حفظ بالتقليد ... فرتبة القاصر والبليد

وقولي وكلامه صريح في علم التوحيد الخ غير مناف لكون التقليد في الفروع لا يسمى علماً أيضاً لأن التقليد كما تقدم هو أخذ قول القائل دون علم دليله. وحكمه في الفروع فيه تفصيل.

فالتقليد فيما علم ضرورة. منها حرام كإيجاب الصلاة والزكاة والصوم والحج فلا يجوز لأحد أن يقلد أحداً في هذه الخمس وأمثالها. أما لا يعلم من الفروع إلا بالنظر فإن التقليد فيه جائز عند الأكثرين. بل يثاب المقلد فيها على التقليد إذا لم يكن الاجتهاد في طوقه وحيث جاز له فالحكم في ذلك أن العوام ومن في معناهم من حفاظ الفروع الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد كفقهاء وقتنا هذا يجب عليهم أن يقلدوا العالم بالأحكام الشرعية وقد أشار ابن عاصم في مرتقى الوصول إلى الضروري من علم الأصول لهذا التفصيل في أبيات ضمنتها في نظمي دليل السالك وهي:

وفي الفروع المنع في المعلوم ضرورة يرى من المحتوم
وما من الفروع يدري نظرا جوازه للأكثرين اشتهرا
فغير ذي العلم من الأنام يقلد العالم بالأحكام

(أما العلوم الشرعية) فهي ثلاثة علم التفسير. وعلم الحديث. وعلم الفقه. (وأما علوم الشرع) فهي وسائل العلوم الشرعية كالنحو والبيان واللغة والطب والأصول والعروض وعلوم الحديث ومعرفة الإجماعات ومعرفة مواضع الخلاف والحساب وعلم الجدل وعد الشبراخيتي المنطق.

(فالحاصل) أن علوم الشرع أعم من العلوم الشرعية مطلقاً إذ العلوم الشرعية هي التي وضعها الشارع الحقيقي وهو الله تعالى. أما سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الشارع بالنيابة عن الله تعالى في تبليغ شرعه وبيعة أمته له تعالى لقوله تعالى:

(ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) وقوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله).

وعلوم الشرع كلها فروض كفاية كما أشار له خليل بقوله مشبهاً على فرض الكفاية. كالقيام بعلوم الشرع. ويؤيد كون المنطق فرض كفاية قول سيدي الحسن البوسي في نفائس الدرر ولو قيل بوجوبه كفاية ما بعد. لكونه يتأدى به إلى القوة إلى رد الشبه وحل الشكوك في علم الكلام الذي هو فرض كفاية وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب اهـ والتحقيق أنه من فروض الكفاية وقد صرح بوجوبه من غير المالكية القطب الرازي والسيد الجرجاني وأثنى عليه الفخر الرازي والآمدي وابن الحاجب واشتغل به الجماهير تدريساً وتأليفاً وحثوا كثيراً على تعليمه لكونه لا ينفك عنه علم من العلوم ولا يستغنى عنه. وبتحقيق الفهم منه تكون العلوم طوع اليد لأن كل مسألة من العلم إما تصور وإما تصديق. وذلك نظر المنطق. قاله في هدي الأبرار (قال مقيده رحمه الله تعالى) وتحريم من حرمه كابن الصلاح والنووي محمول على ما كان مخلوطا بالفلسفة

وفروعها. من الإلهي والطبيعي والرياضي. أما ما خلصه المسلمون من هذه الأمور فلابد من معرفته كما أشار إليه ابن عمنا علامة زمانه المختار بن بون في تحفة المحقق بقوله:

فإن تقل حرمه النواوي ... وابن الصلاح والسيوطي الراوي
وخص في المقالة الصحيحة ... جوازه بكامل القريحة
قلت نرى الأقوال ذي المخالفة ... محلها ما صنف الفلاسفة
أما الذي خلصه من أسلما ... لا بد أن يعلم عند العلما
لأنه المصحح العقائدا ... ويدرك الذهن به الشواردا

وقد قال الشيخ قنون في حاشيته في أوائل كتاب الجهاد عند قول خليل كالقيام بعلوم الشرع ما نص المراد منه: إن من العلوم ما تجب معرفته عينا كعلم المعتقدات وكمعرفة أحكام العبادات العينية. وكحكم المعاملات. كالنكاح والبيع والإجارة والشركة والفرائض والقراض لمن يتعاطى ذلك للإجماع على أنه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. لكن يكفي في غير العبادات تعلم الحكم بوجه إجمالي يبرئه من أصل الجهل بالحكم بقدر وسعه. وكعلم أمراض القلوب وعلاجها. كالكبر والعجب والحقد والحسد وحب الحمد بما لم يفعل. وعلى هذا القسم حمل حديث: طلب العلم فريضة على كل مسلم.

ومنها ما تجب معرفته كفاية وهي إما مقاصد كحفظ القرآن والتفسير والحديث والفقه والكلام والتصوف على رأي فيهما وإما وسائل. فمنها ما يتعلق بالقرآن وهو علم القرآن وعلم التجويد. ومنها ما يتعلق بالحديث. وهو على أقسامه ومراتبه وعلم أحوال الرواة وطبقاتهم وأعمارهم وعدالتهم وجرحهم. ومنها ما يرجع إلى الاستنباط منها. وهو علم أصول الفقه ومنها ما يتعلق بهما وبغيرهما من كلام العرب. وهو اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان. ومنها ما فيه منفعة عامة. وهو الحساب والتوقيت والمنطق على رأي.

ومنها ما معرفته مستحسنة فقط. كعلم الكتابة والطب وما يحتاج إليه من النجوم وكعويص الفرائض والدقيق في العربية وفي التصريف ومعرفة شواذ اللغة وعلم العروض والقوافي اهـ بلفظه. ثم قال في قول صاحب الرسالة: وتعلموا ما علمهم ناقلاً عن الشيخ جسوس ما نصه: وفي كلام المصنف إشارة إلى الثناء على من لم يتعلم من العلم إلا ما أذن الله في تعلمه دون غيره كالهندسة والموسيقى والزائد على القدر المحتاج إليه من علم النجوم وغير ذلك.اهـ.

وفي شرح السنة للبغوي ما نصه، قال الشيخ الإمام رضي الله عنه: العلوم الشرعية قسمان: علم الأصول، وعلم الفروع:

أما علم الأصول فهو معرفة الله عز وجل بالوحدانية والصفات وتصديق الرسل؛ فعلى كل مكلف معرفته ولا يسع فيه التقليد لظهور آياته ووضوح دلائله قال الله تعالى:

(فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقال جل ذكره (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحق).

وأما علم الفروع: فهو علم الفقه ومعرفة أحكام الدين فينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية. ثم قال بعد كلام: أما فرض الكفاية فهو أن يتعلم ما يبلغ به رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا فإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً وإذا قام واحد منهم فتعلمه سقط الفرض عن الآخرين وعليهم تقليده فيما يعن لهم من الحوادث. قال الله تعالى: (فَاسألوا أهلَ الذِّكرِ إن كُنتُم لا تَعلَمون)اهـ وهو كلام نفيس وقد جعل فيه علم أصول الدين الذي يجوز التقليد فيه من العلوم الشرعية.

(وأما تقسيمه صلى الله عليه وسلم) العلم إلى ثلاثة فهو ما رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العلم ثلاثة: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة وما سوى ذلك فهو فضل». قال في شرح المشكاة والتعريف في العلم للعهد وهو ما علم من الشارع وهو العلم

النافع في الدين وحينئذ العلم مطلق. فينبغي تقييده بما يفهم منه المقصود. فيقال علم الشريعة معرفة ثلاثة أشياء.

والتقسيم حاصر. وبيانه أن قوله آية محكمة تشمل على معرفة كتاب الله تعالى. وما تتوقف عليه معرفته لأن المحكمة هي التي أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه فكانت أم الكتاب فتحمل المتشابهات عليها وترد إليها. ولا يتم ذلك إلا للماهر الحاذق في علم التفسير والتأويل الحاوي لمقدمات يفتقر إليها من الأصلين وأقسام العربية.

وقوله: سنة قائمة. معنى قيامها ثباتها ودوامها بالمحافظة عليها من قامت السوق إذا نفقت لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المخلصون بالطلبات، ودوامها إما أن يكون بحفظ أسانيدها من معرفة أسماء الرجال والجرح والتعديل ومعرفة الأقسام من الصحيح والحسن والضعيف المتشعب منه أنواع كثيرة وما يتصل بها من المتممات مما يسمى علم الاصطلاح. وإما أن يكون بحفظ متونها من التغيير والتبديل بالإتقان وتفهم معانيها واستنباط العلوم منها وقوله: أو فريضة عادلة. أي مستقيمة مستنبطة من الكتاب والسنة والإجماع وقوله: وما سوى ذلك فهو فضل. أي لا مدخل له في أصل علوم الدين. بل ربما يستعاذ منه حيناً كقوله: أعوذ بك من علم لا ينفع اهـ. ملخصاً من مقدمة القسطلاني.

(وأما وجوب إخلاص العالم نيته لله تعالى) في التعليم بقسميه المذكورين ففيه أقوال: قال العلامة ابن زكري في حاشيته على صحيح البخاري إن تخليص القصد في مقام التعليم والتأليف من أعسر الأمور وأصعبها لما امتاز به العالم من العلو والشفوف عن الأقران واللحظ بعين التعظيم والتقدم في المحافل والمجالس فكثيرا ما تعترضه الأغراض الفاسدة من كبر وإعجاب ورياء وتساومه النفس بها ويسول له الشيطان ويعده ويمنيه ويزين له حب الجاه وقصد الصيت ويستجره لذلك بلطائف الحيل وخفي الخدع. ولقد صدق أبو زيد رضي الله عنه في قوله عالجت العقبات فما رأيت أصعب من عقبة العلم يعني لتوفر الأسباب الداعية

للأغراض والشهوات. قال والعمل الواحد في الصورة من الشخصين يوصل أحدهما إلى أعلى عليين والآخر إلى أسفل سافلين. أو لا يوصله إلى شيء فيضيع عمله.

(فالعالم) إذا أراد بتعليمه وتأليفه امتثال أمر اللّٰه ورسوله وابتغاء مرضاتهما والسعي في نفع الأمة والدلالة على اللّٰه ونصرة دين اللّٰه كان في أعلى عليين مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وإن قصد الجاه والصيت والمنزلة في القلوب وجمع حطام الدنيا والتمتع بالشهوات كان في أسفل سافلين مع المبعدين المطرودين. ثم قال: (فإن قلت) ومن الذي ينجو من محبة الناس له وثنائهم عليه وتعظيمهم له وماذا يفعله من ابتلي بذلك (قلت) أسهل ما ظهر لي وأقربه أن يستحضر الأمر على حقيقته. فإن تعظيم الناس له إنما هو لأجل العلم والحظ من إرث الأنبياء والنيابة عنهم والانتساب إليهم لا لذاته وأوصافه فليكن فرحه بتعظيم المسلمين لحرم اللّٰه تعالى وجناب رسوله صلى اللّٰه عليه وسلم لا بتعظيمهم له من حيث ذاته وأوصافها فإنهم لا يقصدونه وإن غلط بعضهم فيه. وليستحضر مع ذلك عجزهم وأنهم لا يملكون لأنفسهم فضلاً عنه لا نفعاً ولا ضراً حتى لا يعتد بالمنزلة في قلوبهم ذاكراً مافي ذلك من الآيات والآحاديث وأقاويل العلماء داعياً دعاء الفريق متمسكاً بالله تعالى.

(وبالجملة) فالمطلوب من العالم تصحيح النية أولاً وتنميتها ثانياً. أما تصحيحها أولاً: فبأن يصرفها عن الأغراض الفاسدة إلى المقاصد الحسنة فينوي بفعل المأمور به وبترك المنهي عنه امتثال أمر اللّٰه تعالى. أو بفعل المباح أو تركه الاستعانة على الطاعة لتكون جميع حركاته وسكناته طاعة. وأما تنميتها فبأن ينظر فيما عزم عليه من فعل أو ترك فإن وجده يحتمل وجودها من الخير نواها كلها كما في نور البصر للهلالي وإن احتمل ما عزم عليه مفسدة ومصلحة فتركه أولى درءاً للمفسدة لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وللشيخ محمد بن أبي الحسن صاحب مجمع الأحباب نفعنا الله تعالى ببركاته بعد كلام في التشديد في طلب الإخلاص ما نصه: ومما ينبغي أن يتنبه له أن النية إذا صحت في طلب العلم فليست شهوة النفس في نشر العلم وتعليمه مانعة من ذلك إذ النفس لها دسائس وهي أمارة بالسوء والشيطان يسلط على الإنسان فإذا يئس منه من باب المعاصي أتاه من باب الخيرات في معرض التلبيس بالنصيحة فيقول: امنع نفسك من هذا لأنك تشتهيه وهذا كما قلنا بمجرده تعليل عليل لأن فرح النفس بالإمرة أمر جبلي لا يمكن دفعه فالإمرة فضيلة وكذلك الإمامة في العلم وميل النفس إلى هذه الأشياء معين على تحصيلها لا سيما في الابتداء إذ لولا ذلك ما حصلت.

ولا يمكن محو أثر هذه الأشياء من النفس فإن من يخيل إليه أنه يمكنه أن يجامع ولا يلتذ أو يحدث. ولا يفرح بالرياسة فقد تخيل الممتنع. وليس في وجود ذلك ما يضر بالدين أصلاً وإنما الذي ينبغي أن تكون المجاهدة فيه كما تقدم قصد دفع الرياسة كالعجب والكبر وغيرهما من الآفات المانعة السالف ذكرها اهـ. ثم قال بعد كلام طويل: اعتمد خمسة أصول. وهي الحلال والإخلاص والنية والصدق وما فيه صلاح القلوب فإن أعمالهم راجعة إليها.

ومن هنا يعلم ما عند من امتنع من نشر العلم وتعليمه وحسن قصد من فعل ذلك وكيف لا ودرجة العالم العامل لا درجة فوقها إلا النبوة. ولا سيما إذا عمل به ونشره وقصد بذلك وجه الله سبحانه. ودعوه يفرح ألف ألف فرح إذا كان الأمر على ما ذكرناه فإن ذلك الفرح لا يضره في دينه أصلاً لأنه على هذا الوجه ليس بمذموم بل قد صرح غير واحد من الأئمة المتقدمين والمتأخرين بكون هذا الفرح مطلوباً وأنه أحد شعب الإيمان هذا مما لا يتمارى فيه.

وانظر إلى أئمة الدين والصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم من سائر فقهاء الأمصار رضي الله عنهم أجمعين هل فيهم من امتنع من نشر العلم وتعليمه لأجل هذا الخاطر؛ فقد كان الإمام مالك وغيره من الأئمة قبله

وبعده رضوان الله سبحانه عليهم يجلسون للحديث ولا يلتفت أحدهم إلى ما يقال إن حدثنا باب من أبواب الدنيا ولو اعتبروا ذلك لاندرس العلم وانطوى وبقي الناس في عمايتهم يتهالكون اهـ.

واعلم أن المعيار الصادق على دعوى التعليم والتعلم لله تعالى أن يقدر الإنسان نزول الموت به وهو مشتغل بالتعليم أو التعلم فإن سره أن يكون مشتغلاً بأحدهما في حالة نزوله به فهو صواب وإلا كان على باطل وينبغي أن ينوي من يأخذ مرتباً معيناً على التدريس أنه إنما يأخذه إعانة على نشره العلم لضيق حاله خوف انقطاعه عنه إن لم يأخذ ذلك المرتب ولا ينوي أنه أجرة على التدريس وإن كان من رتبه له جعله أجرة لفظاً أو قصداً فإن نوى أنه أجرة عليه فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. لأن حطام الدنيا لو جمع كله للعالم في مقابلة مسألة واحدة دينية لكان في ذلك الخسران المبين لاستبداله الذي هو أدنى بالذي هو خير.

فالحذر الحذر من التدريس بنية الأجرة، ولكن لا يلزمه أن يعلم الناس بأنه يعلم بغيرها إذا خاف مفسدة على نفسه في معاشه كما صرح به ابن الحاج في المدخل وعلل ذلك بأن الناس في زمانه ما بين محسن الظن ومسيئه في العلماء. فمسيء الظن لا يبالي بهم، ومحسن الظن يعدهم من الملائكة لا يحتاجون لشيء وكلا الأمرين إما إفراط أو تفريط في حق العلماء.

قال بعض المحققين: ومعيار معرفة صحة النية وفسادها في أخذ هذا المعلوم بنية الإعانة لا الأجرة أنه إذا قطع عنه لا يترك التدريس لقطعه فإن تركه له فهو دليل على فساد نيته وأنه إنما كان يعلم لأجل الأجرة. قال مقيده رحمه الله تعالى: إنما يتم الاستدلال على كونه أنما كان يعلم للأجرة بتركه التدريس عند قطع المعلوم عنه إذا لم يشتغل بغير التدريس من أنواع نشر العلم كاشتغاله بالتأليف المناسب لأهل زمانه أو اشتغاله بكثرة تلاوة كتاب الله تعالى التي هي أفضل العبادات بعد أداء الفرائض وبعد تعلم ما يجب تعلمه عيناً من العلوم. أما إن اشتغل بنحو ما ذكر

بعد تركه التدريس فلا يعد تركه التدريس دليلاً على فساد نيته. ومن هذا المعنى انقطاع الجلال السيوطي للعبادة والتأليف في آخر أمره واعتزاله الناس وتركه التدريس والإفتاء.

ووقع نحو ذلك للسيد مرتضى الزبيدي شارح الإحياء وشارح القاموس في آخر عمره ورد هدايا الملوك[١]وغيرهم فراراً من مخالطة الناس كما هو مشهور ومسطور في ترجمته وإنما بسطت الكلام في شرح صدر حديث: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» لقصد الإيضاح والتيسير ونصيحة كل من يطالع كتابي هذا من علماء الأمة وطلبة العلم ولم تأخذني سآمة عن بسط الكلام النافع هنا طلباً للأجر بجمع هذه الدرر الشوارد. لتحصيل مالها من المنافع والفوائد. ولا ينبغي لطالب التحقيق من طلبة العلم والعلماء الذائقين أن تحصل له سآمة عن تتبع ما جلبناه في هذه التنبيهات من فوائد العلوم النافعة ولنا أسوة في ذلك بأفاضل علماء الأمة كالحطاب شارح المختصر والإمام النووي في شرح مسلم وفي المجموع فقد صرح كل منهما في أوائل شرحه بأن الكلام الطويل النافع لا ينبغي السآمة منه.

وقد يظن المطالع أن بعض المسائل جلي لا يحتاج للتطويل وهو مفتقر في نفس الأمر إليه وإن خفي ذلك على بعض الناس. قال ابن رشد في مسائل العتبية: ما مسألة وإن كانت جلية في ظاهرها إلا وهي مفتقرة إلى الكلام على ما يخفى من باطنها، وقد يتكلم الشخص على ما يظنه مشكلاً وهو غير مشكل عند كثير من الناس، وقد يشكل عليهم ما يظنه هو جلياً فالكلام عى بعض المسائل دون بعض عناء وتعب بغير كبير فائدة (وإنما الفائدة التامة) التي يعظم نفعها ويستسهل العناء فيها أن يتكلم الشخص على حميع المسائل كي لا يشكل على أحد مسألة إلا وجد التكلم عليها والشفاء مما في نفسه منها اهـ.

---

[١] قف وتأمل.

وقال الإمام النووي في شرح مسلم: لا ينبغي للناظر في هذا الشرح أن يسأم من شيء يجده مبسوطاً واضحاً فإني إنما أقصد بذلك إن شاء الله الإيضاح والتيسير والنصيحة لمطالعه وإعانته وإغنائه عن مراجعة غيره في بيانه. وهذا مقصود الشروح فمن استطال شيئاً من هذا وشبهه فهو بعيد من الإتقان مباعد للفلاح في هذا الشأن. فليعزِ نفسه لسوء حاله وليرجع عما ارتكبه من قبيح فعاله إلخ كلامه وهو نفيس يتأكد الوقوف عليه.

ولنرجع للكلام على شرح باقي حديث المتن فأقول: هذا الحديث قد اشتمل على ثلاثة أمور:

أحدها: فضل التفقه في الدين. وبيان أن من أراد الله به خيراً يفقهه فيه. وقد مضى الكلام عليه بتوسع لشدة الحاجة إلى ذلك. واستفيد منه فضل العلماء على سائر الناس. وفضل التفقه في الدين على سائر العلوم. وإثبات الخير لمن تفقه في دين الله وأن ذلك لا يكون بالاكتساب فقط بل لمن يفتح الله عليه به وقد بينا سابقاً أن الدين يشمل التصوف بما فيه كفاية لمن تأمله إن شاء الله تعالى:

وثانيها: أن المعطي في الحقيقة هو الله وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاسم يقسم بين أمته تبليغ ما أوحي إليه عموماً وكذا يقسم عليها حقوقها المالية بحسب شرعه.

وثالثاً: أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبداً. وإنما قلت بعض هذه الأمة مع كون حديث المتن هنا ظاهره العموم لأن لفظه: ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله. إلخ لأن لفظه مخصوص بحديث: «لا تزال طائفة من أمتي» إلخ المتفق عليه في الصحيحين.

أما الكلام على الأمر الأول: فقد تم كما بيناه وأما الكلام على الأمرين الباقيين: فهذا بيان أولهما فقوله صلى الله عليه وسلم: «وإنما أنا قاسم» إنما: من أدوات الحصر وأنا مبتدأ وقاسم خبره والحصر بإنما في كونه صلى الله عليه وسلم قاسماً ليس حقيقياً إذ له صفات أخرى غير القسم بل هو إما أن يكون وارداً رداً على من اعتقد أنه يعطي ويقسم فلا

ينفي إلا ما اعتقده السامع لا كل صفة من الصفات فهو حينئذ قصر إفراد أو اعتقد أنه يعطي ولا يقسم فيكون قصر قلب وقوله عليه الصلاة والسلام:

«والله يعطي» ورد فيه رواية والله المعطي وفيه على الروايتين حذف المفعول أي مفعول يعطي أو المعطي وتقديره يعطي كل واحد من الأمة من الفهم أو المال أو هما معاً قدر ما تعلقت به إرادته تعالى فالتفاوت في الأفهام منه سبحانه فقد كان بعض الصحابة يسمع الحديث فلا يفهم منه إلا الظاهر الجلي ويسمعه آخر منهم أو من القرن الذي يليهم أو ممن أتى بعدهم فيستنبط منه مسائل كثيرة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال الطيبي: الواو في قوله وإنما أنا قاسم للحال من فاعل يفقهه أو من مفعوله فعلى الثاني يكون المعنى إن الله تعالى يعطي كلاً ممن أراد أن يفقهه استعداداً لدرك المعاني على قدره له ثم يلهمني بإلقاء ما هو لائق باستعداد كل واحد وعلى المعنى الأول فالمعنى إني ألقى علي ما يسنح إلي وأسوي فيه ولا أرجح بعضهم على بعض والله يوفق كلاً منهم على ما أراد وشاء من العطاء اهـ.

وقال غيره المراد القسم المالي لكن سياق الكلام يدل على الأول إذ أنه أخبر أن من أراد به خيراً يفقهه في الدين. وظاهره يدل على الثاني لأن القسمة حقيقة في الأموال. قال القسطلاني: نعم يتوجه السؤال عن وجه المناسبة بين اللاحق والسابق. وقد يجاب بأن مورد الحديث كان عند قسمة مال وخصص عليه الصلاة والسلام بعضهم بزيادة لمقتض اقتضاه فتعرض بعض من خفيت عليه الحكمة فرد عليه صلى الله عليه وسلم بقوله: «من يرد الله به خيراً» الخ. أي من أراد الله به الخير يدله في فهمه في أمور الشرع فلا يتعرض لأمر ليس على وفق خاطره إذ الأمر كله لله وهو الذي يعطي ويمنع ويزيد وينقص. والنبي صلى الله عليه وسلم قاسم بأمر الله ليس بمعط حتى يتسبب إليه الزيادة والنقصان.

وأما بيان ثانيهما ففيه أقول: قوله صلى الله عليه وسلم «ولن تزال هذه الأمة» المرحومة التي هي أمته صلى الله عليه وسلم «قائمة» بالنصب خبر تزال «على أمر الله» أي على الدين الحق «لا يضرهم من» أي الذي «خالفهم» من أهل الأديان الباطلة «حتى يأتي أمر الله» والمراد به الريح التي تقبض روح كل من في قلبه شيء من الإيمان. وتبقي شرار الناس فعليهم تقوم الساعة. وذلك بعد نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال بباب لد ثم بعد موت عيسى تهب الريح المذكورة كما ورد في الحديث وعليه اعتماد الحافظ ابن حجر في فتح الباري. فقوله: «حتى يأتي أمر الله». غاية لقوله: ولن تزال هذه الأمة الخ.

واختلف في المراد بالطائفة من هذه الأمة التي لا تزال ظاهرة على الحق فجزم البخاري أن المراد بهم أهل العلم بالآثار، وقال الإمام أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم. وقال القاضي عياض: أراد أحمد أهل السنة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث. وقال النووي يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد.

ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولا فأولا إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة فإذا انقرضوا جاء أمر الله اهـ ملخصاً مع زيادة فيه.

ونظير ما نبه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط. بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة وهو متجه فإن احتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير.

ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه. وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفا بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد. سواء تعدد أم لا.اهـ من فتح الباري.

وقولي واللفظ له: أي للبخاري وأما مسلم فلفظه: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم ويعطي الله». وفي رواية له في كتاب الإمارة في باب قوله صلى الله عليه وسلم «لا تزال طائفة من أمتي» الخ. «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة» وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

تنبيه مهم

قال في مسالك الدلالة على مسائل متن الرسالة عند قول الإمام ابن أبي زيد القيرواني في الرسالة:

(وأولى العلوم وأفضلها وأقربها إلى الله علم دينه وشرائعه مما أمر به ونهى عنه ودعا إليه وحض عليه في كتابه وعلى لسان نبيه والفقه في ذلك والفهم فيه والتهمم برعايته والعمل به) وهذا ظاهر لا يحتاج إلى دليل؛ بل دليله فيه لأنه إذا كان متعلقاً بما أمر الله ونهى عنه ودعا إليه وحض عليه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو أولى وأفضل من غيره من العلوم التي ليس هذا وصفها ولذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» متفق عليه. من حديث معاوية ولما دعا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لحبر الأمة قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فدل على أن الفقه في الدين أشرف العلوم وأفضلها وأولاها بالعناية لأنه لا نجاة للعبد في الآخرة ووصوله إلى رضى سيده ومولاه إلا بمعرفة علم الدين الذي هو علم الكتاب والسنة وما استنبط منهما.

(والعلم أفضل الأعمال) لحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أفضل العبادة الفقه وأفضل الدين الورع» رواه الطبراني في الثلاثة وحديث حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع» رواه البزار والطبراني وسنده حسن. وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء فقهاً إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه» رواه الطبراني في الأوسط وأدلة تفضيل العلم على العبادة وكونه أشرف الأعمال كثيرة منها عقلية ونقلية وهي مبسوطة في محلها.

(وأقرب العلماء إلى الله تعالى وأولاهم به أكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة) لأن العلم لم يشرف إلا لكونه موصلاً إلى معرفة الله جل جلاله وعظم قدرته

وسطوته. وبقدر التمكن من هذه المعرفة تتمكن الهيبة والعظمة التي تنشأ عنها الخشية والمحبة فوجودهما في العبد دليل على علمه بالله فيكون مقرباً ولياً لله وإذا انتفت الخشية والمحبة من العالم دل ذلك على جهله بالله وأن ما عرفه لم يصل إلى قلبه وإنما هو شيء يجري عى لسانه ليكون حجة عليه يوم القيامة فيقال له ليس من علم كمن لم يعلم (والعلم دليل إلى الخيرات وقائد إليها) لأنه لا تمييز بين الخير الذي يجب اتباعه والشر الذي يجب اجتنابه إلا به ولذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وقال: «من سلك طريقاً يتلمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة» لأنه بالتماس العلم يعرف الطرق الموصلة إلى الجنة فيسلكها والطرق الموصلة إلى النار فيجتنبها.

فمن وفقه الله تعالى لطلب العلم فقد سهل له طريق الجنة حيث عرفها بإرشاد العلم ولم يبق ضالاً تائهاً عنها بالجهل.

وهذا أيضاً في العلم النافع الذي يصل إلى القلب وتحل معه الهداية وتصحبه الخشية لا مطلق العلم الذي يعرفه الجهلة المغترون كعلماء العصر الذين هم شر من تحت أديم السماء كما ورد في الآثار.

واللجوء إلى كتاب الله تعالى وسنّة نبيه واتباع سبيل المؤمنين وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس نجاة؛ فلا فائدة في ذكر دليل هذين الأمرين أحدهما أنه معلوم من الدين بالضرورة أن من لم يلجأ إلى كتاب الله وسنّة رسوله فليس بمسلم وليس له دين إذ الدين لله ورسوله فمن لم يتبعهما فلا دين له ولا نجاة، وأما سبيل المؤمنين الذي يقصد به الإجماع فهو من أصول الدين المعلومة والمقررة أدلتها بما لها وما عليها في كتب الأصول.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصية الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله تعالى عنه إلى تلميذه أبي يوسف بن خالد السمتي البصري رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على النبي الكريم. بعد أن أخذ أبو يوسف بن خالد السمتي العلم عن أبي حنيفة وأراد الرجوع إلى بلدته البصرة استأذن أبا حنيفة في ذلك فقال له أبو حنيفة: حتى أزودك بوصية فيما تحتاج إليه في معاشرة الناس، ومراتب أهل العلم، وتأديب النفس، وسياسة الرعية، ورياضة الخاصة والعامة، وتفقد أمر العامة؛ حتى إذا خرجت بعلمك كان معلك آلة تصلح له وتزينه ولا تشينه.

واعلم أنك متى أسأت معاشرة الناس صاروا لك أعداء وإن كانوا لك آباء وأمهات، ومتى أحسنت معاشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء. ثم قال لي: اصبر حتى أفرغ لك نفسي واجمع لك همي وأعرفك من الأمر ما تحمدني في نفسك عليه وما توفيقي إلا بالله.

فلما مضى الميعاد أخلى لي نفسه فقال: أنا أكشف لك عما تعرضت له كأني بك وقد دخلت البصرة وأقبلت على من يخالفوننا بها، ورفعت نفسك عليهم، وتطاولت بعلمك لديهم، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم، وخالفتهم وخالفوك، وهجرتهم وهجروك، وشتمتهم وشتموك، وضللتهم وضللوك، وبدّعوك، واتصل الشين بنا وبك؛ فاحتجت إلى الانتقال عنهم والهرب منهم، وهذا ليس برأي لأنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بد حتى يجعل الله له مخرجاً.

إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك فأنزل كل رجل منهم منزلته، وأكرم أهل الشرف، وعظم أهل العلم، ووقر الشيوخ، ولاطف الأحداث، وتقرب من العامة، ودار الفجار، واصحب الأخيار، ولا تتهاون بالسلطان، ولا تحقرن أحداً ولا تقصرن في إقامة مروءتك، ولا تخرجن سرك إلى أحد، ولا تثقنّ بصحبة أحد حتى تمتحنه ولا تصادق خسيساً ولا وضيعاً، ولا تألفن ما ينكر عليك في ظاهرك.

وإياك والانبساط إلى السفهاء، ولا تجيبن دعوة، ولا تقبلن هدية، وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق، وسعة الصدر واستجد ثيابك واستفره دابتك، وأكثر استعمال الطيب، واجعل لنفسك خلوة ترم بها حوائجك.

وابحث عن أخبار حشمك، وتقدم في تأديبهم وتقويمهم؛ واستعمل في ذلك الرفق، ولا تكثر العتاب فيهون العذل، ولا تل تأديبهم بنفسك، فإنه أبقى لحالك.

وحافظ على صلواتك وابذل طعامك فإنه ما ساد بخيل قط، ولتكن لك بطانة تعرفك أخبار الناس، فمتى عرفت بفساد بادرت إلى إصلاحه، ومتى عرفت بصلاح ازددت فيه رغبة وعناية.

وزر من يزورك ومن لا يزورك، وأحسن إلى من يحسن إليك، أو يسيء، وخذ العفو وأمر بالعرف وتغافل عما لا يعنيك، واترك كل من يؤذيك، وبادر في إقامة الحقوق ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك، وتعاهده برسلك. ومن غاب منهم، افتقدت أحواله، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه، وصل من جفاك؛ وأكرم من أتاك، واعف عمن أساء إليك. ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن والجميل، ومن مات منهم قضيت حقه، ومن كانت له فرحة هنأته بها، ومن كانت له مصيبة عزيته عنها، ومن أصابته جائحة توجعت بها، ومن استنهضك بأمر من أموره نهضت له، ومن استغاثك فأغثه ومن استنصرك نصرته.

وأظهر تودداً إلى الناس ما استطعت، وافش السلام ولو على قوم لئام، ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس، أو ضمك وإياهم مسجد، وجزت المسائل، وخاضوا فيها بخلاف ما عندك لا تبد لهم منك خلافاً، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول فيها أقوال أخر، وهو كذا وكذا، والحجة له كذا، فإن سمعوه منك عرفوا منزلتك ومقدارك.

واعط كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظر فيه، وخذهم بجلي العلم دون دقيقه، وآنسهم ومازحهم أحياناً وحادثهم، فإنها تجلب لك المودة، وتستديم مواظبة العلم. وأطعمهم أحياناً وتغافل عن زلاتهم، واقض حوائجهم وارفق بهم وسامحهم، ولا تُبْدِ لأحد منهم ضيق صدر أو ضجر أو كن كواحد منهم.

وعامل الناس معاملتك لنفسك، وارض منهم ما ترضاه لنفسك، واستعن على نفسك بالصيانة والمراقبة لأحوالها، ودع الشغب ولا تضجر لمن يضجر عليك، واسمع

من يستمع منك، ولا تكلف الناس ما لا يكلفونك، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم، وقدم إليهم حسن النية، واستعمل الصدق واطرح الكبر جانباً، وإياك والغدر، وإن غدروا بك، وأد الأمانة وإن خانوك، وتمسك بالوفاء واعتصم بالتقوى وعاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم، فإنك إن تمسكت بوصيتي هذه رجوت لك أن تسلم.

ثم قال له: إنه يحزنني مفارقتك، وتونسني معرفتك، فواصلني بكتبك، وعرفني حوائجك، وكن لي كابن فإني لك كأب. وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

فصل

ومن لطائف الإشارات في أبواب العلم ما قاله الشيخ الإمام حجة العرب وترجمان الأدب تقي الدين أبو بكر بن حجة الحنفي منشئ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية تغمده الله تعالى برحمته:

فمن ذلك ما نقلته من درة الغواص لأبي محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات أن أبا العباس المبرد روى أن بعض أهل الذمة سأل أبا عثمان المازني في قراءة كتاب سيبويه عنه وبذل له مائة دينار في تدريسه إياه فامتنع أبو عثمان من ذلك فقال له المبرد جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك واحتياجك إليها فقال أبو عثمان: هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة حديث وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذمياً غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له.

قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق من شعر العرجي:

أظلوم إن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من بالحضرة في إعراب رجلاً فمنهم من نصبه وجعله اسم أن ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب فأمر الواثق بإشخاصه.

قال أبو عثمان: فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل؟ قلت: من مازن ربيعة فكلمني بكلام قومي وقال: با اسمك لأنهم يقلبون الميم باء والياء ميماً إذا كانت في أول الأسماء فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر فقلت: بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته وأعجبه مني ذلك ثم قال: ما تقول في قول الشاعر:

أظلوم أن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظلم

أترفع رجلاً أم تنصبه؟ فقلت: الوجه النصب يا أمير المؤمنين قال؟ ولم ذلك؟ فقلت: إن مصابكم مصدر بمعنى أصابتكم فأخذ الزيدي في معارضتي فقلت هو بمنزلة قولك: إن ضربك زيداً ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به والدليل عليه أن الكلام متعلق إلى أن تقول ظلم فيتم، فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار.

قال أبو العباس المبرد: فلما عاد أبو عثمان إلى البصرة قال لي: كيف رأيت رددنا لله مائة فعوضنا ألفاً.

وممن ذكر هذه القصة العلامة ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ج١ ص٢٨٤-٢٨٥.

ومنه أيضاً كما في الفتوحات المكية لابن عربي رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين:

اعلم أيها الولي الحميم أنا روينا في هذا الباب عن عبد الله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً أصاب من عرضه فجاء إليه يستحله من ذلك فقال له: يا ابن عباس إني قد نلت منك، فاجعلني في حل من ذلك فقال: أعوذ بالله أن أحل ما حرم الله إن الله قد حرم أعراض المسلمين فلا أحلها، ولكن غفر الله لك، فانظر ما أعجب هذا التصريف وما أحسن العلم.

ومن هذا الباب، حلف الإنسان على ما أبيح له فعله أن لا يفعله أو يفعله ففرض الله تحلة الأيمان وهو من باب الاستدراج والمكر الإلهي إلا لمن عصمه الله بالتنبيه عليه. فما ثم شارع إلا الله تعالى، قال الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم:

(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) ولم يقل بما رأيت بل عتبه سبحانه

وتعالى لما حرم على نفسه باليمين في قضية عائشة وحفصة فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ) .

فكان هذا مما أرته نفسه، فهذا يدلك على أن قوله تعالى (بما أراك الله) أنه ما يوحى به إليه لا ما يراه في رأيه.

فلو كان الدين بالرأي لكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم أولى من رأي كل ذي رأي، فإذا كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم فيما أرته نفسه فكيف رأي من ليس بمعصوم، ومن الخطأ أقرب إليه من الإصابة؛ فدل أن الاجتهاد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو طلب الدليل على تعيين الحكم في المسألة الواقعة لا في تشريع حكم في النازلة.

إن ذلك شرع لم يأذن به الله، ولقد أخبرني القاضي عبد الوهاب الأزدي الاسكندري بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة قال: رأيت رجلاً من الصالحين بعد موته في المنام فسألته ما رأيت فذكر أشياء منها قال: ولقد رأيت كتباً موضوعة مرفوعة فسألت ما هذه الكتب المرفوعة فقيل لي: هذه كتب الحديث فقلت: وما هذه الكتب الموضوعة فقيل لي: هذه كتب الرأي حتى يسأل عنها أصحابها فرأيت الأمر فيه شدة.

ومنه أيضاً: قال مقيده عفا الله تعالى عنه: ومما يستحسن ذكره هنا ما وقع للنضر بن شميل قال في وفيات الأعيان - ابن خلكان ج٥ ص:٣٩٧-٤٠٥:

النضر بن شميل

أبو الحسن النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم بن عبدة بن زهير السكب، الشاعر، ابن عروة بن حليمة بن حجر بن خزاعى ابن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، التميمي المازني النحوي البصري؛ كان عالماً بفنون من العلم صدوقاً ثقة، صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث، وهو من أصحاب الخليل بن أحمد؛ ذكره أبو عبيدة في كتاب «مثالب أهل البصرة» فقال: ضاقت المعيشة على النضر ين شميل البصري بالبصرة فخرج يريد خراسان، فشيعه من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف رجل، ما فيهم إلا محدِّث أو نحوي أو لغوي أو عروضي أو أخباري، فلما صار بالمربد جلس فقال: يا أهل البصرة، يعز عليَّ فراقكم، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلِّى ما فارقتكم، قال: فلم يكن أحد فيهم يتكلف له ذلك، فسار حتى وصل خراسان فأفاد بها مالاً عظيماً، وكانت إقامته بمرو. وقد سبق في أخبار القاضي عبد الوهاب المالكي نظير هذه الحكاية لما خرج من بغداد.

وسمع من هشام بن عروة وإسماعيل بن أبي خالد وحميد الطويل وعبد الله بن عون وهشام بن حسان وغيرهم من التابعين، وروى عنه يحيى بن معين وعلي بن المديني وكل من أدركه من أئمة عصره، ودخل نيسابور غير مرة وأقام بها زماناً وسمع منه أهلها.

وله مع المأمون بن هارون الرشيد لما كان مقيماً بمرو حكايات ونوادر، لأنه كان يجالسه، فمن ذلك ما حكاه الحريري في كتاب: «درة الغواص في أوهام الخواص» في قوله: ويقولون هو سداد من عوز، فيلحنون في فتح السين، والصواب أن يقال

بالكسر: وقد جاء في أخبار النحويين أن النضر بن شميل المازني استفاد بإفادة هذا الحرف ثمانين ألف درهم، وساق خبره.

وذكر إسناداً انتهى فيه إلى محمد بن ناصح الأهوازي قال: حدثني النضر بن شميل قال: كنت أدخل على المأمون في سَمَره، فدخلت ذات ليلة وعليَّ ثوب مرقوع، فقال: يا نضر، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ ضعيف وحر مرو شديد، فأتبرد بهذه الخلقان، قال: لا، ولكنك قشف، ثم أجرينا الحديث، فأجرى هو ذكر النساء فقال: حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز» فأورده بفتح السين، قال: فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز» قال: وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً، وقال: يا نضر، كيف قلت سداد؟ قل: لأن السَّداد هاهنا لحن قال: أو تلحنني؟ قلت: إنما لحن هشيم وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه، قال: فما الفرق بينهما؟ قلت: السداد، بالفتح، القصد في الدين والسبيل، والسداد، بالكسر، البلغة، وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد، قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم، هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسـداد ثغـر

فقال المأمون: قبح الله من لا أدب له، وأطرق ملياً ثم قال: ما لك يا نضر؟ قلت: أريضة لي بمرو أتصابيها وأتمززها، قال: أفلا نفيدك مالاً معها؟ قلت: إني إلى ذلك لمحتاج، قال: فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب. ثم قال: كيف تقول إذا أمرت أن يترب؟ قلت: أتربه، قال: فهو ماذا، قلت: مترب، قال: فمن الطين؟ قلت: طنه، قال: فهو ماذا؟ قلت: مطين، قال: هذه أحسن من الأولى، ثم قال: يا غلام، أتربه وطنه، ثم صلى بنا العشاء وقال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضيل بن سهل؛ قال: فلما قرأ الفضل الكتاب. قال: يا نضر، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب فيه؟ فأخبرته ولم أكذبه، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ فقلت:

كلا إنما لحن هشيم وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه، وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار. ثم أمر لي بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف استفيد مني.

والبيت الذي استشهد به هو لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي العرجي الشاعر المشهور، وهو من جملة أبيات له، وهي هذه الأبيات

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا	ليوم كريهة وسداد ثغر
وصبر عند معترك المنايا	وقد شرعت أسنتها لنحري
أجرر في الجوامع كل يوم	فيالله مظلمتي وقسري
كأني لم أكن فيهم وسيطا	ولم تك نسبتي في آل عمرو
عسى الملك المجيب لمن دعاه	سينجيني فيعلم كيف شكري
فأجزي بالكرامة أهل ودي	وأجزي بالضغائن أهل وتري

[والعرجي: بفتح العين وسكون الراء وفي آخرها جيم، هذه النسبة إلى العرج، وهو موضع بمكة سمي به؛ وقال ابن الأثير في كتاب «تهذيب النسب»: العرج بين مكة والمدينة، وليس بمكة، والله أعلم.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: لما حبس المنصور عبد الله بن علي كان يكثر التمثل بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

فبلغ ذلك المنصور فقال: هو أضاع نفسه بسوء فعله، فكانت أنفسنا عندنا أبر من نفسه. قال إسحاق، وقال الأصمعي: مررت بكناس بالبصرة يكنس كنيفاً ويغني:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فقلت: أما سداد الكنيف فأنت ملي به، وأما الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه، وكنت حديث السن وأردت العبث به، فأعرض عني ملياً، ثم أقبل عليّ متمثلاً يقول:

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقلت: والله ما يكون من الهوان شيء أكثر مما بذلتها له فقال لي: والله إن من الهوان لشراً مما أنا فيه، فقلت: وما هو؟ قال: الحاجة إليك وإلى أمثالك].

وكان سبب عمله هذه الأبيات أن محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك لما كان والي مكة حبس العرجي المذكور لأنه كان يشبب بأمه جيداء، وهي من بني الحارث بن كعب، ولم يكن ذلك لمحبته إياها، بل ليفضح ولدها المذكور، وأقام في حبسه تسع سنين، ثم مات فيه بعد أن ضربه بالسياط وشهره بالأسواق، فعمل هذه الأبيات في السجن.

[قال إسحاق: وكان الوليد بن يزيد مضطغناً على محمد بن هشام أشياء كانت تبلغه عنه في حياة هشام، فلما ولي الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام وأشخصا إليه إلى الشام، ثم دعا بالسياط، فقال له محمد: أسألك بالقرابة، فقال: وأي قرابة بيني وبينك، هل أنت إلا من أشجع؟ قال: فأسألك بصهر عبد الملك، قال: فلم تحفظه؛ قال: يا أمير المؤمنين قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرب قريش بالسياط إلا في حد، قال: ففي حد أضربك وقود، [أنت ممن سن] ذلك على العرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان فما راعيت حق جده ولا نسبته إلى هشام، ولا ذكرت حينئذ هذا الخبر، وأنا ولي ثأره، اضرب يا غلام، فضربهما ضرباً مبرحاً وأثقلا بالحديد ووجههما إلى يوسف بن عمر بالكوفة وأمر باستقصائهما وتعذيبهما حتى يتلفا؛ وكتب إليه احتبسهما مع ابن النصرانية، يعني خالداً القسري، إن عاش أحد منهما؛ فعذبهما عذاباً شديداً وأخذ منهما مالاً عظيماً، حتى لم يبق فيهما موضع للضرب، وكان محمد بن هشام مطروحاً فإذا أرادوا أن يقيموه أخذوا بلحيته فجذبوه بها، ولما اشتد الحال بهما تحامل إبراهيم لينظر في وجه محمد فوقع عليه فماتا جميعاً ومات خالد القسري معهما في يوم واحد.

قال إسحاق: غنيت الرشيد يوماً في عرض الغناء:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسـداد ثغـر

فقال لي: ما كان سبب العرجي حتى قال الشعر؟ فأخبرته بخبره من أوله إلى آخره إلى أن مات فرأيته يتغير كلما مر به شيء، فأتبعته بحديث مقتل ابني هشام، فجعل وجهه يسفر وغضبه يسكن، فلما انقضى الحديث قال: يا إسحاق والله لولا ما حدثتني به من فعل الوليد لما تركت أحداً من بني مخزوم إلا قتلته بالعرجي].

وقد خرجنا عن المقصود، ونرجع الآن إلى تتمة أخبار النضر بن شميل.

فمن ذلك ما حكاه الحريري في «درة الغواص» أيضاً في أوائل الكتاب في

قوله: ويقولون للمريض: مسح الله ما بك، بالسين، والصواب فيه مصح، بالصاد، فقال: ويحكى أن النضر بن شميل المازني مرض فدخل عليه قوم يعودونه، فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح: مسح الله ما بك، فقال: لا تقل مسح بالسين ولكن قال مصح بالصاد، أي أذهبه وفرقه، أما سمعت قول الأعشي:

وإذا الخمر فيها أزبدت أفل الإزباد فيها ومصح

فقال له الرجل: إن السين قد تبدل من الصاد، كما يقال الصراط والسراط، وسقر وصقر، فقال له النضر: فإذاً أنت أبو سالح.

ويشبه هذه النادرة ما حكي أيضاً: أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبي الحسن بن الفرات: أن تقام السين مقام الصاد في كل موضع، فقال له الوزير: أتقرأ: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِم وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم).

أم من سلح، فخجل الرجل وانقطع؛ انتهى كلام الحريري.

قلت أنا: والذي ذكره أرباب اللغة في جواز إبدال الصاد من السين: أن كل كلمة كان فيها سين، وجاء بعدها أحد الحروف الأربعة - وهي الطاء والخاء والغين والقاف - فيجوز إبدال السين بالصاد، فنقول في «السراط» الصراط، وفي «سخر لكم» صخر، وفي «مسغبة» مصغبة، وفي «سيقل» صيقل، وقس على هذا كله.

ولم أر في شيء من كتب اللغة من ذكر هذا وحكى فيه خلافاً، سوى الجوهري في كتاب «الصحاح» في لفظة صدغ، فإنه قال: وربما قالوا السدغ بالسين، قال قطرب محمد بن المستنير: إن قوماً من بني تميم يقال لهم بَلعَنبَر يقلبون السين صاداً عند أربعة أحرف، عند الطاء والقاف والغين والخاء، إذا كن بعد السين، ولا يبالي أثانية كانت أم ثالثة أم رابعة، بعد أن تكون بعدها، يقولون: سراط وصراط، وبسطة وبصطة، وسيقل وصيقل، وسرقت وصرقت، ومسغبة ومصغبة، ومسدغة ومصدغة، وسخر لكم وصخر لكم، والسخب والصخب؛ انتهى كلامه في هذا الفصل.

وأخبار النضر كثيرة، والاختصار أولى.

وله تصانيف كثيرة، فمن ذلك: كتاب في الأجناس على مثال «الغريب» وسماه: «كتاب الصفات». قال علي بن الكوفي: الجزء الأول منه يحتوي على خلق الإنسان والجود والكرم وصفات النساء. والجزء الثاني يحتوي على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب. والجزء الثالث يحتوي على الإبل فقط والجزء الرابع يحتوي على

الغنم والطير والشمس والقمر والليل والنهار والألبان والكمأة والآبار والحياض والأرشية والدلاء وصفة الخمر. والجزء الخامس يحتوي على الزرع والكرم والعنب وأسماء البقول والأشجار والرياح والسحاب والأمطار. وله كتاب «السلاح» وكتاب «خلق الفرس» وكتاب «الأنواء» وكتاب «المعاني» وكتاب «غريب الحديث» وكتاب «المصادر» وكتاب «المدخل إلى كتاب العين للخليل بن أحمد»، وغير ذلك من التصانيف.

وتوفي في سلخ ذي الحجة سنة أربع ومائتين، وقيل في أولها، وقيل سنة ثلاث ومائتين بمدينة مرو من بلاد خراسان، وبها ولد، ونشأ بالبصرة فلذلك نسب إليها، رحمه الله تعالى.

والنضر: بفتح النون وسكون الضاد المعجمة وبعدها راء.

وشميل: بضم الشين المعجمة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام.

وخرشة: بفتح الخاء المعجمة والراء والشين المعجمة.

وكلثوم: بضم الكاف والثاء المثلثة وبينهما لام ساكنة.

وعبدة: بفتح العين والدال المهملة وبينهما باء موحدة وهاء ساكنة.

والسكب: بفتح السين المهملة وسكون الكاف وبعدها باء موحدة، وإنما قيل له «سكب» لقوله:

برقٌ يضيء خلال البيت أسكوب

وحليمة: بفتح الحاء المهملة وكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها.

وقال ابن الجوزي في كتاب «الألقاب» في ترجمة السكب: هو زهير بن عروة بن جلهمة، والله أعلم بالصواب.

وجلهمة: بضم الجيم والهاء وبينهما لام ساكنة، وهو في الأصل: اسم لجنب الوادي، يقال له: جلهمة، وجلهة: بفتح الجيم والهاء بغير ميم، وبه سمي الرجل.

وحجر: بضم الحاء المهملة وبعدها جيم ساكنة ثم راء.

وخزاعي: بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي وبعد الألف عين مهملة مكسورة ثم ياء مشددة تشبه ياء النسب.

والباقي معروف فلا حاجة إلى ضبطه.

فائدة:

اعلم أن كل ما ذكر من فضل العلم والعلماء إنما هو للعلماء العاملين المتقين بخلاف علماء السوء. فإن قلت ما هو الفرق بين علماء الدين العاملين بعلمهم أهل الذكر أنصار الرحمن وبين علماء السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان؛ قلت: قال المجدد الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين في كتابه:

فصل

في بيان الفرق بين علماء الدين أهل الذكر أنصار الرحمن وبين علماء السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان.

أقول وبالله التوفيق فاعلموا يا إخواني أن الفرق بين علماء أهل الذكر أنصار الرحمن وبين علماء أهل السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان فهو أن كل من اجتمع فيه وصفان:

العلم والتقوى: فهو من علماء الدين أهل الذكر أنصار الرحمن ومن لم يجتمع فيه الوصفان فهو من علماء السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان.

وفي أجوبة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني المتوفى بمدينة توات سنة ٩٠٩هجرية عن أسئلة الأمير الحاج أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف باسكيا لما سأله عن الفرق بين علماء الدين أهل الذكر المذكورين الذين هم بركة الأرض وبين علماء السوء أهل الغفلة المذكورين الذين هم مصيبة أهل الأرض فأجابه بقوله:

أما بعد أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه فإنك سألتني وقلت منذ منّ الله علينا بالإسلام أصابتنا مصيبة في هذه البلاد لعدم الأمانة فيمن ينسب له العلم من قراء بلادنا ومن وصفتهم أنهم عجم لا يفقهون من كلام العربية إلا قليلاً من كلام عرب بلادهم على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضع التصحيف والتحريف ومع ذلك لهم كتب يدرسونها وحكايات وأخبار يتكلمون في الدين ويزعمون أنهم ورثة الأنبياء وأنه يجب علينا الاقتداء بهم أطلب من الله تعالى أن يعينني على حمل هذا الثقل الذي أبت السموات والأرض عن حمله وأطلب منك أن تفتيني بما علمك الله في هؤلاء

القراء هل يجوز لنا أن نعمل على قولهم في دين الله ويخلصني تقليدهم عند الله أو لا يحل لي ذلك، ويجب عليَّ البحث عن من نوليه ونقلده في أمور الدين بين لنا صفة من يصلح لذلك شرعاً.

فاعلم أعاننا الله وإياك أن الملك لله وما النصر إلا من عند الله فكن لله عَبداً بطاعته يكن لك رباً بحفظه وإعانته إنما أنت عبد مملوك لا تملك شيئاً وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم فأنت في جميع مملكتك راع وكل راع مسئول عن رعيته، فإذا علمت ذلك أيها الأمير فعليك بأمرين:

الأول: أن تبعد عنك أهل الشر وأن تقرب منك أهل الخير.

والثاني: أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله في كل ما حملك منها قال تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمُ لا تعْلَمُونَ). فأهل الذكر من اجتمع فيه وصفان: العلم والتقوى، لأن بالعلم يعرف الرشد من الغي وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي.

فلا تقلد في دينك إلا من ثبت أنه عالم تقي لأن من لم يثبت أنه عالم يُخَافُ منه أن يضل ويضل بعماه، ومن لم يثبت أنه تقي يُخَاف منه أن يضل ويضل بهواه ألم تر إلى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله).

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم. قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى. قال: فمن؟» ثبت بذلك أن كثيراً من علماء هذه الأمة وعبادهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد في جميع البلاد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل».

وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقالوا: ممن يا رسول الله؟ قال: من علماء السوء».

وروي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في

كفه ثم قال: إن الدين قد استضاء إضاءة هذه ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذرُّه على الحصاة حتى واراها. ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا كما دفنت هذه الحصاة. الحديث، ثم قال محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني: قد تبين بالكتاب والسنّة وإجماع العلماء أن كثيراً من قراء هذه الأمة إنما هم من علماء السوء وهم أضر على المسلمين من جميع المفسدين».

ثم قال بعد كلام: فإن قلت قد بينت وأوضحت أن كثيراً من علماء هذه الأمة ليسوا من أهل الذكر وإنما هم من العلماء السوء الضالين المضلين، ولكن كل منهم يقرأ القرآن والحديث ويصرف كثيراً من نصوص الكتاب والحديث يزعم أنه من أهل الذكر وينكر أنه من علماء السوء فبأي شيء نفرق بين أهل الذكر والعلماء السوء؟.

فالجواب والله الموفق للصواب: أنه لا يلتبس حال أهل الذكر بحال علماء السوء أصلاً لا قولاً ولا فعلاً بل لابد أن يجعل الله لكل هادٍ من أهل الذكر أنواراً على أنوار في كل عصر من الأعصار هداية لسهم الجنة وحجة على سهم النار وبيان ذلك أن من حكمة الله أن لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون وتلك سُنّة الله في الأولين والآخرين لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

ومن حكمته جل وعلا أن جعل ذلك لابيان على لسان البشر من الأنبياء في الأولين وأهل الذكر في الآخرين. وجعل لكل هادٍ منهم عدواً من المجرمين وهم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً؛ فلابد إذاً من نور واضح يعلم به صدق الهادين وكذب الشياطين، فجعل الله ذلك للأنبياء بخوارق العادات، ولأهل الذكر بالأعمال الصالحات، فما من نبي أرسله الله لعباده إلا وجعل له نوراً واضحاً بين الناس كلهم أنه على الحق المبين وأن كل ما خالفه وشاققه إنما هو من الضالين المضلين».

وكذلك أهل الذكر من كل الأمة إلى يوم القيامة لأن الله جعلهم للهداية وإقامة الحجة في هذه الأمة كالأنبياء في الأمم الماضية.

ولذلك روي أن في رأس كل قرن يرسل الله عالماً للناس يجدد لهم دينهم فلابد لهذا العالم في كل قرن أن تكون أحواله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح أمور الناس والعدل بينهم ونصر الحق على الباطل والمظلوم على الظالم بخلاف أحوال علماء عصره فيكون بذلك غريباً بينهم لانفراده بصفة أحواله وقلة

أمثاله وحينئذ يتبين ويتعين أنه من المصلحين وأن من خالفه وشاققه ليصرف الناس عنه إنما هو من المفسدين لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء من أمتي»، وقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون عند فساد الزمان» وذلك من أبين علامات أهل الذكر الذين يجدد الله بهم للناس دينهم.

ومن أبين علامات العلماء السوء أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح فمثلهم كمثل الصخرة في باب النهر لا تشرب ولا تترك من يشرب فكل واحد منهم أضر على الناس من ألف شيطان وليس الخبر كالعيان.

وإن لم تفهم ما قررناه وأشكل عليك شيء مما ذكرناه فاعلم أن القرّاء كلهم على ثلاثة أنواع: الأول من تبين لك أنه عالم تقي، والثاني من تبين لك أنه ليس بعالم أو أنه عالم ليس بتقي، والثالث من شككت فيه فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا.

فمن تبين لك أنه عالم تقي فهو من أهل الذكر فاسأله عن دينك وقلّده ينجيك ويكفيك كمن زعم أنه خبير وتبين لك بلا شك أنه عارف أمين.

ومن تبين لك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقي فليس هو من أهل الذكر فلا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه كمن زعم أنه خبير وتبين لك أنه ليس بعارف وأنه ليس بأمين.

ومن لم يتبين لك حاله فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا فقف عنه أيضاً ولا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه ولو كان فصيحاً عربياً يحفظ جميع ما في الكتب حتى يتبين لك بلا شك أنه عالم تقي؛ كمن زعم أنه خبير أمين ولم يتبين لك هل هو صادق أم كاذب.

وإذا علمت ذلك لم يلتبس عليك القرّاء في هذا الزمان ووجب عليك أن تطلب عالماً من أهل الذكر في هذه الأمة كالأنبياء في الأمم الماضية ويجب الاعتماد عليهم والسعي إليهم وإن بعدوا. اهـ. والله ولي التوفيق والهداية.

فصل التوحيد

وهو أن تعلم أن اللّٰه تعالى واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ند له، أزلي قائم أبدي دائم لا أول لوجوده ولا آخر لأبديته، قيوم لا يفنيه الأبد ولا يغير الأمد بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن. منزه عن الجسمية.

ليس كمثله شيء وهو فوق كل شيء. فوقيته لا تزيده بعداً عن عباده وهو أقرب إلي العبيد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد وهو معكم أينما كنتم لا يشابه قربه قرب الأجسام؛ كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام منزه عن أن يحده زمان مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الأبرار في دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار حي قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة ولا نوم له الملكوت والعزة والجبروت. خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم.

لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته. عالم بجميع المعلومات لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات. يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر مريد للكائنات مدبر للحادثات. لا يجري في ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير خير أو شر نفع أو ضر إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدي المعيد الفاعل ما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته. ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته.

ولو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا، سميع بصير متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته. وما من حركة وسكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته قال اللّٰه تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)[١]الآية وقال أبو العتاهية:

---

[١] من الآية ١٦٤ البقرة والآية ١٩٠ آل عمران.

فيا عجبا كيف يعصي الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
ولله في كل تحريكة وتسكينة في الورى شاهد

وقال علي رضي اللّٰه تعالى عنه في بعض وصاياه لولده: اعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد لا يضاده في ملكه أحد.

وعنه عليه الصلاة والسلام كل ما يتصور في الأذهان فاللّٰه سبحانه بخلافه. وقال لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل ابن أنثى لو تطاول عمره إلى الغاية القصوى فللقبر آيل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوما سيعرف سعيه إذا حصلت عند الإله الحصائل

وروي أن النبي صلى اللّٰه تعالى عليه وآله وسلم قال وهو على المنبر: «إن أشعر كلمة قالتها العرب: ألا كل شيء ما خلا اللّٰه باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمداً رسول اللّٰه بعثه برسالته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في الحشر وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة اللّٰه تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق وأن الميزان حق، والصراط حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن اللّٰه تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي اللّٰه تعالى عنهم ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً به موقناً فهو من أهل الحق والسنة مفارق لعصابة

الضلال والبدعة رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبها إنه سميع مجيب.

فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا»اهـ.

هكذا ذكره شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي المولود سنة ٧٩٠هـ المتوفي سنة ٨٥٠هـ في كتابه المستطرف في كل فن مستظرف. والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وقال الشيخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي رحمه الله في كتابه «المواعظ والاعتبار» ج٢ ص٣٥٨-٣٦٢:

وحقيقة مذهب الأشعري: رحمه الله أنه سلك طريقاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الإثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه فمال إليه جماعة وعولوا على رأيه منهم القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المالكي وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الأسفرايني والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، والشيخ أبو حامد الشهرستاني، والإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، وغيرهم ممن يطول ذكره ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلوا له في مصنفات لا تكاد تحصر.

فانتشر مذهب أبي الحسن الأشعري في العراق من نحو سنة ثمانين وثلثمائة وانتقل منه إلى الشام فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك ابن عيسى بن درباس الماراني على هذا المذهب قد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق.

وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري وصار يحفظها صغار أولاده فلذلك

عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب ثم أيام مواليهم الملوك من الأتراك واتفق مع ذلك توجه أبي عبد الله محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق وأخذ عن أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري فلما عاد إلى بلاد المغرب وقام في المصامدة يفقههم ويعلمهم وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامتهم ثم مات فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن علي القيسي وتلقب بأمير المؤمنين وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده من بعده مدة سنين وتسموا بالموحدين.

فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت إذ هو عندهم الإمام المعلوم المهدي المعصوم فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلا الله خالقها سبحانه وتعالى كما هو معروف في كتب التاريخ فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام بحيث نسي غيره من المذاهب وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه إلا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل رضي الله عنه فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف لا يرون تأويل ما ورد من الصفات.

إلى أن كان بعد السبعمائة من سني الهجرة اشتهر بدمشق وأعمالها تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني فتصدى للانتصار لمذهب السلف وبالغ في الرد على مذهب الأشاعرة وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية فافترق الناس فريقان فريق يقتدي به ويعول على أقواله ويعمل برأيه ويرى أنه شيخ الإسلام وأجل حفاظ أهل الملة الإسلامية، وفريق يبدعه ويضلله ويزري عليه بإثباته الصفات وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع ولم يكن له فيه سلف وكانت له ولهم خطوب كثيرة وحسابه وحسابهم على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وله إلى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر[١].

---

[١] قلت وكثير بالمملكة العربية السعودية في عصرنا الحاضر. والله تعالى يهدينا إلى سواء السبيل فكلهم على هدى ورحمة فإنما الأعمال بالنيات والحمد لله رب العالمين. وكتب محمد المنتقى مصلياً ومسلماً على سيدنا محمد المصطفى.

هذا وبين الأشاعرة والماتريدية أتباع ابي منصور محمد بن محمد ابن محمود الماتريدي وهم طائفة الفقهاء الحنفية مقلدوا الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت وصاحبيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرمي ومحمد ابن الحسن الشيباني رضي الله عنهم من الخلاف في العقائد ما هو مشهور في موضعه وهو إذا تتبع يبلغ بضع عشرة مسألة كان بسببها في أول الأمر تباين وتنافر وقدح كل منهم في عقيدة الآخر إلا أن الأمر آل آخراً إلى الإغضاء ولله الحمد.

فهذا أعزك الله بيان ما كانت عليه عقائد الأمة من ابتداء الأمر إلى وقتنا هذا وقد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار وأجملت ما فصلوا فدونك طالب العلم تناول ما قد بذلت فيه جهدي وأطلت بسببه سهري وكدي في تصفيح دواوين الإسلام وكتب الأخبار فقد وصل إليك صفوا ونلته عضوا بلا تكلف مشقة ولا بذل مجهود ولكن الله يمن على من يشاء من عباده.

وأما ترجمته فكما يلي:

(أبو الحسن) علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم ابن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى واسمه عبد الله بن قيس الأشعري البصري ولد سنة ست وستين ومائتين وقيل سنة سبعين وتوفي ببغداد سنة بضع وثلاثين وثلاثمائة وقيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة سمع زكريا الساجي وأبا خليفة الجمحي وسهل ابن نوح ومحمد بن يعقوب المقري وعبد الرحمن بن خلف الضبي المصري وروى عنهم في تفسيره كثيراً وتلمذ لزوج أمه أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي واقتدى برأيه في الإعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة.

وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا ونادى بأعلى صوته من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى بالإبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة مبين لفضائحهم ومعايبهم.

وأخذ من حينئذ في الرد عليهم وسلك بعض طريق أبي محمد عبد

الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان وبنى على قواعده وصنف خمسة وخمسين تصنيفاً منها كتاب اللمع وكتاب الموجز وكتاب إيضاح البرهان وكتاب التبيين على أصول الدين وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل وكتاب الإبانة وكتاب تفسير القرآن يقال إنه في سبعين مجلداً.

وكانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة على عقبه وكانت نفقته في السنة سبعة عشر درهما وكانت فيه دعابة ومزح كثير وقال مسعود بن شيبة في كتاب التعليم كان حنفي المذهب معتزلي الكلام لأنه كان ربيب أبي علي الجبائي وهو الذي رباه وعلمه الكلام.

وذكر الخطيب أنه كان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي إسحاق المروزي الفقيه في جامع المنصور. وعن أبي بكر بن الصيرفي كان المعتزلة قد رفعوا رؤسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السماسم.

وجملة عقيدته أن الله تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة حي بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، وأن صفاته أزلية قائمة بذاته تعالى لا يقال هي هو ولا هي غيره ولا هي هو ولا غيره. وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات، وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح، وجوده وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص، وكلامه واحد هو أمر ونهي وخبر واستخبار ووعد ووعيد. وهذه الوجوه راجعة إلى اعتبارات في كلامه لا إلى نفس الكلام والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي فالمدلول وهو القرآن المقروء قديم أزلي، والدلالة وهي العبارات وهي القراءة مخلوقة محدثة.

قال: وفرق بين القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو كما فرق بين الذكر والمذكور قال: والكلام معنى قائم بالنفس والعبارة دالة على ما في النفس. وإنما تسمى العبارة كلاما مجازا قال: وأراد الله تعالى جميع الكائنات خيرها وشرها ونفعها وضرها ومال في كلامه إلى جواز تكليف ما لا يطاق لقوله إن الاستطاعة مع الفعل وهو مكلف بالفعل قبله وهو غير مستطيع قبله وهو غير مستطيع قبله على مذهبه.

قال: وجميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى مكتسبة للعبد والكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد. قال: والخالق هو الله تعالى حقيقة لا يشاركه في الخلق غيره فأخص وصفه هو القدرة والاختراع وهذا تفسير اسمه البارئ. قال: وكل موجود يصح أن يرى والله تعالى موجود فيصح أن يرى وقد صح السمع بأن المؤمنين يرونه في الدار الأخرى في الكتاب والسنة ولا يجوز أن يرى في مكان ولا صورة مقابلة واتصال شعاع فإن ذلك كله محال.

وماهية الرؤية له فيها رأيان: أحدهما أنه علم مخصوص يتعلق بالوجود دون العدم، والثاني: أنه إدراك وراء العلم وأثبت السمع والبصر صفتين أزليتين هما إدراكان وراء العلم وأثبت اليدين والوجه صفات خبرية ورد السمع بها فيجب الاعتراف به، وخالف المعتزلة في الوعد والوعيد والسمع والعقل من كل وجه.

وقال: الإيمان هو التصديق بالقلب والقول باللسان. والعمل بالأركان فروع الإيمان فمن صدق بالقلب أي أقر بوحدانية الله تعالى واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاؤوا به فهو مؤمن، وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة حكمه إلى الله إما أن يغفر له برحمته أو يشفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما أن يعذبه بعدله ثم يدخله الجنة برحمته ولا يخلد في النار مؤمن قال: ولا أقول إنه يجب على الله سبحانه قبول توبته بحكم العقل لأنه هو الموجب لا يجب عليه شيء أصلاً بل قد ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين.

وهو المالك لخلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلو أدخل الخلائق بأجمعهم النار لم يكن جوراً ولو أدخلهم الجنة لم يكن حيفاً ولا يتصور منه ظلم ولا ينسب إليه جور لأنه المالك المطلق والواجبات كلها سمعية فلا يوجب العقل شيئاً البتة ولا يقتضي تحسيناً ولا تقبيحاً؛ فمعرفة الله تعالى وشكر المنعم وإثابة الطائع وعقاب العاصي كل ذلك بحسب السمع دون العقل.

ولا يجب على الله شيء لا صلاح ولا أصلح ولا لطف بل الثواب والصلاح واللطف والنعم كلها تفضل من الله تعالى ولا يرجع إليه تعالى

نفع ولا ضر فلا ينتفع بشكر شاكر ولا يتضرر بكفر كافر بل يتعالى ويتقدس عن ذلك.

وبعث الرسل جائز لا واجب ولا مستحيل فإذا بعث اللّٰه تعالى الرسول وأيده بالمعجزة الخارقة للعادة وتحدى ودعا الناس وجب الإصغاء إليه والاستماع منه والامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه.

وكرامات الأولياء حق والإيمان بما جاء في القرآن والسنة من الإخبار عن الأمور الغائبة عنا مثل اللوح والقلم والعرش والكرسي والجنة والنار حق وصدق، وكذلك الإخبار عن الأمور التي ستقع في الآخرة مثل سؤال القبر والثواب والعقاب فيه والحشر والمعاد والميزان والصراط وانقسام فريق في الجنة وفريق في السعير كل ذلك حق وصدق يجب الإيمان والاعتراف به.

والإمامة تثبت بالاتفاق ولا اختيار دون النص والتعيين على واحد معين والأئمة مترتبون في الفضل ترتبهم في الإمامة قال: ولا أقول في عائشة وطلحة والزبير رضي اللّٰه عنهم إلا أنهم ترجعوا عن الخطأ، وأقول إن طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة، وأقول في معاوية وعمرو بن العاص أنهما بغيا على الإمام الحق علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنهم فقاتلهم مقاتلة أهل البغي، وأقول إن أهل النهروان الشراة هم المارقون عن الدين وأن علياً رضي اللّٰه عنه كان على الحق في جميع أحواله والحق معه حيث دار.

فهذه جملة من أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية والتي من جهر بخلافها أريق دمه والأشاعرة يسمون الصفاتية لإثباتهم صفات اللّٰه تعالى القديمة ثم افترقوا في الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة كالاستواء والنزول والإصبع واليد والقدم والصورة والجنب والمجيء على فرقتين فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ وفرقة لم يتعرضوا للتأويل وإلا صاروا إلى التشبيه ويقال لهؤلاء الأشعرية الأسرية فصار للمسلمين في ذلك خمسة أقوال: أحدها اعتقاد ما يفهم مثله من اللغة، وثانيها السكوت عنها مطلقاً، وثالثها: السكوت عنها بعد نفي إرادة الظاهر، ورابعها: حملها على المجاز. وخامسها: حملها على الاشتراك. ولكل فريق أدلة وحجاج تضمنتها كتب أصول الدين ولا يزالون

مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

(فصل) اعلم أن الله سبحانه طلب من الخلق معرفته بقوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون). قال ابن عباس وغيره يعرفون فخلق تعالى الخلق وتعرف إليهم بألسنة الشرائع المنزلة فعرفه من عرفه سبحانه منهم على ما عرفهم فيما تعرف به إليهم.

وقد كان الناس قبل إنزال الشرائع ببعثة الرسل عليهم السلام علمهم بالله تعالى إنما هو بطريق التنزيه له عن سمات الحدوث وعن التركيب وعن الافتقار ويصفونه سبحانه بالاقتدار المطلق هذا التنزيه هو المشهور عقلا ولا يتعداه عقل أصلاً فلما أنزل الله شريعته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأكمل دينه كان سبيل العارف بالله أن يجمع في معرفته بالله بين معرفتين: إحداهما: المعرفة التي تقتضيها الأدلة العقلية والأخرى المعرفة التي جاءت بها الإخبارات الإلهية وأن يرد علم ذلك إلى الله تعالى ويؤمن به ويكل ما جاءت به الشريعة على الوجه الذي أراده الله تعالى من غير تأويل بفكره ولا تحكم فيه برأيه وذلك أن الشرائع إنما أنزلها الله تعالى لعدم استقلال العقول البشرية بإدراك حقائق الأشياء على ما هي عليه في علم الله وأنى لها ذلك وقد تقيدت بما عندها من إطلاق ما هنالك فإن وهبها علماً بمراده من الأوضاع الشرعية ومنحها الاطلاع على حكمه في ذلك كان من فضله تعالى.

فلا يضيف العارف هذه المنة إلى فكره؛ فإن تنزيهه لربه تعالى بفكره يجب أن يكون مطابقاً لما أنزله سبحانه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة وإلا فهو تعالى منزه عن تنزيه عقول البشر بأفكارها فإنها مقيدة بأوطارها فتنزيهها كذلك مفيد بحسبها وبموجب أحكامها وآثارها إلا إذا خلت عن الهوى فإنها حينئذ يكشف الله لها الغطاء عن بصائرها ويهديها إلى الحق فتنزه الله تعالى عن التنزيهات العرفية بالأفكار العادية وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة في الصفات ونقلها وتبليغها من غير خلاف بينهم في ذلك ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث مصروفة عن احتمال

مشابهة الخلق لقول الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ولقول الله تعالى:

(قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد.)

***** **** *****

وقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنها ورغب أمته في تلاوتها حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شاهدة بتنزيه الله تعالى وعدم الشبه والمثل له سبحانه وسميت سورة الإخلاص لاشتمالها على الخلاص لتوحيد الله عن أن يشوبه ميل إلى تشبيهه بالخلق وأما الكاف التي في قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) فإنها زائدة وقد تقرر أن الكاف والمثل في كلام العرب أتيا للتشبيه فجمعهما الله تعالى ثم نفى بهما عنه ذلك فإذا ثبت إجماع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث ونقلها مع إجماعهم على أنها مصروفة عن التشبيه لم يبق في تعظيم الله تعالى بذكرها إلا نفي التعطيل لكون أعداء المرسلين سموا ربهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا فقال قوم من الكفار هو طبيعة وقال آخرون منهم هو علة إلى غير ذلك من إلحادهم في أسمائه سبحانه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صفات الله العلا ونقلها عنه أصحابه البررة ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين حتى انتهت إلينا وكل منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشيء منها مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ففهمنا من ذلك أن الله تعالى أراد بما نطق به رسوله صلى الله عليه وسلم من هذه الأحاديث وتناولها عنه الصحابة رضي الله عنهم وبلغوها لأمته أن يغص بها في حلوق الكافرين وأن يكون ذكرها نكتا في قلب كل ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع وعباد العلل فلذلك وصف الله تعالى في نفسه الكريمة بها في كتابه ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً بما صح عنه وثبت فدل

على أن المؤمن إذا اعتقد أن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الإثبات وشجاً في حلوق المعطلة.

وقد قال الشافعي رحمه: الإثبات أمكن نقله الخطابي ولم يبلغنا عن أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث والذي يمنع من تأويلها إجلال الله تعالى عن أن تضرب له الأمثال وأنه إذا نزل القرآن بصفة من صفات الله تعالى كقوله سبحانه: (يَدُ اللَّهِ فَوقَ أيديهِم) فإن نفس تلاوة هذا يفهم منها السمع معنى المراد به وكذا قوله: (بل يَدَاهُ مَبسُوطَتَان) عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم إياه إلى البخل فقال تعالى: (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) فإن نفس تلاوة هذا مبنية للمعنى المقصود.

وأيضاً فإن تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب الله تعالى فيها المثل نحو قولهم في قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) الاستواء: الاستيلاء كقولك استوى الأمير على البلد وأنشدوا قد استوى بشر على العراق فلزمهم تشبيه الباري تعالى ببشر وأهل الإثبات نزهوا جلال الله عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة ولا مجازاً وعلموا مع ذلك أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق وخلقه وتحرجوا أن يقولوا مشتركة لأن الله تعالى لا شريك له.

لذلك لم يتأول السلف شيئاً من أحاديث الصفات مع علمنا قطعاً أنها عندهم مصروفة عما يسبق إليه ظنون الجهال مع مشابهتها لصفات المخلوقين وتأمل تجد الله تعالى لما ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر والأنثى في قوله سبحانه:

(خَلَقَ لَكُمْ مِن أنفُسِكُم أزوَاجاً ومِنَ الأنعَامِ أزواجاً يَذرَؤُكُم فِيهِ). علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق فقال عز من قائل: (لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ).

واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد وكانوا يعدون سادة الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى وفي كل ذلك يظهر الله تعالى الحق وكان من قائميهم شنفاد واشنيس والمقنع وبابك وغيرهم.

وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خداشا وأبو مسلم السروح فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبشاع ظلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدي عنده حقيقة الدين إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار إذ نسبو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر، وقوم خرجوا إلى القول بادعاء النبوة لقوم سموهم به، وقوم سلكوا بهم القول بالحلول وسقوط الشرائع، وآخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وآخرون قالوا بل هي سبع عشرة صلاة في كل صلاة خمس عشر ركعة وهو قول عبد الله بن عمرو الحارث الكندي قبل أن يصير خارجيا صفريا.

وقد أظهر عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي الإسلام ليكيد أهله فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه وأحرق علي رضي الله عنه منهم طوائف أعلنوا بإلهيته ومن هذه الأصول حدثت الإسماعيلية والقرامطة.

والحق الذي لا ريب فيه أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجوهر لا سر تحته وهو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه ولم يكتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشريعة ولا كلمة ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ولد عم على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده صلى الله عليه وسلم سر ولا رمز

ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه ولو كتم شيئاً لما بلغ كما أمر ومن قال هذا فهو كافر بإجماع الأمة.

وأصل كل بدعة في الدين البعد عن كلام السلف والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول حتى بالغ القدري في القدر فجعل العبد خالقا لأفعاله فبالغ الجبري في مقابلته فسلب عنه الفعل والاختيار، وبالغ المعطل في التنزيه فسلب عن الله تعالى صفات الجلال ونعوت الكمال، وبالغ المشبه في مقابلته فجعله كواحد من البشر، وبالغ المرجئ في سلب العقاب، وبالغ المعتزلي في التخليد في العذاب، وبالغ الناصبي في دفع علي رضي الله عنه عن الإمامة، وبالغت الغلاة حتى جعلوه إلها، وبالغ السني في تقديم أبي بكر رضي الله عنه، وبالغ الرافضي في تأخيره حتى كفره.

وميدان الظن واسع وحكم الوهم غالب فتعارضت الظنون وكثرت الأوهام وبلغ كل فريق في الشر والعناد والبغي والفساد إلى أقصى غاية وأبعد نهاية وتباغضوا وتلاعنوا واستحلوا الأموال واستباحوا الدماء وانتصروا بالدول واستعانوا بالملوك؛ فلو كان أحدهم إذا بالغ في أمر نازع الآخر في القرب منه فإن الظن لا يبعد عن الظن كثيرا ولا ينتهي في المنازعة إلى الطرف الآخر من طرفي التقابل لكنهم أبوا إلا ما قدمنا ذكره من التدابر والتقاطع ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك.

قلت: وعلى من أراد التحقيق في عقيدة الأشعرية والقول الفصل في ذلك فعليه بكتاب الإبانة. من مؤلفاته الأخيرة.اهـ. غفر الله تعالى للجميع وكلهم على هدى من ربهم. إنما الأعمال بالنيات. والحمد لله تعالى.

أبو الحسن الأشعري
وعقيدته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: لما كان أكثر الناس في الأقطار الإسلامية ينتسب عقيدة إلى أبي الحسن الأشعري، ومع ذلك لا يعرف شيئاً عن أبي الحسن الأشعري. ولا عن عقيدته التي استقر عليها أمره أخيراً واستحق بها أن يكون من الأئمة المقتدى بهم، أحببنا أن نفيد أولئك عن حقائق هذا الإمام المجهول عند كثير ممن ينتسب إليه وينتحل عقيدته، حسب ما تتبعنا من المراجع المعتبرة.

وقبل كل شيء نتحف القارئ بنبذة قليلة من ترجمة الأشعري، فأقول وبالله أستعين.

التعريف بالإمام:

هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله ابن موسى الأشعري، ولد سنة ستين ومئتين من الهجرة النبوية، ترجمه أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي في كتابه «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري» والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» وابن خلكان في «وفيات الأعيان» والذهبي في «تاريخ الإسلام» وابن كثير في «البداية والنهاية» و«طبقات الشافعية» والتاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» وابن فرحون المالكي في «الديباج المذهب في أعيان أهل المذهب» ومرتضى الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين» وابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب في أعيان من ذهب» وغيرهم.

دخل هذا الإمام بغداد وأخذ الحديث عن الحافظ زكريا بن يحيى الساجي أحد أئمة الحديث والفقه[١]وعن أبي خليفة الجمحي وسهل بن سرح ومحمد بن يعقوب المقري، وعبد الرحمن بن خلف البصريين، وروى عنهم كثيراً في تفسيره «المختزن» وأخذ علم الكلام عن شيخه زوج أمه أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة.

ولما تبحر في كلام الاعتزال وبلغ فيه الغاية كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد فيها جواباً شافياً فتحير في ذلك.

فحكي عنه أنه قال: وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمت وصليت ركعتين وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم ونمت فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليك بسنتي فانتبهت!! وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار، فأثبته ونبذت ما سواه ورائي ظهريا.

قال أبو بكر أحمد بن علي بن ثابن المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ في الجزء الحادي عشر من تاريخه المشهور صفحة ٣٤٦ «أبو الحسن الأشعري المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة، والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة.

إلى أن قال: وكانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم.

قال ابن فرحون في الديباج: «أثنى على أبي الحسن الأشعري أبو محمد بن أبي زيد القيرواني وغيره من أئمة المسلمين اهـ».

وقال ابن العماد الحنبلي في الشذرات الجزء الثاني صفحة ٣٠٣:

وما بيض به أبن الحسن الأشعري وجوه أهل السنة النبوية وسود به رايات أهل الاعتزال والجهمية، فأبان به وجه الحق الأبلج، ولصدور أهل الإيمان والعرفان أثلج. مناظرته مع شيخه الجبائي التي بها قصم ظهر كل

---

[١] وأحد تلامذة الإمام أحمد بن حنبل وعنه أخذ تحرير مقالة أهل الحديث والسلف كما في التذكرة للذهبي ج٢ ص٧٠٩.

مبتدع مراء وهي أعني المناظرة كما قال ابن خلكان: «سأل أبو الحسن الأشعري أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة كان أحدهم مؤمناً براً تقياً، والثاني كان كافراً فاسقاً شقياً، والثالث كان صغيراً، فماتوا فكيف حالهم»؟ فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات. وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة. فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟

فقال الجبائي: لا!! لأنه يقال له: أخوك إنما وصل إلى هذه الدرجات بطاعاته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعري: فإن قال: ذلك التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة، فقال الجبائي: يقول الباري جل وعلا: كنت لو بقيت لعصيت وصرت مستحقاً للعذاب الأليم فراعيت مصلحتك. فقال الأشعري: فلو قال الأخ الأكبر يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني فانقطع الجبائي!!.

وقال ابن العماد: «وفي هذه المناظرة دلالة على أن الله تعالى خص من شاء برحمته واختص آخر بعذابه»اهـ.

وقال تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: أبو الحسن الأشعري كبير أهل السنة بعد الإمام أحمد بن حنبل وعقيدته وعقيدة الإمام أحمد رحمه الله واحدة لا شك في ذلك ولا ارتياب وبه صرح الأشعري في تصانيفه وذكره غير ما مرة من أن عقيدتي هي عقيدة الإمام المبجل أحمد بن حنبل، هذه عبارة الشيخ أبي الحسن في غير موضع من كلامه»اهـ.

وفضائل أبي الحسن الأشعري ومناقبه أكثر من أن يمكن حصرها في هذه العجالة ومن وقف على تواليفه بعد توبته من الاعتزال رأى أن الله تعالى قد أمده بمواد توفيقه، وأقامه لنصرة الحق والذب عن طريقه.

وقد تنازع فيه أهل المذاهب، فالمالكي يدعي أنه مالكي، والشافعي يزعم أنه شافعي، والحنفي كذلك، قال ابن عساكر: لقيت الشيخ الفاضل رافعا الجمال الفقيه فذكر لي عن شيوخه أن أبا الحسن الأشعري كان مالكياً فنسب من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقه في معرفة أصول

الدين من سائر المذاهب إلى الأشعري لكثرة تواليفه وكثرة قراءة الناس لها.

قال ابن فورك: توفي أبو الحسن الأشعري سنة ٣٢٤هـ اهـ.

وبعد ذكر هذه النتفة من ترجمة هذا الإمام نذكر فيما يلي إثبات رجوعه عن الاعتزال وإثبات نسبة (الإبانة) إليه ننقل ذلك من المراجع الموثوق بها. فنقول وبالله التوفيق.

رجوع أبي الحسن الأشعري عن الاعتزال إلى عقيدة السلف:

قال الحافظ مؤرخ الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ في كتابه «التبيين».

قال أبو بكر إسماعيل بن أبي محمد بن إسحق الأزدي القيرواني المعروف بابن عزرة: إن أبا الحسن الأشعري كان معتزلياً وإنه أقام على مذهب الاعتزال أربعين سنة، وكان لهم إماماً ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، فبعد ذلك خرج إلى الجامع بالبصرة فصعد المنبر بعد صلاة الجمعة، وقال: معاشر الناس إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق، فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده، كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس، فمنها كتاب اللمع وغيره من تواليفه الآتي ذكر بعضها قريباً إن شاء الله: فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماماً حتى نسب مذهبهم إليه فصار عند المعتزلة ككتابي أسلم وأظهر عوار ما تركه فهو أعدى الخلق إلى أهل الذمة.

وكذلك أبو الحسن الأشعري أعدى الخلق إلى المعتزلة فهم يشنعون له وينسبون إليه الأباطيل وليس طول مقام أبي الحسن الأشعري على مذهب المعتزلة، مما يفضي به إلى انحطاط المنزلة، بل يقضي له في معرفة الأصول بعلو المرتبة ويدل عند ذوي البصائر له على سمو المنقبة، لأن من

رجع عن مذهب كان بعواره أخبر وعلى رد شبه أهله وكشف تمويهاتهم أقدر، ويتبيين ما يلبسون به لمن يهتدي باستبصاره أبصر، فاستراحت من يعيره بذلك كاستراحة مناظر هارون بن موسى الأعور.

وقصته أن هارون الأعور كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وحفظ القرآن وضبطه وحفظ النحو، وناظره إنسان يوماً في مسألة فغلبه هارون فلم يدر المغلوب ما يصنع فقال له: أنت كنت يهودياً فأسلمت فقال له هارون فبئس ما صنعت فغلبه هارون في هذا.

واتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن الأشعري كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين عن الملة - سيفاً مسلولاً ومن طعن فيه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة، ولم يكن أبو الحسن الأشعري أول متكلم بلسان أهل السنة وإنما جرى على سنن غيره وعلى نصرة مذهب معروف، فزاده حجة وبياناً، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً انفرد به وليس له في المذهب أكثر من بسطه وشرحه كغيره من الأئمة.

وقال أبو بكر بن فورك: رجع أبو الحسن الأشعري عن الاعتزال إلى مذهب أهل السنة سنة ٣٠٠هـ.

وممن قال من العلماء برجوع الأشعري عن الاعتزال أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان الشافعي المتوفى سنة ٦٨١ هـ قال في «وفيات الأعيان» الجزء الثاني صفحة ٤٤٦: كان أبو الحسن الأشعري معتزلياً ثم تاب.

ومنهم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤هـ.

قال في البداية والنهاية الجزء الحادي عشر صفحة ١٨٧: «إن الأشعري كان معتزلياً فتاب منه بالبصرة فوق المنبر ثم أظهر فضائح المعتزلة وقبائحهم».

ومنهم شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي الشافعي

الشهير بالذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ قال في كتابه «العلو للعلي الغفار»:

«كان أبو الحسن أولاً معتزلياً أخذ عن أبي علي الجبائي ثم نابذه ورد عليه وصار متكلما للسنة، ووافق أئمة الحديث، فلو انتهى أصحابنا المتكلمون إلى مقالة أبي الحسن ولزموها - لأحسنوا ولكنهم خاضوا كخوض حكماء الأوائل في الأشياء ومشوا خلف المنطق فلا قوة إلا بالله».

وممن قال برجوعه تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧١هـ قال في طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الثاني صفحة ٢٤٦: أقام أبو الحسن على الاعتزال أربعين سنة حتى صار للمعتزلة إماماً فلما أراده الله لنصرة دينه وشرح صدره لاتباع الحق غاب عن الناس في بيته، وذكر كلام ابن عساكر المتقدم بحروفه.

ومنهم برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المالكي المتوفى سنة ٧٩٩هـ قال في كتابه: «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» صفحة ١٩٣: كان أبو الحسن الأشعري في ابتداء أمره معتزلياً، ثم رجع إلى هذا المذهب الحق، ومذهب أهل السنة فكثر التعجب منه وسئل عن ذلك فأخبر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان فأمره بالرجوع إلى الحق ونصره، فكان ذلك والحمد لله تعالى.

ومنهم السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى الحنفي المتوفى سنة ١١٤٥هـ قال في كتابه: «إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين» الجزء الثاني صفحة ٣: قال: أبو الحسن الأشعري أخذ علم الكلام عن الشيخ أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة. ثم فارقه لمنام رآه، ورجع عن الاعتزال، وأظهر ذلك إظهاراً فصعد منبر البصرة يوم الجمعة ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن، وإن الله لا يرى بالدار الآخرة بالأبصار وأن العباد يخلقون أفعالهم.

وها أنا تائب من الاعتزال معتقداً الرد على المعتزلة ثم شرع في الرد عليهم والتصنيف على خلافهم.

ثم قال: قال ابن كثير: ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة

أحوال:

أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة.

والحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبعة، وهي الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، وتأويل الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك[١].

والحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخراً.

وبهذه النقول عن هؤلاء الأعلام ثبت ثبوتاً لا شك فيه ولا مرية أن أبا الحسن الأشعري استقر أمره أخيراً بعد أن كان معتزلياً على عقيدة السلف التي جاء بها القرآن الكريم وسنة النبي عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم.

كتاب الإبانة

وبعد إتمام هذا الحديث حول رجوعة عن الاعتزال نقرأ بحثاً ثانياً في صحة نسبة «الإبانة في أصول الديانة» إليه رداً على بعض الأغمار الذين زعموا أنها مدسوسة عليه - وهذا هو بيت القصيد فنقول: وبالله نستعين.

قال الحافظ ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري» ذكر ابن حزم الظاهري أن لأبي الحسن الأشعري خمسة وخمسين تصنيفا، ثم قال: ترك ابن حزم من عدد مصنفاته أكثر من مقدار النصف، وبعد ذلك سردها فقال:

منها كتاب اللمع، وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب: «كشف الأسرار وهتك الأسرار».

---

[١] وفي هذا الطور سلك طريقة ابن كلاب أبي محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب البصري المتوفى سنة ٢٤٠هـ راجع كتاب العقل والنقل لابن تيمية ج٢ ص٥ طبعة حامد فقي رحمه الله.

ومنها تفسيره المختزن، وهو خمسمائة مجلد[١] -على ما يزعم- لم يترك فيه آية تعلق بها بدعي إلا أبطل تعلقه بها، وجعلها حجة لأهل الحق، وبين المجمل وشرح المشكل ونقض فيه ما حرفه الجبائي والبلخي في تفسيريهما.

ومنها الفصول في الرد على الملحدين والخارجين على الملة كالفلاسفة والطبائعيين والدهريين وأهل التشبيه.

ومنها مقالات المسلمين[٢] استوعب فيه جميع اختلافهم ومقالاتهم وذكرها الحافظ ابن عساكر بأسمائها وموضوعاتها في كتابه التبيين من صفحة ١٢٨ إلى صفحة ١٣٦، وقد اطلعت أنا الجامع لهذه الرسالة على ثلاثة من الكتب المذكورة وهي مطبوعة: اللمع، والإبانة، والمقالات الإسلامية.

وقال ابن عساكر في صفحة ١٢٨ من التبيين: وتصانيف أبي الحسن الأشعري بين أهل العلم مشهورة معروفة، وبالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفة ومن وقف على كتابه المسمى بالإبانة، عرف موضعه من العلم والديانة.

ثم قال في صفحة ١٥٢: فإذا كان أبو الحسن كما ذكر عنه من حسن الاعتقاد، مستصوب المذهب عند أهل المعرفة بالعلم والانتقاد يوافقه في أكثر ما يذهب إليه أكابر العباد، ولا يقدح في معتقده غير أهل الجهل والعناد، فلابد أن نحكي عنه معتقده على وجهه بالأمانة، ونتجنب أن نزيد فيه أو ننقص منه تركاً للخيانة، لتعلم حقيقة حاله في صحة عقيدته في أصول الديانة، فاسمع ما ذكره في أول كتابه الذي سماه بالإبانة وذكر ما يأتي في آخر الرسالة إن شاء الله تعالى:

ثم قال في صفحة ١٧١ في جملة أبيات نسبها لبعض المعاصرين له:

لو لم يصنف عمره ... غير الإبانة واللمع

وممن عزا الإبانة إلى أبي الحسن الأشعري، الحافظ الكبير أبو بكر

---

[١] المجلد عندهم يطلق على الجزء المستقل وعلى كراس كبير أوصغر

[٢] وقد عقد في المقالات الإسلاميه فصلا بعنوان حكاية: «جملةقول أصحاب الحديث وأهل السنة» قال في آخره «وبك ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب.» فراجعه إن شئت ج ١ ص ٣٢٠.

أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الشافعي المتوفى سنة ٤٥٨ قال في كتاب (الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد) في باب القول في القرآن صفحة ٣١، ذكر الشافعي رحمه الله ما دل على أن ما نتلوه من القرآن بألسنتنا ونسمعه بآذاننا ونكتبه في مصاحفنا يسمى كلام الله عز وجل، وأن الله عز وجل كلم به عباده بأن أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم وبمعناه ذكره أيضاً علي بن إسماعيل في كتاب الإبانة.

وقال في صفحة ٣٢ من الكتاب المذكور آنفاً: قال أبو الحسن علي بن إسماعيل في كتابه، يعني الإبانة:

(فإن قال قائل: تقولون: إن كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ، قيل له نقول ذلك، لأن الله قال: (بل هو قرآن مجيد* في لوح محفوظ)[١]فالقرآن في اللوح المحفوظ وهو في صدور الذين أوتوا العلم، وهو متلو بالألسنة قال تعالى: (لا تحرك به لسانك)[٢]والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة محفوظ في صدورنا في الحقيقة متلو بألسنتنا في الحقيقة مسموع لنا في الحقيقة كما قال تعالى: (فأجره حتى يسمع كلام الله)[٣]ثم قال في صفحة٣٦ بعد سرد الأدلة على أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

وقد احتج على بن إسماعيل الأشعري رحمه الله بهذه الفصول.اهـ من نسخة مخطوطة يرجع تاريخ خطها إلى سنة ١٠٨٦هـ[٤].

وممن ذكر الإبانة وعزاها لأبي الحسن الأشعري الحافظ المعروف بالذهبي قال في كتابه: «العلو للعلي الغفار» صفحة ٢٧٨: قال الأشعري في كتاب (الإبانة في أصول الديانة) له في باب الإستواء.

فإن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟

قيل: نقول: إن الله مستوٍ على عرشه كما قال: (الرحمن على العرش

---

[١] البروج: ٢١ ، ٢٢.

[٢] القيامة: ١٦.

[٣] التوبة: ٦.

[٤] وهي محفوظة لدى الأخ إسماعيل الأنصاري طبعت في مصر قريباً.

استوى)[١]إلى آخر ما في الإبانة.

ثم قال، وكتاب الإبانة من أشهر تصانيف أبي الحسن الأشعري شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ونسخه بخطه الإمام محيي الدين النووي،

وذكر الذهبي عن الحافظ أبي العباس أحمد بن ثابت الطرقي أنه قال: قرأت في كتاب أبي الحسن الأشعري الموسوم بالإبانة أدلة على إثبات الاستواء. ونقل عن أبي علي الدقاق أنه سمع زاهر بن أحمد الفقيه يقول: مات الأشعري ورأسه في حجري، فكان يقول شيئا في حال نزعه: لعن الله المعتزلة موهوا ومخرقوا.اهـ كلام الذهبي.

ومما نسبها إلى أبي الحسن الأشعري ابن فرحون المالكي قال في كتاب الديباج صفحة١٩٣ إلى ص١٩٤ ولأبي الحسن الأشعري كتب منها. كتاب اللمع الكبير، وكتاب اللمع الصغير، وكتاب الإبانة في أصول الديانة.اهـ.

وممن عزاها لأبي الحسن الأشعري أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٩٨هـ.

قال في الجزء الثاني من كتابه، «شذرات الذهب في أعيان من ذهب» صفحة٣٠٣، قال أبو الحسن الأشعري في كتابه «الإبانة في أصول الديانة» وهو آخر كتاب صنفه، وعليه يعتمد أصحابه في الذب عنه عند من يطعن عليه، ثم ذكر فصلاً كاملاً من الإبانة.

وممن عزاها لأبي الحسن الأشعري السيد مرتضى الزبيدي.

قال في (إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين في الجزء الثاني صفحة٢) قال: صنف أبو الحسن الأشعري بعد رجوعه من الاعتزال (الموجز) وهو في ثلاث مجلدات، كتاب مفيد في الرد على الجهمية والمعتزلة، ومقالات الإسلاميين، وكتاب الإبانة.

قد تقدمت الحكاية عن ابن كثير أن الإبانة هي آخر كتاب صنفه أبو الحسن الأشعري.

وممن ذكر أن الإبانة تأليف أبي الحسن الأشعري أبو القاسم عبد الملك

---

[١] طه: ٥.

ابن عيسى بن درباس الشافعي قال في رسالته: (الذي عن أبي الحسن الأشعري): اعلموا معشر الإخوان أن كتاب الإبانة عن أصول الديانة، الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقده وبه كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه من الاعتزال بمن الله ولطفه، وكل مقالة تنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله سبحانه منها وكيف وقد نص فيه على أنه ديانته التي يدين الله سبحانه بها.

وروى وأثبت أنه ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين.

وأن ما فيه هو الذي يدل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهل يسوغ أن يقال: إنه رجع عن هذا إلى غيره فإلى ماذا يرجع أتراه يرجع عن كتاب الله وسنة نبي الله خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون وأئمة الحديث المرضيون وقد علم أنه مذهبهم، ورواه عنهم؟؟!!! هذا لعمري ما لا يليق نسبته إلى عوام المسلمين وكيف بأئمة الدين. أو هل يقال: إنه جهل الأمر فيما نقله عن السلف الماضين مع إفنائه جل عمره في استقراء المذاهب وتعرف الديانات، هذا مما لا يتوهمه منصف ولا يزعمه مكابر مسرف، وقد ذكر الإبانة واعتمد عليها وأثبتها للإمام أبي الحسن الأشعري وأثنى عليه بما ذكره فيها وبرأه من كل بدعة نسبت إليه، ونقل منها إلى تصنيفه جماعة من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام وأئمة القراء وحفاظ الحديث وغيرهم.

وذكر ابن درباس طائفة من الذين قدمنا ذكرهم وزاد الحافظ أبا العباس أحمد بن ثابت العراقي، وذكر عنه أنه قال في بيان مسألة الاستواء من تأليفه: رأيت هؤلاء الجهمية ينتمون في نفي علو الله على العرش وتأويل الاستواء إلى أبي الحسن الأشعري، وما هذا بأول باطل ادعوه وكذب تعاطوه، فقد قرأت في كتابه الموسوم بالإبانة عن أصول الديانة أدلة من جملة ما ذكرته على إثبات الاستواء، ومنهم الإمام الأستاذ الحافظ أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الصابوني ذكر عنه أنه ما كان يخرج إلى مجلس درسه إلا بيده كتاب الإبانة لأبي الحسن

الأشعري ويظهر الإعجاب به، ويقول: ما الذي ينكر على من هذا الكتاب شرح مذهبه (هذا قول الإمام أبي عثمان وهو من أعيان أهل الأثر بخراسان).

ومنهم إمام القراء أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الفارسي ذكر الإمام أبا الحسن الأشعري رحمة الله عليه، فقال: وله كتاب في السنة سماه كتاب الإبانة صنفه ببغداد لما دخلها، وذكر ابن درباس أنه وجد كتاب الإبانة في كتب أبي الفتح نصر المقدسي[١]رحمه الله ببيت المقدس وقال: رأيت في بعض تآليفه في الأصول فصولا منها بخطه.

ومنهم لافقيه أبو المعالي مجلي صاحب كتاب الذخائر في الفقه، قال ابن درباس أنبأني غير واحد عن الحافظ أبي محمد المبارك بن علي البغدادي ونقلته أنا من خطه في آخر كتاب الإبانة قال: نقلت هذا الكتاب جميعه من نسخة كانت مع الشيخ الفقيه المجلي الشافعي أخرجها من مجلدة فنقلتها وعارضت بها، وكان رحمه الله يعتمد عليها وعلى ما ذكره فيها، ويقول: لله من صنفه؛ ويناظر على ذلك من ينكره وذكر ذلك لي وشافهني به قال: هذا مذهبي وإليه أذهب نقلت هذا في سنة ٥٤٠هـ بمكة وهذا آخر ما نقلت من خط ابن الطباخ.

وذكر فيمن عزاها إلى أبي الحسن أبا محمد بن علي البغدادي نزيل مكة قال ابن درباس: شاهدت نسخة من كتاب الإبانة بخطه من أوله إلى آخره، وهي بيد شيخنا الإمام رئيس العلماء الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن بن المفضل المقدسي ونسخت منها نسخة، وقابلتها عليها بعد أن كنت كتبت نسخة أخرى مما وجدته في كتاب الإمام نصر المقدسي ببيت المقدس ولقد عرضها بعض أصحابنا على عظيم من عظماء الجهمية المنتمين افتراء إلى أبي الحسن الأشعري ببيت المقدس فأنكرها وجحدها وقال: ما سمعنا بها قط ولا هي من تصنيفه واجتهد آخراً في إعمال رويته ليزيل الشبهة بفطنته، فقال بعد تحريك لحيته لعله ألفها لما كان حشوياً، قال ابن درباس فما دريت من أي أمريه أعجب، أمن جهله بالكتاب مع شهرته

---

[١] المتوفى سنة ٤٩٠هـ.

وكثرة من ذكره في تصانيفه من العلماء، أو من جهله بحال شيخه الذي يفتري عليه بانتمائه إليه واشتهاره قبل توبته من الاعتزال بين الأمة عالمها وجاهلها.

فإذا كانوا بحال من ينتمون إليه بهذه المثابة فكيف يكونون بحال السلف الماضين وأئمة الدين من الصحابة والتابعين وأعلام الفقهاء والمحدثين وهم لا يلوون على كتبهم ولا ينظرون في آثارهم وهم والله بذلك أجهل وأجهل كيف لا وقد قنع بعض من ينتمي منهم إلى أبي الحسن الأشعري بمجرد دعواه وهو في الحقيقة مخالف لمقالة أبي الحسن التي رجع إليها واعتمد في تدينه عليها قد ذهب صاحب التأليف إلى المقالة الأولى. وكان خلاف ذلك أحرى به وأولى لتستمر القاعدة وتصير الكلمة واحدة.اهـ كلام ابن درباس رحمه الله.

وممن ذكر الإبانة ونسبها إلى أبي الحسن الأشعري تقي الدبن أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الشهير بابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ. قال في الفتوى الحموية الكبرى صفحة.٧: قال أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه الإبانة في أصول الديانة، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه فقال: فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة وذكر ما في أول كتاب الإبانة بحروفه وسيأتي ذكره إن شاء الله قريباً.

وممن عزاها إلى أبي الحسن الأشعري شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١. قال في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية الطبعة الهندية صفحة١١١ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولما رجع الأشعري عن مذهب المعتزلة سلك طريق أهل السنة والحديث وانتسب إلى الإمام أحمد بن حنبل كما قد ذكر ذلك في كتبه كلها كالإبانة والموجز والمقالات وغيرها، ثم قال ابن القيم: وأبو الحسن الأشعري وأئمة أصحابه كالحسن الطبري وأبي عبد الله بن المجاهد والقاضي أبي بكر الباقلاني متفقون على إثبات الصفات الخبرية التي ذكرت في القرآن كالاستواء والوجه واليدين، وعلى إبطال تأويلها وليس للأشعري في ذلك

قولان أصلاً، ولم يذكر أحد عن الأشعري في ذلك قولين ولكن لاتباعه قولان في ذلك.

ولأبي المعالي الجويني في تأويلها قولان: أولها في الإرشاد ورجع عن تأويلها في رسالته النظامية[١]وحرمه، ونقل إجماع السلف على تحريمه وأنه ليس بواجب ولا جائز، ثم ذكر ابن القيم قول أبي الحسن الأشعري إمام الطائفة الأشعرية، قال: نذكر كلامه فيما وقفنا عليه من كتبه كالموجز والإبانة والمقالات.

وقال ابن القيم في قصيدته النونية التي سماها الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية الطبعة المصرية صفحة ٦٨.

والأشعري قال: تفسير استوى بحقيقة استولى من البهتان
هو قول أهل الإعتزال وقول أتباع لجهم وهو ذو بطلان
في كتبه قد قال ذا من موجز وإبانة ومقالة ببيان

وقال في صفحة ٦٩ من الكتاب المذكور آنفا:

وحكى ابن عبد البر في تمهيده وكتاب الإستذكار غير جبان
إجماع أهل العلم أن الله فو ق العرش بالإيضاح والبرهان
وأتى هناك بما شفى أهل الهدى لكنه مرض على العميان
وكذا علي الأشعري فإنه في كتبه قد جاء بالتبيان
من موجز وإبانة ومقالة ورسائل للثغر ذات بيان
وأتى بتقرير استواء الرب فو ق العرش بالإيضاح والبرهان
وأتى بتقرير العلو بأحسن تقرير فانظر كتبه بعيان

وقد أكد هذه النقول الثابتة في توبة أبي الحسن الأشعري من التعطيل والتأويل السلفي الكبير محب الدين الخطيب في تعليقه على المنتقى مختصر منهاج السنة لابن تيمية حيث قال: إن الأشعرية منسوبون إلى أبي الحسن الأشعري، وقد علمت أن أبا الحسن الأشعري كانت له ثلاثة أطوار. أولها: انتماؤه إلى المعتزلة،

---

[١] راجع ص٢٣ من النظامية طبعة سنة ١٩٤٨م بمطبعة الأنوار بالقاهرة تجد ما ذكره ابن القيم عن رجوع الجويني إلى عقيدة السلف.

والثاني: خروجه عليهم ومعارضته لهم بأساليب متوسطة بين أساليبهم ومذهب السلف. والطور الثالث: انتقاله إلى مذهب السلف وتأليفه في ذلك كتاب الإبانة وأمثاله. وقد أراد أن يلقى الله على ذلك وقال في موضع آخر: أما الأشعرية - أي المذهب المنسوب إلى أبي الحسن الأشعري في علم الكلام، فكما أنه لا يمثل الأشعري في علم الكلام فكما أنه لا يمثل الأشعري في طور اعتزاله فإنه ليس من الإنصاف أن يلصق به فيما أراد أن يلقى الله عليه بل هو مستمد من أقواله التي كان عليها في الطور الثاني ثم عدل عن كثير منها في آخرته التي أتمها الله عليه بالحسنى إلى أن قال: وأبو الحسن الأشعري من كبار أئمة الكلام في الإسلام.

نشأ في أول أمره على الاعتزال وتتلمذ فيه على الجبائي، ثم أيقظ الله بصيرته وهو في منتصف عمره وبداية نضجه سنة ٣٠٤هـ. فأعلن رجوعه عن ضلالة الاعتزال، ومضى في هذا الطور الثاني نشيطاً يؤلف ويناظر ويلقي الدروس في الرد على المعتزلة سالكاً طريقاً وسطاً بين طريقة الجدل والتأويل وطريقة السلف ثم محض طريقته وأخلصها لله بالرجوع الكامل إلى طريقة السلف في إثبات كل ما ثبت بالنص من أمور الغيب التي أوجب الله على عباده إخلاص الإيمان بها وكتب بذلك كتبه الأخيرة ومنها في أيدي الناس كتاب الإبانة وقد نص على أنها آخر كتبه قوة ما أراد أن يلقى الله عليه وكل ما خالف ذلك مما ينسب إليه أو صارت تقول به الأشعرية فالأشعري رجع عنه إلى ما في كتاب الإبانة وأمثاله ثم قال: إن أقوال الأشعري إنما تطورت بتطوره الفكري من الاعتزال إلى الجدل الكلامي مع المعتزلة تزييفاً لمقالاتهم ثم أحسن الله خاتمته بالرجوع إلى مذهب السلف خالصاً صافياً. انتهى ص٤١-٤٣ من المنتقى.

قلت: وهذه نقول الأئمة الأعلام أعلام الإسلام قد تضمنت بالصراحة التي لا يتناطح عليها عنزان، ولا يمتري فيها اثنان أن كتاب الإبانة ليس مدسوساً على أبي الحسن الأشعري كما زعمه بعض الأغمار من المقلدة بل هو من تواليفه التي ألفها أخيراً واستقر أمره على ما فيها من عقيدة السلف التي جاءت في القرآن الكريم وسنة النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وبعد هذه النقول الدالة دلالة واضحة على صحة نسبة الإبانة إلى أبي الحسن الأشعري وأنها آخر كتاب صنفه أذكر للقارئ الكريم نموذجاً من عقيدة هذا الإمام

التي رجع إليها كما في إبانته ومقالاته أذكره بفصها ونصها ليظهر لكل منصف قرأها بفهم دون تعصب أن أبا الحسن الأشعري تاب من التعطيل والتحريف والتأويل، كما أنه لم يسبق عليه أن كان صاحب تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل بل هو مثبت ومعتقد كل ما أخبر الله به عن نفسه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى في كتابه أو أخبر به عنه نبيه عليه الصلاة والسلام على الأسس الثلاثة التي اشتملت عليها آية سورة الشورى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِير) وآية سورة طه: (ولا يُحيطُونَ به علماً) الأساس الأوَّل تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات في جميع صفاته وأسمائه وذاته، وإلى هذا الأساس الإشارة بقوله تعالى: (ليس كمثله شيء) والأساس الثاني إثبات جميع صفات الله العلي وأسمائه الحسنى وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: (وهو السميع البصير) والأساس الثالث: اليأس وعدم الطمع من إدراكه كيفية صفات الله وأسمائه كما أنه لا يطمع أي أحد من المخلوقات في إدراك كيفية ذات الله تعالى وإليه الإشارة بقوله تعالى: (ولا يحيطون به علماً) فهاك مجمل عقيدة أبي الحسن الأشعري في إبانته التي هي آخر كتاب صنفه قال في أولها: «باب في إبانة قول أهل الحق والسنة».

فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون. قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ولما خالف قوله مخالفون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع فيه بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم مفخم.

وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءوا به من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرد من ذلك شيئاً.

وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله مستو على عرشه كما قال:

(الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى)[١].

وأن له وجهاً كما قال: (وَيَبْقَى وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكرَامِ)[٢].

وأن له يدين بلا كيف كما قال: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)[٣]وكما قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)[٤].

وأن له عينين بلا كيف كما قال: (تَجْرِي بأعيُنِنَا)[٥].

وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً.

وأن لله علماً كما قال: (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)[٦]وكما قال: (وَمَا تَحْمِلُ مِن أُنْثَى ولا تَضَعُ إلا بِعِلْمِهِ)[٧].

ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج.

ونثبت أن لله قوة كما قال: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أن اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُم هُوَ

[١] طه: ٥.

[٢] الرحمن: ٢٧.

[٣] ص:٧٥.

[٤] المائدة: ٦٤.

[٥] القمر: ١٤.

[٦] النساء: ١٦٦.

[٧] فاطر: ١١، وفصلت: ٤٧.

أشَدُّ مِنْهُم قُوَّة)[١]ونقول أن كلام الله غير مخلوق وأنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن كما قال: (إنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذَا أرَدْنَاهُ أن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون)[٢].

وأنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله.

وأن الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله ولا يستغني عن الله ولا يقدر على الخروج عن علم الله عز وجل، وأنه لا خالق إلا الله، وأن أعمال العبد مخلوقة لله مقدرة كما قال:

(واللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تعْمَلُونَ)[٣]وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون كما قال: (هَلْ مِن خَالِقٍ غيْرُ اللَّهِ)[٤]وكما قال: (لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٥]وكما قال: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ)[٦] وكما قال: (أم خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أم هُمُ الخَالِقُونَ)[٧].

وهذا في كتاب الله كثير، وأن الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر لهم وأصلحهم وهداهم وأضل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف لهم بالآيات. كزعم أهل الزيغ والطغيان ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين، ولو هداهم لكانوا مهتدين.

وأن الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وخذلهم وطبع على قلوبهم.

---

[١] فصلت: ١٥.

[٢] النحل: ٤٠.

[٣] الصافات: ٩٦.

[٤] فاطر: ٣.

[٥] النحل: ٢٠.

[٦] النحل: ١٧.

[٧] الطور: ٣٥.

وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره، وإنا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره، حلوه ومره، ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا.

وأن العباد لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً إلا بالله كما قال عز وجل.

ونلجأ في أمورنا إلى الله ونثبت الحاجة والفقر في كل وقت إليه.

ونقول إن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال بخلق القرآن فهو كافر.

وندين بأن الله تعالى يُرى في الآخرة بالأبصار كما يُرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونقول: إن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة كما قال عز وجل:

(كَلا إنَّهم عَنْ ربِّهِم يَومَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)[١].

وأن موسى عليه السلام سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكاً فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا.

وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون.

ونقول إن كل من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبههما مستحلاً لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً.

ونقول إن الإسلام أوسع من الإيمان وليس كل إسلام إيماناً.

وندين لله عز وجل بأنه يقلب القلوب بين إصبعين من أصابع الله عز وجل.

وأنه عز وجل يضع السموات على إصبع والأرضين على إصبع كما جاءت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة ولا ناراً إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة.

ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين.

ونقول إن الله عز وجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا[٢]بشفاعة

---

[١] المطففين: ١٥.

[٢] امتحشوا: احترقوا.

الرسول صلى الله عليه وسلم تصديقاً لما جاءت به الروايات عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ونؤمن بعذاب القبر، وبالحوض.

وأن الميزان حق، والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف ويحاسب المؤمنين.

وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

ونسلم الروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وندين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه عليه السلام ونثني عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم أجمعين.

ونقول إن الإمام الفاضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضوان الله عليه.

وإن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين وقدمه المسلمون بالإمامة كما قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسموه جميعهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه وإن الذين قاتلوه، قاتلوه ظلماً وعدواناً.

ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة النبوة.

ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها. ونتولى سائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ونكف عما شجر بينهم.

وندين لله بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون فضلاء لا يوازيهم في الفضل غيرهم.

ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب عز وجل يقول هل من سائل، هل من مستغفر، وبسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافاً لما قال أهل الزيغ والتضليل، ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة

نبينا وإجماع المسلمين وما كان في معناه: ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا به، ولا نقول على الله ما لا نعلم.

ونقول إن الله عز وجل يجيء يوم القيامة كما قال:

(وجَاء ربُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)[١].

وأن الله عز وجل يقرب من عباده كيف شاء كما قال: (ونَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ)[٢]وكما قال: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى[٣] * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدْنَى)[٤].

ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل بر وغيره. كما روي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصلي خلف الحجاج.

وأن المسح على الخفين سنة في الحضر والسفر خلافاً لمن أنكر ذلك. ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة.

وندين بإنكار الخروج بالسيف وترك القتال في الفتنة ونقر بخروج الدجال كما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونؤمن بعذاب القبر ونكير ومنكر ومساءلتهما المدفونين بقبورهم ونصدق بحديث المعراج.

ونصحح كثيراً من الرؤيا في المنام ونقر أن لذلك تفسيراً.

ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم: ونؤمن أن الله ينفعهم بذلك، ونصدق بأن في الدنيا سحرة وسحراً، وأن السحر كائن موجود في الدنيا.

وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم وتوارثهم.

ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان، وأن من مات وقتل فبأجله مات وقتل، وأن الأرزاق من قبل الله يرزقها عباده حلالاً وحراماً وأن الشيطان يوسوس للإنسان

---

[١] الفجر: ٢٢.

[٢] ق: ١٦.

[٣] الضمائر في هذه الآية من سورة النجم عائدة على جبريل عليه السلام.

[٣] النجم: ٨، ٩.

ويشككه ويتخبطه خلافاً لقول المعتزلة والجهمية كما قال الله عز وجل:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَى لا يَقُومُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ)[٤]وكما قال: (مِن شَرِّ الوَسْوَاس الخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ)[٥].

ونقول إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله عز وجل بآيات يظهرها عليهم. وقولنا في أطفال المشركين أن الله يؤجج لهم في الآخرة ناراً ثم يقول لهم: اقتحموها كما جاءت بذلك الرواية. وندين لله عز وجل بأنه يعلم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون وما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين. ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الهوى.

انتهى بحروفه

---

(١) البقرة: ٢٧٥

(٢) الناس: ٤-٦

وبعد مجمل عقيدة أبي الحسن الأشعري التي دونها في إبانته نذكر ما سطره بنانه في كتابه «مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين» تحت هذا العنوان «هذه حكاية جملة أقوال أصحاب الحديث وأهل السنة» فنقول: قال أبو الحسن: جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله. وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يردون من ذلك شيئاً. وأن الله سبحانه إله واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله سبحانه على عرشه كما قال: (الرَّحمَن عَلَ العَرْشِ استَوى).

وأن له يدين بلا كيف كما قال: (خَلَقْتُ بِيدَيَّ) وكما قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان) وأن له عينين بلا كيف كما قال: (تَجْرِي بَأعيُنِنَا) وأن له وجهاً كما قال: (ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرَامِ) وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله[١]كما قالت المعتزلة والخوارج.

وأقروا أن لله سبحانه علماً كما قال: (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) وكما قال ١١:٣٥ (ومَا تَحْمِلُ مِن أُنثَى وَلا تَضَعُ إلا بِعِلْمِهِ) وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة وأثبتوا لله القوة كما قال ١٥:٤١ (أوَ لَم يَرواْ أنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُم هُوَ أشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً) وقالوا إنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله وأن الأشياء تكون بمشيئة الله كما قال عز وجل ٢٩:٨١ (ومَا تَشَاءُونَ إلا أن يَشَاءَ اللَّهُ).

---

[١] لأن هذه الكلمة تحتمل معنى صحيحاً ومعنى باطلاً فإذا أراد أن الله عز وجل كان ولا أسماء له فهذا معنى باطل وإذا أراد بها أن هناك موصوفاً وصفات لازمة فهذا معنى صحيح.

وكما قال المسلمون: ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون. وقالوا إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله أو يكون أحد يقدر أن يخرج عن علم الله، وأن يفعل شيئاً علم الله أنه لا يفعله.

وأقروا أنه لا خالق إلا الله وأن سيئات العباد يخلقها الله وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل. وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا منها شيئاً. وأن الله وفق المؤمنين لطاعته وخذل الكافرين ولطف بالمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ولم يلطف بالكافرين ولا أصلحهم ولا هداهم ولو أصلحهم لكانوا صالحين ولو هداهم لكانوا مهتدين وأن الله سبحانه يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن لا يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم.

وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ويؤمنون بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره. ويؤمنون أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله كما قال. ويلجئون أمرهم إلى الله سبحانه ويثبتون الحاجة إلى الله في كل وقت والفقر إلى الله في كل حال. ويقولون:[١] إن القرآن كلام الله غير مخلوق. والكلام في الوقف واللفظ من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ولا يقال غير مخلوق.

ويقولون إن الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون قال الله عز وجل:

محجوبون قال الله عز وجل «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون»

وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا وأن الله سبحانه تجلى

---

[١] قال عمرو بن دينار: أدركت تسعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون من قال القرآن مخلوق فهو كافر. ولقد لقي عمرو بن دينار ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وجابر بن عبد الله والمسور بن مخرمة وسعد بن عائذ القرظ مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسائب بن يزيد الكندي وأبا الطفيل عامر بن واثلة انتهى من كتاب شرح عقيدة أهل السنة للالكائي جـ١ ص٦١ المخطوط.

وقد ذكر إجماع الصحابة على أن القرآن غير مخلوق وكذلك عقد باباً في إجماع التابعين لهم بإحسان على أن القرآن غير مخلوق.

للجبل فجعله دكاً فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في الآخرة.

ولا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر وهم بما معهم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر، والإيمان عندهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم.

والإسلام هو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله على ما جاء في الحديث. والإسلام عندهم غير الإيمان، ويقرون بأن الله سبحانه مقلب القلوب، ويقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها لأهل الكبائر من أمته وبعذاب القبر. وأن الحوض حق. والصراط حق. والبعث بعد الموت حق. والمحاسبة من الله عز وجل للعباد حق. والوقوف بين يدي الله حق.

ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ويقولون أسماء الله هي الله[١].

ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون الله سبحانه ينزلهم حيث شاء، ويقولون أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، ويؤمنون بأن الله سبحانه يخرج قوماً من الموحدين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وينكرون الجدل والمراء في الدين والخصومة في القدر والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم بالروايات الصحيحة ولما جاءت به الآثار التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقولون كيف ولا لم لأن ذلك بدعة.

ويقولون إن الله لم يأمر بالشر بل نهى عنه وأمر بالخير ولم يرض بالشر وإن كان مريداً له. ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم. ويقدمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً رضوان الله عليهم. ويقرون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

---

[١] يعني أن أسماءه عز وجل لا تفارقه ولم يسبق أن لم يسم بها.

ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: «هل من مستغفر» كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويأخذون بالكتاب والسنة. كما قال الله عز وجل (٤:٥٩):

(فَإِنْ تَنَازَعْتُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ)الآية.

ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين وأن لا يبتدعوا في دينهم ما لم يأذن به الله. ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال (٨٩:٢٢):

«وجاء ربك والملك صفاً صفا»

وأن الله يقرب من خلقه كيف يشاء، كما قال (٥٠:١٦):

«ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»

ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل إمام بر وفاجر. ويثبتون المسح على الخفين سنة، ويرونه في الحضر والسفر، ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصابة تقاتل الدجال وبعد ذلك.

ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة. ويصدقون بخروج الدجال، وأن عيسى بن مريم يقتله. ويؤمنون بمنكر ونكير، والمعراج والرؤيا في المنام، وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل إليهم. ويصدقون أن في الدنيا سحرة وأن الساحر كافر كما قال الله تعالى[١]وأن السحر كائن موجود في الدنيا.

ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم وموارثتهم، ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان وأن من مات مات بأجله، وكذلك من قتل قتل بأجله، وأن الأرزاق من قبل الله سبحانه يرزقها عباده حلالاً كانت أم حراماً. وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويتخطبه.

وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم بآيات تظهر عليهم. وأن السنة لا تنسخ

---

[١] (ومَا يُعَلِّمانِ مِن أحدٍ حتّى يقُولا إنّمَا نَحنُ فِتنَةٌ فَلا تَكفُر) الآية.

بالقرآن[١]وأن الأطفال أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد، وأن الله عالم ما العباد عاملون وكتب أن ذلك يكون وأن الأمور بيد الله.

ويرون الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله به والانتهاء عما نهى الله عنه وإخلاص العمل والنصيحة للمسلمين ويدينون بعبادة الله في العابدين والنصيحة لجماعة المسلمين واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والعصبية والفخر والكبر والإزراء على الناس والعجب[٢].

ويرون مجانبة كل داع إلى البدعة؛ والتشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع والاستكانة وحسن الخلق، وبذل المعروف، وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية، وتفقد المأكل والمشرب. فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه. وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب. وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين. وعليه نتوكل وإليه المصير. انتهى من المقالات جـ١ ص٢٢٠-٢٢٥.

فهذا مجمل عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري التي استقر أمره عليها بعد أن أقام على مذهب الاعتزال أربعين عاماً حيث أيقظ الله بصيرته وهو في منتصف عمره وبداية نضجه؛ وذلك في سنة ٣٠٤هـ فأعلن رجوعه عن تعطيل المعتزلة الذين أنكروا صفات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وكذلك رجع عن عقيدة الكلابية في دوره الثاني أتباع ابن كلاب، الذين آمنوا ببعض الصفات وأولوا ما سواها.

وقد تضمن هذا المجمل الذي ذكره في آخر كتاب ألفه في رجوعه عن التعطيل «الإبانة في أصول الديانة» وفصله فيه باباً باباً فراجع هذا الكتاب الواضح تجد ما فيه الكفاية وكذلك هذا الفصل الذي كتبه بيده في كتابه «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» وقد تضمن هذان المجملان رادعاً عن التعطيل والتأويل والتكييف والتمثيل.

---

[١] يعني أن القرآن لا ينسخ السنة إلا مع سنة، وأما نسخ السنة بالقرآن بدون صلة معه فلا وجود له انتهى. راجع رسالة الشافعي طبعة أحمد شاكر صفحة ١١٠ منه.

[٢] في كل مسألة من هذه المسائل يوجد في أهل الفرق من يخالف فيها أهل السنة والحديث.

ولعمري إن هذه العقيدة - ينبغي لكل من انتمى إلى أبي الحسن الأشعري أن يعتقدها ويرجع إليها كما رجع إليها أبو الحسن الأشعري نفسه ولا يجوز لمن بلغته أن يخرج عن شيء منها فإن من خرج عن هذه العقيدة فليعلم أن أبا الحسن الأشعري بريء منه براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام وقد قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب لا يخرج عن هذه العقيدة إلا من قلبه غش ونكد.

فتأمل أيها الأخ المنصف هذه العقيدة ما أوضحها وأبينها واعترف بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحها وبينها وانظر سهولة لفظها فما أفصحه وأحسنه وكن ممن قال فيهم:

(فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)[١].

وتبين فضل أبي الحسن حيث رجع إلى الحق بما بان له واعرف انصافه. واسمع وصفه للإمام المبجل أحمد بن حنبل بالفضل لتعلم أنهما كانا في الاعتقاد متفقين وفي أصول الدين ومذهب أهل السنة غير مفترقين، نسأل الله تعالى الثبات على هذه العقيدة النبوية ونستودعها عند من لا تضيع عنده وديعة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم على نبينا محمد معلم الخيرات وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم تجزى فيه الحسنات.

تمت الرسالة بقلم الراجي عفو ربه الباري حماد بن محمد الأنصاري المدرس بكلية الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين.

تقريظ من الشيخ الجليل عبد العزيز بن عبد الله بن باز.. نائب[١]رئيس الجامعة الإسلامية..

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه...

أما بعد:- فقد اطلعت على هذه الرسالة القيمة التي جمعها أخونا وصاحبنا الشيخ العلامة حماد بن محمد الأنصاري المدرس في كلية الشريعة في الرياض في بيان شيء من ترجمة أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وبيان رجوعه عن مذهب المعتزلة واعتناقه مذهب أهل السنة في إثبات ما ورد في الكتاب العزيز والسنة الصحيحة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى على الوجه الذي يليق بالله سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل كما صرح بذلك علماء الحديث ودرج عليه سلف الأمة والصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان وهذا هو الذي صرح به أبو الحسن في كتبه المشهورة كالمقالات والموجز والإبانة.

ولقد أجاد أخونا الشيخ حماد في هذه الرسالة وأفاد وأبرز فيها من النقول المفيدة عن أئمة الإسلام والعلماء الأعلام ما يكشف الشبهة ويزيل اللبس ويرشد إلى الحق ويوضح حقيقة مذهب أبي الحسن الذي استقر عليه وناضل دونه ورد على من خالفه وأبان حقيقة مذهب المعتزلة وشنع عليهم وأوضح لأهل الإسلام بطلان ما عليه المعتزلة وتهافت أصولهم وانهيار قواعدهم فجزاه الله عما صنعوا خيراً وبارك في مساعيه ونفع المسلمين بجهوده إنه على كل شيء قدير.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه.

---

[١] هكذا كان الشيخ في أول افتتاح الجامعة الإسلامية نائباً عن الرئيس الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وبعد وفاته صار رئيس الجامعة.

تقريظ الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري...

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى صحبه أجمعين.

وبعد: فإن مما لا يخفى على من وفق في العقيدة أن طريقة السلف الصالح فيها التمسك بنصوص الكتاب والسنة وعدم معارضتها بما سواها.

وقد كان أبو الحسن الأشعري الذي تنتسب إليه الأشعرية ممن اهتدى بفضل الله إلى هذا بعدما تلقى دروس الاعتزال عن زوج أمه شيخ الاعتزال محمد بن عبد الوهاب أبي علي الجبائي فتاب وتمسك بالنصوص فأثبت لله ما أثبتته دون تعطيل ولا تأويل ولا تكييف ولا تمثيل وصنف في بيان ذلك كتابه «الإبانة عن أصول الديانة».

وإن كان أكثر المنتسبين إليه في الأعصر المتأخرة جهل ذلك أو تجاهله فصار يعارض عقيدة السلف الصالح بأشياء يزعم أنها عقيدة الأشعري. وهو في الحقيقة براء منها. ويزعم البعض منهم أن كتابه «الإبانة» مدسوس على الأشعري فصار ذلك كله خطراً عظيماً على العقيدة وجناية كبرى على ذلك الإمام الأشعري الذي وفق للرجوع إلى الحق وفضح المعتزلة وأتباعهم في مصنفاته.

وقد تنبه لهذا كله البحاثة المدقق الشيخ حماد بن محمد الأنصاري المدرس بكلية الشريعة بالرياض فتتبع مصنفات أئمة العلم من مختلف الطبقات فاستخرج لنا منها هذه النبذة القيمة التي تحمل في طياتها تصريحات الأشعري نفسه بتوبته من كل ما يعتبر مصادمة لنصوص الصفات وغيرها واعتقاده العقيدة التي يعتقدها السلف الصاح التي ضمنها «الإبانة».

كما تحمل إلى الأشعرية نقول أجلة العلماء من المتكلمين والمحدثين والفقهاء والمؤرخين التي تصرح برجوع الإمام الأشعري إلى معتقد السلف الصالح وأن كتاب الإبانة تصنيف الأشعري.

فبهذا أدى مؤلف هذه النبذة واجب العقيدة من ناحية وواجب الدفاع عن الأشعري وكتابه الإبانة من ناحية، بحيث لم يدع للشك مجالاً في جميع ذلك. فجزاه الله خير الجزاء ونفع بهذا المؤلف القيم إنه سميع قريب مجيب.

اعتقاد أهل السنة والجماعة

قال الشيخ عدي بن مسافر الأموي الشامي المتوفى سنة ٥٥٧هـ في كتابه «اعتقاد أهل السنة والجماعة» صفحة ١٢-٤٥:

وفي اعتقاد أهل السنة والجماعة على لسان الشيخ الأوحد العارف بالله تعالى شرف الدين تاج الحقيقة سلطان الطريقة، ناصر السنة قامع البدعة، أبي الفضائل عدي بن سافر الشامي رضي الله عنه:

قال رحمه الله تعالى: الحمد لله الواحد الأوحد الفرد الصمد الذي لا يغيره الأمد. ليس له والد ولا ولد لا تجري ماهيته في مقال. ولا تخطر كيفيته ببال. جل عن الأنداد، والأضداد والأمثال والأشكال، صفاته كذاته ليس بجسم في صفاته جل أن يشبه بمبتدعاته أو يضاف إلى مصنوعاته: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[١].

أراد ما أهل العالم فاعلوه ولو عصمهم جميعاً لما خالفوه. ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه.

خلق الخلائق وآجالهم وقدر أرزاقهم وأفعالهم. لا سميّ له في أرضه وسماواته. ولا عديل له في حكمه وإراداته. حرام على العقول أن تمثله وعلى الظنون أن تحده. وعلى الضمائر أن تعمق وعلى النفوس أن تفكر. وعلى الفكر أن يحيط وعلى العقول أن تصور إلا ما وصف به ذاته في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. فإن كل ما تمثل في الوهم فهو مقدره قطعاً وخالقه (عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وعلى الملك احتوى وعلمه محيط بالأشياء.

أول نعمة أنعمها الله على عبده أن هداه للإيمان. وأجل نعمة أنعمها الله على العبد أن كتب الإيمان في قلبه وهو قوله تعالى:

---

[١] الشورى: ١١.

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمَ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُم)[١]. وقال تعالى: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ)[٢].

ومعرفة الباري وجبت بالشرع والعقل لأن أول شيء يجب على العبد معرفة صانعه وكيف كان صنعه ثم التعبد له وكيف يعبده وبهذين الفصلين مع التوفيق القديم ينال السعادة ويرتقي في معارج زلفى الكرامة وبضد هذين وهو الجهل والعصيان مع الخذلان القديم ينال الشقاوة وينحط إلى محل المخزى والإهانة.

فإنك أولا يجب أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل في نعته؛ فربما تعتقد في صفاته شيئاً والعياذ بالله مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثوراً. قال الله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ وأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَاً)[٣]. فهذا فضل العلم به. وقال عز وجل: (ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ)[٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما أي ليعرفوني وقال عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم)[٥]فهذا فضل التعبد له.

فعلى هذين الفضلين الذين هما العلم والتعبد مدار الأمر كله في جميع المخلوقات. وهما علمه خلق الأشياء كلها. لأن الله تعالى ما خلق شيئا إلا لحكمة كما قال تعالى:

---

[١] الحجرات: ٧.

[٢] المجادلة: ٢٢.

[٣] الطلاق: ١٢.

[٤] الذاريات: ٥٦.

[٥] البقرة: ٢١.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)[١].

وإذا تبين هذا فإنما خلق ما خلق ليعلم ويعبد لأنه لو لم يخلق شيئاً كما كان في أزليته لم يعرفه أحد سواه لأنه لم يكن معه أحد سواه لأنه لم يكن معه أحد في الأزل موجوداً فامتن على خلقه بإيجادهم بفضله ودلهم بكرمه على نفسه.

وأما طريق العلم به فمن وجهين: أحدهما طريق السمع منه أو من سفير بينه وبين خلقه وهو ما نطقت به كتبه. وأخبرت به رسله عليهم الصلاة والسلام من صفاته وأسمائه بالتصديق. وإمرار آيات الصفات وأحاديث الصفات كما وردت من غير تشبيه ولا تعطيل ولا حمل على ظاهر ولا تمثيل الوجه.

الثاني طريق العقل والبرهان وهو البحث في المخلوقات والاعتبار بالمصنوعات، والتدبر في الأخبار والآيات، وتفهم الحكم والأحاديث المسندات. فمثال ذلك في الطريق الأول الذي هو السمع أن يصدق أن الله موجود قديم أول بنفسه لم يوجده أحد ولم يوجد نفسه باق أبداً ليس لأزليته ابتداء ولا لآخرته انتهاء، وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأنه ليس في جهة من الجهات وأنه ليس مستقراً على مكان وأنه مرئي بالقلوب والأبصار، ولا تحويه الأقطار ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الجهات وأنه واحد فرد صمد لا ثاني معه ولا شيء مثله.

فهذا هو العلم بذاته، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله. وبالمعنى الذي أراده استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والمقدار لا يحمله العرش بل العرش وحملة العرش واللوح والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما وما فيهما وما تحتهما وما وراءهما وجميع المخلوقين والمخلوقات محمولون بقدرة الله تعالى، ومقهورون في قبضة الله، وموجودون بحكمة الله؛ وهو فوق العرش وفوق كل شيء على معنى العزة والعظمة.

---

[١] الأنبياء: ١٦.

واتصافه بصفات الألوهية كالقدرة الشاملة للمقدورات، والمشيئة النافذة في المرادات، والعلم المحيط بالمعلومات، وتقديسه عن مشابهة المخلوقين وسمات المحدثين لا نهاية له في ذاته على معنى نفي الجهات والحيثية. ولا يتناهى في وجوده على معنى نفي الأولية ولا هو جسم مصور ولا جوهر مقدر.

معلوم الوجود بالعقول والأفهام لكن لا تتصوره الأفكار، لا تمثله الأوهام وأنه حي عليم بنفسه وبجميع خلقه قدير على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء، مريد لما يشاء، لا مكره له، سميع لنفسه ولجميع عباده، ولا يحجب سمعه بعد، ولا يدفع رؤيته ظلام.

متكلم آمر ناه زاجر، موعد متوعد، وإنه كامل الإدراك بكل شيء من الطعوم والروائح ولجميع المدركات على ما يليق به سبحانه وتعالى. محيط بما يجري من تحت تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر وأنه منزه عن حلول الحوادث به وطريانها عليه.

وأنه قديم الصفات فهذه الأسماء والصفات المتقدمة لابد من اعتقادها والإقرار بها، وذلك الوجود والقدم والبقاء، والوحدانية والحياة والعلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام، وجميع ما وصف به نفسه راجع إلى هذه الصفات من التنزيه والتقديس والإجلال والتعظيم وإلى سائر أسمائه وصفاته ما علم منها وما لم يعلم فنصدق بذلك تصديقاً جزماً ونقطع به قطعاً حتماً فيكون من اعتقد بذلك من المؤمنين المصدقين.

ثم بعد ذلك يقع النظر في المخلوقين الاعتبار بالمصنوعات فيشاهد العلم ما صدق به القلب ويقوى تصديق القلب بمشاهدة العقل؛ فيزداد الإيمان، وتعظم المعرفة بحصول اليقين. وأول ما ينظر العاقل في نفسه وتركيب أعضائه وما فيه من الصنع البديع التركيب المحكم المتقن العجيب. وهو يعلم بالضرورة أنه وجد بعد أن لم يكن موجوداً وأن جميع المخلوقات مثله. وأن كلها متغيرة الصفات بالحركات والسكنات وغير ذلك مما يجري عليها من الأمور الطارئات وبذلك ينفي عنها الاتصاف بالقدم ويقضي عليها بالحدوث بعدم العدم.

فيعلم بذلك قطعاً أن لها صانعاً صنعها ومحدثا أبدعها لوجوب تقدم الصانع على مصنوعه، والفاعل على مفعوله؛ لأننا لم نجد في المشاهد كتابة إلا ولها كاتب، وبناء محكما إلا وله بان؛ فدل على ذلك على أن كل موجود له موجد.

ولاستحالة إيجاد الشيء لنفسه لعدم علمه بنفسه قبل وجوده وامتناع سبق وجوده لوجوده فيعلم بالضرورة أن محدثه غيره وهو الله تعالى لأن الحي العاقل لا يقدر على إحداث تصوير إنسان من ماء، ولا إخراج فاكهة من عود؛ فالحي غير العاقل أعجز عن ذلك، وما ليس له حياة ولا عقل أعجز وأعجز.

وقد قام البرهان العقلي والدليل القطعي أن جميع الممكنات محدثة بإحداث الله تعالى موجودة بإيجاد الله تعالى، قائمة به فائضة عن فضله وعدله.

وأما الدليل السمعي فالاستدلال بأخبار الأنبياء فإنهم دعوا الخلق إلى الإيمان بالله وظهرت على أيديهم المعجزات التي لا يقدر البشر على مثلها كإخراج الماء من الصخرة، وقلب العصا حية، وإحياء الموتى وانشقاق القمر ونبع الماء من بين الأصابع وغير ذلك مما يدل على صدقهم فوجب الإيمان بالإله الذي دعوا إليه، والتصديق بما أخبروا به عنه وأهلك الله تعالى من خالفهم وعاقبهم بأنواع العقوبات. كما قال تعالى:

(فَمِنْهُم مَنْ أرسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَة وَمِنْهُم مَن خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَن أغْرَقْنَا)[١]ونجا الأنبياء ومن صدّقهم.

فدل ذلك على صدقهم فيما قالوه ، ودعوا إليه وذلك يعرف ببديهة العقول فإن كل عاقل يجد من نفسه افتقار العبودية، ويحس أنه تحت قهر الربوبية قطعا. فيعلم أنه لابد لهذه المملكة العظيمة من ملك عظيم ولابد لهذا التدبير المحكم من مدبر حكيم.

ومما دعوا إليه الإقرار والتصديق بأن صانع العالم واحد وهو الله الذي

---

[١] العنكبوت: ٤٠.

لا إله إلا هو ولا شريك له ولا ضد له ولا ند له ولا شبيه له، ولا وزير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا زوجة له كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[١].

لا خالق شيء غيره خلق العباد وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم فلا يكون في العالم خير ولا شر، ولا نفع ولا ضر، ولا ربح ولا خسران، ولا جهل ولا عرفان، ولا كفر ولا إيمان إلا والله خلقه وقضاه وقدره وحكم به وأراده.

لكن هو لم يأمر بالمعصية بل نهى عنها وكرهها وتوعد بالعقوبة على فعلها. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته عجزوا عنه.

وأن يصدق بقلبه تصديقاً جازماً أن كل ما كان ويكون من الممكنات. فهو جار بقضاء الله وقدره وذلك في ثلاثة مقامات: مقام الإسلام وعالم الجن. فهو أن يكون يؤمن بكل فعل في الوجود الظاهر ظهر بحركة الحواس وأشخاص العالم أو سكون فهو لله تعالى لا شريك له في شيء من ذلك خيراً كان أو شراً.

ومقام الإيمان أن تصدق بأن الاستطاعة والقوة المنسوبة إلى النفوس والأرواح على اكتساب الحركات والسكنات إنما نسبته إليها مجازاً. والله تعالى فاعلها حقيقة من غير مجاز ولا مباشرة ومزاولة. لأنه هو الذي يعطي القوة والاستطاعة ويخلقها ويخلق المقدور الذي تقع عليه القدرة والقوة. هذا في جميع الملكوت كله والجبروت سواء كان المقدور فعلاً في النفوس أو نظراً للعقول أو أي شيء كان.

ومقام الإحسان فهو مقتضى علم الله كما أن الضربين الأولين اللذين تقدم ذكرهما مقتضى قدرته جل جلاله وهو أن ينظر العقل ويأنس أن مقادير الموجودات كلها وما يجري عليها سبق بها علم الله قبل وجود

---

[١] سورة الإخلاص.

أعيانها فقد كان الله عالماً بالكون كله وبما يكون من الكون من الأفعال قبل وجود الكون هذا هو القدر المعلوم الذي قال الله فيه: (ومَا نُنَزِّلُه إلا بقدرٍ معلوم)[١]. أي معلوم قبل نزوله ووجوده فإنه تعالى لا يجوز أن يطرأ عليه ما لم يعلمه.

ولا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يخلق ما لا يعلم (ألا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وهو اللطِيف الخَبِير). لأنه ثبت بالبرهان العقلي من الدليل القطعي أنه يعلم جميع العالم كلياته وجزئياته. وأن القدرة لو لم يتأثر عنها الكون كله لأدى ذلك إلى أن القادر أعجز وأن العاجز أقدر وهو محال.

وأن الأعمال كسب للعباد. لا أنها خلق لهم. لأنهم لا يحيطون علماً بأجزاء تفاصيل ما يصدر عنهم من الحركات المكتسبة والسكنات. ولا بأعدادها والخالق لا يكون خالقاً حتى يعلم ما يخلق. ولا يعلمون أيضاً أنها خير محض وهم بالضرورة يدركون الفرق بين حركة المرتعش وبين الحركة الواقعة بالاختيار والإرادة فلم يبق إلا حالة ثالثة يعبر عنها بالاكتساب وعلى ذلك يقع الثواب والعقاب.

والكل خلق الله ولأنه لا يريد شيئاً كرهاً ولا يفعل إلا باختياره. ولو لم يرد جميع الكائنات ويخلق جميع ما أراد لكان الذي يريد إبليس وجنوده أكثر من مراده ولكان خلق غيره أكثر من خلقه لأن الشرور والقبائح أكثر من الخير. فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

والدليل على إثبات القدر من الكتاب العزيز قوله تعالى:

(وإن مِن شيْءٍ إلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)[١].

أي بجزء مقسوم. وقال تعالى: (إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[٢]. وقال تعالى: (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ)[٣].

---

[١] الحجر: ٢١.

[٢] القمر : ٤٩.

[٣] القمر: ٥٣.

ولذلك كان الإيمان بالقدر من أعظم شعب الإيمان لأن من التوحيد إضافة الأفعال كلها إلى الله تعالى وأنها صادرة عن قدرته لا شريك له فيها فمن أضافها أو شيئاً منها إلى غيره فقد أشرك به وكذب بالقرآن والحديث، ومن كذب بهما فقد كذب الله ورسوله.

ولذلك كانت القدرية مجوس هذه الأمة يقولون لا قدر. من مات منهم فلا تشهدوا جنائزهم. ومن مرض منهم فلا تعودوهم وهم شابهوا المجوس في قولهم للشر خالق وللخير خالق وقد أخبر الله تعالى أن الجميع مكتوب مخلوق له بلا شريك في ذلك فقال:

(مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ولا فِي أَنْفُسِكُم إلا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)[١].

ودليلنا بالسنّة قول النبي صلى اللّه عليه وسلم: «سيكون في أمتي قوم يكفرون بالله وهم لا يشعرون. قيل كيف يا رسول الله؟ قال عليه السلام: لأنهم يقولون الخير من اللّه تعالى والشر من الشيطان ومن أنفسنا وهم يقرؤون القرآن».

دليل آخر أن الشر لو كان بغير إرادة اللّه تعالى لكان عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً، لأنه لا يجوز أن يكون في داره ما لا يريد كما لا يجوز أن يكون فيه ما لا يعلم.

دليل آخر لما روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «لو أراد اللّه تعالى أن لا يعصى ما خلق إبليس وأن اللّه تعالى خلقني وأرسلني مبشراً ونذيراً -أي مبشراً بالجنة ونذيراً من النار- وبعثني بالهداية وليس لي من الهداية شيء» صلى اللّه عليه وسلم. وخلق الله تعالى إبليس عليه اللعنة وليس إليه من الضلالة شيء قال الله تعالى:

(وأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ورَجِلِكَ وشَارِكهُم فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ)[٢]الآية.

---

[١] الحديد: ٢٢.

[٢] الإسراء : ٦٤.

وقوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَان إلا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِين وإِنَّ جَهَنَّم لَمَوْعِدُهُم أَجْمَعِينَ)[١].

لأنهم فتكوا (أي بالغوا) في الكفر فجعلوا إرادة إبليس لعنه الله وأنفسهم أقوى من إرادة الله تعالى، أراد الملعون إبليس المعصية فوجدت وأراد الله أن لا تكون فكانت فجعلوا إرادة إبليس الملعون وأنفسهم أقوى من إرادة الله تعالى.

والقائل بهذه المقالة تكذيبه قوله تعالى:

والقائل بهذه المقالة تكذيبه قوله تعالى: (وَإِن تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يقُولُوا هَذِهِ مِن عِنْدِ اللَّهِ وإِن تُصِبْهُم سَيئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِن عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِن عِنْدِ اللَّهِ)[٢]وقال تعالى: (ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا)[٣]وقال تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ ومَن يُضْلِل فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِداً)[٤].

وقال تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَح صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ومَن يُرِد أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً)[٥]. فجعل الضلالة والهدى بإرادته سبحانه وتعالى فالهدى والخير إرادة رضى. والضلال والشر إرادة غضب.

وأن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ودليلنا بالكتاب والسنة قوله تعالى: (لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِم)[٦] وقوله تعالى:

[١] الحجر: ٤٢.

[٢] النساء: ٧٨.

[٣] الشمس: ٧، ٨.

[٤] الكهف: ١٧.

[٥] الأنعام: ١٢٥.

[٦] الفتح: ٤.

(ويزداد الذين آمنوا إيماناً) [١] وقوله تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) [٢].

ودليلنا بالسنة ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عمر رضي الله عنه لما سأله جبريل عليه السلام وهو في صورة الأعرابي عن الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره». دليل آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان ونية بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية».

ودليل آخر عن أن الإيمان لو كان قولاً بلا عمل لاستوى فيه الطائع والعاصي والله تعالى قد نفي المساواة بينهما بقوله تعالى: (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) وما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقصان.

ونعتقد أن القرآن كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مقروء بالألسنة محفوظ في الصدور ومسموع بالآذان مكتوب في المصاحف غير حال في مصحف ولا قائم بقلب ولا مرئي ببصر ولا يشبه كلام الخلق. لأن المسلمين وجميع مثبتي الشرائع اتفقوا على أن الله تعالى متكلم.

واتفق أهل الحق منهم على أنه تكلم بكلام واحد أزلي قائم بذاته ليس من جنس الحروف والأصوات غير متحيز مناف للسكوت وهو به آمر ناه، مخبر ولا يبعد لأن مرجع الجميع إلى الأخبار. وهذه العبارات مخلوقة لأنها أصوات وهي أعراض وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديته بها. فإن عبر عنه بالعربية فهو قرآن وإن عبر عنه بالعبرانية فهو توراة فاختلفت العبارات لا الكلام كما تسمى الله تعالى بعبارات مختلفة مع أن ذاته واحدة.

---

[١] المدثر: ٣١.

[٢] التوبة: ١٢٤.

ونؤمن برؤيته في الدار الآخرة للمؤمنين بأبصارهم بعد دخولهم الجنة. فهي جائزة عقلاً واجبة سمعاً من غير إحاطة ولا إدراك فيرى لا في مكان ولا في جهة ولا اتصال شعاع ولا ثبوت مسافة بين الرائي وبينه تعالى وغير ذلك من أمارات الحدث.

وأن الله متفضل بالخلق والإيجاد وبتكليف العباد، لا على معنى الوجوب واللزوم فإن الذي يفعل ما يجب عليه يلحقه ضرر في ترك فعل ما يجب عليه وينتفع بفعله إذا فعله وهذا وصف المضطر الذي يلحقه النفع والضر؛ والباري تعالى منزه عن الضرر وعن الحظوظ والأغراض. فإذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد ولم ينتفع بها لم يكن للوجوب في حقه بمعنى يعود عليه.

ويجوز أن يكلف عباده بما لا يطيقونه خلافاً لقول المعتزلة. وهذا مشاهد ومعلوم بالسمع فإن الله يقول في كتابه: (ربَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا به). فإنهم لم يسألوه محالاً ولو كان تكليف ما لا يطيق محالاً لكانت الآيَةَ لغواً. وذلك مشاهد أيضاً لأن الرسل خاطبت الكفار بالإيمان وهم لا يطيقونه.

وقد خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل وغيره من الكفار بالإيمان. وقد أعلمه الله بأنهم لا يؤمنون فقال: (سَواءٌ عليهِم أأنذرتَهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون).

وقد أمره الله تعالى بالإنذار والتبليغ والدعوة للكل إلى الإيمان فهذا تكليف ما لا يطاق.

وأن لله إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لا حق خلافاً للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه لا يعدوه. والظلم عبارة عن تصرف المالك في ملك غيره، وهو محال على الله تعالى إذ لا يضاف لسواه ملك وذلك مشاهد في البهائم فإن ذبحها وما صب عليها من أنواع المحن والعذاب إيلام لها ولم يتقدم لها جريمة.

ونؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها فإن كل ما تمثل في الوهم فهو مقدره قطعاً وخالقه وهذا الدين اندرج عليه السلف قبل ظهور الأهواء وتشعب الآراء.

فلما ظهرت البدع وانتشر في الناس التشبيه والتعطيل فزع أهل الحق إلى التأويل. وتقرير مذهب السلف كما جاء من غير تمثيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا حمل على ظاهر ولا تمثيل وأن خير هذه الأمة بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير الناس بعدي أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي» رضي الله عنهم.

وروي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال على منبر الكوفة: أيها الناس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله تعالى أمرني أن أتخذ أبا بكر والداً وعمر مشيراً وعثمان سنداً وأنت يا علي ظهراً، فهؤلاء الأئمة الأربعة خلائف نبوتي وحجتي على أمتي لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق شقي». وصلى الله على سيدنا محمد وآله ورضي الله عنهم أجمعين.

ذكر الدليل:

إن التفضيل لو كان من طريق القرابة لكان حمزة والعباس عما النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالتفضيل لأن العم أقرب من ابن العم فإن العشرة في الجنة أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين. أماتنا الله على محبتهم وحشرنا في زمرتهم إنه (أهلُ التقوى وأهلُ المَغْفِرَة).

وأن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خال المؤمنين. رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكاتب وحي الله تعالى، أمين الله على وحيه شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. ومات وهو عنه راضٍ رضا. وهو وعلي كانا إمامين مجتهدين لكن المصيب منهما علي رضي الله عنهما، وصاحبي إمامين مجتهدين وقتالهم كان باجتهاد لطلب الحق لا لحظوظ الأنفس. ولم يكن أحد منهم حريصاً على قتل أخيه. وقتلاهم جميعاً في الجنة.

ونكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وننشر محاسنهم رضي الله عنهم ونرى الكف عما جرى بينهم وأن الله قد غفر لهم. وأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك. أنهم سيقتلون في سبيل الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «سيجري بين أصحابي زلة يغفر الله تعالى لهم بسابقتهم معي»، وفي لفظ آخر قال عليه السلام: «سيجري بين أصحابي هنية يتلافاها الله لهم بسابقتهم معي».

ونعتقد أن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن سؤال الملكين في القبر حق، وأن الروح ترد في الجسد فتكون المسألة للروح والجسد جميعاً. دليلنا بقوله تعالى: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الآية. وأن ضغطة القبر حق وأن عذاب القبر حق ونعيمه حق وأن العبد إذا عذب في قبره حق ويألم لقوله صلى الله عليه وسلم: «يألم الميت ما يألم الحي» وأن الحساب حق، والميزان حق، وأن الميزان له كفتان إحداهما من النور والأخرى من الظلمة وهي للسيئات يوزن فيها أعمال العباد فمن ثقلت موازينه من الحسنات نجا من النار ومن خفت موازينه من الحسنات أهوى به في النار.

وأن الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم حق لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي». ولقوله صلى الله عليه وسلم: «... وإن الله عز وجل يخرج من النار أقواماً بشفاعتي من بعدما صاروا فحماً وحمماً فيطرحون في نهر على باب الجنة يقال له نهر الحيوان فيغمسون فيه فينبتون كما تنبت الحبة في جميل السيل ويشربون منه فيذهب ما في بطونهم وصدورهم من غل وغيره ويعودون شباباً جرداً مرداً وعلى جباههم مكتوب هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن من النار فإذا دخلوا الجنة يستحيون فيسألون الله تعالى فيمحو ذلك عن جباههم. وتصير وجوههم كالقمر ليلة البدر فلا يعرفون بعد ذلك».

وأن الصراط حق وصفته كما ورد في الشريعة حق وأنه ممدود على متن جهنم كما جاء في الحديث لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن صفة الصراط فقال عليه السلام: «إن جواز الخلق كلهم عليه وهم على

قدر أعمالهم من الحسنات والسيئات فممر الخلق عليه وهم ما بين ماش وراكب وساع ثم زحيف وسحب. وأن عليه كلاليب وشوكاً مثل شوك السعدان. ثم قال عليه الصلاة والسلام: أرأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول الله. ثم قال عليه الصلاة والسلام في صفة الصراط: أدق من الشعر وأحد من السيف وأحر من الجمر طوله ثلاثمائة سنة من سنى الآخرة تجوزه الأبرار وتزل عنه الفجار».

وإن الحوض المكرم به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حق قال صلى الله عليه وسلم: «حوضي طوله عرضه مثل ما بين عدن وعمان مسيرة شهر؛ حافتاه خيام الدر المجوف، آنيته عدد نجوم السماء، طينه مسك أذفر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً حتى يدخل الجنة. فيذاد عنه القيامة رجال كما تذاد الغريبة من الإبل فأقول: هلموا ألا هلموا فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!! فأقول: وما أحدثوا؟ فيقال لي: قد غيروا وبدلوا. فأقول: ألا سحقاً وبعداً» فقد أنكرت المعتزلة ذلك تباً لهم فلا يسقون منه إلا أن يتوبوا ويرجعوا عن مقالتهم السوء وأن الجنة حق والنار حق مخلوقتان خلقا للبقاء لا للفناء.

فالجنة نعيم الأولياء والنار عقاب للأعداء من أهل الكفر والمعاصي إلا من رحم الله. وإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار. كلهم ينظرون إليه ثم ينادي مناد من قبل الله تعالى يقول: يا معشر العباد هذا الموت، يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت» ولا ينزل أحد من أهل القبلة جنة ولا ناراً إلا من نزله رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله عليه السلام: «السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه».

بل نرجو للمحسن ونخاف على المسيء. والصلاة على من مات من أهل القبلة جائزة وإن عملوا الكبائر. ونذر سرائرهم إلى الله تعالى وأن نسمع ونطيع لمن ولاه الله تعالى أمرنا لقوله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً. قالوا: يا رسول الله صلى

الله عليه وسلم: فإن أثموا؟ فقال عليه السلام: عليهم إثمهم ولكم طاعتكم».

وأهل السنة أجمعوا على السمع لأئمة المسلمين واتباعهم والصلاة خلف كل بر وفاجر، العادل منهم والجائر ومن ولوه ونصبوه واستنابوه ما كان من البدعة بريئا وأن لا ينزلوا أحداً من أهل القبلة جنة ولا ناراً مطيعاً كان أو عاصياً رشيداً أو غوياً، عاتياً كان أو طائعاً إلا أن يطلع منه على بدعة أو ضلالة فينزل على ما شرح، ولا سمع ولا طاعة ولا يصلى خلفه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن دعاكم داع إلى خلاف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلا تسمعوا له ولا تطيعوه ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وقال صلى الله عليه وسلم: «انتقدوا أئمتكم كانتقاد الذهب والفضة». والجمعة والعيدان. والجهاد ماض مع كل خليفة براً أو فاجراً، ما كان من البدعة بريئا، وأنه لا يخلد في النار إلا أهل الكفر والضلال والجحود والتكذيب نسأل الله تعالى لنا ولكم الخاتمة بالخير والعافية إلى خير. ثم المنقلب إلى خير والتثبيت على الكتاب والسنة والجماعة.

فهذا اعتقادنا والذي نقلناه عن السلف وعن أئمة الدين وعن مشائخنا رضي الله عنهم أجمعين. وإن اعتقادنا هذا نقله جبريل عليه السلام عن الله تعالى ونقله النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام ونقلته الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم نقله التابعون عن الصحابة أجمعين خلف بعد خلف وسلف بعد سلف إلى يوم القيامة.

فمنهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي ابن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وابن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وأبو موسى بن عمر، وعمران بن الحصين، وعمار بن ياسر، وأبو هريرة، وحذيفة بن اليمان، وعقبة بن عامر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري، وأبو أمامة الباهلي، وجندبة، وأبو مسعود، وأبو حبيب، وأبو الطفيل عامر، وعائشة، وأم سلمة رضي الله عنهم.

ومن أهل المدينة شرفها الله تعالى وعلى ساكنها أفضل الصلاة والسلام: سعيد، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وسليمان ابن يسار، ومحمد بن الحنفية، وعمر بن عبد العزيز، وكعب الأحبار رضي الله عنهم أجمعين.

ومن الطبقة الثانية: ربيعة بن (أبي) عبد الرحمن، والنعمان بن ثابت، وزيد بن علي بن الحسين، وجعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم.

ومن الثالثة من التابعين: مالك بن أنس، وعبد العزيز بن (عبد الله ابن أبي) سلمة، وإسماعيل بن (أبي) أويس، وأبو مصعب بن أحمد بن أبي بكر الزهري، ويحيى بن أبي كثير رضي الله عنهم.

ومن بعدهم عمرو بن دينار، وعبد الله بن طاوس، وابن جريج، ونافع، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، والفضيل بن عياض، ومحمد بن مسلم الطائفي، وأبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وأبو عبد الله زيد المقبري رضي الله عنهم.

ومن أهل الشام: عبد الله بن محيريز، وعبادة بن ميمون بن مهران، وعبد الرحمن بن عمر الأوزاعي، ومحمد بن الوليد، وعبد الرحمن بن زيد، وعبد الله بن شوذب، وإبراهيم بن محمد الغزازي، وأبو منهر، وهاشم بن عبد الله يدعى الدمشقي، ومحمد بن سليمان المصيصي رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أهل مصر: حيوة بن شريح، وليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة، وأشهب بن عبد العزيز، وإسماعيل بن يحيى المزني، وأبو يعقوب البويطي، وربيع بن سليمان رضي الله عنهم.

ومن أهل الكوفة: علقمة بن قيس، وعامر بن شراحيل النخعي، وطلحة ابن مصرف، ومالك بن مغول، وحمزة بن حبيب الزيات المقرئ، وابن أبي ليلى، وسفيان الثوري، وشريك بن عبد الله، وأبو بكر بن عياش، وعبد الرحمن بن محمد بن البخاري، ووكيع بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أهل البصرة: أبو العالية، والحسن بن أبي الحسن البصري، ومحمد ابن سيرين، وأبو قلابة. ومن بعدهم: سليمان التميمي، وأبو عمرو بن العلاء، وحماد بن سلمة، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وسهل بن عبد الله التستري رضي الله عنهم.

ومن أهل الموصل: المعافى بن عمران.

ومن أهل خراسان: عبد الله بن المبارك، وأبو قلابة، ومحمد بن عيسى الترمذي.

ومن أهل الري: محمد بن إدريس الفراء، وأبو زرعة، وأبو حاتم.

فهؤلاء السادة المذكورون هم أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين. ونسأل الله تعالى أن يتوفانا علي مذهبهم واعتقادهم. فمن خالف مذهبهم ورغب عن سننهم فقد خالف الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدع لا يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً قال الله تعالى:

(وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى وَيَتَّبِع غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَت مَصِيراً)[١]وقال تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ أَو يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٢].

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها على ضلالة إلا فرقة واحدة وهي الناجية. قيل: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم: ومن الناجية؟ قال عليه الصلاة والسلام: من كان على ما أنا عليه وأصحابي».

فهؤلاء الأئمة والمشائخ الذين ذكرناهم ومن تبعهم من الناس على المذهب الصحيح نسأل الله تعالى أن يتوفانا عليه بمنه وكرمه أملاه من حفظه وأمر بكتبه الشيخ الإمام الأوحد العالم العارف شرف الدين أبو الفضائل حجة الإسلام سلطان الطريقة؛ وتاج الحقيقة عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى الأموي رضي الله عنه، وقدس روحه ونور ضريحه وأعاد الله تعالى من بركاته على كاتبه وقارئه ومالكه ومستمعه والناظر فيه وعلي جميع المسلمين آمين يارب العالمين. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم.

---

[١] النساء: ١١٥.

[٢] النور: ٦٣.

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقول وبالله التوفيق:

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، ذي العرش المجيد والبطش الشديد، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

التنزيه:

وأنه ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود، ليس كمثله شيء، ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا يكتنفه الأرضون ولا السموات.

وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد.

وهو على كل شيء شهيد إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام، وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان؛ كما تقدس عن أن يحده زمان؛ بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان. وهو الآن على ما عليه كان وأنه بائن عن خلقه بصفاته، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، وأنه مقدس عن التغير والانتقال.

لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يزال في نعوت جلاله منزهاً عن الزوال وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال، وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئي الذات بالأبصار نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار وإتماماً منه بالنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

الحياة والقدرة:

وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له السلطان والقهر والخلق، والأمر، والسموات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون في قبضته، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.

العلم:

وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو الهواء. ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفا به في أزل الآزال لا بعلم متجدد، حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.

الإرادة:

وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات؛ فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر، ولا فلتة خاطر.

بل هو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد؛ لا راد لأمره، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته؛ فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة ويسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك. وإن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها، مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير. دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

السمع والبصر:

وأنه تعالى سميع بصير. يسمع ويرى. لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بعد، ولا يدفع رؤيته ظلام. يرى من غير حدقة وأجفان، ويسمع من غير

صمخة وآذان؛ كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

الكلام:

وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان.

وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأن القرآن مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق. وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات.

الأفعال:

وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم في أفعاله، عادل في أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى؛ فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فكل ما سواه من إنس وجن، وملك وشيطان، وسماء وأرض، وحيوان ونبات وجماد، وجوهر وعرض، ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه بعد أن لم يكن شيئا إذ كان في الأزل موجودا وحده ولم يكن معه غيره؛ فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته، وتحقيقا لما سبق من إرادته، ولما حق في الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته.

وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم؛ فله الفضل والإحسان، والنعمة والامتنان؛ إذ كان قادراً على أن يوجب على عباده أنواع العذاب، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما.

وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل، ولا يتصور منه ظلم، ولا يجب لأحد عليه حق وإن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل؛ ولكنه بعث الرسل، وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة؛ فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤوا به.

معنى (الكلمة الثانية) وهي الشهادة للرسول بالرسالة وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم، والجن والإنس؛ فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها، وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر.

ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلا الله ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قول محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت وأوله سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك؟ وما دينك ومن نبيك وهما فتانا القبر وسؤالهما أول فتنة بعد الموت. وأن يؤمن بعذاب القبر وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء.

وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقاً لتمام العدل، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة،

فيخف بها الميزان بعدل الله.

وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم، أحد من السيف وأدق من الشعرة. تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه وتعالى فتهوي بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله تعالى فيساقون إلى دار القرار. وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء. فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر.

وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون؛ فيسأل الله تعالى من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين، ويسأل المبتدعة عن السنة، ويسأل المسلمين عن الأعمال.

وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعدم الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى؛ فلا يخلد في النار موحد.

وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين كل على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل، فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثال ذرة من الإيمان.

وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم. وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين.

فكل ذلك مما وردت به الأخبار، وشهدت به الآثار؛ فمن اعتقد جميع ذلك موقناً به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة.

فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى.

الفصل الثاني

في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا؛ فابتداؤه الحفظ ثم الفهم، ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به؛ وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان.

فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان. وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد، والتقليد المحض.

نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أن يقبل الإزالة بنقضه لو ألقي إليه فلابد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل. وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات. فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له.

فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدور، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة، فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده، وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته

بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها إبان تكثُّر أجزائها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب.

والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً؛ فناهيك بالعيان برهاناً. فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس واعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً إذ لا فرق في التقليد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول؛ فتلقين الدليل شيء، والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه.

ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد.

فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال:

(والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[١].

وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين وإليه الإشارة بالسر الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق.

وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنور اليقين وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم

---

(١) العنكبوت: ٦٩

يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

(مسألة) فإن قلت تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟

فاعلم أن للناس في هذا غلواً وإسرافاً في أطراف، فمن قائل إنه بدعة وحرام وأن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل أنه واجب وفرض. إما على الكفاية أو على الأعيان، وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى. وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف.

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد، وكان من متكلمي المعتزلة، يقول: لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام. ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه. وقال أيضاً: قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام.

وحكى الكرابيسي أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال: سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله. ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد، فقال: من أنا؟ فقال: حفص الفرد لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه. وقال أيضاً: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد. وقال أيضاً إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له. قال الزعفراني: قال الشافعي: حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل. وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث

المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث؟

وقال أحمد رحمه الله علماء الكلام زنادقة. وقال مالك رحمه الله: رأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت. وقال مالك رحمه الله أيضاً: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء فقال بعض أصحابه في تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا.

وقال أبو يوسف: طلب العلم بالكلام تزندق وقال الحسن: لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم، ولا تسمعوا منهم. وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل عنهم من الشديدات فيه. وقالوا: ما سكت عنه الصحابة، مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم، إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر.

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون هلك المتنطعون» أي المتعمقون في البحث والاستقصاء. واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستنجاء وندبهم إلى علم الفرائض، وأثنى عليهم ونهاهم عن الكلام في القدر، وقال: أمسكوا عن القدر، وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم. فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم وهم الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة.

وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا: إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم، فالأمر فيه قريب إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه. ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه. فإحداث عبارة للدلالة بها على

مقصود صحيح، كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح.

وإن كان المحذور وهو المعنى فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع. فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل؟ وإن كان المحذور هو التشغب والتعصيب والعداوة والبغضاء وما يفضي إليه الكلام فلذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه.

وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً وقد قال الله تعالى:

(قُل هَاتُوا بُرهَانَكُم)[١]وقال عز وجل: (ليهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَة وَيَحْيَا مَن حَيَّ عَن بيِّنَة)[٢]وقال تعالى: (إن عِندَكُم مِن سُلْطَانٍ بِهَذَا)[٣]أي حجة وبرهان وقال تعالى: (قُل فَلِلَّهُ الحُجَّةُ البَالِغَةُ)[٤]وقال تعالى: (أَلَم تَرَ إِلَى الَّذي حَاجَّ إبْرَاهِيمَ فِي رَبِّه)[٥]إلى قوله: (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)[٥]إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه في معرض الثناء عليه وقال عز وجل: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِه)[٦]. وقال تعالى: (قَالُوا يَا نُوحُ قَد جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرتَ جِدَالَنَا)[٧]وقال تعالى في قصة فرعون: (ومَا رَبُّ العالَمِينَ)[٨]إلى قوله:

---

[١] البقرة: ١١١.

[٢] الأنفال: ٤٢.

[٣] يونس: ٦٨.

[٤] الأنعام: ١٤٩.

[٥] البقرة: ٢٥٨.

[٦] الأنعام: ٨٣.

[٧] هود: ٣٢.

[٨] الشعراء: ٢٣.

(أوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)[٩]؟.

وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجّةٌ مع الكفار. فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)[١٠]، وفي النبوة: (وإن كُنتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ)[١]، وما في البعث: (قُل يُحْيِيهَا الَّذِي أنْشَأهَا أوَّلَ مَرَّةٍ)[٢]إلى غير ذلك من الآيات والأدلة.

ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجُّون المنكرين ويجادلونهم. قال تعالى: (وجَادِلْهُم بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ)[٣]، فالصحابة رضي الله عنهم أيضاً كانوا يحاجُّون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة. وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم.

وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال: ما تنقمون على إمامكم؟ قالوا: قاتل ولم يسب، ولم يغنم. فقال: ذلك في قتال الكفار أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب؟! فقالوا: لا، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان.

---

[٩] الشعراء: ٣٠.

[١٠] الأنبياء: ٢٢.

[١] البقرة: ٢٣.

[٢] يس: ٧٩.

[٣] النحل: ١٢٥.

وروي أن الحسين ناظر قدرياً فرجع عن القدر، وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية، وناظر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يزيد بن عميرة في الإيمان، قال عبد الله: لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة فقال له يزيد بن عميرة: يا صاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة، فقال ابن مسعود: صدقت والله إنها مني زلة.

فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلاً لا كثيرا، قصيراً لا طويلاً؛ وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة. فيقال أما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها.

وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا؛ فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور إما ادخار اليوم وقوعها وإن كان نادراً أو تشحيذاً للخواطر فنحن أيضاً نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لإقامة الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين.

فإن قلت فما المختار عندك فيه؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ؛ بل لابد فيه من تفصيل. فاعلم أولاً أن الشيء لذاته كالخمر والميتة أعني بقولي لذاته أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار، والموت وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام.

ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان لقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار والبيع وقت النداء وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الأضرار.

وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور، وكآكل الطين.

كان إطلاق التحريم على الطين والخمر، والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال فإن تصدى شيء تقابلت فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال: وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام.

أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم لذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه. ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد الحق. وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة، وتثبيته في صدورهم بحيث ينبعث دواعيهم في أسرع زمان إلا إذا كان نشوؤه في بلد يظهر فيه الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره؛ بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي علي قلبه، ويمنعه من إدراك الحق. حتى لو قيل له هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك؛ لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه، وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره.

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه. وهيهات! فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف. وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود.

ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور وفي أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على

العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل، فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه.

والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيه من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب.

وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا موضعه؛ وذلك في الحاجة وعلى قدر الحاجة وتفصيله.

إن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم، إذ ربما يثير لهم شكاً ويزلزل عليهم الاعتقاد. ولا يمكن القيام بعد ذلك الإصلاح.

وأما العامي المعتقد للبدعة فينبغي أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب، وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الموضوع على شرط المتكلمين إذ العامي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرون على دفعه. فالجدل مع هذا ومع الأول حرام، وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ.

والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عامي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه.

وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويتربص وقوع شبهة

فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة، فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم وهذا مقدار مختصر.

وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد وهو قدر خمسين ورقة وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين. فإن أقنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالباً والمرض سارياً فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه ويستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر الله له.

فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه، فأما الخارج منه فقسمان: أحدهما بحث عن غير قواعد العقائد؛ كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الإدراكات، وعن الخوض في الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما يرى أو ثبت لكل مرئي يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات العضلات.

والقسم الثاني: زيادة تقرير لتلك الأدلة في غير تلك القواعد، وزيادة أسئلة وأجوبة، وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالاً وجهلاً في حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقدير غموضاً.

ولو قال قائل البحث عن حكم الإدراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخواطر فهو من الدين أيضاً وذلك هوس فإن الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة.

فقد عرفت، بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام، والحال التي يذم فيها والحال التي يحمد فيها والشخص الذي ينتفع به والشخص الذي

لا ينتفع به.

فإن قلت مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة، والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وارهقت الحاجة فلابد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايت كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك، والتدريس فيه، والبحث عنه لا يدوم ولو ترك بالكلية لاندرس. وليس في مجرد الطباع كفاية لحل شبهة المبتدعة ما لم يتعلم.

فينبغي أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضي الله عنهم فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه فاعلم أن الحق أنه لابد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل بدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة؛ وذلك يدوم بالتعليم.

ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرناه فيه من أنواع الضرر، فالعالم به ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال:

إحداها: التجرد للعلم والحرص عليه فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت.

والثانية: الذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه.

والثالثة: أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين. فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السد الذي بينه وبين الملاذ فلا يحرض على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف؛ فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه.

وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القرآن من الملكات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس، وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها

صاحبها للتلبيس فإذا قابله مثله في الصنعة قاومه.

وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال.

نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها.

فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله تعالى تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قوبل المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولاي بلغ ساحله.

(مسألة): فإن قلت هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلي يبدو أولاً، وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه.

فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلا ومقامات العلماء والأولياء. وذلك ظاهر من أدلة الشرع.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً» وقال صلى الله عليه وسلم وأشار إلى صدره: «إن ههنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة». وقال صلى الله عليه وسلم: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نتكلم نكلم الناس على قدر عقولهم» وقال صلى الله عليه وسلم: «ما حدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم» وقال الله

تعالى:
(وتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، ومَا يَعْقِلُهَا إلا العَالِمُونَ)[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى». الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم. وقال صلى الله عليه وسلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

فليت شعري إن لم يكن ذلك سراً منع عن إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلِمَ لم يذكر لهم، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل:
(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ومِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ)[٢].

لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي لفظ آخر لقلتم إنه كافر. وقال أبو هريرة رضي الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين: أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم.

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر في صدره» رضي الله عنه ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقاً بقواعد الدين غير خارج منها. وما كان من قواعد الدين لم يكن خافياً بظواهره على غيره. وقال سهل التستري رضي اله عنه: للعالم ثلاثة علوم علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد.

---

[١] العنكبوت: ٤٣.
[٢] الطلاق: ١٢.

ومن ذلك ما قاله الشيخ المجدد عثمان بن فوديو في كتابه المسمى بأصول الدين ونصه ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فهذا كتاب أصول الدين نافع إن شاء الله لمن عوّل عليه فأقول وبالله التوفيق.

العالم كله من عرشه إلى فرشه حادث، وصانعه الله تعالى، وهو تعالى واجب الوجود، قديم لا أول له، باق ولا آخر له. مخالف للحوادث. ما هو بجرم ولا صفة للجرم، ولا جهة له، ولا مكان له بل هو كما كان في الأزل قبل العالم.

غني عن المحل والمخصص واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. قادر بقدرة، مريد بإرادة، عالم بعلم، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مختار في فعله وتركه، والكمال الإلهي كله واجب له، والنقص الذي هو ضد الكمال الإلهي كله مستحيل عليه.

ورسله كلهم من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم صادقون، أمناء مبلغون ما أمروا بإبلاغه للخلق، والكمال البشري كله واجب لهم، والنقص البشري كله مستحيل عليهم. ويجوز في حقهم الأكل والشرب والنكاح والبيع والشراء والمرض الذي لا يؤدي إلى النقص.

والملائكة كلهم معصومون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، نورانيون ليسوا بذكور ولا إناث ولا يأكلون ولا يشربون.

والكتب السماوية كلها حق، والموت بالأجل حق، وسؤال منكر ونكير للمقبور وغيره حق. وعذاب القبر حق ونعيمه حق، ويوم القيامة حق، وبعث الأموات في ذلك اليوم حق، وجمع الناس في ذلك اليوم في مكان واحد حق، وإيتاء الكتاب حق، والحساب حق، والصراط حق.

قال مقيده عفا الله تعالى عنه:

قوله: «إذا نهيتكم عن شيء-الحديث» هذا الحديث مختصر من الحديث الطويل كما قال ابن عساكر رحمه الله تعالى وقد ذكرته بطوله في شرحي على سنن ابن ماجة المسمى بالكواكب الوهاجة في الحديث الثاني منه. ونصه ما يلي:

حدثنا أبو عبد الله قال: ثنا محمد بن الصباح، قال: أنبأنا جرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ذروني ما تركتكم. فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم. وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا». وأصله ثابت في الصحيحين والكلام هناك مبسط فلتراجعه إن شئت.

وأما طريق السنة في باب الإيمان فكما قال الشيخ المجدد عثمان بن فودي في كتابه المسمى بإحياء السنة وإخماد البدعة طبع مصر ص٣٨-٤٢:

طريق السنة في باب الإيمان:

ما طريق السنة المحمدية في باب الإيمان، فهو أن يأخذ كل مؤمن عقيدته من القرآن العظيم، إذ الله تعالى أثبت جميع قواعد الإيمان، في القرآن.

والقرآن متواتر قطعي، وأثبت تلك القواعد بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[١].

وأثبت القدر بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢]، بل إنه تعالى أثبت جميع أصول الدين في القرآن: إلهياتها ونبوياتها وسمعياتها، وليس

---

[١] البقرة: ١٧٧.

[٢] القمر: ٤٩.

بعد بيان اللّه بيان، لأنه قد أثبت حدوث العالم بقوله: (اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)[١].

وأثبت كونه قديماً بقوله: (هُوَ الأَوَّلُ)[٢].

وأثبت كونه باقياً بقوله: (وتَوَكَّل عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ)[٣].

وأثبت كونه مخالفاً لخلقه بقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)[٤].

وأثبت كونه غنياً بقوله: (واللّهُ الغَنِيُّ)[٥].

وأثبت كونه واحداً بقوله: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ)[٦].

وأثبت كونه قادراً بقوله: (إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٧].

وأثبت كونه مريداً بقوله: (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) [٨].

وأثبت كونه عالماً بقوله: (إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [٩].

وأثبت كونه حياً بقوله: (هُوَ الحَيُّ)[١٠].

وأثبت كونه سميعاً بصيراً بقوله:(أَسْمَعُ وأَرَى)[١١].

---

[١] الزمر: ٦٢.
[٢] الحديد: ٣.
[٣] الفرقان: ٥٨.
[٤] الشورى: ١١.
[٥] محمد: ٣٨.
[٦] الإخلاص: ١.
[٧] البقرة: ٢٠.
[٨] البروج: ١٦.
[٩] الأنفال: ٧٥.
[١٠] آل عمران: ٢.
[١١] طه: ٤٦.

وأثبت كونه متكلماً بقوله: (وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) [١] .

وأثبت كونه مختاراً في الفعل والترك له: (وربُّكَ يَخلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَختَار) [٢] .

وأثبت رسالة الرسل بقوله: (ومَا أرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إلا رِجَالاً نُوحِي إلَيْهِم مِن أهْلِ القُرَى) [٣].

وأثبت رسالة محمد صلى اللّٰه تعالى عليه وآله وسلم بقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ) [٤].

وأثبت كونه آخر الأنبياء بعثاً بقوله: (وخَاتَمُ النَّبِيِّينَ) [٥].

وأثبت صدق الرسالة بقوله: (وصَدَقَ المُرْسَلُونَ) [٦].

وأثبت أمانتهم بقوله -في حكاية قولهم-: (إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمِينٌ) [٧].

وأثبت تبليغهم بقوله: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللّٰهِ) [٨].

وأثبت كونهم يتزوجون بقوله: (وجَعَلْنَا لَهُم أزْوَاجاً وذُرِّيَّةً) [٩].

وأثبت كونهم يأكلون الطعام ويبيعون ويشترون بقوله: (يَأكُلُونَ الطَّعَامَ

---

[١] النساء: ١٦٤.
[٢] القصص: ٦٨.
[٣] يوسف: ١٠٩.
[٤] الفتح: ٢٩.
[٥] الأحزاب: ٤٠.
[٦] يس: ٥٢.
[٧] الشعراء: ١٠٧، ١٢٥.
[٨] الأحزاب: ٣٩.
[٩] الرعد: ٣٨.

وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ)[١].

وأثبت كون الموت بالأجل بقوله: (إذَا جَاءَ أجَلُهُم فلا يَستَأخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ)[٢].

وأثبت تثبيت المؤمنين عند سؤال القبر بقوله: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ) [٣].

وأثبت عذاب القبر بقوله: (أَخْرِجُوا أنفُسَكُم اليَوْمَ تُجزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ) [٤].

وأثبت نعمته بقوله: (فَأَمَّا إن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وجَنَّةُ نَعِيمٍ * وأَمَّا إن كَانَ من أَصْحَابِ اليَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِن أصْحَابِ اليَمِينِ) [٥].

وأثبت البعث بقوله: (وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ) [٦].

وأثبت حشر الأجساد بقوله: (وحَشَرْنَاهُم فَلَم نُغَادِرْ مِنْهُم أحَداً) [٧] أي لا يترك أحداً منهم.

---

[١] الفرقان: ٢٠.
[٢] يونس: ٤٩.
[٣] إبراهيم: ٢٧.
[٤] الأنعام: ٩٣.
[٥] الواقعة: ٨٨-٩١.
[٦] الحج: ٧.
[٧] الكهف: ٤٧.

وأثبت إيتاء الكتب بقوله: (فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه) [١] في حق المؤمنين، وبقوله: (وأمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَاله [٢] في حق الكافرين.

وأثبت وزن الأعمال بقوله: (ونَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَة) [٣]

وأثبت الحساب بقوله: (يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ) [٤] .

وأثبت الصراط بقوله: (فَاهْدُوهُم إلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ) [٥] .

وأثبت النار بقوله: (إنَّا أَعْتَدنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً) [٦] .

وأثبت الكوثر بقوله: (إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر) [٧] .

وأثبت الجنة بقوله: (وجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) [٨].

وأثبت رؤية المؤمنين له تعالى في الآخرة بقوله: (وجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إلَى رَبِّهَا نَاظِرَة) [٩].

فهذه أصول الدين: إلهياتها ونبوياتها وسمعياتها، قد أثبتها الله تعالى كلها في القرآن العظيم.

ويجب على كل مكلف أن يعتقدها كما جاءت.

وفي قواعد الأحكام في إصلاح الأنام للشيخ عز الدين:

---

[١] الحاقة: ١٩.

[٢] الحاقة: ٢٥.

[٣] الأنبياء: ٤٧.

[٤] إبراهيم: ٤١.

[٥] الصافات: ٢٣.

[٦] الكهف: ٢٩.

[٧] الكوثر: ١.

[٨] الإنسان: ١٢.

[٩] القيامة: ٢٢، ٢٣.

اعتقاد جميع هذه الأصول في حق العامة قائم مقام العلم في حق الخاصة، لعسر وقوفهم على الأدلة فلأجل هذه المشقة عفا الله عنها في حقهم، ولذلك كان صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يلزم أحداً ممن أسلم بالبحث عن ذلك، بل كان يقرهم على ما يعلم أنه لا انفكاك لهم عنه.

ومازال الخلفاء الراشدون والعلماء المهتدون يقرونهم على ذلك مع علمهم بأن العامة لن يقفوا على الحق فيه ولم يهتدوا إليه وأجروا عليهم أحكام الإسلام من جواز المناكحات والتوارث والصلاة عليهم إذا ماتوا، وتغسيلهم وتكفينهم وحملهم ودفنهم في مقابر المسلمين، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد سامحهم لذلك وعفا عنهم لما أجريت عليهم أحكام المسلمين بإجماع المسلمين. انتهى.

قلت: وأما من كان من أهل البصيرة، فيجب عليه أن يعمل الفكر في هذه الأصول ليخرج من التقليد ويكون على بصيرة في اعتقاده، لأ الدين مبني على التبصر لأهل البصائر ولا سيما إذا بلغ المرء منهم مقام الدعوة إليه، قال الله تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[١].

فإن قلت: قد مر في كلام عز الدين أن الاعتقاد في حق العامة قائم مقام العلم في حق الخاصة لعسر وقوفهم على الأدلة، فلأجل هذه المشقة عفا الله عنها في حقهم. ولولا أنه تعالى عفا عنهم وسامحهم لذلك لما أجريت عليهم أحكام المسلمين بإجماع المسلمين. وكلامه مسلّم به في قول من يقول إن النظر ليس بشرط في صحة الإيمان، فهل تجري تلك الأحكام عليهم في قول من يقول إن النظر شرط في صحة الإيمان؟

قلت: نعم، لأن الأحكام مبنية على الظواهر في الدنيا كتاباً وسنة وإجماعاً، قال تعالى:

(ولا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُم السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً)[٢].

---

[١] يوسف: ١٠٨.

[٢] النساء: ٩٤.

وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كما في صحيح البخاري: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

وقد انعقد الإجماع على أن من أقر بالشهادتين جرت عليه الأحكام الإسلامية فيناكح ويؤم وتؤكل ذبيحته، ويرثه المسلمون، ويرثهم، ويدفن في مقابرهم، ولذلك قال عبد السلام بن إبراهيم اللقاني في شرح جوهرة التوحيد: الإيمان الكافي في الدنيا الإقرار فقط، فمن أقر جرت عليه الأحكام الإسلامية في الدين، ولم يحكم عليه بكفره إلا إذا اقترن بقيد يدل على كفر، كالسجود للصنم، ولذلك قال الشيخ السنوسي في الكبرى: فإنها في الآخرة غير مخلصة. وقال في شرحه ضمن كلامه هذا: في العمدة الوسطى: إن الإنسان باعتبار نفسه، فهو أعرف بها ولا يسأل عنها غيره، وأما الإنسان باعتبار غيره فحظه الجهل بحال ضميره وعدم الجزم في حقه بشيء باعتبار ما في نفس الأمر؛ إلا أن يشهد الشارع عليه الصلاة والسلام في أحد بشيء، فليقطع له بذلك في نفس الأمر، إذ الله ورسوله أعلم.

قال: فليس لنا أن نسيء الظن بإيمان أحد من المسلمين، عامياً كان أو غيره. إذ المعرفة محلها القلب، اللهم إلا أن يظهر على لسان امرئ ما يدل على ما كمن في ضميره من العقائد الفاسدة، فالواجب حينئذ أن يتلطف في تعليمه ومعاداته بما أمكن. انتهى ملخصاً باختصار.

فإن قلت: هذا النظر الذي يجب على المكلفين في قول من يقول بوجوبه هو على طريق العامة أو على طريق المتكلمين؟

قلت: فالجواب أنه على طريق العامة لا على طريق المتكلمين، قال الشيخ السنوسي في نور السعادة: يشترط معرفة النظر على طريق المتكلمين.

وفي شرح الكوكب للسيوطي: وقد كان الشيخ ضياء الدين القرني له لحية طويلة إلى قدميه فإذا ركب تتفرق فرقتين، فكل من رآه من العوام يقول: سبحان الخالق. فيقول: أشهد أن العوام مؤمنون بالنظر، لأنهم يستدلون بالصنعة على الصانع. انتهى المراد منه والحمد لله تعالى فلنكتف بهذا في هذا الباب ومن أراد الإكثار فعليه بالمطولات.

الفصل الأول
في طريق نقل الحديث وروايته وفيه سبعة فروع

الفرع الأول
في صفة الراوي وشرائطه

راوي الحديث له أوصاف وشرائط لا يجوز قبول روايته دون استكمالها. وهي أربعة: الإسلام، والتكليف، والضبط والعدالة. وهذه الأوصاف بعينها شرط في الشهادة كاشتراطها في الرواية.

وتتفرد الشهادة بأوصاف أخر تؤثر فيها كالحرية فإنها شرط في الشهادة، وليست شرطاً في الرواية، وكالعدد فإن رواية الواحد تقبل وإن لم تقبل شهادته إلا نادراً.

وقد خالف في ذلك جماعة فاشترطوا العدد، ولم يقبلوا إلا رواية رجلين، ويروي عن كل واحد منهما رجلان. وهذا فاسد، فإنه مع تطاول الأزمان يكثر العدد كثرة لا تنحصر، ويتعذر إثبات حديث أصلاً لا سيما في زماننا هذا.

وهذا الشرط قد التزمه البخاري ومسلم في كتابيهما حسبما ذكره الحاكم النيسابوري رحمه الله تعالى، وإن لم يجعلاه شرطاً. وسيجيء فيما بعد من هذا الباب بيان ذلك وإيضاحه.

وقال قوم لابد من أربعة رجال تغليظاً وتعظيماً لشأن الحديث. والأصل الأول.

فأما بيان شروط الرواية الأربعة فأولها الإسلام.

ولا خلاف في أن رواية الكافر لا تقبل لأنه متهم في الدين وإن كانت شهادة بعضهم على بعض مقبولة عند أبي حنيفة رضي الله عنه فلا خلاف في رد روايتهم.

الشرط الثاني – التكليف: فلا تقبل رواية الصبي لأنه لا وازع

له[١]عن الكذب فلا تحصل الثقة بقوله. وقول الفاسق أوثق من قول الصبي، وهو مردود فكيف الصبي؟ أو لأن قوله في حق نفسه بإقراره لا يقبل فكيف في حق غيره؟

أما إذا كان طفلاً عند التحمل، مميزاً بالغاً عند الرواية؛ فتقبل لأن الخلل قد اندفع عن تحمله وأدائه. ويدل على جوازه إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على قبول رواية جماعة من أحداث ناقلي الحديث كابن عباس وابن الزبير وأبي الطفيل ومحمود بن الربيع[١]وغيرهم من غير فرق بين ما تحملوه قبل البلوغ وبعده.

وعلى ذلك درج السلف الصالح من إحضار الصبيان مجالس الرواية ومن قبول روايتهم فيما تحملوه في الصغر.

إلا أن لأصحاب الحديث اصطلاحاً فيما يكتبونه للصغير، إذا كان طفلاً أو غير مميز، فإنهم يكتبون له حضوراً ومتى كان ناشئاً مميزاً كتبوا له سماعاً، ولقد كثر ذلك فيما بينهم حتى صاروا يكتبون الحضور للطفل الصغير جداً.

الشرط الثالث - الضبط:

وهو عبارة عن احتياط في باب العلم، وله طرفان:

طرف وقوع العلم عند السماع، وطرف الحفظ بعد العلم عند التكلم حتى إذا سمع ولم يعلم، لم يكن شيئاً معتبراً؛ كما لو سمع صياحاً لا معنى له، وإذا لم يفهم اللفظ بمعناه على الحقيقة لم يكن ضبطاً، وإذا شك في حفظه بعد العلم والسماع لم يكن ضبطاً.

ثم الضبط نوعان: ظاهر وباطن.

فالظاهر: ضبط معناه من حيث اللغة.

والباطن: ضبط معناه من حيث تعلق الحكم الشرعي به وهو الفقه.

---

[١] أي لا زاجر.

[٢] في الصحيح ١/١٤٠ بشرح (الفتح) من حديث الزهري عن محمود بن الربيع قال: عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم مجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو. وقد أورد الخطيب البغدادي في (الكفاية في علم الرواية) ص٥٤ ، ٦٥، أشياء حفظها جمع من الصحابة ومن بعدهم وحدثوا بها بعد ذلك وقبلت عنهم فانظرها إن شئت.

ومطلق الضبط الذي هو شرط الراوي هو الضبط ظاهراً عند الأكثر لأنه يجوز نقل الخبر بالمعنى على ما سيأتي بيانه؛ فتلحقه تهمة تبديل المعنى بروايته قبل الحفظ أو قبل العلم حين سمع؛ ولهذا المعنى قلّت الرواية عن أكثر الصحابة رضي الله عنهم لتعذر هذا المعنى. فمن كان عند التحمل غير مميز، أو كان مغفلاً لا يحسن ضبط ما حفظه ليؤديه على وجهه؛ فلا ثقة بقوله وإن لم يكن فاسقاً.

وهذا الشرط وإن كان بيناً فإن أصحاب الحديث قلما يعتبرونه في حق الطفل دون المغفل، لأنه متى صح عندهم سماع الطفل أو حضوره مجلس القراءة أجازوا روايته والأول أحوط للدين وأولى.

على أن الضبط في زماننا هذا؛ بل وقبله من الأزمان المتطاولة؛ قل وجوده في العالم، وعز وقوعه؛ فإن غاية درجات المحدث في زماننا المشهور بالرواية الذي ينصب نفسه لإسماع الحديث في مجالس النقل أن تكون عنده نسخة قد قرأها، أو سمعها، أو في بلدته نسخة عليها طبقة سماع، اسمه مذكور فيها أو له مناولة أو إجازة بذلك الكتاب. فإذا سمع عليه استمع إلى قارئه، وكتب له خطه بقراءته وسماعه؛ ولعل قارئه قد صحف فيه أماكن لا يعرفها شيخه، ولا عثر عليها، وإن سأله عنها كان أحسن أجوبته أن يقول: كذا سمعتها إن فطن لها.

وإذا اعتبرت أحوال المشايخ من المحدثين في زماننا وجدتها كذلك أو أكثرها ليس عندهم من الدراية علم ولا لهم بصواب الحديث وخطئه معرفة غير ما ذكرنا من الرواية على الوجه المشروح؛ على أنه ما يخلي الله بلاده وعباده من أئمة يهتدى بهم العالمون، وحفاظ يأخذ عنهم المهملون، وعلماء يقتدي بهم الجاهلون، وأفاضل يحرسون هذا العلم الشريف من الضياع، ويقرئونه صحيحاً كما انتهى إليهم في الأسماع، ويصونون معاقده من الانحلال، وقواعده من الزلل والاختلال حفظا لدينه وحراسة لقانونه.

نفعنا الله وإياكم معشر الطالبين بما آتاهم الله من فضله ووفق كلاً منا ومنكم للسداد في قوله وفعله.

الشرط الرابع - العدالة:

والعدالة عبارة عن استقامة السيرة والدين ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة في النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعاً حتى تحصل الثقة للنفوس بصدقة. ولا تشترط العصمة من جميع المعاصي، ولا يكفي

اجتناب الكبائر؛ بل من الصغائر ما ترد به الشهادة والرواية.

وبالجملة فكل ما يدل على ميل دينه إلى حد يستجيز على الله الكذب بالأغراض الدنيوية كيف وقد شرط في العدالة التوقي عن بعض المباحات القادحة في المروءة نحو الأكل والشرب في السوق، والبول في الشوارع ونحو ذلك.

وقد قال قوم: إن العدالة عبارة عن إظهار الإسلام فقط مع سلامته عن فسق الظاهر؛ فكل مسلم مجهول عندهم عدل[١].

وقد أخذ جماعة من أئمة الحديث عن جماعة من الخوارج وجماعة ممن ينسب إلى القدرية والشيعة وأصحاب البدع والأهواء[٢].

وتحرج عن الأخذ عنهم آخرون والكل مجتهدون.

والله يلهم الكافة طلب الحق وأخذه من مظانه والعمل به.

فهذه الشروط الأربعة هي المعتبرة في الرواية كما ذكرنا.

وللراوي أوصاف يظن بها أنها شروط وليست شروطاً، وإنما هي مكملات ومحسنات:

منها العلم والفقه: فلا يشترط كونه عالماً فقيهاً سواء خالف ما رواه القياس أو وافقه إذ رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه وإلى غير فقيه.

وقال قوم إنه شرط وهو بعيد.

---

[١] هذا مذهب ضعيف واتساع غير مرضي واكثر العلماء المحققين على خلافه.

[٢] جاء في (تاريخ الثقات) لابن حبان في ترجمة جعفر بن سليمان الضبعي ما نصه: ليس بين أهل الحديث من أئمتنا خلاف أن الصدوق المتقن إذا كان فيه بدعة ولم يكن يدعو إليها أن الاحتجاج بأخباره جائز؛ فإذا دعا إلى بدعته سقط الاحتجاج بأخباره.

نقول وقد احتج بعض الأئمة برواية المبتدعة الدعاة وغير الدعاة، فقد احتج البخاري بعمران ابن حطان وهو من دعاة الشراة، وبعبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني وكان داعية إلى الإرجاء. فالحق في هذه المسألة كما قال العلامة محمد بخيت المطيعي في حاشيته على (نهاية السول) (٣/٧٤٤): قبول رواية كل من كان من أهل القبلة يصلي بصلاتنا ويؤمن بكل ما جاء به رسولنا مطلقاً متى كان يقول بحرمة الكذب فإن من كان كذلك لا يمكن أن يبتدع بدعة، إلا وهو متأول فيها، مستند في القول بها إلى كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بتأول رآه باجتهاده، وكل مجتهد مأجور وإن أخطأ؛ نعم إذا كان ينكر أمراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة أو اعتقد عكسه كان كافراً قطعاً لأن ذلك ليس محلاً للاجتهاد بل هو مكابرة فيما هو متواتر من الشريعة، معلوم من الدين بالضرورة؛ فيكون كافراً مجاهراً فلا يقبل مطلقاً حرم الكذب أو لم يحرمه.

ومنها مجالسة العلماء وسماع الحديث: فليس ذلك شرطاً فقد قبلت الصحابة رضي الله عنهم حديث أعرابي لم يرو إلا حديثاً واحداً. نعم إذا عارضه حديث العالم الممارس ففي الترجيح نظر.

ومنها معرفة نسب الراوي: وليس بشرط بل متى عرفت عدالة شخص بالخبرة قبل حديثه، وإن لم يكن له نسب فضلاً أن يكون ثم لا يعرف. ولو روي عن مجهول العين لم نقبله بل من يقبل رواية المجهول الصفة لا يقبل رواية مجهول العين؛ إذ لو عرف عينه ربما عرفه بالفسق بخلاف من عرف عينه ولم يعرفه بالفسق. ولو روي عن شخص ذكر اسمه واسمه مردد بين مجروح وعدل؛ فلا يقبل لأجل التردد.

على أن أئمة الحديث قد رووا أحاديث كثيرة عن رجل ولم يذكروا اسمه وهذا مجهول وجاء بعدهم من اعتبر تلك الأحاديث فرواها من طرق عدة عن راوي ذلك الرجل، وسماه فصار ذلك الرجل الذي لم يسمه أئمة الحديث معروفاً بهذه الطرق فكأنهم لم يخرجوا تلك الأحاديث عن مجهول أو قد كانوا عرفوه وتركوا ذكر اسمه لغرض في أنفسهم والله أعلم.

ولا تقبل رواية من عرف باللعب واللهو والهزل في أمر الحديث، أو بالتساهل فيه، أو بكثرة السهو فيه إذ تبطل الثقة بجميع ذلك.

ومما يحتاج إليه طالب الحديث أن يبحث عن أحوال شيخه الذي يأخذ عنه بعدما يتحقق إيمانه وحسن عقيدته وأن ليس بصاحب هوى ولا بدعة يدعو الناس إليها.

فقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا فاته حديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سمعه من غيره حلف الذي يحدثه به على صحته[١]وعلى ذلك كان أكثر الصحابة، والتابعين وتابعي التابعين. رحمة الله عليهم وإن في الاقتداء بهم أسوة حسنة.

قلت:إلا من أبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر مسند أحمد.

---

[١] أخرج الإمام أحمد في المسند رقم٢ من حديث وكيع قال: حدثنا مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة الثقفي، عن علي بن ربيعة الوالبي، عن أسماء بن الحكم الفزازي، عن علي قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استحلفته؛ فإذا حلف لي صدقته وإن أبا بكر حدثني وصدق أبو بكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء» قال مسعر [ويصلي] وقال سفيان: [ثم يصلي ركعتين] فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له». وإسناده قوي، وصححه ابن خزيمة؛ وقا الحافظ ابن حجر في التهذيب ١/٢٦٧-٢٦٨ بعد كلام طويل: هذا الحديث جيد الإسناد.

الفصل الثاني

في بيان اختلاف أغراض الناس ومقاصدهم في تصنيف الحديث

مازلت أتتبع كتب الحديث وأطلبها رغبة في معرفته، والإحاطة به، لما يلزمني من أمور الإسلام والدين، ثم لأجل تشجيع شيخنا شيخ الإسلام رحمه الله محمد الأمين الشنقيطي لي نصيحة منه إلي يلزمني بالتمسك بالكتاب والسنة. فوجدت بعون الله فيها كل مطلوب وأدركت فيها بلطفه كل مرغوب، ورأيت هذا العلم على شرفه وعلو منزلته وعظم قدره علماً عزيزاً يحتاج إلى مزيد الاعتناء على ما حققه لنا المتقدمون رضوان الله تعالى عليهم. والناس في تصانيفهم التي جمعوها فيه وألفوها مختلفوا الأغراض متنوعوا المقاصد.

فمنهم من قصرت همته على تدوين الحديث مطلقاً ليحفظ لفظه، ويستنبط منه الحكم كما فعله عبيد الله بن موسى العيسي[١]وأبو داود الطيالسي[٢]وغيرهما من أئمة الحديث أولاً، وثانياً الإمام أحمد ابن حنبل ومن بعده، فإنهم أثبتوا الأحاديث في مسانيد رواتها؛ فيذكرون مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه مثلاً، ويثبتون فيه كل ما رووه عنه، ثم يذكرون بعده الصحابة واحداً بعد واحد على هذا النسق.

ومنهم من يثبت الأحاديث في الأماكن التي هي دليل عليها فيضعون لكل حديث باباً يختص به، فإن كان في معنى الصلاة ذكروه في (باب الصلاة) وإن كان في معنى الزكاة ذكروه في (باب الزكاة) كما فعله

---

[١] هو أبو محمد عبيد الله بن موسى بن أبي المختار باذام العيسي الكوفي ثقة خرج له الجماعة مات سنة ٢١٣هـ.

[٢] هو الحافظ الكبير سليمان بن داود بن الجارود الفارسي الأصل البصري الثقة صاحب المسند المطبوع في الهند. وقد رتبه الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي على الأبواب وأسماه (منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود) مات سنة أربع ومائتين عن عمر يناهز الثمانين.

مالك بن أنس في كتاب (الموطأ) وإلا أنه لقلة ما فيه من الأحاديث قلت أبوابه. ثم اقتدى به من بعده.

فلما انتهى الأمر إلى زمن البخاري ومسلم، وكثرت الأحاديث المودعة في كتابيهما كثرت أبوابهما وأقسامهما، واقتدى بهما من جاء بعدهما. وهذا النوع أسهل مطلباً من الأول لوجهين:

الأول: أن الإنسان قد يعرف المعنى الذي يطلب الحديث لأجله وإن لم يعرف راويه ولا في مسند من هو، بل ربما لا يحتاج إلى معرفة راويه، فإذا أراد حديثاً يتعلق بالصلاة طلبه من (كتاب الصلاة) وإن لم يعرف أن راويه أبو بكر رضي الله عنه.

والوجه الثاني: أن الحديث إذا ورد في (كتاب الصلاة) علم الناظر فيه أن ذلك الحديث هو دليل ذلك الحكم من أحكام الصلاة فلا يحتاج أن يتفكر فيه ليستنبط الحكم منه بخلاف الأول.

ومنهم من استخرج أحاديث تتضمن ألفاظاً لغوية، ومعاني مشكلة فوضع لها كتاباً قصره على ذكر متن الحديث وشرح غريبه وإعرابه ومعناه ولم يتعرض لذكر الأحكام كما فعله أبو عبيد القاسم بن سلام[١]وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة وغيرهما.

ومنهم من أضاف إلى هذا الاختيار ذكر الأحكام وآراء الفقهاء مثل أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي[٢]في (معالم السنن) وغيره من العلماء.

ومنهم من قصد ذكر الغريب دون متن الحديث، فاستخرج الكلمات الغريبة، ودونها، ورتبها، وشرحها، كما فعل أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي وغيره من العلماء.

ومنهم من قصد إلى استخراج أحاديث تتضمن ترغيباً وترهيباً، وأحاديث تتضمن أحكاماً شرعية غير جامعة؛ فدونها وأخرج متونها وحدها

---

[١] وكتابه في غريب الحديث طبع حديثاً في الهند ويقع في ثلاثة أجزاء.

[٢] هو الإمام العلامة حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الثقة الثبت أحد أوعية العلم والأدب واللغة والفقه وكتابه (معالم السنن) الذي أملاه على (سنن أبي داود) يشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع توفي رحمه الله سنة ٣٨٨هـ.

كما فعله أبو محمد الحسين بن مسعود[١]في كتاب (المصابيح).

وغير هؤلاء المذكورين من أئمة الحديث لو رمنا أن نستقصي ذكر كتبهم واختلاف أغراضهم ومقاصدهم في تصانيفهم لطال الخطب، ولم ننته إلى حد.

فاختلاف الأغراض هو الداعي لاختلاف التصانيف.

الفصل الثالث

في اقتداء المتأخرين بالسابقين وسبب اختصارات كتبهم وتأليفها

لما كان أولئك الأعلام هم الأولين في هذا الفن والسابقين إليه، ولم يأت صنعهم على أكمل الأوضاع وأتم الطرق، وكان غرضهم أولاً حفظ الحديث مطلقاً وإثباته، ودفع الكذب عنه، وحذف الموضوعات عليه، والنظر في طرقه، وحفظ رجاله، وتزكيتهم، واعتبار أحوالهم، والتفتيش عن دخائل أمورهم. حتى قدحوا فيمن قدحوا وجرحوا من جرحوا، وعدلوا من عدلوا، وأخذوا عمن أخذوا، وتركوا من تركوا. هذا بعد الاحتياط والضبط، والتدبر؛ فكان هذا مقصدهم الأكبر وغرضهم الأوفر.

ولم يتسع الزمان لهم والعمر لأكثر من هذا الغرض الأعم والمهم الأعظم ولا رأوا في أديانهم أن يشتغلوا بغيره من لوازم هذا الفن التي هي كالتوابع، بل ولا كان يجوز لهم ذلك، فإن الواجب أولاً إثبات الذات ثم ترتيب الصفات.

---

[١] هو محيي السنة الحسين بن مسعود الفراء البغوي المفسر المحدث الفقيه صاحب المؤلفات النافعة التي تدل على اتساع دائرته في النقل والتحقيق توفي في مرو الروذ من مدن خراسان سنة ٥١٦هـ وله من العمر بضع وسبعون سنة.

والأصل إنما هو عين الحديث وذاته؛ ثم بعد ذلك ترتيبه وتحسين وضعه؛ ففعلوا ما هو الفرض المتعين، واخترمتهم المنايا قبل الفراغ والتخلي لما فعله التابعون لهم والمتقدمون بهم والمهتدون بهديهم فتعبوا رحمهم الله لراحة من بعدهم ونصبوا الدعة من اقتفى آثارهم.

فمن هؤلاء المتقدمين أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني رحمه الله صاحب السنن. قال البغوي: ثم جاء الخلف الصالح فأحبوا أن يظهروا تلك الفضيلة ويشيعوا تلك المنقبة الجليلة وينشروا تلك العلوم التي أفنوا أعمارهم في جمعها، ويفصلوا تلك الفوائد التي أجملوا تحسين وضعها إما بإبداع ترتيب أو بزيادة تهذيب، أو اختصار وتقريب، أو استنباط حكم وشرح غريب.

فمن هؤلاء المتأخرين من جمع بين كتب الأولين بنوع من التصرف والاختصار كما فعله أبو بكر أحمد بن محمد البرقاني[١] وأبو مسعود إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي[٢]. واقتفى أثرهما أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي[٣]فإنهم جمعوا بين كتابي البخاري ومسلم ورتبوا كتبهم على المسانيد دون الأبواب كما سبق ذكره.

وتلاهم آخراً أبو الحسن رزين بن معاوية العبدري السرقسطي فجمع بين كتب البخاري ومسلم (والموطأ) لمالك و(جامع أبي عيسى الترمذي) و(سنن أبي داود السجستاني) و(سنن أبي عبد الرحمن النسائي) رحمة الله عليهم. ورتب كتابه على الأبواب دون المسانيد.

---

[١] هو الحافظ شيخ الفقهاء والمحدثين أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي البرقاني شيخ بغداد قال الخطيب: كان ثقة ورعاً ثبتاً لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه له حظ من علم العربية كثير، صنف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم مات سنة ٤٢٥هـ.

[٢] هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي الحافظ مصنف كتاب (الأطراف) وأحد من برز في هذا العلم قال الخطيب: سافر الكثير وكتب ببغداد عن أصحاب أبي سعيد الحراني وبالبصرة والأهواز وواسط وخراسان وأصبهان وكان له عناية بالصحيحين. كان صدوقاً ديناً ورعاً فهما مات سنة إحدى وأربعمائة.

[٣] هو الحافظ الثبت الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي الحميدي الأندلسي الظاهري قال ابن ماكولا: لم أر مثل صديقنا الحميدي في نزاهته وعفته وورعه وتشاغله بالعلم كان ورعا ثقة إماما في الحديث وعلله ورواته متحققافي علم التحقيق والأصول على مذهب اصحاب الحديث له عدة مؤلفات منها (جذوة المقتبس) و(الجمع بين الصحيحين) رحمه الله تعالى توفي سنة٤٨٨ .

إلا أن هؤلاء جميعهم لم يودعوا كتبهم إلا متون الحديث عارية من الشرح والتفسير، حسب ما أداهم إليه الغرض، وأحسنوا في الصنع، وفعلوا ما جنوا ثمرته دنيا وأخرى، وسنوا لمن بعدهم الطريق، ومهدوا المحجة في طلب هذا العلم. فأحسن الله إليهم. ومن جملتهم ابن ماجة.

الفصل الرابع
في خلاصة الغرض من جمع هذا الكتاب

لما وقفت على هذه الكتب ورأيتها في غاية من الوضع الحسن والترتيب الجميل ورأيت كتاب (ابن ماجة)، حيث حوى هذه الكتب الستة التي هي أم كتب الحديث، وأشهرها في أيدي الناس وبأحاديثها أخذ العلماء واستدل الفقهاء، وأثبتوا الأحكام وشادوا مباني الإسلام.

ومصنفوها أشهر علماء الحديث وأكثرهم حفظاً وأعرفهم بمواضع الخطأ والصواب، وإليهم المنتهى، وعندهم الموقف. وسنعقد فيما بعد باباً يتضمن مناقبهم وفضائلهم، وإلى أين انتهت مراتبهم في هذا الفن.

فحينئذ أحببت أن أشتغل بهذا الكتاب رغم ما فيه من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة وأعتني بأمره، ولو بقراءته ونسخه، فلما تتبعته وجدته لم يبين مواقف الأحاديث من حيث الصحة والحسن والضعف والوضع؛ فرأيت أحاديث كثيرة جداً صحيحة وحسنة وإن كان فيه الضعيف والموضوع على قلته.

فناجتني نفسي أن أشرح كتابه، وأوطئ مقصده، وأسهل مطلبه، وأضيف إليه ما أمكنني من بيان مرتبة كل حديث ذكر فيه أخذاً من الكتب المعتبرة في هذا الفن وأتبعه شرح ما في الأحاديث من الغريب والإعراب والمعنى، وغير ذلك مما يزيده إيضاحاً وبياناً، فاستصغرت نفسي عن ذلك واستعجزتها ولم يزل الباعث يقوى والهمة تنازع والرغبة تتوفر وأنا أعللها بما في ذلك من العرض للملام، والانتصاب للقدح، والأمن من ذلك جميعه مع الترك. ويأبى الله إلا أن يتم نوره، فتحققت بلطف الله العزيمة وصدقت بعونه النية وخلصت بتوفيقه الطوية.

فشرعت في الجمع بين أقوال بعض من شرح هذا الكتاب وغيرهم من شراح الكتب الخمسة. فاعتمدت على الأصول من هذا الفن واخترت له وضعا يزيد بيانه حسبما أدى إليه اجتهادي، وانتهى إليه عرفاني.

هذا بعد أن أخذت فيه رأي أولي المعارف والنهى، وأرباب الفضل والذكاء، وذوي البصائر الثاقبة والآراء الصائبة، واستشرت فيه من لا اتهمه ديناً وأمانة وصدقاً ونصيحة، وعرضت عليه الوضع الذي عرض لي واستضأت به في هذا الصنع الذي سنح لي، فكل أشار بما قوى العزم وحقق إخراج ما في القوة إلى الفعل.

فاستخرت اللّٰه تعالى وسألته أن يجعله خالصاً لوجهه ويتقبله ويعين على إنجازه بصدق النية فيه، ويسهله، وهو المجازي على مودعات السرائر وخفيات الضمائر.

هذا مع كثرة العوائق الدنيوية وازدحام العوارض الضرورية وتكاثر الفوادح النفسانية، وضيق الوقت عن فراغ البال لمثل هذا المهم العزيز، والغرض الشريف الذي إذا أعطاه الإنسان كله وأتاه منه أيسره وإذا قصر عليه عمره أمكنه منه أقصره.

ولولا أن الباعث عليه ديني، والغرض منه أخروي؛ لكانت القدرة على الإلمام به واهية، والهمة عن التعرض إليه قاصرة، والعزيمة عن الشروع فيه فاترة؛ وإنما كان المحرك قوياً والجاذب شريفاً علياً.

وأنا أسأل اللّٰه كل من وقف عليه، ورأى فيه خللاً، أو لمح فيه زللاً أن يصلحه حائزاً به جزيل الأجر وجميل الشكر، فإن المهذب قليل، والكامل عزيز بل عديم، وأنا معترف بالقصور والتقصير، مقر بالتخلف عن هذا المقام الكبير.

على أن هذا الكتاب في نفسه بحر زاخرة أمواجه، وبر وعرة فجاجه، لا يكاد الخاطر يجمع أشتاته، ولا يقوم الذكر بحفظ أفراده فإنها كثيرة العدد، متشعبة الطرق، مختلفة الروايات، وقد بذلت في جمعها وترتيبها الوسع واستعنت بتوفيق اللّٰه تعالى ومعونته في تأليفه وتهذيبه وتسهيله وتقريبه.

العقيدة الواسطية
لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مزيداً.

أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره.

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفو له ولا ند له. ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه. ثم رسله صادقون مصدقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون.

ولهذا قال سبحانه وتعالى:

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ* وسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ)[١].

---

[١] الصافات: ١٨٠-١٨٢.

فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون. فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)[١] وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب اللّه حيث يقول: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِن عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا -أي لا يكرثه ولا يثقله- وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ)[٢] ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من اللّه حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح.

وقوله سبحانه: (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[٣] وقوله سبحانه: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ)[٤] وقوله:

---

[١] الإخلاص: ١-٤.

[٢] البقرة: ٢٥٥.

[٣] الحديد: ٣.

[٤] الفرقان: ٥٨.

(وهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ * يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرْضِ وما يَخرُجُ مِنهَا ومَا يَنزلُ مِنَ السَّماء ومَا يَعرجُ فِيهَا)[١]-(وعِندَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ويَعلَمُ مَا فِي البَرِّ والبَحْر، ومَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلا يَعلَمُهَا، ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[٢]وقوله: (ومَا تَحمِلُ مِن أنثَى ولا تَضَعُ إلا بِعِلْمِهِ)[٣].

وقوله: (لِتَعلَمُوا أنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ وأنَّ اللَّهَ قَد أحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلماً)[٤]وقوله: (إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ)[٥]وقوله: (لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)[٦]وقوله: (إنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)[٧]وقوله: (ولَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ)[٨]- (ولَو شَاءَ اللَّهُ مَا اقتَتَلُوا ولَكِنَّ اللَّهَ يَفعَلُ مَا يُرِيدُ)[٩]وقوله: أُحِلَّت لَكُم بَهِيمَةُ الأنْعَامِ إلا مَا يُتْلَى عَلَيكُم غَيرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وأنْتُم حُرُمٌ. إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)[١٠]

---

[١] سبأ: ١، ٢.
[٢]الأنعام: ٥٩.
[٣] فاطر: ١١.
[٤] الطلاق: ١٢.
[٥] الذاريات: ٥٨.
[٦] الشورى: ١١.
[٧] النساء: ٥٨.
[٨] الكهف: ٣٩.
[٩] البقرة: ٢٥٣.
[١٠] المائدة: ١.

وقوله: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسلامِ، ومَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ) [١] وقوله: (وأَحْسِنُوا إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) [٢] - (وأقسِطُوا إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ) [٣] - (فَمَا استَقَامُوا لَكُم فَاستَقِيمُوا لَهُم إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ) [٤] - (إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ) [٥] وقوله: (قُل إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحبِبْكُم اللَّهُ) [٦] .

وقوله: (فَسَوفَ يَأتِي اللَّهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَهُ) [٧] وقوله: (إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَرصُوصٌ) [٨] وقوله: (وهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ) [٩] وقوله: (بِسمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [١٠] - (رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وعِلماً) [١١] - (وكَانَ بِالمُؤمِنِينَ رَحِيماً) [١٢] - (ورَحْمَتِي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ) [١٣] - (كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفسِهِ الرَّحمَةَ) [١٤] - (وهُوَ

---

[١] الأنعام: ١٢٥.
[٢] البقرة: ١٩٥.
[٣] الحجرات: ٩.
[٤] التوبة: ٧.
[٥] البقرة: ٢٢٢.
[٦] آل عمران: ٣١.
[٧] المائدة: ٥٤.
[٨] الصف: ٤.
[٩] البروج: ١٤
[١٠] النمل: ٣٠.
[١١] غافر: ٧.
[١٢] الأحزاب: ٤٣.
[١٣] الأعراف: ١٥٦.
[١٤] الأنعام: ٥٤.

الغَفُورُ الرَّحِيمُ) [١] -(فاللَّهُ خَيرٌ حَافِظاً وهُوَ أرحَمُ الرَّاحِمِينَ)[٢] .

وقوله: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْهُ) [٣] وقوله: (ومَن يَقتُل مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ولَعَنَهُ) [٤] وقوله: (ذَلِكَ بِأنَّهُم اتَّبَعُوا مَا أسْخَطَ اللَّهَ وكَرِهُوا رِضوَانَهُ)[٥]وقوله: فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُم)[٦]وقوله: (ولَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُم فَثَبَّطَهُم)[٧]وقوله: (كَبُرَ مَقتاً عِنْدَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)[٨]وقوله: (هَلْ يَنظُرُونَ إلا أن يَأتِيَهُم اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ والمَلائِكَةِ وقُضِيَ الأمْرُ)[٩]وقوله: (هَلْ يَنظُرُونَ إلا أن تَأتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أو يَأتِيَ ربُّكَ أو يَأتِيَ بَعْضُ آيَاتِ ربِّكَ[١٠]؛(كَلّا إذَا دُكَّتِ الأرضُ دَكّاً دَكّاً وجَاءَ ربُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)[١١]- (ويَومَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ ونُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنْزِيلاً)[١٢]وقوله: (ويَبقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرَامِ)[١٣]- (كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ)[١٤].

---

[١] يونس: ١٠٧.
[٢] يوسف: ٦٤.
[٣] المائدة: ١١٩.
[٤] النساء: ٩٣.
[٥] محمد: ٢٨.
[٦] الزخرف: ٥٥.
[٧] التوبة: ٤٦.
[٨] الصف: ٣.
[٩] البقرة: ٢١.
[١٠] الأنعام: ١٥٨.
[١١] الفجر: ٢١، ٢٢.
[١٢] الفرقان: ٢٥.
[١٣] الرحمن ٢٧.
[١٤] القصص:٨٨.

وقوله: (مَا مَنعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [١] -(وقَالَت اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّت أيدِيهِم ولُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيفَ يَشَاءُ) [٢] وقوله: (وَاْصبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [٣] -(وحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ ودُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ) [٤] -(وأَلقَيتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [٥] وقوله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتَشْتَكِي إلَى اللَّهِ، واللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) [٦] -(لَقَد سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ونَحْنُ أغنِيَاءُ) [٧] -(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُم ونَجْوَاهُم؟ بَلَى ورُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ) [٨] وقوله: (إنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأَرَى) [٩] وقوله: (أَلَم يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) [١٠] - (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) [١١] -(وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُم ورَسُولُهُ والمُؤْمِنُونَ) [١٢]

---

[١] ص: ٧٥.
[٢] المائدة: ٦٤.
[٣] الطور: ٤٨.
[٤] القمر: ١٣، ١٤.
[٥] طه: ٣٩.
[٦] المجادلة: ١.
[٨] آل عمران: ١٨١.
[٩] الزخرف: ٨٠.
[١٠] طه: ٤٦.
[١١] العلق: ١٤.
[١٢] الشعراء: ٢١٨-٢٢٠.
[١٣] التوبة: ١٠٥.

وقوله: (وهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ)[٢٣]وقوله: (ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ، واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)[٢٤]وقوله: (ومَكَرُوا مَكْراً ومَكَرْنَا مَكْراً وهُم لا يَشْعُرُونَ)[٢٥]وقوله: (إنَّهُم يَكيدُونَ كَيْداً * وأكِيدُ كَيْداً)[٢٦].

وقوله: (إنْ تُبْدُوا خَيراً أو تُخفُوهُ أو تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَديراً)[١] - (وليَعفُوا وليَصفَحُوا، ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُم؟ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٢]وقوله: (ولِلَّهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِه)[٣]وقوله عن إبليس: (فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُم أجْمَعِينَ)[٤]وقوله: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ والإكْرَامِ)[٥]وقوله: (فَاعبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ، هَل تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)[٦] - (ولَم يَكُن لَهُ كُفُواً أحَدٌ)[٧] - (فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أنْدَاداً وأنْتُم تَعلَمُونَ)[٨] - (ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ والَّذِينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)[٩] - (وقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَم يَتَّخِذْ وَلَداً ولَم يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي

---

[١] الرعد: ١٣
[٢] آل عمران: ٥٤.
[٣] النمل: ٥٠.
[٤] الطارق: ١٥، ١٦.
[٥] النساء: ١٤٩.
[٦] النور: ٢٢.
[٧] المنافقون: ٨.
[٨] ص: ٨٢.
[٩] الرحمن: ٧٨.
[١٠] مريم: ٦٥.
[١١] الإخلاص: ٤.
[١٢] البقرة: ٢٢.
[١٣] البقرة: ١٦٥.

الْمُلْكِ ولَم يَكُن لَهُ ولِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وكَبِّرْهُ تَكْبِيراً)[١٠] -(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ ومَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[١١] -(تَبارَكَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ولَم يَتَّخِذْ وَلَداً ولَم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)[١٢] -(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ومَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ولَعَلا بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ* عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[١٣] -(فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ)[١٤] -(قُل إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ والإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)[١٥].

وقوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) في سبعة مواضع: في سورة الأعراف قوله: (إِنَّ رَبَّكُم اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ)[١٦]وقال في سورة يونس عليه السلام: (إِنَّ رَبَّكُم

---

[١] الإسراء: ١١١.
[٢] التغابن: ١.
[٣] الفرقان: ١، ٢.
[٤] المؤمنون٩١، ٩٢.
[٥] النحل: ٧٤.
[٦] الأعراف: ٣٣.
[٧] الأعراف: ٥٤.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ)[١]وقال في سورة الرعد: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ)[٢]وقال في سورة طه: (الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى)[٣]وقال في سورة الفرقان: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، الرَّحْمَنُ)[٤]وقال في سورة ألم السَجدة: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ)[٥]وقال في سورة الحديد: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ)[٦].

وقوله: (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)[٧]-(بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)[٨]-(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[٩]-(يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً)[١٠]-(أَأَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُم

---

[١] يونس: ٣.
[٢] الرعد: ٢.
[٣] طه: ٥.
[٤] الفرقان: ٥٩.
[٥] السجدة: ٤.
[٦] الحديد: ٤.
[٧] آل عمران: ٥٥.
[٨] النساء: ١٥٨.
[٩] فاطر: ١٠.
[١٠] غافر: ٣٦، ٣٧.

الأرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُور * أم أمِنْتُم مَن فِي السَّمَاءِ أن يُرْسِلَ عَلَيْكُم حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ) [١] وقوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوات والأرضَ فِي سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرْضِ ومَا يَخْرُجُ مِنْهَا ومَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ومَا يَعرجُ فِيهَا وهُوَ معَكُم أيْنَمَا كُنْتُم واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [٢] - (مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُم ولا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُم ولا أدنَى مِن ذَلِكَ ولا أكْثَرَ إلا هُوَ معَهُم أيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهم بِمَا عَمِلوا يومَ القِيَامَةِ. إنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ) [٣] - (لا تَحْزَن إنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [٤] - (إنَّنِي مَعَكُمَا أسْمَعُ وأرَى) [٥] - (إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذِينَ هُم مُحْسِنُون) [٦] - (واصْبِرُوا إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [٧] - (كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرةً بِإذْنِ اللَّهِ، واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [٨] .

وقوله: (ومَن أصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً) [٩] - (ومَن أصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) [١٠] (وإذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مريَمَ) [١١] - (وتَمَّت كَلِمَةُ ربِّكَ

---

[١] الملك: ١٦، ١٧.
[٢] الحديد: ٤.
[٣] المجادلة: ٧.
[٤] التوبة: ٤٠.
[٥] طه: ٤٦.
[٦] النحل: ١٢٨.
[٧] الأنفال: ٤٦.
[٨] البقرة: ٢٤٩.
[٩] النساء: ٨٧.
[١٠] النساء: ١٢٢.
[١١] آل عمران: ٥٥.

صدقاً وعدلاً)[١] - (وكلّم اللّهُ موسَى تكليماً)[٢] - (منهم من كلّم اللّهُ)[٣] - (ولمّا جاء موسَى لميقاتنا وكلّمهُ ربُّهُ)[٤] - (وناديناهُ من جانبِ الطُّورِ الأيمنِ وقرّبناهُ نجيّاً)[٥] - (وإذ نادَى ربُّكَ موسَى أنِ ائتِ القومَ الظّالمينَ)[٦] - (وناداهُمَا ربُّهمَا ألَم أنهكُمَا عن تلكُمَا الشّجرة)[٧] - (ويومَ يُناديهم فيقولُ ماذا أجبتُمُ المُرسلينَ)[٨] - (وإن أحدٌ من المُشركينَ استجارَكَ فأجرهُ حتّى يسمعَ كلامَ اللّهِ)[٩] - (وقدْ كانَ فريقٌ منهُم يسمعُونَ كلامَ اللّهِ ثمّ يُحرّفُونَهُ من بعدِ مَا عقلُوهُ وهُم يعلمُونَ)[١٠] - (يُريدُونَ أن يبدّلُوا كلامَ اللّهِ قُلْ لَن تتّبعُونَا كذلكُم قالَ اللّهُ من قبلُ)[١١] - (واتلُ مَا أُوحيَ إليكَ من كتابِ ربّكَ لا مُبدّلَ لكلماتِه)[١٢] - (إنّ هذَا القرآنَ يقصُّ علَى بني إسرائيلَ أكثرَ الّذي هُم فيهِ

---

[١] الأنعام: ١١٥.
[٢] [٣] النساء: ١٦٤.
[٣] البقرة: ٢٥٣.
[٤] الأعراف: ١٤٣.
[٥] مريم: ٥٢.
[٦] الشعراء: ١٠.
[٧] الأعراف: ٢٢.
[٨] القصص: ٦٢.
[٩] القصص: ٦٥.
[١٠] التوبة: ٦.
[١١] البقرة: ٧٥.
[١٢] الفتح: ١٥.
[١٣] الكهف: ٢٧.

يَخْتَلِفُونَ) [١] - (وهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) [٢] - (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِن خَشْيَةِ اللَّهِ) [٣] - (وإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ واللَّهُ أعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَل أكثَرُهُم لا يَعْلَمُون * قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وهُدَىً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [٤] - (ولَقَد نَعْلَمُ أَنَّهُم يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) [٥] وقوله: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [٦] - (عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ) [٧] - (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) [٨] - (لَهُم مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا ولَدَيْنَا مَزِيدٌ) [٩].

وهذا الباب في كتاب اللَّه تعالى كثير. من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق.

---

[١] النمل: ٧٦.
[٢] الأنعام: ١٥٥.
[٣] الحشر: ٢١.
[٤] النحل: ١٠١، ١٠٢.
[٥] النحل: ١٠٣.
[٦] القيامة: ٢٢، ٢٣.
[٧] المطففين: ٣٥.
[٨] يونس: ٢٦.
[٩] ق: ٣٥.

فصـــل
في سنّة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

فالسنّة تفسر القرآن وتبينه، وتدل عليه وتعبر عنه وما وصف الرسول صلى اللّه عليه وسلم به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول، وجب الإيمان بها، كذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» متفق عليه.

وقوله صلى اللّه عليه وسلم: «للّه أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته» الحديث متفق عليه. وقوله صلى اللّه عليه وسلم: «يضحك اللّه إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة» متفق عليه. وقوله: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره، ينظر إليكم أذلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» حديث حسن.

وقوله صلى اللّه عليه وسلم: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول على من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله -وفي رواية- عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول قط قط» متفق عليه. وقوله: «يقول اللّه تعالى: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فينادى بصوت: إن اللّه يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار» متفق عليه.

وقوله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان» وقوله صلى اللّه عليه وسلم في رقية المريض: «ربنا اللّه الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع، فيبرأ» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» حديث صحيح. وقوله: «العرش فوق الماء، واللّه فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه» حديث

حسن رواه أبو داود وغيره. وقوله صلى الله عليه وسلم للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» رواه مسلم.

وقوله: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث ما كنت» حديث حسن وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قِبَل وجهه ولا عن يمينه فإن الله قِبل وجهه، ولكن عن يساره أو تحت قَدمه» متفق عليه. وقوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين واغنني من الفقر» رواه مسلم.

وقوله لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» متفق عليه. وقوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا» متفق عليه. إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به.

فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه العزيز من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل بل هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم. فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين الجبرية والقدرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرافضة والخوارج.

فصــــل

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه علي على خلقه وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)[١].

وليس معنى قوله (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع إليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه -من أنه فوق العرش وأنه معنا- حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف. ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله (في السماء) أن السماء تقله أو تظله وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض، وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا -ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره.

---

[١] الحديد: ٤.

فصـــل

وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه مجيب كما جمع بين ذلك في قوله:

(وإذا سألَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)[١].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو عليٌ في دنوه قريب في علوه.

فصـــل

ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه وإليه يعود، وأن الله تعالى تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة عنه، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه بذلك في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً، وهو كلام الله حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف.

---

[١] البقرة: ١٨٦.

فصــل

وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله سبحانه وتعالى.

فصــل

ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر، وبعذاب القبر ونعيمه. فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل: «من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فيقول المؤمن: الله ربي والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي.

وأما المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق.

ثم -بعد هذه الفتنة- إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الإواح إلى الأجساد وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، وتنصب الموازين فتوزن فيها أعمال العباد.

(فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) [١].

وتنشر الدواوين -وهي صحائف الأعمال- فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره، كما قال سبحانه وتعالى:

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً* اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) [٢].

ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة. وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حساب لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها.

وفي عرصة القيامة الحوض المورود للنبي صلى الله عليه وسلم ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، طوله شهر وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

والصراط منصوب على متن جهنم -وهو الجسر الذي بين الجنة والنار- يمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجواد ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم. فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، فمن مر على الصراط دخل الجنة، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا ذهبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

---

[١] المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.

[٢] الإسراء: ١٤.

وأول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته وله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات:

أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها.

ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ويبقي في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة.

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء والآثار من العلم المأثورة عن الأنبياء. وفي العلم الموروث عن محمد صلى الله عليه وسلم من ذاك ما يشفي ويكفي فمن ابتغاه وجده.

وتؤمن الفرقة الناجية -أهل السنة والجماعة- بالقدر خيره وشره. والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق. فأول ما خلق الله القلم قال له اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى:

﴿أَلَم تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ والأَرضِ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[١]. وقال: ﴿مَا أَصابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرضِ ولا فِي أَنفُسِكُم إِلا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٢].

وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلاً، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد. ونحو ذلك فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل.

وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة اللّٰه النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء اللّٰه كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة اللّٰه سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا اللّٰه خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه. ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته.

وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

والعباد فاعلون حقيقة واللّٰه خالق أفعالهم. والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم. وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة واللّٰه خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

---

[١] الحج: ٧٠.
[٢] الحديد: ٢٢.

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره؛ ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها.

فصـــل

ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه في آية القصاص:

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِن أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ)[١]وقال: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم)[٢].

ولا يسلبون الفاسق الملي الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: (فتحرير رقبة مؤمنة)[٣]وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى:

---

[١] البقرة: ١٧٨.

[٢] الحجرات: ٩ . ١٠.

[٣] النساء: ٩٢.

في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)[١].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن» ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم بكبيرته.

فصل

ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله في قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِر لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَل فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[٢].

وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل -وهو صلح الحديبية- على من أنفق من بعده وقاتل.

ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وبأنه لا

---

[١] الحشر: ١٠.
[٢] الأنفال: ٢

يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة، ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم، كما دلت عليه الآثار.

وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما -بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر- أيهما أفضل فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربعوا بعلي، وقدم قوم علياً، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي.

وإن كانت هذه المسألة -مسألة عثمان وعلي- ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله.

ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي» وقال أيضاً للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي» وقال: «إن الله اصطفى بني إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم».

ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية. والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال فيها النبي صلى

الله عليه وسلم: «فضل عائشة عل النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى أنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم خير القرون وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم.

ثم إذا كان قد صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه. فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إذا أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور.

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح. ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله.

ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة

من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة.

فصـــل

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة».

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.

ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أخيار الناس.

ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة.

وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة وإن كان لفظ الجماعة قد صار إسماً لنفس القوم المجتمعين، والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين.

وهم يَزِنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أعمال وأفعال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين.

والإجماع جميع ما عليه الناس مما له تعلق بالدين. والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة.

فصـــل

ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً، ويحافظون على الجماعات ويدينون بالنصيحة للأمة

ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضاء بمرّ القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال» ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك.

وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفاسفها.

وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم. لكن لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وفي حديث عنه أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي». صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة» فنسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب والله أعلم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

وقال شيخ الإسلام الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رضي الله تعالى عنه في مقدمة رسالته ما يلي:

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها.

وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم وتعمل به جوارحهم فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه ويشرفون بعلمه ويسعدون باعتقاده والعمل به وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين ويضربوا عليها لعشر ويفرق بينهم في المضاجع فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم وسكنت إليه أنفسهم وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم.

وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات، وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً ليقرب من فهم متعلميه إن شاء الله تعالى وإياه نستخير وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(باب) ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره ولا شبيه له ولا نظير له ولا ولد له ولا والد له ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخرته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته الواصفون ولا يحيط بأمره المتفكرون يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون

في ماهية ذاته ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

العالم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه. خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

على العرش استوى وعلى الملك احتوى وله الأسماء الحسنى والصفات العلى لم يزل بجميع صفاته وأسمائه تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة.

كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه، وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه.

علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به.

(ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ).

يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله؛ فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد. تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى أو يكون خالق لشيء إلا هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم.

ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم وهدى به الصراط المستقيم.

وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون، وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر، وجعل من

لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ويخرج منها بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم من شفع له من أهل الكبائر من أمته.

وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وأن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاصفاً لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها.

وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ويؤتون صحائفهم بأعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيراً.

وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم.

والإيمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ترده أمته لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدل وغير.

وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها؛ فيكون فيها النقص وبها الزيادة ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل ولا قول وعمل إلا بنية ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.

وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون؛ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن

علم ربهم.

وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه.

وأن خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكره، والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب.

والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم.

واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم.

وترك المراء والجدال في الدين.

وترك كل ما أحدثه المحدثون.

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً.

أخبار أهل الرسوخ في الفقه المنسوخ
بمقدار المنسوخ من الحديث

للمفسر الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العظيم في مجده، الكريم في رفده، المتفرد بتقلب قلب عبده، المبتلي بالشيء وضده. أحمده على حمده، وأصلي على رسوله محمد وآله وجنده. وأسلم.

وبعد: لما رأيت تخليط أكثر القدماء في علم ناسخ القرآن ومنسوخه جمعت فيه كتاباً مهذباً عن زللهم سليماً من خلطهم، يبين عواري مذهبهم، ويستغنى به عن كتبهم، ثم اختصرت منه جزءاً لطيفاً للحفظ بجميع عيونه. ويحصل مضمونه، ثم رأيت تخليطهم في علم ناسخ الحديث ومنسوخه. فألفت فيه كتاباً على نحو ما وصفت في الفن الأول، إلا أنه احتوى على ذكر كثير من أغلاطهم فطال، فرأيت أن أفرد في هذا الكتاب قدر ما صح نسخه أو احتمل، وأعرض عما لا وجه لنسخه ولا احتمال. فمن سمع بخبر يدعى عليه النسخ وليس في هذا الكتاب فليعلم وهاء تلك الدعوى، وها أنا أذكر ذلك عارياً عن الأسانيد، ليكون عجالة الحافظ، وقد تدبرته، فإذا فيه أحد وعشرون حديثا - والله الموفق.

الحديث الأول

روى حذيفة قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سباطة قوم فبال وهو قائم».

وروى جابر «أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يبول الرجل قائماً».

فادعى قوم نسخ الأول بالثاني وليس بصحيح، بل لكل واحد وجه، فإن

نهيه عن البول قائماً لئلا يعود رشاشه على البائل، ولحديث حذيفة ثلاثة أوجه أحدها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله لمرض منعه من القعود. والثاني: أنه استشفى بذلك من مرض والعرب تستشفى بالبول قائما. والثالث: أنه لم يتمكن من القعود في ذلك المكان لكثرة النجاسة وكأنه بال من علو إلى أسفل.

الحديث الثاني

روى أبو أيوب «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها».

وروى جابر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن نستقبل القبلة أو نستدبرها بفروجنا، ثم رأيته قبل موته بعام يبول مستقبل القبلة».

وقد ظن جماعة نسخ الأول بالثاني، وليس كذلك بل الأول محمول على من كان في الصحراء، والثاني على من كان في البنيان.

الحديث الثالث

روى ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بشاة ميتة فقال: ألا استمتعتم بجلدها قالوا: إنها ميتة. قال: إنما يحرم أكلها».

وروى عبد الله بن عكيم قال: «أتانا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بشهر أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب».

قال الأثرم: كأنه ناسخ للأول، ألا تراه يقول قبل وفاته بشهر، وقال غيره يجوز أن يكون حديث الإباحة قبل موته بيوم، والإهاب اسم للجلد قبل الدباغ، وحديث عبد الله بن عكيم مضطرب جداً، ولا يقاوم الأول لأنه في الصحيحين.

الحديث الرابع

روى أبو هريرة عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «توضأوا مما أنضجت النار».

وروى ابن عباس «أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أكل كتفاً ولم يتوضأ».

قال جابر: آخر الأمرين من رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار. وهذا دليل على النسخ.

وقد روى عكراش «أنه أكل مع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قصعة من ثريد ثم أتي بماء فغسل يده وفمه، ومسح وجهه، وقال يا عكراش: هذا الوضوء مما مست النار».

الحديث الخامس

روى طَلق بن علي أن رجلاً قال: «يا نبي اللّٰه أيتوضأ أحدنا إذا مس ذكره؟ فقال: هل هو إلا بضعة منك، أو من جسدك»؟!.

وقد روى عمرو بن عمرو، وأبو أيوب، وزيد بن خالد الجهني، وجابر وأبو هريرة، وعائشة وأم حبيبة، وبسرة «أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال: من مس فرجه فليتوضأ» وفي رواية بعضهم «من مس ذكره فليتوضأ».

وقد ادعي قوم نسخ حديث قوم بهذا وعللوا بأن طلقا قدم على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وهم يؤسسون المسجد، وأبو هريرة أسلم متأخراً وهو قول محتمل.

الحديث السادس

روى أبو سعيد الخدري رضي اللّٰه عنه عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «الماء من الماء».

وهذا الحديث كان معمولاً به في أول الإسلام ثم نسخ.

وقا رافع بن خديج: قال النبي صلى اللّٰه عليه وسلم: «الماء من الماء».

ثم قال بعد ذلك: «إذا جاوز الختان الختان وجب الغسل».

الحديث السابع

روى أبو سعيد يبلغ به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم».

قد ادعى قوم نسخه بقوله عليه الصلاة والسلام: «من توضأ فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل».

وفي هذا ضعف؛ لأن الحديث الأول أقوى، وإنما تأوله قوم منهم الخطابي فقال، قوله: واجب؛ أي لازم في باب الاستحباب، كما تقول: حقك واجب.

الحديث الثامن

روى أبو هريرة: «أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس».

وروت عائشة قالت: «ما دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العصر قط إلا صلى ركعتين».

الحديث الأول في الصحيحين.

قال الأثرم: وحديث عائشة رضي الله عنها خطأ، ووجه كونه خطأ أنه روي عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصليهما بعد الظهر فشغله قوم فصلاهما تعني بعد العصر مرة واحدة.

قال ابن عقيل، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصوصاً بجواز الصلاة في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، كما خص بجواز الوصال.

الحديث التاسع

روى وائل بن حجر: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضع يديه بين ركبتيه إذا ركع».

وقال سعد بن أبي وقاص: كنا نفعل ذلك ثم أمرنا بالركب. فهذا صريح في الإخبار بالنسخ.

الحديث العاشر

روي عن ابن مسعود: «أنه سلم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فرد عليه السلام».

وقال في حديث آخر: «كنا نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن نأتي أرض الحبشة -يعني وهو في الصلاة- فلما قدمنا سلمنا عليه فلم يرد وقال: إن الله يحدث من أمره ما شاء وإنه قد أحدث من أمره أن لا يتكلم في الصلاة». وهذا صريح في النسخ.

الحديث الحادي عشر

روى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة فلما نهى انتهى». وفي لفظ: «رأيت رسول اله صلى الله عليه وسلم قام فقمنا وقعد فقعدنا».

وهذا دليل على نسخ القيام. وقال ابن عقيل: يمكن الجمع؛ فيقال: القيام لها مستحب، والجلوس جائز، فلا نسخ.

الحديث الثاني عشر

روى أبو هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أدركه الصبح وهو جنب فلا صوم له».

ولما بلغ هذا عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبح جنباً فيقوم فيغتسل فيخرج والماء يتحدر على جلده فيصوم ذلك اليوم».

قال الشيخ أبو الفرج: حديث أبي هريرة يحتمل شيئين. أحدهما: أن يكون هذا قد كان في أول الإسلام ثم نسخ بما ذكرنا عن عائشة، والثاني: أن يكون إشارة إلى من تجنب من الجماع بعد طلوع الفجر، فإنه يؤمر بالإمساك ولا يعتد له بصوم ذلك.

الحديث الثالث عشر

روى علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وأبو زيد الأنصاري، وشداد بن أوس، وثوبان مولى رسول الله وأبو سعيد، وأبو هريرة وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أفطر الحاجم والمحجوم».

وروى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاث لا يفطرن الصائم: القيء والحلم والحجامة».

وروى أنس قال: «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجعفر ابن أبي طالب وهو يحتجم وهو صائم فقال: أفطر هذان».

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص للصائم في الحجامة. الأحاديث.

الأول: أثبت من هذين، وحديث أبي سعيد يرويه عبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم وقد أجمعوا على تضعيفه، وحديث أنس يرويه خالد بن مخلد البجلي فلو صح كان صريحاً في النسخ، غير أن أحمد بن حنبل طعن في خالد وقال: له أحاديث مناكير.

الحديث الرابع عشر

روى ابن عباس: «أن النبي صلى الله عليه وسلم صام عاشوراء وأمر بصيامه».

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صام عاشوراء وأمر بصيامه، فلما نزلت فريضة رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء أفطره».

وظاهر هذا أنه كان واجباً ونسخ.

الحديث الخامس عشر

روى سبرة الجهني قال: «أذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المتعة، فلم نخرج من مكة حتى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وروى أبو هريرة قال: «تمتعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

بمكة من النساء ثم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن جبريل أتاني فأخبرني أن الله عز وجل قد حرم متعة النساء فمن كان عنده منهن شيء فليفارقه، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المتعة يوم خيبر».

قال المصنف: الأحاديث متفقة على تحريم المتعة، إلا أن الأوائل تدل على وقوع التحريم بمكة.

وحديث علي يدل على أن ذلك كان بخيبر وهو مقدم لثلاثة أوجه.

أحدها: أنه متفق على صحته وحديث سبرة من أفراد مسلم.

والثاني: أن علياً عليه السلام أعلم بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم من غيره.

والثالث: أنه أثبت تقديماً في الزمان خفي على غيره، وكأنهم استعملوا عند فتح مكة ما كانوا يبيحونه من غير علم بالناسخ أنه قد وقع فنهاهم، وقد كان خفي ذلك عن جماعة منهم ابن عباس، فإنه كان يفتي بها مدة حتى نهاه علي بن أبي طالب.

وكذلك قال جابر بن عبد الله: «استمتعنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نهانا عمر» في شأن عمرو بن حريث.

الحديث السادس عشر

روى ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يؤكل لحم الأضاحي بعد ثلاث».

قال أبو سعيد: «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم: نهانا أن نحبسه فوق ثلاثة أيام ثم رخص لنا أن نأكل وندخر».

الحديث السابع عشر

قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه نهى عن الدباء والمزفت والنقير».

وصح عنه أنه قال: «كنت نهيتكم عن الأوعية فانتبذوا في كل وعاء ولا تشربوا مسكراً».
وهذا دليل النسخ.

الحديث الثامن عشر

روى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فمن كتب عني شيئاً فليمحه».
وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قيدوا العلم بالكتاب».
قال ابن قتيبة: نهى في أول الأمر، فلما علم أن السنن تكثر فتفوت الحفظ أجاز الكتابة.

الحديث التاسع عشر

قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه نهى عن قتل النساء والولدان».
وقد روى الصعب بن جثامة: «أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الدار من المشركين يبيتون فيصاب من نسائهم وذراريهم فقال هم منهم».
وكان الزهري إذا حدث بهذا الحديث يقول: هذا منسوخ، وليس قوله بصحيح إنما النهي عن تعمد النساء والولدان بالقتل، وحديث الصعب فيما لم يتعمد فلا تناقض.

الحديث العشرون

روى بريدة: «أن رجلاً كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه رجلاً فقال إن وجدته حيا فاقتله، وإن وجدته ميتا فحرقه بالنار فوجده قد مات فحرقه بالنار».
وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية، فقال إن وجدتم هبار بن الأسود فاجعلوه بين حزمتي حطب وأحرقوه بالنار، ثم بعث إليهم لا تعذبوا بالنار، لا يعذب بالنار إلا رب النار».

الحديث الحادي والعشرون

روى علي رضي اللّه عنه قال: «أهدى كسرى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقبل منه وأهدى له قيصر فقبل منه وأهدت له الملوك فقبل منها».

وفي رواية عن علي رضي اللّه عنه: «أن أكيدر دومة أهدى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثوبا».

وروى كعب بن مالك «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: لا أقبل هدية مشرك».

وفي حديث عياض بن جمار أنه أهدى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هدية وهو مشرك فردها، وقال: «إنا لا نقبل زبد المشركين» وهو العطاء.

وفي هذه الأحاديث ثلاثة أوجه:

أحدها: أن أحاديث القبول أثبت، وفي حديث عياض إرسال.

والثاني: أن حديث عياض متقدم وحديث أكيدر دومة في الآخر، فيكون من باب الناسخ والمنسوخ.

والثالث: أن يكون قبول الهدية من أهل الكتاب دون أهل الشرك وعياض لم يكن من أهل الكتاب، فيبقى علينا أن يقال: كيف قبل من كسرى؟

وجوابه من وجهين:

أحدها: أن الحديث يرويه ثوير بن أبي فاختة وليس بثقة.

والثاني: أن يكون القبول منسوخا في حق من لا كتاب له.

تم الكتاب بعون اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الإمام ابن ماجه

كما في كتاب [ما تمس إليه الحاجة] الصفحة (٣٣-٥٦).

وغيره من كلام العلماء رضوان الله تعالى عليهم، قال:

اسمه ونسبه: هو الإمام محمد بن يزيد الربعي مولاهم بالولاء، أبو عبد الله بن ماجة القزويني. وماجه بالتخفيف وسكون الهاء هل هو لقب جده أو أبيه أو اسم أمه فيه أقوال:

قال الشاه عبد العزيز الدهلوي في بستان المحدثين[١] «إن الصحيح أن ماجه بتخفيف الجيم كانت أمه وعليه فليكتب ابن ماجه بالألف ليعلم أنه وصف لمحمد لا لعبد الله كما يكتب عبد الله بن مالك ابن مجينة الصحابي المشهور، وإسماعيل بن إبراهيم ابن علية، كان معاصرا للإمام الشافعي رحمه الله.اهـ» وتبعه على ذلك السيد صديق حسن خان البوبالي في «الحطة بذكر الصحاح الستة»[٢] و«إتحاف النبلاء»[٣].

وقال العلامة السيد مرتضى الزبيدي في «تاج العروس» وهناك قول آخر وصححوا وهو أن ماجه اسم لأمه والله أعلم.اهـ. وقد عارض الشاه عبد العزيز المذكور نفسه فقال في كتابه «عجالة نافعة»[٤]: «إن ماجه لقب أبيه لا جده ولا اسم أمه وهو بالتخفيف لا بالتشديد ووقع في ذلك

---

[١] ص١١٢ طبع الهند ونصه: (وصحيح آن است كه ماجة بتخفيف جيم مادرا ويورفس بالاابن الف بايد نوشت تا معلوم شودكه ابن ماجه صفت محمد است نه صفت عبد الله بدستور عبد الله بن مالك ابن مجينة، كه صحابي مشهور است وبدستور اسماعيل بن إبراهيم ابن عليه كه معاصر إمام شافعي بود.

[٢] ص١١٨ طبع الهند.

[٣] ص٣٨١ طبع الهند.

[٤] ص٢٨ طبع دهلي ونصه: (وماجه لقب قدر أبو عبد الله است نه لقب جداونه نام مادر وبتخفيف جيم بايد خوانده به تشديد ووقع في ذلك أغلاط كثيرة.اهـ.

أغلاط كثيرة.اهـ» هكذا قال رحمه الله.

وقال المجد الفيروزبادي في «القاموس» «ماجه لقب والد محمد بن يزيد لا جده.اهـ». وقال السيد مرتضى الزبيدي في «شرح القاموس» «أي لا لقب جده كما زعمه بعض»، قال شيخنا -يريد الشيخ أبا الطيب الفاسي- وما ذهب إليه المصنف فقد جزم به أبو الحسن بن القطان، ووافقه على ذلك هبة الله بن زاذان وغيره قالوا: وعليه فيكتب «ابن ماجه» بالألف لا غير.اهـ».

وكذا قال الشيخ أبو الحسن السندي في «تعليقه على سنن ابن ماجه» ونقل الحافظ ابن كثير[١]عن الخليلي أيضاً: «إن يزيد يعرف بماجه.اهـ» وذكر الرافعي في «تاريخ قزوين» في ترجمته أنه «محمد بن يزيد وأن ماجه لقب يزيد وأنه بالتخفيف اسم فارسي قال: وقد يقال محمد بن يزيد ابن ماجه والأول أثبت.اهـ».

والربعي: بفتح الراء والباء المنقوطة بواحدة وفي آخرها العين المهملة هذه النسبة إلى ربيعة بن نزار وقل ما يستعمل ذلك لأن ربيعة بن نزار شعب واسع فيه قبائل عظام وبطون وأفخاذ استغنى بالنسبة إليها عن النسب إلى ربيعة. ويقال (الربعي) أيضاً لمن ينسب إلي ربيعة الأزد، كذا في الأنساب للسمعاني[٢]وقال ابن خلكان[٣]«هذه النسبة إلى ربيعة وهي اسم لعدة قبائل لا أدري إلى أيها ينسب المذكور.اهـ».

والقزويني: نسبة إلى قزوين، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ، «قزوين بالفتح ثم السكون وكسر الواو وياء مثناة من تحت ساكنة ونون، مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً إلى أبهر اثنا عشر فرسخاً وهي في الإقليم الرابع طولها خمس وسبعون درجة وعرضها سبع وثلاثون درجة. قال ابن الفقيه أول من استحدثها سابورذ والأكتاف.اهـ».

مولده: قال جعفر بن إدريس في تاريخه، سمعت ابن ماجه يقول:

---

[١] البداية والنهاية ج١١ ص٥٢.

[٢] ورق ٢٤٨ طبع ليدن.

[٣] وفيات الأعيان ج٣ ص٤٠٨ طبع مصر سنة ١٣٤٨هـ ٨ ج٧ ص ٨٠.

ولدت في سنة ٢٠٩ تسع ومائتين قاله ياقوت في معجم البلدان ويوافق هذا سنة ٨٢٤ أربع وعشرين وثمانمائة الميلادي.

رحلته في طلب الحديث وشيوخه:

قال ابن خلكان «ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث.اهـ.» وقال ابن حجر في «التهذيب» سمع بخراسان والعراق والحجاز ومصر والشام وغيرها من البلاد.اهـ». وقال ياقوت في «معجم البلدان» «سمع بدمشق هشام بن عمار ودحيماً والعباس بن الوليد الخلال وعبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان، ومحمود بن خالد، والعباس بن عثمان، وعثمان بن إسماعيل ابن عمران الذهلي، وهشام بن خالد، وأحمد بن أبي الحواري، وبمصر أبا طاهر بن سرح، ومحمد بن رويح ويونس بن عبد الأعلى، وبحمص محمد بن مصفى وهشام بن عبد الملك اليزني وعمراً ويحيى ابن عثمان، وبالعراق أبا بكر بن أبي شيبة وأحمد ابن عبدة وإسماعيل بن أبي موسى الفزاري وأبا خيثمة زهير بن حرب وسويد ابن سعيد وعبد الله بن معاوية الجمحي وخلقا سواهم.اهـ».

وقال الذهبي في «التذكرة» «سمع محمد بن عبد الله بن نمير وجبارة ابن المغلس وإبراهيم بن المنذر الحزامي[١]وعبد الله بن معاوية وهشام بن عمار ومحمد بن رمح وداود بن رشيد وطبقتهم.اهـ».

وقال الشيخ ولي الدين الخطيب في «الإكمال» «سمع أصحاب مالك والليث.اهـ». وصنف الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن ابن وهبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ أحد وسبعين وخمسمائة «معجماً» يشتمل على ذكر لأسماء شيوخ الأئمة الستة، وهو من محفوظات دار الكتب الظاهرية بدمشق.

---

[١] وهو إبراهيم بن المنذر بن عبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام الأسدي الحزامي بالزاي، صدوق تكلم فيه أحمد لأجل القرآن من العاشرة مات سنة ست وثلاثين.اهـ تقذيب. والحمد لله تعالى.

تلاميذه:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب: «روى عنه علي ابن سعيد بن عبد الله الغدالي العسكري، وإبراهيم بن دينار الجرشي الهمداني، وأحمد بن إبراهيم القزويني جد الحافظ أبي يعلى الخليلي، وأبو الطيب أحمد بن روح الشعراني، وإسحاق بن محمد القزويني، وجعفر بن إدريس، والحسين بن علي بن برانياد، وسليمان ابن يزيد القزويني. ومحمد ابن عيسى السفار وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القزويني الحافظ وأبو عمر وأحمد بن محمد بن حكيم المدني الأصبهاني وآخرون.اهـ».

ثناء أهل العلم عليه:

قال أبو يعلى الخليلي «ابن ماجه ثقة كبير متفق عليه محتج به، له معرفة وحفظ ارتحل إلى العراقين ومكة والشام ومصر، قال: وكان عارفاً بهذا الشأن.اهـ» وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ «ابن ماجه الحافظ الكبير المفسر..... صاحب السنن والتفسير والتاريخ ومحدث تلك الديار.اهـ» وقال في العبر: «الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه الكبير الشأن القزويني.اهـ» وقال ابن ناصر الدين: «هو أحد الأئمة الأعلام وصاحب السنن أحد كتب الإسلام حافظ ثقة كبير.اهـ» كذا في «شذرات الذهب»[١]لابن العماد.

وقال ابن الأثير في «الكامل» في ترجمته «كان عاقلاً إماماً عالماً.اهـ». وقال المؤرخ العلامة جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي في «النجوم الزاهرة»[٢]محمد بن يزيد ابن ماجه الإمام الحافظ الحجة الناقد أبو عبد الله القزويني... سمع الكثير وكان صاحب فنون.اهـ».

وقال ياقوت في «معجم البلدان»[٤]«ومن أعيان الأئمة من أهل قزوين

---

[١] ج٢ ص١٦٤.

[٢] ج٧ ص١٥٢.

[٣] ج٣ ص٧٠.

[٤]ج٧ ص٨٢.

محمد بن يزيد ابن ماجه أبو عبد الله القزويني الحافظ صاحب كتاب السنن.اهـ».

وقال ابن خلكان في «وفياته» «ابن ماجه الربعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور مصنف كتاب السنن في الحديث كان إماماً في الحديث عارفاً بعلومه وجميع ما يتعلق به اهـ».

وفاته:

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي في كتابه «شروط الأئمة الستة»[٥] «ورأيت بقزوين له «أي لابن ماجه» تاريخاً على الرجال والأمصار من عهد الصحابة إلى عصره وفي آخره بخط جعفر بن إدريس صاحبه، مات أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه المعروف يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان من سنة ٢٧٣ ثلاث وسبعين ومائتين. وسمعته يقول ولدت في سنة ٢٠٩ تسع ومائتين ومات وله أربع وستون سنة، وصلى عليه أخوه أبو بكر وتولى دفنه أبو بكر وأبو عبد الله أخواه وابنه عبد الله.اهـ» ويوافق ذلك سنة ٨٨٦ ست وثمانين وثمانمائة الميلادية وقال الرافعي في «تاريخ قزوين» ورثاه محمد بن الأسود بأبيات أولها:

لقد أوهى دعائم عرش علم وضعضع ركنه فقدُ ابن ماجه

ورثاه يحيى بن زكريا الطرائفي بقوله:

أيا قبر ابن ماجه غثت قطرا مساء بالغداة والعشي

نقله الحافظ في التهذيب.

مصنفاته:

قد ذكروا منها: (التفسير)، و(التاريخ)، و(كتاب السنن).

أما التفسير، فقال ابن كثير في «البداية» لابن ماجه تفسير حافل. وقال السيوطي في «الإتقان»[١]بعد ذكر قدماء المفسرين من الصحابة

---

[١] ص١٦.

[٢] ج٢ ص١٩٠.

والتابعين:

«ثم بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد ابن هارون وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وإسحاق بن راهويه وروح بن عبادة وعبد بن حميد وسعيد وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين وبعدهم ابن جرير الطبري وكتابه أجل التفاسير وأعظمها؛ ثم ابن أبي حاتم وابن ماجه، والحاكم، وابن مردويه، وأبو الشيخ وابن حبان وابن المنذر في آخرين وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط فهو يفوقها بذلك. ثم ألف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل.اهـ»[٢].

وأما التاريخ فقال ابن كثير في «البداية والنهاية» «لابن ماجه تفسير حافل وتاريخ كامل من لدن الصحابة إلى عصره.اهـ» وقال ابن خلكان: «له تفسير القرآن الكريم وتاريخ مليح.اهـ» وقد رآه الحافظ أبو الفضل المقدسي كما مر ذكره في وفاته.

وأما كتاب السنن فهو أحد دواوين الستة المشهورة، قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» «عن ابن ماجه قال عرضت هذه السنن على أبي زرعة فنظر فيه وقال: أظن إن وقع هذا في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع وأكثرها.اهـ». وقال أبو القاسم الرافعي في تاريخ قزوين المسمى «بالتدوين» «والحفاظ يقرنون كتابه بالصحيحين وسنن أبي داود والنسائي ويحتجون بما فيه»[١]وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» «ابن ماجة صاحب السنن المشهورة وهي دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه واتباعه السنة في الأصول والفروع ويشتمل على اثنين وثلاثين كتاباً وألف وخمسمائة باب وعلى أربعة آلاف حديث كلها جياد سوى اليسيرة.اهـ».

---

[١] ج١١ ص٥٢.

[٢] شرح السندي على سنن ابن ماجه، باب ذكر الديلم وفضل قزوين.

وقال في «اختصاره لعلوم الحديث لابن الصلاح[١]»«هو كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه.اهـ» وقال الذهبي في التذكرة: «سنن أبي عبد الله ابن ماجه كتاب حسن لولا ما كدره من أحاديث واهية ليست بالكثيرة.اهـ» وقال ابن حجر في التهذيب: «وكتابه في السنن جامع جيد كثير الأبواب والغرائب» قال ابن خلكان: «وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة.اهـ» وقال الحافظ ابن كثير في اختصاره لعلوم الحديث وهو المسمى «بالباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث»[٢]:

«أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني صاحب السنن التي كمل بها الكتب الستة والسنن الأربعة بعد الصحيحين التي اعتنى بأطرافها الحافظ ابن عساكر وكذلك شيخنا الحافظ المزي اعتنى برجالها وأطرافها.اهـ».

وقال السيد صديق حسن خان في «الحطة بذكر الصحاح الستة»[٣].

«قال الشيخ عبد الحق الدهلوي: كتابه واحد من الكتب الإسلامية التي يقال لها الأصول الستة والكتب الستة والصحاح الستة، قلت والأمهات الستة، وإذا قال المحدثون رواه الجماعة يريدون به هذه الرجال الستة في تلك الكتب الستة؛ وإذا قالوا رواه الأربعة فمرادهم هذه الأربعة غير البخاري ومسلم. وله عدة أحاديث ثلاثيات أوردها في سننه. انتهى. وهذه الثلاثيات من طريق جبارة بن المغلس[٤]وله حديث في فضل قزوين منكر بل موضوع ولهذا طعنوا فيه وفي كتابه، وواضعه رجل اسمه ميسرة.اهـ».

قلت كذا قال السيد المذكور وليس في سنده ميسرة بل المتهم به إما داود بن المحبر وإما يزيد بن أبان وقال الشيخ محمد بن يحيى الشهير بالمحسن التيمي ثم البكري الترهتي ثم الفريني في كتابه «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني»[٥]:

«ولابن ماجه رحمه الله خمسة أحاديث من الثلاثيات من طريق جبارة ابن المغلس الحماني قد تكلموا فيه أوردها في سننه هذا ولكتابه منافع،

---

[١]و[٢] ص ٩٠ طبع مكة المكرمة.

[٣] ص ١١٠ طبع الهند.

[٤] كذا فيه جبارة بن المفلس بالفاء، والصحيح جبارة بن المغلس بالغين المعجمة.

[٥] ص٥٧ طبع بالهند بهامش كشف الأستار عن رجال معاني الآثار.

وله مناقب رضي الله عنه وأرضاه.اهـ».

وقال العلامة ابن حجر الهيثمي في «الفهرسة»[١]:

قال المزي إن الغالب فيما انفرد به ابن ماجه الضعف ولذا جرى كثير من القدماء على إضافة الموطأ أو غيره إلى الخمسة قال الحافظ أول من أضاف ابن ماجة إلى الخمسة أبو الفضل بن طاهر حيث أدرجه معها في «الأطراف» وكذا في «شروط الأئمة الستة» ثم الحافظ عبد الغني في كتابه في أسماء الرجال الذي هذبه الحافظ المزي وسبب[٢]تقديم هؤلاء له على الموطأ كثرة زوائده على الخمسة بخلاف الموطأ وممن اعتنى بأطرافها الحافظ ابن عساكر ثم المزي مع رجالها.اهـ».

قلت أما قوله إنه جرى كثير من القدماء على إضافة الموطأ أو غيره إلى الخمسة، ففيه نظر فإنا لا نعلم أحداً من القدماء أضاف إلى الخمسة كتاباً لا الموطأ ولا غيره، فهذا الحافظ أبو الفضل بن طاهر يقول في «شروط الأئمة الستة»[٣]:

«أخبرنا أبو عبد الله بن أبي نصر الأندلسي قال سمعت أبا محمد علي ابن أحمد بن سعيد الحافظ الفقيه وقد جرى ذكر الصحيحين فعظم منهما ورفع شأنهما وذكر أن سعيد بن السكن اجتمع إليه يوماً قوم من أصحاب الحديث فقالوا له: إن الكتب في الحديث قد كثرت علينا، فلو دلنا الشيخ على شيء نقتصر عليه منها فسكت ودخل إلى بيته فأخرج أربع رزم

---

[١] ونقله العلامة الأمير اليماني صاحب سبل السلام في توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار ونسخته الخطية عندي محفوظة.

[٤] قال في اليانع الجني ص٥٧: (ويلزمهم على أصلهم هذا أن يدرجوا فيه كتباً كثيرة غيره مما فيه كثرة الزوائد وليس معنى الأصل عند المحققين ذلك الذي ابتدرت فيه أذهانهم لكن ما جمع بين الصحة والاستفاضة والقبول فرقي عليا درجاتها فما دونها يسيراً فذاك الذي يعد من الأصول ويحسب منها ولم ير الناقدون من الصحة في كتابه هذا فوق أنه ربما ينفرد بمن لا يقوم بروايته حجة في الدين ثم لا يميزه عن غيره من الثقات المتقنين.اهـ).

[٢] والحق أن أحسن كتاب رغب إليه الفحول بعد «كتاب الآثار» والموطأ وأحق بأن يعد في الأصول كتاب «معاني الآثار» للإمام الجليل أبي جعفر الطحاوي، فإنه عديم النظر في بابه، نافع كبير لمن اقتحم في عبابه.

[٣] ص ١٦ طبع مصر.

ووضع بعضها إلى بعض وقال هذه قواعد الإسلام كتاب مسلم وكتاب البخاري وكتاب أبي داود، وكتاب النسائي.اهـ».

وهذا أبو عبد الله بن مندة الحافظ يقول: «الذين خرجوا الصحيح أربعة، البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.اهـ» نقله السيوطي في زهر الربى[١]. ثم يأتي الحافظ أبو طاهر السلفي فيقول: «الكتب الخمسة اتفق على صحتها علماء المشرق والمغرب[٢] ثم يذكر ابن الصلاح في «مقدمته» والنووي في «تقريبه» وفيات أصحاب كتب الحديث الخمسة المعتمدة ولا يزيدان عليهم.

ويقول السيوطي في «تدريب الراوي شرح تقريب النواوي»[٣] «ولم يذكر المصنف كابن الصلاح وفاته «يعني ابن ماجه» كما لم يذكر كتابه في الأصول.اهـ» فهؤلاء كما ترى لا يضيفون إلى الأربعة أو الخمسة لا ابن ماجه ولا الموطأ ولا غيرهما.

وأول من أضاف الموطأ إلى الخمسة المحدث رزين بن معاوية العبدري السرقسطي المالكي المتوفى سنة ٥٢٥ خمس وعشرين وخمسمائة في كتاب «التجريد للصحاح والسنن»، ثم اتبعه المحدث المبارك بن محمد الجزري الشهير بابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ ست وستمائة في كتابه «جامع الأصول» ولم يذكر الذهبي كليهما في «تذكرة الحفاظ» قال أبو جعفر بن الزبير الغرناطي المتوفى سنة ٧٠٨ ثمان وسبعمائة «أولى ما أرشد إليه ما اتفق المسلمون على اعتماده وذلك الكتب الخمسة والموطأ الذي تقدمها وضعاً ولم يتأخر عنها رتبة.اهـ» نقله السيوطي في «زهر الربى»[٤] و«تدريب الراوي»[٥].

---

[١] ص ٨ طبع مطبعة نظامي بالهند.

[٢] قال النووي: (مراده أن معظم الكتب الثلاثة سوى الصحيحين يحتج به) وقال الزركشي في «نكته على ابن الصلاح» (تسمية الكتب الثلاثة صحاحاً إما باعتبار الأغلب لأن غالبها الصحاح والحسان وهي ملحقة بالصحاح والضعيف منها ربما التحق بالحسن فإطلاق الصحة عليها من باب التغليب) كذا في زهر الربى للسيوطي ص ٨).

[٣] ص ٢٦٠ طبع مصر.

[٤] ص ٧و٨.

[٥] ص ٥٦.

وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» في ترجمة الحافظ ابن حزم الظاهري:

«رأيته ذكر قول من يقول أجل المصنفات الموطأ، فقال بل أولى الكتب بالتعظيم صحيحا البخاري ومسلم وصحيح ابن السكن ومنتقى ابن الجارود والمنتقى لقاسم بن اصبغ ثم بعدها كتاب أبي داود وكتاب النسائي ومصنف القاسم بن اصبغ ومصنف أبي جعفر الطحاوي قلت: ما ذكر سنن ابن ماجة ولا جامع أبي عيسى الترمذي فإنه ما رآهما ولا دخلا إلى الأندلس إلا بعد موته، قال: ومسند البزار ومسند ابن أبي شيبة ومسند أحمد بن حنبل ومسند اسحق ومسند الطيالسي ومسند الحسن بن سفيان ومسند ابن سنجر ومسند عبد الله بن محمد المسندي ومسند يعقوب بن شيبة ومسند علي بن المديني ومسند ابن أبي عزرة وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الكتب التي فيها كلامه وكلام غيره مثل مصنف عبد الرزاق؟ ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة، ومصنف بقي بن مخلد، وكتاب محمد بن نصر المروزي، وكتاب ابن المنذر الأكبر والأصغر، ثم مصنف حماد بن سلمة وموطأ مالك بن أنس، وموطأ ابن أبي ذئيب، وموطأ ابن وهب، ومصنف وكيع، ومصنف محمد بن يوسف الفريابي، ومصنف سعيد بن منصور، ومسائل أحمد وفقه أبي عبيد وفقه أبي ثور.

قلت: ما أنصف ابن حزم بل رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين مع سنن أبي داود والنسائي لكنه تأدب وقدم المسندات النبوية الصرفة، وإن للموطأ لوقعاً في النفوس ومهابة في القلوب لا يوازيها شيء.اهـ».

نقله الفاضل اللكنوي محمد عبد الحي في التعليق الممجد على موطأ الإمام محمد[١].

قلت لا شك أن «الموطأ» أمثل من سنن ابن ماجه بل ومن الكتب الخمسة بكثير فإنه أم الصحيحين وكذلك «كتاب الآثار» وهو أم الأم رغم إعراض من أعرض عنه، وجل هذان الكتابان لجلالة مؤلفيهما. والفرق

---

[١] ص ١١و١٢ طبع مطبعة يوسفي بالهند.

بينهما وبين هذه الكتب كما هو بين مؤلفيها.

وقال السيوطي في «التدريب»[١] «صرح الخطيب وغيره بأن الموطأ مقدم على كل كتاب من الجوامع والمسانيد.اهـ» وقال الحافظ أبو بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي»[٢] «اعلموا أنار الله أفئدتكم أن كتاب الجعفي هو الأصل الثاني في هذا الباب والموطأ هو الأصل الأول واللباب وعليهما بناء الجميع كمسلم والترمذي فما دونهما.اهـ».

وأول من أضاف كتاب ابن ماجه إلى الخمسة مكملاً به الستة الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٥٠٧ سبع وخمسمائة في «أطراف الكتب الستة» له وكذا في «شروط الأئمة الستة» له ثم الحافظ عبد الغني المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ ستمائة. وأول من جمع أطرافه مع السنن الثلاثة الحافظ أبو القاسم بن عساكر المتوفى ٥٧١ إحدى وسبعين وخمسمائة، فتبعهم على ذلك أصحاب الأطراف والرجال والناس.

وعلى هذا فوقعت الإضافة إلى الخمسة في آخر القرن الخامس أو على رأس المائة السادسة ولا يؤثر في ذلك عن القدماء شيء.

وأما إضافة الدارمي بدل ابن ماجه فأقول به حادث وقع بعد إضافة سنن ابن ماجه إلى الكتب الخمسة. وأول من قال ذلك الحافظ أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي المتوفى سنة ٧٦١ إحدى وستين وسبعمائة.

قال العلامة محمد عابد السندي محدث القرن المنصرم في ثبته المعروف «بحصر الشارد في أسانيد الشيخ محمد عابد»: «عن الشيخ الإمام صلاح الدين العلائي أنه قال: لو قدم مسند الدارمي بدل ابن ماجه فكان سادسا لكان أولى.اهـ» قال العلامة محمد بن إسماعيل الأمير اليماني في «توضيح الأفكار»[٣] «وكأنه اغتر الحافظ العلائي بكلام مغلطائي فإنه قال: ينبغي أن يجعل مسند الدارمي سادساً للخمسة بدل ابن ماجه فإنه قليل الرجال الضعفاء نادر الأحاديث المنكرة والشاذة وإن كان فيه أحاديث مرسلة وموقوفة فهو مع ذلك أولى من سنن ابن ماجه» إلى آخر كلامه ويحتمل

---

[١] ص ٣٦.

[٢] ج١ ص ٥ طبع مصر.

[٣] ونسخة هذا الكتاب محفوظة عندي بخط والدي أبقاه الله تعالى مع الخير والعافية.

أنه أراد تفضيله على ابن ماجه بخصوصه وأن ابن ماجه رجاله الضعفاء أكثر وأحاديثه الشاذة والمنكرة غير نادرة.اهـ».

ثم تبع الحافظ ابن حجر العسقلاني كما ينقله السيوطي في «التدريب»[١] «قال شيخ الإسلام ليس (يعني كتاب الدارمي) دون السنن في الرتبة بل لو ضم إلى الخمسة لكان أولى من ابن ماجه فإنه أمثل منه بكثير.اهـ» ومع هذا يتعقب ابن حجر كلام الحافظ مغلطائي المذكور آنفاً بقوله: «وأما ما يتعلق بالدارمي فتعقبه الشيخ زين الدين بأن فيه الضعيف والمنقطع لكن بقي مطالبة مغلطائي بصحة دعواه أن جماعة أطلقوا على مسند الدارمي كونه صحيحاً فإني لم أر ذلك في كلام أحد ممن يعتمد عليه»، ثم قال: كيف ولو أطلق عليه ذلك من يعتمد عليه لكان الواقع خلافه لما في الكتاب المذكور من الأحاديث الضعيفة والمنقطعة والموضوعة والموطأ في الجملة انظف أحاديث وأتقن رجالاً منه.اهـ» كذا نقله الأمير اليماني في «توضيح الأفكار».

وقال السيوطي في «تدريب الراوي»[٢] «قال شيخ الإسلام ولم أر لمغلطائي سلفاً في تسمية الدارمي صحيحاً إلا أن قوله إنه رآه بخط المنذري وكذا قال العلائي.اهـ».

ولم يعرج في هذا الباب على قول العلائي ولا ابن حجر، قال المحدث العلامة عبد الغني النابلسي في «ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث»[٣] «وقد اختلف في السادس فعند المشارقة هو كتاب السنن لأبي عبد الله محمد بن ماجه القزويني، وعند المغاربة كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس الأصبحي.اهـ» لكن صرح الشيخ أبو الحسن السندي في مقدمة شرحه على سنن ابن ماجة أن «غالب المتأخرين على أنه (يعني سنن ابن ماجه) سادس الستة.اهـ» وقال السيوطي في «التدريب»[٤] «لم

---

[١] ص ٥٧.

[٢] ص٥٧.

[٣] ج١ ص ٣.

[٤] ص ٣٠.

يدخل المصنف سنن ابن ماجه في الأصول وقد اشتهر في عصر المصنف وبعده جعل الأصول ستة بإدخاله فيها.اهـ».

وبالجملة فهو دون الكتب الخمسة في المرتبة كما صرح به العلامة السندي في مقدمة تعليقه، وقال العلامة محمد بن إبراهيم المعروف بابن الوزير في «تنقيح الأنظار» «وأما سنن ابن ماجة فإنها دون هذين الجامعين (يعني كتاب أبي داود والنسائي) والبحث عن أحاديثهما لازم وفيها حديث موضوع في أحاديث الفضائل».

وقال الحافظ أبو الفضل محمد بن ظاهر المقدسي في كتابه «شروط الأئمة الستة»[١]:

(رأيت على ظهر جزء قديم بالري حكاية كتبها أبو حاتم الحافظ المعروف بخاموش قال أبو زرعة الرازي طالعت كتاب أبي عبد الله (ابن ماجه) فلم أجد فيه إلا قدراً يسيراً مما فيه شيء وذكر قريب بضعة عشر أو كلاماً هذا معناه.اهـ).

ونقل الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ» عن ابن ماجه:

(قال عرضت هذه السنن على أبي زرعة فنظر فيه وقال أظن إن وقع هذا في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع أو أكثرها، ثم قال: لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما في إسناده ضعف.اهـ).

لكن قال في ترجمته في «النبلاء» (وقول أبي زرعة لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما في سنده ضعف أو نحو ذلك إن صح كأنما عنى بثلاثين حديثاً الأحاديث المطرحة الساقطة، وأما الأحاديث التي لا تقوم بها حجة فكثيرة لعلها نحو الألف.... وقال فيه.... كان حافظاً ناقداً صادقاً واسع العلم، وإنما غض من رتبة سننه ما فيها من المناكير وقليل من الموضوعات.اهـ).

نقله ابن الوزير في «تنقيح الأنظار» وقال: (إنما أراد الذهبي تقليل الأحاديث الباطلة. وأما الأحاديث الضعيفة في عرف أهل الحديث ففيه قدر ألف حديث منها كما ذكر في «النبلاء» في ترجمة ابن ماجه وقدر الباطلة

---

[١] ص ١٦.

بعشرين حديثاً فيحرر من «النبلاء».اهـ). وقال الحافظ السيوطي في «زهر الربى على المجتبى»[١]:

وقال الإمام أبو عبد الله بن رشيد كتاب النسائي أبدع الكتب المصنفة في السنن تصنيفاً وأحسنها ترصيفاً وكأن كتابه جامع بين طريقي البخاري ومسلم مع حظ كثير من بيان العلل.

وفي الجملة فكتاب السنن أقل الكتب بعد الصحيحين حديثاً ضعيفاً ورجلاً مجروحاً ويقاربه كتاب أبي داود وكتاب الترمذي، ويقابله من الطرف الآخر «كتاب ابن ماجه» فإنه تفرد فيه بإخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الأحاديث وبعض تلك الأحاديث لا تعرف إلا من جهتهم مثل حبيب بن أبي ثابت كاتب مالك، والعلاء بن زيد، وداود بن المحبر، وعبد الوهاب بن الضحاك، وإسماعيل بن زياد السكوني وعبد السلام بن يحيى أبي الجنوب وغيرهم.

وأما ما حكاه ابن طاهر عن أبي زرعة الرازي، أنه نظر فيه فقال لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما فيه ضعف فهي حكاية لا تصح لانقطاع سندها وإن كانت محفوظة فلعله أراد ما فيه من الأحاديث الساقطة إلى الغاية أو كان ما رأى من الكتاب إلا جزءاً منه فيه هذا القدر. وقد حكم أبو زرعة على أحاديث كثيرة منه بكونها باطلة وساقطة أو منكرة وذلك محكي في «كتاب العلل» لابن أبي حاتم».

وقال الشيخ أبو الحسن السندي في «تعليقه»:

(وقد اشتمل هذا الكتاب من بين الكتب الستة علي شئون كثيرة انفرد بها عن غيره. والمشهور أن ما انفرد به يكون ضعيفاً وليس بكلي، لكن الغالب كذلك وقد ألف الحافظ الحجة العلامة أحمد بن أبي بكر البوصيري رحمه الله تعالى في زوائده تأليفاً نبه على غالبها وأنا إن شاء الله أنقل غالب ما يحتاج إليه في هذا التعليق.اهـ).

وقال الحافظ ابن حجر في «التهذيب»:

---

[١] ص ٨.

(قلت كتابه في السنن جامع جيد كثير الأبواب والغرائب وفيه أحاديث ضعيفة جداً؛ حتى بلغني أن المزي كان يقول: مهما انفرد بخبر فيه فهو ضعيف غالباً وليس الأمر في ذلك على إطلاقه باستقرائي. وفي الجملة ففيه أحاديث كثيرة منكرة والله تعالى المستعان. ثم وجدت بخط الحافظ شمس الدين محمد بن علي الحسيني ما لفظه: سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: كل ما انفرد به ابن ماجه فهو ضعيف يعني بذلك ما انفرد به من الحديث عن الأئمة الخمسة انتهى ما وجدته بخطه، وهو القائل يعني وكلامه هو ظاهر كلام شيخه لكن حمله على الرجال أولى، وأما حمله على أحاديث فلا يصح كما قدمت ذكره من وجود الأحاديث الصحيحة والحسان مما انفرد به من الخمسة.اهـ).

وأما ما أورده ابن الجوزي في الموضوعات من أحاديث ابن ماجه فنحو أربعة وثلاثين حديثاً ولا بأس أن نتكلم عليها حديثاً حديثاً لكي يكشف القناع عن وجوه هذه الروايات ويكون القارئ منه على بصيرة، فنقول وبالله التوفيق.

سياق الأحاديث التي أدرجها ابن الجوزي في الموضوعات:

الحديث الأول:

ما أخرجه ابن ماجه في الإيمان من طريق (عبد السلام بن الصلت الهروي ثنا علي بن موسى الرضى عن أبيه، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن علي بن الحسين عن أبيه، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان».

وقال أبو الصلت لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لبرأ.اهـ) قال ابن الجوزي (موضوع. أبو الصلت عبد السلام بن صالح متهم لا يجوز الاحتجاج به.اهـ).

وقال الذهبي في الميزان: (قال الدارقطني: رافضي خبيث متهم بوضع حديث الإيمان إقرار بالقول.اهـ) ولفظ ابن حجر في التهذيب (قال أبو الحسن (الدارقطني) وروى حديث الإيمان إقرار بالقول.اهـ) وروى حديث الإيمان إقرار بالقول، وهو متهم بوضعه لم يحدث به إلا من سرقه منه فهو الابتداء في هذا الحديث.اهـ) وقال الدميري في «الديباجة». موضوع. وكذا قال ابن رجب الزبيري في شرحه على ابن ماجه تابعين في ذلك ابن الجوزي، قال السندي:

(وفي الزوائد إسناد هذا الحديث ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي الصلت الراوي، قال السيوطي: والحق أنه ليس بموضوع. وأبو الصلت وثقه ابن معين وقال ليس ممن يكذب، ويذكر المزي في التهذيب متابعات لهذا الحديث.اهـ).

وعندي القول فيه ما قال الدارقطني فإن الحافظين الذهبي وابن حجر قد نقلاه ولم ينكرا عليه.

الحديث الثاني:

ما أخرجه ابن ماجه في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه من طريق المنهال عن عباد بن عبد الله قال: قال علي: «أنا عبد الله وأخو رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب، صليت قبل الناس بسبع سنين.اهـ).

قال ابن الجوزي: (موضوع آفته عباد، والمنهال تركه شعبة.اهـ. وقال الذهبي في «الميزان» في ترجمة عباد: (هذا كذب على علي رضي الله عنه.اهـ) وقال السيوطي في «التعقبات على الموضوعات»[١]: (أخرجه النسائي في الخصائص والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين لكن تعقبه الذهبي بأن عباد ضعيف.اهـ) قلت ونص الذهبي في «التلخيص»[٢] هكذا: (كذا قال «يعني الحاكم» وليس هو على شرط واحد منهما بل ولا هو بصحيح؛ بل حديث باطل فتدبره. وعباد قال ابن المديني ضعيف.اهـ).

---

[١] ص ٥٧ طبع مطبعة علوي بالهند.

[٢] تلخيص المستدرك ج٣ ص ١١٢ طبع حيدراباد الدكن بالهند.

الحديث الثالث:

ما أخرجه ابن ماجه في فضل عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه من طريق (عبد الوهاب بن الضحاك ثنا إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمر عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن كثير بن مرة الحضرمي عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلاً فمنزلي ومنزل إبراهيم في الجنة يوم القيامة تجاهين والعباس بيننا مؤمن بين خليلين.اهـ).

قال ابن الجوزي (موضوع. قال العقيلي: عبد الوهاب متروك الحديث، وليس لهذا الحديث أصل عن ثقة ولا يتابعه إلا من هو دونه أو مثله. وقال ابن عدي: هذا الحديث يعرف بعبد الوهاب، وسرقه من الباهلي وكان يسرق الحديث ويحدث عن الثقات أباطيل.اهـ).

وقال السندي في تعليقه:

(وفي الزوائد، إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف عبد الوهاب بل قال فيه أبو داود: يضع الحديث. وقال الحاكم: روى أحاديث موضوعة وشيخه إسماعيل اختلط بآخره، وقال ابن رجب: انفرد به المصنف وهو موضوع فإنه من بلايا عبد الوهاب.اهـ).

الحديث الرابع:

ما أخرجه ابن ماجه في باب فيما أنكرت الجهمية من طريق: (فضل الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم الحديث.اهـ).

قال ابن الجوزي (موضوع الفضل رجل سوء). وقد ساق له السيوطي في «اللآلي المصنوعة»[١]طريقا آخر من حديث أبي هريرة أخرجه ابن النجار في تاريخه، وفيه سليمان بن أبي كريمة قال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير.اهـ. وفي الزوائد (إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف الرقاشي.اهـ) نقله السندي.

---

[١] ج٢ ص ٢٤٤ طبع قديم.

الحديث الخامس:

ما أخرجه ابن ماجه في باب الانتفاع بالعلم والعمل به من طريق: (عمار بن سيف عن أبي معاذ عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا: يا رسول الله وما جب الحزن قال: واد في جهنم الحديث.اهـ».

قال ابن الجوزي: (وفيه عمار بن سيف الضبي متروك وكذا شيخه أبو معاذ.اهـ). وقال الذهبي في «الميزان» (أبو معاذ والصحيح أبو معان بصري لا يعرف له عن أنس تفرد عنه عمار بن سيف، له حديث تعوذوا من جب الحزن.اهـ). وقال السيوطي في «التعقبات» ص٤٤: (وعمار وثقه أحمد والعجلي. وقال يحيى: ثقة صدوق. وضعفه أو زرعة وأبو حاتم. وقال الذهبي: يقال لم يكن بالكوفة أفضل منه. وقال العجيلي: ثقة ثبت متعبد صاحب سنة. وقال أبو داود: كان معتمداً ومن يوصف بهذا لا يحكم على حديثه بالوضع بل بالحسن إذا توبع، وله شاهد عن ابن عباس أشار إليه الديلمي.اهـ).

قلت: وأخرجه الترمذي أيضاً وقال غريب.

الحديث السادس:

ما أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء في قيام الليل من طريق (سنيد بن داود ثنا يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قالت أم سليمان بن داود لسليمان يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة.اهـ».

أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: لا يصح يوسف متروك.اهـ. قال السيوطي في «التعقبات» صفحة١٤: (قلت كذا قال النسائي وقال أبو زرعة: صالح الحديث. وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به. فعلى قول النسائي هو ضعيف وعلى قول أبي زرعة وابن عدي هو حسن فإنه وجد له متابع على كل قول.اهـ).

قلت: والمتابع ذكره السيوطي في اللآلي، وقال السندي في الزوائد: (هذا إسناد فيه سنيد بن داود وشيخه يوسف بن محمد وهما ضعيفان.اهـ).

الحديث السابع:

ما أخرجه ابن ماجه في الباب المذكور من طريق (ثابت بن موسى أبي يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار.اهـ».

قال ابن الجوزي: (قال العقيلي: باطل لا أصل له ولا يتابع ثابتاً عليه ثقة). قال ابن الجوزي: هذا الحديث لا يعرف إلا بثابت وهو رجل صالح وكان دخل على شريك وهو يملي ويقول حدثنا الأعمش عن سفيان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأى ثابتا قال: «من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار» قصد به ثابتاً فظن أنه متن الإسناد وسرقه منه جماعة ضعفاء.اهـ) قلت وكذا قال الحاكم أبو عبد الله في كتابه: «المدخل في أصول الحديث»[١].

الحديث الثامن:

ما أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء في صلاة الحاجة من طريق (فائد ابن عبد الرحمن عن عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من كانت له حاجة إلى الله أو أحد من خلقه فليتوضأ وليصل ركعتين ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم. الحديث».

أدرجه ابن الجوزي في الموضوعات وقال فيه فائد ضعيف.اهـ. وقال السيوطي في «التعقبات» ص١٤:

(أخرجه الترمذي وقال غريب في إسناده مقال، وفائد يضعف في الحديث، وأخرجه ابن ماجه والحاكم وقال فائد مستقيم الحديث وله شاهد من حديث أنس أخرجه الطبراني في الدعاء).

قلت: قال الحاكم في المستدرك على الصحيحين: (فائد بن عبد الرحمن أبو الورقاء كوفي عداده في التابعين وقد رأيت جماعة من أعقابه وهو

---

[١] ص ٢٧ طبع حلب.

مستقيم الحديث إلا أن الشيخين لم يخرجا عنه.اهـ) وتعقبه الذهبي في «التلخيص»[١]بقوله بل متروك.اهـ.

الحديث التاسع:

ما أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء في صلاة التسبيح من طريق (موسى بن عبيدة حدثني سعيد بن أبي سعيد مولى أبي بكر بن عمرو ابن حزم عن أبي رافع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: «ألا أحبوك، ألا أنفعك» -الحديث في صلاة التسبيح).

أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: (موسى بن عبيدة ضعيف، قال يحيى ليس بشيء.اهـ) قال السيوطي في «التعقبات»: (قال الحافظ «يعني ابن حجر» وقول ابن الجوزي أن موسى بن عبيدة علة الحديث مردود، فإنه ليس بكذاب مع ما له من الشواهد.اهـ).

الحديث العاشر:

ما أخرجه ابن ماجه في الباب المذكور من طريق (موسى بن عبد العزيز ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس بن عبد المطلب الحديث في صلاة التسبيح).

قال ابن الجوزي في الموضوعات: (لا يثبت موسى بن عبد العزيز مجهول عندنا.اهـ).

وأورد الحافظ ابن حجر حديث ابن عباس في كتاب «الخصال المكفرة» وقال رجال إسناده لا بأس بهم، عكرمة احتج به البخاري والحكم صدوق، وموسى بن عبد العزيز قال فيه ابن معين لا أرى به بأساً وقال النسائي نحو ذلك. فهذا الإسناد من شرط الحسن، فإن له شواهد تقويه وقد أساء ابن الجوزي بذكره إياه في الموضوعات وقوله: إن فيه موسى مجهول لم يصب فيه لأن من يوثقه ابن معين والنسائي لا يضره أن يجهل حاله من جاء بعدهما كذا في اللآلى المصنوعة للسيوطي[٢].

---

[١] المستدرك مع التلخيص ج١ ص ٣٢٠ طبع حيدراباد الدكن بالهند.

[٢] ج١ ص ٢١ طبع قديم.

الحديث الحادي عشر:

ما أخرجه ابن ماجة في باب النهي عن النياحة من طريق (أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عمر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع جنازة معها رانة».اهـ).

أوردها ابن الجوزي في الموضوعات من طريق حماد بن قيراط عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر بلفظ: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع جنازة فيها صارخة».اهـ. كذا في اللآلى[١].

وقال السيوطي في «التعقبات» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف قال: حدثنا حفص بن غياث عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر قال: نهينا أن نتبع جنازة فيها رانة. وذكر في «اللآلى» (أنه أخرجه الطبراني من طريق شهر بن حوشب عن ابن عمر مرفوعا.اهـ).

الحديث الثاني عشر:

ما أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء في ثواب من عزّى مصاباً من طريق (علي بن عاصم عن محمد بن سوقة عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عزى مصاباً فله مثل أجره.اهـ).

قال ابن الجوزي: (تفرد به علي بن عاصم عن محمد بن سوقة وقد كذبه شعبة ويحيى ويزيد بن هارون.اهـ). قال السندي في «تعليقه»:

(وقال الصلاح العلائي، قد رواه إبراهيم بن مسلم الخوارزمي عن وكيع عن قيس بن الربيع عن محمد بن سوقة، وإبراهيم بن مسلم ذكره ابن حبان في الثقات ولم يتكلم فيه أحد، وقيس بن الربيع صدوق متكلم فيه لكن حديثه يؤيد رواية علي بن عاصم ويخرج به عن أن يكون ضعيفاً. واهياً فضلاً عن أن يكون موضوعاً والله أعلم.اهـ).

---

[١] ج٢ ص ٢٢٩.

الحديث الثالث عشر:

ما أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء فيمن مات غريباً من طريق: (أبي المنذر الهذيل بن الحكم ثنا عبد العزيز بن أبي رواد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، موت غربة شهادة.اهـ).

قال السندي في «تعليقه» (قال السيوطي أورد ابن الجوزي هذا الحديث في الموضوعات من وجه آخر عن عبد العزيز ولم يصب في ذلك، وقد سقت له طرقاً كثيرة في «اللآلى المصنوعة».

قال الحافظ ابن حجر في «التخريج» إسناد ابن ماجه ضعيف لأن الهذيل منكر الحديث. وذكر الدارقطني في العلل الخلاف فيه على الهذيل وصحح قول من قال عن الهذيل عن عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر. وفي «الزوائد»: هذا إسناد فيه الهذيل بن الحكم قال فيه البخاري منكر الحديث، وقال ابن عدي لا يقيم الحديث، وقال ابن حبان منكر الحديث جداً، وقال ابن معين هذا الحديث منكر ليس بشيء وقد كتبت عن الهذيل ولم يكن به بأس.اهـ).

قلت وذكره السيوطي في «التعقبات» بلفظ موت الغريب شهادة ولم يعزه إلى ابن ماجه.

الحديث الرابع عشر:

ما أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء فيمن مات مريضاً من طريق (ابن جريج أخبرني إبراهيم بن محمد بن أبي عطاء عن موسى بن وردان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات مريضا مات شهيداً» الحديث.اهـ).

قال ابن الجوزي: فيه إبراهيم بن محمد بن يحيى الأسلمي متروك.اهـ).
وقال السيوطي في «التعقبات» (ص١٨):

(كان الشافعي يوثقه والحق فيه أنه ليس بموضوع وإنما وهم بعض رواته في لفظ منه فقد روى الدارقطني أن إبراهيم بن محمد أنكر على ابن جريج هذا الحديث عنه وقال: إنما حدثته من مات مرابطاً، فروى عني

من مات مريضاً وما هكذا حدثته. وكذا قال أحمد بن حنبل إنما الحديث من مات مرابطاً والحديث إذن من نوع المعلل والمصحف.اهـ).

الحديث الخامس عشر:

ما أخرجه ابن ماجة في باب تزويج الحرائر والولود من طريق (سلّام بن سوار ثنا كثير بن سليم عن الضحاك بن مزاحم قال سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أراد أن يلقى الله طاهراً فليتزوج الحرائر».اهـ).

قال ابن الجوزي: (فيه سلام بن سوار منكر الحديث عن كثير ابن سليم كذاب.اهـ). وفي الزوائد: إسناده ضعيف لضعف كثير بن سلام، وسلام هو ابن سليمان بن سوار. قال ابن عدي: عنده مناكير. وقال العقيلي: في حديثه مناكير، نقله السندي في «تعليقه».

الحديث السادس عشر:

ما أخرجه ابن ماجه في باب التوقي في التجارة عن رفاعة قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا الناس يتبايعون بكرة فناداهم «يا معشر التجار» الحديث.

أورده ابن الجوزي في الموضوعات عن ابن عباس بلفظ: (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى على جماعة من التجار فقال: يا معشر التجار فاستجابوا ومدوا أعناقهم. فقال: إن الله باعثكم يوم القيامة فجاراً إلا من صدق وصلى وأدى الأمانة.اهـ). قال ابن حبان ليس لهذا الحديث أصل صحيح يرجع إليه.اهـ.

وقال السيوطي (الحديث صحيح روي من عدة طرق أخرج الدارمي والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد والطبراني والضياء المقدسي في المختارة من طريق إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده) فذكر حديث رفاعة المذكور.

الحديث السابع عشر:

ما أخرجه ابن ماجه في باب الشركة والمضاربة من طريق نصر ابن القاسم عن عبد الرحيم بن داود عن صالح بن صهيب عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث فيهن البركة البيع إلى أجل، والمقارضة، وإخلاط البر بالشعير للبيت لا للبيع».اهـ.

قال ابن الجوزي: (موضوع وفيه عبد الرحيم بن داود مجهول.اهـ) وفي «الزوائد» (في إسناده صالح مجهول، وعبد الرحيم ابن داود، قال العقيلي حديثه غير محفوظ ونصر بن قاسم قال البخاري حديثه مجهول والله أعلم.اهـ). نقله السندي في تعليقه، وقال الذهبي في «الميزان» (عبد الرحيم بن داود عن بعض التابعين لا يعرف وحديثه يستنكر وهو في سنن ابن ماجه.اهـ).

الحديث الثامن عشر:

ما أخرجه ابن ماجه في باب اتخاذ الماشية من طريق (عثمان عبد الرحمن ثنا علي بن عروة عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأغنياء باتخاذ الغنم -الحديث).

وقال السندي في تعليقه:

(في الزوائد: في إسناده علي بن عروة تركوه، وقال ابن حبان يضع الحديث وعثمان بن عبد الرحمن مجهول والمتن ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.اهـ).

قلت: أدرجه ابن الجوزي من طريق علي بن عروة عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس به وقال: لا يصح، علي بن عروة يضع الحديث كذا في «اللآلى»[١].

الحديث التاسع عشر:

ما أخرجه ابن ماجه في باب المسلمون شركاء في ثلاث من طريق (علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن عائشة أنها قالت:

---

[١] ج٢ ص ٢٣٢.

يا رسول اللّه ما الشيء الذي لا يحل منعه قال الماء والملح والنار -الحديث)... وفيه من سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها.اهـ) قال السندي في «تعليقه»:

(هذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات وأعله بعلي بن زيد ابن جدعان.اهـ. وفي الزوائد هذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.اهـ).

الحديث العشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً من طريق (يزيد بن زياد عن الزهري عن سعيد المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله».اهـ. قال ابن الجوزي (يزيد متروك قال أحمد بن حنبل ليس هذا الحديث بصحيح وقال ابن حبان هذا حديث موضوع لا أصل له من حديث الثقات.اهـ).

وفي «الزوائد» (في إسناده يزيد بن أبي زياد بالغوا بتضعيفه حتى قيل كأنه حديث موضوع والله أعلم). نقله السندي في تعليقه وقال الذهبي في «الميزان» في ترجمة يزيد: (سئل أبو حاتم عن هذا الحديث فقال: باطل موضوع.اهـ).

الحديث الحادي والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب الحيف في الوصية من طريق (بقية عن أبي جليس عن خليد بن أبي خليد عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حضرته الوفاة فأوصى وكانت وصية على كتاب الله كانت كفارة فلما ترك من زكاته في حياته».اهـ).

أدرجه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق يعقوب بن محمد الزهري حدثنا عبد الله بن عصمة النصيبي حدثنا بشر بن حكيم عن سالم بن كثير عن معاوية بن قرة عن أبيه به وقال: لا يصح يعقوب لا يساوي شيئا.اهـ.

قال السيوطي في «اللآلى» (ما ليعقوب ولهذا الحديث فقد أخرجه الطبراني عن عبدان بن محمد المروزي عن إسحاق بن راهويه وناهيك بجلالته عن عبد الله بن عصمة به.اهـ) وقال السندي في «تعليقه» (الزوائد، في إسناده بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعنه وشيخه أبو الجليس أحد المجاهيل.اهـ).

الحديث الثاني والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب ذكر الديلم وفضل قزوين، من طريق داود ابن المحبر أنبأ الربيع بن صبيح عن يزيد بن أبان عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستفتح عليكم الآفاق وستفتح عليكم مدينة يقال لها قزوين الحديث).

قال ابن الجوزي: (موضوع. داود وضاع وهو المتهم به والربيع ضعيف ويزيد متروك.اهـ). قال السيوطي في «التعقبات»: (قال المزي في التهذيب: إنه حديث منكر لا يعرف إلا من رواية داود والمنكر من قسم الضعيف وهو محتمل في الفضائل.اهـ).

وقال السندي في «تعليقه» (في الزوائد هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبان الرقاشي والربيع بن صبيح وداود بن المحبر، فهو مسلسل بالضعفاء ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وقال هذا الحديث موضوع لا شك فيه ولا أتهم بوضع الحديث غير يزيد بن أبان، قال: والعجب من ابن ماجه مع علمه كيف استحل أن يذر هذا الحديث في كتاب السنن ولا يتكلم عليه.اهـ).

وقال الذهبي في «الميزان» في ترجمة داود بن المحبر (فلقد شان ابن ماجه سننه بإدخاله هذا الحديث الموضوع فيها.اهـ).

الحديث الثالث والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب الدعاء بعرفة من طريق (عبد الله ابن كنانة بن عباس بن مرداس السلمي أن أباه أخبره عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة فأجيب إني قد غفرت لهم ما خلا المظالم -الحديث).

أدرجه ابن الجوزي في الموضوعات وقال: (كنانة منكر الحديث.اهـ) وقال السندي في «تعليقه» في الزوائد: في إسناده عبد الله بن كنانة قال البخاري لم يصح حديثه.اهـ. ولم أر من تكلم فيه بجرح ولا توثيق.اهـ.

وقال السيوطي في «التعقيبات» ص٢٤ على الموضوعات: (ألف الحافظ ابن حجر في الرد على ابن الجوزي في هذا الحديث جزءاً سماه «قوة الحجاج في عموم مغفرة الحاج» وقال فيه في «القول المسدد» ما ملخصه: حديث العباس أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن ماجه والبيهقي في سننه وصححه الضياء المقدسي في المختارة، وأخرج أبو داود طرفا منه وما سكت عليه فهو صالح عنده، وكنانة ذكره ابن حبان في الثقات، ولم يتهم بكذب، وقد روى حديثه من وجه آخر وليس ما رواه شاذاً فهو على شرط الحسن عند الترمذي، وقال البيهقي هذا الحديث له شواهد كثيرة.اهـ).

الحديث الرابع والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب صيد الحيتان والجراد من طريق (موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن جابر وأنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا على الجراد قال: اللهم أهلك كباره واقتل صغاره -الحديث).

أدرجه ابن الجوزي في الموضوعات وقال: (لا يصح موسى متروك.اهـ) ذكره السيوطي في «اللآلي المصنوعة»[١].

---

[١] ج٢ ص ١٢٦.

الحديث الخامس والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب اللحم من طريق (سليمان بن عطاء الجزري حدثني مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه ابن مشجعة عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم».

قال ابن الجوزي: (لا يصح قال ابن حبان بن عطاء يروى عن مسلمة أشياء موضوعة فلا أدري التخليط منه أو من مسلمة.اهـ). قال السندي: (في الزوائد في إسناده أبو مشجعة وابن أخيه مسلمة لم أر من جرحهما ولا من وثقهما، وسليمان بن عطاء ضعيف. قلت قال الترمذي، وقد اتهم بالوضع.اهـ).

قال السيوطي في «اللآلى»[١]: (قال الحافظ ابن حجر لم يتبين لي الحكم على هذا المتن بالوضع فإن مسلمة غير مجروح وسليمان بن عطاء ضعيف والله أعلم.اهـ).

الحديث السادس والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب أكل البلح بالتمر من طريق (يحيى بن محمد بن قيس المدني ثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلوا البلح بالتمر كلوا الخلق بالحديث فإن الشيطان يغضب ويقول بقي ابن آدم حتى أكل الخلق بالجديد».اهـ.

قال ابن الجوزي (قال الدارقطني تفرد به أبو زكير (يحيى) عن هشام، قال العقيلي لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به، قال ابن حبان في أبي زكير وقد أخرج عنه مسلم في الصحيح.اهـ).

وقال السندي: (في الزوائد في إسناده أبو زكير يحيى بن محمد ضعفه ابن معين وغيره وقال ابن عدي أحاديثه مستقيمة سوى أربعة أحاديث. قلت: وقد عد هذا الحديث من جملة تلك الأحاديث، وقال النسائي إنه حديث منكر.اهـ). وقال السيوطي في «التعقبات»[٢]على

---

[١] ج٢ ص ١٢٦.

[٢] ج٢ ص ١٣١.

الموضوعات:

(قال الذهبي في مختصره إنه حديث منكر وكذا قال غيره من الحفاظ، والمنكر من نوع آخر غير الموضوع وهو من قسم الضعيف.اهـ).

وقال العراقي (هذا الحديث معناه ركيك لا يطبق على محاسن الشريعة لأن الشيطان لا يغضب من حياة ابن آدم بل من حياته مؤمنا مطيعا) ذكره العزيزي في «شرح الجامع الصغير».

الحديث السابع والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب الفالوذج من طريق (عبد الوهاب ابن الضحاك السلمي أبي الحارث ثنا إسماعيل بن عياش ثنا محمد ابن طلحة عن عثمان بن يحيى عن ابن عباس قال: أول ما سمعنا بالفالوذج أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أمتك تفتح عليهم الأرض فيفاض عليهم من الدنيا حتى أنهم ليأكلون من الفالوذج -الحديث).

قال ابن الجوزي: (باطل لا أصل له. عثمان بن يحيى الحضرمي قال الأزدي: لا يكتب حديثه ومحمد بن طلحة ضعفه ابن معين وأبو كامل وابن عياش تغير حفظه لما كبر.اهـ).

وقال السندي: (في الزوائد، في إسناده عثمان بن يحيى ما علمت فيه جرحاً، ومحمد بن طلحة لم أعرفه وعبد الوهاب قال فيه أبو داود يضع الحديث، وقال الحاكم روى أحاديث موضوعة.اهـ).

وقال ابن حجر في التهذيب: (عثمان بن يحيى عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذكر الفالوذج، وعنه محمد بن طلحة بن مصرف روى له ابن ماجه هذا الحديث الواحد عن عبد الوهاب بن الضحاك عن إسماعيل ابن عياش عن محمد وعن عبد الوهاب منكر الحديث جداً وقد تابعه المسيب بن واضح وهو قريب منه عن إسماعيل نحوه.

قلت: بل هو فوقه بكثير يكفيك أن أبا حاتم قال فيه صدوق، وقال ابن عدي كان النسائي حسن الرأي فيه ولم ينفرد عبد الوهاب ولا المسيب فقد رواه ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن سعيد الجوهري عن أبي اليمان عن إسماعيل وإسماعيل مدلس وقد عنعنه ولا سيما رواه غير الشاميين لكن تابعه غيره عن محمد بن طلحة رواه أبو الفتح الأزدي في ترجمة عثمان في الضعفاء عن القاسم بن إسماعيل المحاملي ثنا يحيى بن الورد

ثنا أبي محمد بن طلحة، قال الأزدي عثمان بن يحيى هو الحضرمي لا يكتب حديثه انتهى. وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وأورد ابن الجوزي هذا الحديث في الموضوعات فلم يصب والله أعلم.اهـ).

الحديث الثامن والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب (من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت) من طريق (هشام بن عمار وسويد بن سعيد ويحيى بن عثمان بن سعيد ابن كثير بن دينار الحمصي قالوا حدثنا بقية بن الوليد ثنا يوسف بن أبي كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من السرف أن تأكل ما اشتهيت».اهـ).

قال ابن الجوزي: (لا يصح يحيى منكر الحديث وكذا نوح.اهـ) وقال السندي (في الزوائد هذا إسناد ضعيف لأن نوح بن ذكوان متفق على ضعفه وقال الدميري هذا الحديث مما أنكر عليه.اهـ) قلت: ويحيى بريء من عهدته فإنه لم ينفرد به كما ترى.

الحديث التاسع والعشرون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب العسل من طريق الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبد الحميد بن سالم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لعق العسل ثلاث غدوات من كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء».اهـ.

قال ابن الجوزي في «الموضوعات» فيه الزبير بن سعيد الهاشمي ليس بشيء.اهـ). وقال السيوطي في «التعقبات» ص١٨: (قلت وثقه أبو زرعة وأحمد والحديث أخرجه البخاري في تاريخه، وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان، وله طريق آخر عن أبي هريرة أخرجه أبو الشيخ بن حيان في كتاب الثواب.اهـ).

الحديث الثلاثون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب في أي الأيام يحتجم، من طريق (عثمان ابن مطر عن الحسن بن أبي جعفر عن محمد بن جحادة عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً: الحجامة على الريق أمثل -الحديث. وفيه: فإنه لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء أو ليلة الأربعاء.اهـ).

قال ابن الجوزي: (وفيه عثمان بن مطر يروي الموضوعات عن الأثبات.اهـ) قال السيوطي في «التعقبات» ص١٨: (أخرجه ابن ماجه من طريقه ولم ينفرد به فأخرجه ابن ماجه أيضاً والحاكم من وجه آخر عن ابن عمر.اهـ).

الحديث الحادي والثلاثون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب الآيات من طريق (الحسن بن علي ابن الخلال ثنا عون بن عمارة ثنا عبد الله بن المثنى بن ثمامة بن عبد الله ابن أنس عن أبيه عن جده عن أنس بن مالك عن أبي قتادة قال: قال رسول الله الآيات بعد المائتين.اهـ).

قال السندي في تعليقه: (وفي الزوائد في إسناده عون بن عمارة العبدي وهو ضعيف، وقال السيوطي: أورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق محمد بن يونس الكديمي عن عون به وقال: هذا حديث موضوع وعون وابن المثنى ضعيفان غير أن المتهم به الكديمي، قلت: ولقد تبين أنه توبع عليه كما ترى (أي في رواية المصنف) وأخرجه الحاكم في المستدرك من طريق آخر عن عون به. وقال: صحيح وتعقبه في تلخيصه فقال عون: ضعفوه وقا ابن كثير: هذا الحديث لا يصح.اهـ).

الحديث الثاني والثلاثون:

ما أخرجه ابن ماجه في الباب المذكور (عن أنس مرفوعاً أمتي على خمس طبقات -الحديث.اهـ).

أورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق عباد بن عبد الصمد عن أنس، وقال: (لا أصل له، والمتهم به عباد منكر الحديث.اهـ). قال السيوطي في التعقبات» ص٤٤: (حديث أنس أخرجه ابن ماجه من طريقين آخرين عن أنس فزالت تهمة عباد.اهـ).

الحديث الثالث والثلاثون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب مجالسة الفقراء من طريق (يزيد ابن سنان عن أبي المبارك عن عطاء عن أبي سعيد الخدري قال: أحبوا المساكين فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين.اهـ).

قال ابن الجوزي: (لا يصح أبو مبارك مجهول ويزيد متروك). قال

السندي في «الزوائد»: (أبو المبارك لا يعرف اسمه وهو مجهول ويزيد بن سنان التميمي أبو فروة ضعيف والحديث صححه الحاكم وعده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال السيوطي: قال الحافظ صلاح الدين بن العلاء: الحديث ضعيف السند لكن لا يحكم عليه بالوضع وأبو المبارك وإن قال فيه الترمذي مجهول فقد عرفه ابن حبان وذكره في الثقات، ويزيد بن سنان قا فيه ابن معين ليس بشيء وقال البخاري: مقارب الحديث وباقي رواته مشهورون وإن قال العلائي: إنه ينتهي بمجموع طرقه إلى درجة الصحة.

وقال الحافظ ابن حجر: قد حسنه الترمذي لأن له شاهداً، وقال الزركشي: أساء ابن الجوزي بالحكم بالوضع عليه وله طريق آخر عن عطاء عن أبي سعيد أخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي في تلخيصه). انتهى ما قال السندي ملخطا.

الحديث الرابع والثلاثون:

ما أخرجه ابن ماجه في باب القناعة من طريق (نفيع عن أنس قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «ما من غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه أوتي من الدنيا قوتا) قال السندي في «تعليقه»: (هذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات وأعله بنفيع فإنه متروك وهو مخرج في مسند أحمد وله شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه الخطيب في تاريخه.اهـ).

فهذه أربعة وثلاثون حديثاً قد حكم عليها ابن الجوزي بالوضع. وقد تركت من الأحاديث ما أدرجها ابن الجوزي في الموضوعات وشطرها مروي في سنن ابن ماجه أولها شاهد في كتابه.

والحافظ السيوطي ذكر في كتابه: «القول الحسن في الذب عن السنن» ستة عشر حديثا مما أورده ابن الجوزي في الموضوعات وهو في سنن ابن ماجه، وأورد في «التعقبات على الموضوعات» من كتاب ابن الجوزي ثلاثين حديثاً فزدت عليه الأربعة وللّٰه الحمد، مع أني لم أظفر بنسخة «كتاب الموضوعات» وإنما جمعت ما جمعت وقت تحرير هذه العجالة من «اللآلئ المصنوعة» و«التعقبات» كليهما للسيوطي، و«تعليق» السندي على «سنن» ابن ماجه و«تعليق» الشيخ فخر الحسن الكنكوهي عليه.

أحاديث في كتاب ابن ماجه حكم عليها بعض الحفاظ بالوضع أو البطلان

ويوجد في «كتاب ابن ماجه» أحاديث أخر قد حكم عليها بعض الحفاظ بالوضع أو البطلان:

١- منها: ما أخرجه ابن ماجه في باب الإيمان من طريق (علي بن نزار عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من هذه الأمة ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية».

قال ابن عدي: (هذا ما أنكروه على علي وعلى والده.اهـ) ذكره الذهبي في «الميزان» في ترجمته على ابن نزار، وابن حجر العسقلاني بما يبعده عن الوضع ويقربه إلى الحسن، وجعلا نظرهما هو تعدد الطرق، وأخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

٢- ومنها ما أخرجه ابن ماجه في باب فضل عمر رضي الله عنه من طريق (داود بن عطاء المديني عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول من يصافحه الحق عمر، وأول من يسلم عليه وأول من يأخذ بيده فيدخل الجنة».

قال الذهبي في «تلخيص المستدرك» (موضوع وفي إسناده كذاب.اهـ) وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في «جامع المسانيد» (هذا الحديث منكر جداً، وما هو أبعد من أن يكون موضوعاً والآفة فيه من داود بن عطاء.اهـ) كذا في «تعليق السندي».

٣- ومنها ما أخرجه ابن ماجه في باب ما جاء في عيادة المريض من طريق (مسلمة بن علي ثنا ابن جريج عن حميد الطويل عن أنس ابن مالك قال كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعود مريضاً إلا بعد ثلاث).

قال الذهبي في «الميزان» في ترجمة مسلمة بعد أن ذكر هذا الحديث (قال أبو حاتم باطل موضوع.اهـ) وقال السندي في «تعليقه»: (في

الزوائد، في إسناده مسلمة بن علي قال فيه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث، ومنكراته حديث كان لا يعود إلا بعد ثلاثة أيام قال أبو حاتم هذا منكر باطل.اهـ).

٤- ومنها ما أخرجه ابن ماجه في باب فضل الرباط في سبيل الله من طريق (عمر بن صبيح عن عبد الرحمن بن عمر وعن مكحول عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لرباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسباً من غير شهر رمضان أعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها» -الحديث).

قال السندي في «تعليقه»: (قال السيوطي قال الحافظ زكي الدين المنذري في «الترغيب» آثار الوضع لائحة على هذا الحديث ولا يحتج برواية عمر بن صبيح، وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في «جامع المسانيد» أخلق بهذا الحديث أن يكون موضوعاً لما فيه من المجازفة ولأنه من رواية عمر بن صبيح أحد الكذابين المعروفين بوضع الحديث والله أعلم.اهـ).

٥- ومنها ما أخرجه ابن ماجه في باب فضل الحرس والتكبير في سبيل الله من طريق (سعيد بن خالد بن أبي طويل قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: حرس ليلة في سبيل الله أفضل من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة، السنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة).

قال الذهبي في «الميزان» في ترجمة سعيد بن خالد: (فهذه عبارة عجيبة لو صحت لكان مجموع ذلك الفضل ثلاثمائة ألف ألف سنة وستين ألف ألف سنة.اهـ وسعيد هذا قال فيه الحاكم أبو عبد الله روى عن أنس أحاديث موضوعة.اهـ).

٦- ومنها ما أخرجه ابن ماجه في باب السرايا من طريق (عبد الملك ابن محمد الصنعاني ثنا أبو مسلمة العاملي عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لأكثم بن الجون الخزاعي: يا أكثم اغز مع غير قومك يحسن خلقك -الحديث).

قال السندي في «تعليقه» (في الزوائد: في إسناده عبد الملك بن محمد الصنعاني وأبو مسلمة العاملي وهما ضعيفان، وقال السيوطي: قال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول: العاملي متروك والحديث باطل.اهـ).

٧- ومنها ما أخرجه ابن ماجه في باب تتريب الكتاب من طريق (يزيد بن هارون أنبأ أبو أحمد الدمشقي عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تربو صحفكم أنجح لها إن التراب مبارك).

قال السندي في «تعليقه»: (قال السيوطي هذا أحد الأحاديث التي انتقدها الحافظ سراج الدين القزويني على المصابيح وزعم أنه موضوع. وقال الحافظ صلاح الدين العلائي: هذا ليس من الحسان قطعاً فهو مما ينكر على صاحب المصابيح حيث جعله منها. ثم تكلم على طريق الترمذي وطريق ابن ماجه... ثم قال.... وأياً ما كان فالحديث ضعيف منكر وله سند آخر ذكره ابن أبي حاتم في العلل من رواية بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رفعه وذكر عن أبي حاتم أنه قال هذا حديث باطل.اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر وأخرجه البيهقي من طريق عمر بن أبي عمر، قيل إن هذا هو أبو أحمد الكلاعي وقيل غيره والحديث عنده من رواية بقية بن الوليد عنه فقال تارة عن أبي أحمد بن علي وقال تارة عن عمر بن أبي عمر، وعلى الحالتين يمكن أن يخرج الحديث عن كونه موضوعاً لوجوده بسندين مختلفين.اهـ).

وفي التهذيب لابن حجر في ترجمة أبي أحمد بن علي الكلاعي:

(قال أبو طالب سألت أحمد عن حديث يزيد بن هارون عن بقية عن أبي أحمد عن أبي الزبير عن جابر في تتريب الكتاب فقال: هذا منكر.اهـ). فقلت: وأبو أحمد الدمشقي شيخ بقية مجهول.

فهذا ما اطلعت عليه وقت جمع هذه العجالة من الأحاديث التي قد حكم عليها بعض الحفاظ بالوضع وفيها أحاديث كثيرة ضعيفة وبعضها أشد في الضعف من بعض ولو جمعها أحد من علماء الشأن لجاء في مجلد لطيف.

وبالجملة فقد تفرد ابن ماجه بأحاديث كثيرة عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الأحاديث مما حكم عليها بالبطلان أو بالسقوط، ولذا صرح العلماء أن لا يقدم على الاحتجاج بحديث رواه ابن ماجه ما لم يكن منه على ثقة واطمئنان، قال الحافظ السخاوي في «فتح المغيث»[١]:

(وبالجملة فسبيل من أراد الاحتجاج بحديث من السنن لا سيما ابن ماجه ومصنف ابن أبي شيبة وعبد الرزاق مما الأمر فيها أشد أو بحديث من المسانيد واحد، إذ جميع ذلك لم يشترط من جمعه الصحة ولا الحسن خاصة، وهذا المحتج إن كان متأهلاً لمعرفة الصحيح من غيره فليس له أن يحتج بحديث من السنن من غير أن ينظر في اتصال إسناده وحال رواته؛ كما أنه ليس له أن يحتج بحديث المسانيد حتى يحيط علماً بذلك وإن كان غير متأهل لدرك ذلك فسبيله أن ينظر في الحديث فإن وجد أحداً من الأئمة صححه أو حسنه فله أن يقلده وإن لم يكن ذلك فلا يقدم على الاحتجاج به فيكون كحاطب ليل فلعله يحتج بالباطل وهو لا يشعر.اهـ).

---

[١] ص ٣٤ طبع الهند.

ومن المعتنين بهذا الكتاب شرحاً وتعليقاً أو تجريداً لزوائده أو الكلام على رجاله

أولاً: الحافظ الذهبي:

صنف المجرد في أسماء رجال «سنن ابن ماجه» كلهم سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين، ورتب أسماءهم على طبقاتهم فذكر الصحابة، ثم طبقة ابن المسيب ومسروق، ثم طبقة الحسن وعطاء ثم طبقة الأعمش وابن عون، ثم طبقة عفان وعبد الرزاق، ثم طبقة علي بن المديني وأحمد بن حنبل، ثم طبقة البخاري، أوله (هذه أسماء من انفرد ابن ماجه بإخراجهم عن البخاري أو مسلم.اهـ) وهذا الكتاب في عشرين ورقة محفوظة في خزانة الظاهرية بدمشق لكن في أوراقه تقديم وتأخير ولذا غلط في عد طبقاته يوسف العش واضع «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية»[١].

وهو محمد بن أحمد بن قائماز بن عبد الله التركماني في الأصل الفارقي ثم الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين الذهبي شافعي الفروع حنبلي المعتقد الحافظ الكبير المؤرخ صاحب التصانيف السائرة في الأقطار.

ولد ثالث شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣ ثلاث وسبعين وستمائة بدمشق، ودرس الحديث من صغره ورحل في طلبه حتى أتقنه ثم انتقل إلى مصر ودرس فيها العلوم الشرعية وسمع كثير من الخلائق يزيدون على ألف ومائتين. وأخذ الفقه عن الكمال الزملكاني وابن قاض شهبة.

ولما عاد إلى دمشق عين أستاذاً للحديث في مسجد أم صالح ثم في المدرسة الأشرفية وغيرها ومهر في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة، وجمع تاريخ الإسلام فأربى فيه على من تقدمه بتحرير أخبار المحدثين خصوصا.

---

[١] انظر ص ٢١٤ من الفهرس.

ونحن بحمد الله تعالى قد استطعنا إعادة ترتيب الكتاب تماماً أنا والشيخ المحدث ناصر الدين الألباني بالمكتبة الظاهرية في دمشق، وسألحقه إن شاء الله تعالى بمقدمة شرحي على ابن ماجه كما تقدم.اهـ محمد المنتقى.

واختصر منه مختصرات كثيرة منها:

١ - «النبلاء».

٢ - «العبر».

٣ - «تلخيص التاريخ».

٤ - «طبقات الحفاظ».

٥ - «طبقات القراء».

ومن مصنفاته:

١ - «ميزان الاعتدال في نقد الرجال».

٢ - «الكاشف».

٣ - «مختصر سنن البيهقي الكبرى».

٤ - «مختصر تهذيب الكمال» لشيخه المزي.

وخرج لنفسه:

١ - المعجم الصغير.

٢ - المعجم الكبير.

٣ - المختص بالمحدثين.

قال البدر النابلسي في مشيخته: (كان علامة زمانه في الرجال وأحوالهم جيد الفهم ثاقب الذهن وشهرته تغني عن الإطناب فيه.اهـ).

وقال ابن شاكر الكتبي في ترجمته: (حافظ لا يجارى ولا حظ لا يبارى، اتقن الحديث ورجاله ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس، جمع الكثير ونفع الجم الغفير، وأكثر من التصنيف ووفر بالاختصار مئونة التطويل في التأليف.اهـ).

وقد صرح الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» والسخاوي في «فتح المغيث» والسيوطي في «التدريب» أن الذهبي من أهل الاستقراء في نقد الرجال.اهـ.

وقد أكثر التشنيع عليه تلميذه العلامة تاج الدين السبكي في مواضع من طبقاته فقال في ترجمة أحمد بن صالح[١]المصري أبي جعفر الطبري

---

[١] طبقات الشافعية الكبرى- ١ص١٩٠ حتى ١٩٢ طبع مصر.

الحافظ: (وهذا شيخنا الذهبي من هذا القبيل له علم وديانة وعنده على أهل السنة تحمل مفرط فلا يجوز أن يعتمد عليه، ونقلت من خط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي رحمه الله ما نصه: «الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي لا أشك في دينه وورعه وتحريه فيما يقوله في الناس ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات ومنافرة التأويل والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات فإذا ترجم واحداً منهم يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ويبالغ في وصفه ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن وإذا ذكر أحداً من الطرف الآخر كإمام الحرمين والغزالي ونحوهما لا يبالغ في وصفه، ويكثر من قول من طعن فيه ويعيد ذلك ويعتقده ديناً وهو لا يشعر. ويعرض عن محاسنهم الطافحة فلا يستوعبها وإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها وكذلك فعله في أهل عصرنا إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول في ترجمته والله يصلحه ونحو ذلك وسببه المخالفة في العقائد انتهى».

والحال في حق شيخنا الذهبي أزيد مما وصف وهو شيخنا ومعلمنا غير أن الحق أحق أن يتبع وقد وصل إلى التعصب المفرط إلى حد يسخر منه[١]وأنا أخشى عليه يوم القيامة من غالب علماء المسلمين وأئمتهم الذين حملوا لنا الشريعة النبوية فإن غالبهم أشاعرة وهو إذا وقع بأشعري لا يبقي ولا يذر. والذي اعتقد أنهم خصماؤه يوم القيامة عند من لعل أدناهم أوجه منه.

فالله المسئول أن يخفف عنه وأن يلهمهم العفو وأن يشفعهم فيه. والذي أدركنا عليه مشائخنا النهي عن النظر في كلامه وعدم اعتبار قوله ولم يكن يستجري أن يظهر كتبه التاريخية إلا لمن يغلب عليه ظنه أنه لا ينقل عنه ما يعاب عليه.

---

[١] قال العلامة المخدوم إبراهيم السندي في «سحق الأغبياء» (لو أظهر السبكي الواقع وحذف قوله إلى حد يسخر منه لكان أوفق بالأدب.اهـ).

وأما قول العلائي: دينه وورعه وتحريه فيما يقوله فقد كنت أعتقد ذلك وأقول عند هذه الأشياء ربما اعتقدها دينا ومنها أمور أقطع بأنه يعرف بأنها كذب، وأقطع بأنه لا يختلقها، وأقطع بأنه يحب وضعها في كتبه. وأقطع بأنه يحب أن يعتقد سامعها صحتها بغضاً للمتحدث فيه وتنفيراً للناس عنه مع قلة معرفته بمدلولات الألفاظ ومع اعتقاده أن هذا مما يوجب نصر العقيدة التي يعتقدها هو حقاً؛ ومع عدم ممارسته بعلوم الشرعية.

غير أني لما أكثرت بعد موته النظر في كلامه عند الاحتياج إلى النظر فيه توقفت في تحريه فيما يقوله ولا أزيد على هذا غير الإحالة على كلامه فلينظر كلامه من شاء ثم يبصر هل الرجل متحر عند غضبه أو غير متحر. وأعني بغضبه وقت ترجمته لواحد من علماء المذاهب الثلاثة المشهورين من الحنفية والمالكية والشافعية فإني أعتقد أن الرجل إذا مد القلم لترجمة أحدهم غضب غضباً مفرطاً ثم قرطم الكلام وفرقه وفعل من التعصب ما لا يخفى على ذي بصيرة ثم هو مع ذلك غير خبير بمدلولات الألفاظ كما ينبغي فربما ذكر لفظة لو عقل معناها لما نطق بها.

ودائماً أتعجب من ذكره الإمام فخر الدين الرازي في كتابه «الميزان» في الضعفاء وكذلك «السيف الآمدي» وأقول يا لله العجب هذان لا رواية لهما ولا جرحهما أحد ولا سمع من أحد أنه ضعفهما فيما ينقلانه من علومهما!! فأي مدخل لهما في هذا الكتاب؟! ثم إنا لم نسمع أحداً يسمي الإمام فخر الدين «بالفخر» بل «الإمام» وإما «ابن الخطيب» وإذا ترجم كان في المحمدين فجعله في حرف الفاء وسماه «الفخر» ثم حلف في آخر الكتاب أنه لم يقصد فيه هوى نفسه؛ فأي هوى أعظم من هذا فإما أن يكون ورى في يمينه أو استثنى غير الرواة فيقال له فلم ذكرت غيرهم، وإما أن يكون اعتقد أن هذا ليس هوى نفس، وإذا وصل إلى هذا الحد والعياذ بالله فهو مطبوع عليه قلبه.اهـ).

وقال أيضاً[١]:

---

[١] طبقات الشافعية الكبرى ج١ ص ١٩٧.

(وأما تاريخ شيخنا الذهبي غفر الله له فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب المفرط لا آخذه الله، فلقد أكثر الوقيعة في أهل الدين أعني الفقراء الذين هم صفوة الخلق واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعيين والحنفيين ومال فأفرط على الأشاعرة ومدح فزاد في المجسمة، هذا وهو الحافظ القدوة والإمام المبجل.اهـ).

قلت: فهذه شهادة كبير الشافعية على علم من أعلامهم مع كونه تليمذاً له بتعصبه على أئمتنا السادة الحنفية، ولقد صدق السبكي رحمه الله فيما قال ومن شك فيه فليطالع في كتابه «الميزان» تراجم أئمتنا الحنفية الكرام، كم نهش الذهبي من أعراضهم وكم أودع فيه من مثالبهم.

وحال الحافظ الشهير ابن حجر العسقلاني في التعصب على ساداتنا الحنفية أزيد من الذهبي بكثير كأنه يعض عليهم الأنامل من الغيظ فإذا وقع بحنفي لا يبقي ولا يذر، ومن رأى استطالة لسانه في كتابه «لسان الميزان» في حق أئمتنا الأعلام قضى من تعصباته العجب، وقد نبه على تعصبه تلميذه السخاوي في مواضع من «الدر الكامنة» فقال في ترجمة الشيخ الحسين بن علي بن الحجاج بن علي العناقي (أهمله شيخنا على عادته في الحنفية مع تقدمه في العلم.اهـ).

وقال في ترجمة جمال الدين عبد الله بن محمد بن أحمد الحسيني النيسابوري العالم الشهير الحنفي (ثم إني رأيت شيخنا ذكره في أنباء الغمر... ثم نكت عليه على عادته في تغليب التبكيت على الحنفية فقال وكان يتشيع.اهـ) وكان السخاوي وقد بيض من تصانيف شيخه ابن حجر كتباً ومنها الدرر الكامنة، وهذه التراجم مما استدركها السخاوي على شيخه في حواشي الدرر.

وقال العلامة قاضي القضاة محب الدين أبو الفضل محمد بن الشحنة في «مقدمة شرحه على الهداية» في حق ابن حجر:

(وكان كثير التبكيت في تاريخه على مشائخه وأحبابه وأصحابه لا سيما الحنفية فإنه يظهر من زلاتهم ونقائصهم التي لا يعرى عنها غالب الناس ما يقدر عليه ويغفل عن ذكر محاسنهم وفضائلهم إلا ما ألجأته الضرورة إليه؛ فهو سالك في حقهم ماسلك الذهبي في حقهم وحق

الشافعية حتى قال السبكي إنه لا ينبغي أن يؤخذ من كلام ابن حجر حنفي متقدم ولا متأخر.اهـ). نقله العلامة المحدث زاهد الكوثري في «تعليقات ذيول تذكرة الحفاظ» في ترجمة ابن حجر العسقلاني.

فانظر يا أخي إلى ما أوصى به العلامة أبو الفضل محب الدين ابن الشحنة ولا تغتر بما نقله بعض الرعاع من أهل هذا العصر من الذين ينتمون إلى أصحاب ظاهر الحديث وينكرون تقليد الأئمة في الفروع في حق ساداتنا الحنفية من الجروح من «ميزان الذهبي» ولسان ابن حجر.

ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام أنه قد وقع على هامش نسخة «الميزان» للذهبي المطبوعة بالهند في حرف النون ما نصه: (ن-ت النعمان ابن ثابت بن زوطا أبو حنيفة الكوفي إمام أهل الرأي، ضعفه النسائي من جهة حفظه وابن عدي وآخرون، وترجم له الخطيب في فصلين من تاريخه واستوفى كلام الفريقين معدليه ومضعفيه) انتهى.

واعتذر عنها صاحب المطبعة بقوله (لما لم تكن هذه الترجمة في نسخة وكانت في الأخرى أوردتها على الحاشية.اهـ) وأدخلها ناشر «الميزان» بمصر في الحوض من غير اعتذار، والحق أن هذه الترجمة مدسوسة ولم يترجم لأبي حنيفة رضي الله عنه في «الميزان» والظن أن بعض من طالع «الميزان» كتب هذه العبارة على الهامش تعليقا عليه فأدرجه بعض النساخ في الأصل.

قال الفاضل اللكنوي العلامة محمد عبد الحي في «غيث الغمام على حواشي إمام الكلام»[١] (إن هذه العبارة ليست لها أثر في بعض النسخ المعتبرة على ما رأيتها بعيني ويؤيده قول العراقي في «شرح ألفيته» (لكنه أي ابن عدي ذكر في كتاب «الكامل» كل من تكلم فيه وإن كان ثقة وتبعه على ذلك الذهبي في «الميزان» إلا أنه لم يذكر أحدا من الصحابة والأئمة المتبوعين) انتهى.

وقال السخاوي في «شرح الألفية» (مع أنه أي الذهبي تبع ابن عدي في إيراد كل من تكلم فيه ولو كان ثقة لكنه التزم أن لا يذكر أحدا

---

[١] غيث الغمام ص١٤٦ طبع الهند.

من الصحابة ولا الأئمة المتبوعين» انتهى. وقول السيوطي في «تدريب الراوي شرح تقريب النواوي، (إلا أنه -أي الذهبي- لم يذكر أحداً من الصحابة والأئمة المتبوعين) انتهى.

فهذه العبارات من هؤلاء الثقات الذين قد مرت أنظارهم على نسخ «الميزان» الصحيحة مرات تنادي بأعلى النداء على أنه ليس في حرف النون من «الميزان» أثر لترجمة أبي حنيفة النعمان فلعلها من زيادات بعض الناسخين والناقلين في بعض نسخ «الميزان».اهـ).

قلت ولا شك في كونها مدسوسة كيف وقد صرح الذهبي نفسه في مقدمة «الميزان» أنه لا يذكر فيه ترجمة الإمام حيث قال ما نصه: (وكذا لا أذكر في كتابي من الأئمة المتبوعين في الفروع أحداً لجلالتهم في الإسلام وعظمتهم في النفوس مثل أبي حنيفة والشافعي.اهـ).

وصرح به العلامة محمد بن إسماعيل الأمير اليماني صاحب «سبل السلام» في «توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار» بقوله: (لم يترجم لأبي حنيفة في «الميزان وترجم له النووي في «التهذيب»، وأطال في ترجمته ولم يذكره بتضعيف.اهـ).

والدليل الواضح على كونها مدسوسة أن الحافظ ابن حجر العسقلاني قد ذكر في آخر كتابه «لسان الميزان» ما نصه: (آخر الكتاب المختصر من الميزان، مع الزيادات والتنبيهات والتقريرات، قال مؤلفه أبقاه الله تعالى فرغت منه في شهر جمادي الأولى سنة٨٥٢ اثنتين وخمسين وثمانمائة بالقاهرة سوى ما ألحقته بعد ذلك وسوى الفصل الذي زدته من «التهذيب» وهم من ذكرهم الذهبي في «الميزان» وحذفتهم في «اللسان» ليكون هذا المختصر مستوعباً لجميع الأسماء التي في «الميزان» والله المستعان.اهـ).

ثم لم يذكر ابن حجر في الفصل الذي زاده اسم الإمام رضي الله عنه مع كونه من رجال التهذيب فلو كانت ترجمة الإمام في «الميزان» لذكره ابن حجر في هذا الفصل كما قد صرح به.

ومن التصانيف المطبوعة للذهبي: ١-تجريد أسماء الصحابة في تلخيص أسد الغابة. ٢-تذكرة الحفاظ. ٣-دول الإسلام، وهذه الثلاثة طبعت بحيدر آباد الدكن بالهند. ٤-رسالة في الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب

ردهم، طبعت بمصر في مجموعة. ٥-كتاب العلو للعلي الغفار طبع بالهند وبمصر أيضاً. ٦-المشتبه في أسماء الرجال ويسمى أيضا مشتبه النسبة طبع بليدن. ٧-ميزان الاعتدال.

ثانياً: الحافظ مغلطائي:

ومنهم الحافظ مغلطائي الحنفي شرح قطعة من «سنن ابن ماجه» في خمس مجلدات وهو أول شارح لهذا الكتاب، وهو الإمام الحافظ علاء الدين مغلطائي بن قليج الحنفي، قال السيوطي في «ذيله على تذكرة الحفاظ[١]»:

(مغلطائي بن قليج بن عبد الله الحنفي الإمام الحافظ علاء الدين ولد سنة ٦٨٩ تسع وثمانين وستمائة، سمع من الدبوسي والختني وخلائق، وولي تدريس الحديث بالظاهرية بعد ابن سيد الناس وغيرها، وله مآخذ على المحدثين وأهل اللغة، قال العراقي: «كان عارفاً بالأنساب معرفة جيدة وأما غيرها من متعلقات الحديث فله خبرة متوسطة».

وتصانيفه أكثر من مائة، منها: ١-شرح البخاري. ٢-شرح ابن ماجه ولم يكمل وقد شرعت في إتمامه. ٣-شرح أبي داود ولم يتم. ٤-جمع أوهام التهذيب. ٥-أوهام الأطراف. ٦-ذيل على التهذيب. ٧-ذيل على المؤتلف والمختلف لابن نقطة. ٨-الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم. ٩-ورتب المبهمات على الأبواب. ١٠-ورتب بيان الوهم والإيهام لابن القطان وخرج. ١١-زوائد ابن حبان على الصحيحين في رابع عشر شعبان سنة٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة.اهـ).

ووصفه المحدث ابن فهد في «ذيله على تذكرة الحفاظ» (بالإمام العلامة الحافظ المحدث المشهور.اهـ). وقال السيوطي في «حسن المحاضرة في ترجمة مغلطائي»: (كان حافظاً عارفاً بفنون الحديث، علامة في الأنساب.اهـ).

---

[١] ص ٣٦٥و٣٢٦ طبع مصر.

وذكر أيضاً في «ذيله» في ترجمة الحسيني[١]:

(سئل الحافظ أبو الفضل العراقي من أربعة تعاصر وأيهم أحفظ، مغلطائي وابن كثير، وابن رافع، والحسيني؟ فأجاب ومن خطه نقلت: إن أوسعهم اطلاعاً وأعلمهم بالأنساب مغلطائي على أغلاط تقع منه في تصانيفه ولعله من سوء[٢]الفهم، وأحفظهم للمتون والتواريخ ابن كثير وأقعدهم لطلب الحديث، وأعلمهم بالمؤتلف والمختلف ابن رافع، وأعرفهم بالشيوخ للمعاصرين وبالتخريج الحسيني وهو دونهم في الحفظ.اهـ).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في مقدمة كتابه «تهذيب التهذيب»:

(ولقد انتفعت في هذا الكتاب المختصر بالكتاب الذي جمعه الإمام العلامة علاء الدين مغلطائي على «تهذيب الكمال».اهـ ثم قال: فلو لم يكن في هذا المختصر إلا الجمع بين هذين الكتابين الكبيرين في حجم لطيف لكان معنى مقصودا.اهـ».

وقال الشوكاني في «البدر الطالع»:

(مغلطائي بن قليج بن عبد الله البكجري الحنفي الحافظ علاء الدين صاحب التصانيف ولد بعد سنة ٦٩٠ تسعين وستمائة وقيل (٦٨٩) وسمع من أحمد بن علي بن دقيق العيد أخي الشيخ تقي الدين والدبوسي وغيرهما. وأكثر جدا من القراءة بنفسه والسماع وكتب الطباق ولازم الجلال القزويني، ودرس بالقاهرة في الحديث وصنف التصانيف.اهـ).

قال الشوكاني (وله ذيل على تهذيب الكمال يكون قدر الأصل، واختصره مقتصراً على الاعتراضات على المزي في نحو مجلدين ثم في مجلد لطيف.اهـ).

قلت: ولقد طالعت ولله الحمد شرح ابن ماجه لمغلطائي وهو محفوظ في خزانة مكتبة «تونك» بالهند، قال فيه في بحث رفع اليدين عند الركوع وعند رفع الرأس منه ما نصه:

---

[١] ص ٣٠٥.

[٢] وما رماه العراقي الإمام مغلطائي من سوء الفهم فحاشا وكلا بل هو والله العديم النظير المطلع النحرير، وقل من ينجو من الخطأ اليسير فلا ملام عليه في ذلك عند المنصف الناقد البصير.

(واستدل لأبي حنيفة بحديث لا بأس بسنده ذكره البيهقي في الخلافيات من حديث محمد بن غالب ثنا أحمد بن محمد البراني ثنا عبد الله بن عون الخزاز ثنا مالك عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ثم لا يعود. انتهى.

ولما لم ير الحاكم ما يدفعه به قال: هذا باطل فقد روينا بالأسانيد الصحاح عن مالك خلاف هذا، وفي «المعرفة» للبيهقي ما يشده بسند صحيح وهو قوله: ثنا الحاكم أنبأ أبو بكر بن مكرم ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا أبو بكر بن عياش عن حصين عن مجاهد قال: ما رأيت ابن عمر يرفع يديه إلا في أول ما يفتتح الصلاة، قال الطحاوي فحديث الرفع منسوخ على هذا.اهـ[١].

---

[١] قال خاتمة الحفاظ محدث القرن المنصرم الملا محمد عابد السندي في «المواهب اللطيفة في الحرم المكي على مسند الإمام أبي حنيفة من رواية الحصكفي» وهو من محفوظات خزانة الآصفية بحيدرآباد الدكن بالهند وتوجد منه نسخة بخط المصنف في مكتبة «بير جهند و«بحيدر آباد السند بباكستان الغربية.

(قلت وقد ورد في معنى حديث ابن مسعود أيضاً ما أخرجه البيهقي في «خلافياته» من حديث مالك عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه إذا افتتح في الصلاة ثم لا يعود، قال الحاكم والبيهقي حديث ابن عمر هذا باطل موضوع لا يجوز أن يذكر إلا على سبيل التعجب أو القدح فيه فقد روينا بالأسانيد الزاهرة عن مالك خلاف هذا انتهى،

قلت تضعيف الحديث لا يثبت بمجرد الحكم وإنما يثبت ببيان وجوه الطعن وحديث ابن عمر الذي رواه البيهقي في «خلافياته» رجاله رجال الصحيح فما أرى له ضعفاً بعد ذلك اللهم أن يكون الراوي عن مالك مطعوناً لكن الأصل لعدم فهذا الحديث عندي صحيح لا محالة، وغاية ما يقال فيه أن ابن عمر رأى النبي صلى الله عليه وسلم حينما يرفع فأخبر عن تلك الحالة وأحياناً لا يرفع وأخبر عن تلك الحالة وليس في كل من حديثه ما يفيد الدوام والاستمرار على شيء معين منهما، ولفظة كان لا تفيد الدوام إلا على سبيل الغالب فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يقف عند الصخرات السود بعرفة ولم يحج بعد الهجرة إلا حجة الوداع، فلا سبيل إلى تضعيفه فضلاً عن وضعه والله أعلم.اهـ).

ثالثاً: الحافظ ابن رجب الحنبلي:

ومنهم الحافظ ابن رجب الحنبلي شرح ابن ماجه، ذكر هذا الشرح الشيخ أبو الحسن السندي في «تعليقه» حديث قال في شرح حديث «من ترك الكذب وهو باطل».

(يحتمل أنه على ظاهره، وجملة «وهو باطل» حل من الكذب وهو الذي ذكره ابن رجب في شرح الكتاب.اهـ).

وهو عبد الرحمن أحمد بن رجب، واسمه عبد الرحمن بن الحسن ابن محمد بن أبي البركات مسعود البغدادي الدمشقي الحنبلي الشيخ المحدث الحافظ زين الدين ولد ببغداد في ربيع الأول سنة ٧٠٦ ست وسبعمائة وقدم دمشق مع والده فسمع معه من محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم بن الخباز، وإبراهيم بن داود العطار وغيرهما. وبمصر من أبي الفتح الميدومي وأبي الحرم القلاسني وغيرهما.

وأكثر من المسموع وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنف: ١-شرح الترمذي، وقطعة من البخاري. ٢-وذيل على الطبقات للحنابلة. ٣-واللطائف في وظائف الأيام، بطريق الوعظ وفيه فوائد. ٤-والقواعد الفقهية، أجاد فيه، ٥-وقرأ القرآن بالروايات، وأكثر من الشيوخ، وخرج لنفسه مشيخة مفيدة.

ومات في رجب سنة ٧٩٥ خمس وتسعين وسبعمائة ويقال إنه جاء إلى شخص حفار فقال له احفر لي هنا لحداً صالحاً وأشار إلى بقعة قال الحفار: فحفرت له فنزل فيه فأعجبه واضطجع وقال هذا جيد فمات بعد أيام فدفن فيه كذا في «الدرر الكامنة» لابن حجر العسقلاني، وابن رجب سمى «شرحه» على البخاري «بفتح الباري في شرح البخاري» ذكر ذلك ابن القاضي شهبة، كذا وجد على هامش الدرر بخط السخاوي.

والتي طبعت من تصانيفه: ١-جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم طبع بالهند وبمصر. ٢-رسالة الخشوع في الصلاة. ٣-كشف الكربة في وصف أهل الغربة. ٤-لطائف المعارف فيما الموسم العام من الوظائف، وهذه الثلاثة طبعت بمصر. ٥-شرح حديث ما ذئبان جائعان، طبع مع كتاب قيام الليل «بالهند وطبع على هامش جامع بيان

العلم لابن عبد البر في أثناء شرح هذا الحديث. ٦-فضل علم السلف على الخلف طبع بمصر.

رابعاً: الحافظ ابن الملقن:

ومنهم الحافظ ابن الملقن شرح زوائد ابن ماجه، قال في كشف الظنون: (وشرح الشيخ سراج الدين عمر بن علي بن الملقن الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤ أربع وثمانمائة زوائده على الخمسة أعني الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي في ثمان مجلدات سماه «ما تمس إليه الحاجة على سنن ابن ماجه» وألحق في خطبته بيان من وافقه من باقي الأئمة الستة مع ضبط الشكل من الأسماء والكنى وما يحتاج إليه من الغرائب مما لم يوافق الباقين، ابتدأه في ذي القعدة سنة ٨٠٠ ثمان مائة وفرغ في شوال من السنة التي تليها.اهـ).

قلت وعندي بحمد الله تعالى جزء منه من الأجزاء الأخيرة صورته من مكتبة المحمودية في مكتبة الحرم النبوي الشريف بخط ابن الملقن رحمه الله تعالى.

خامساً: عمر بن علي الأنصاري التكروري:

وعمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله السراج الأنصاري الأندلسي التكروري الأصل المصري الشافعي المعروف بابن الملقن قال الشوكاني في «البدر الطالع»:

ولد في ربيع الأول سنة ٧٢٣ ثلاث وعشرين وسبعمائة بالقاهرة وكان أصل أبيه من الأندلس فتحول منها إلى التكرور ثم قدم القاهرة ثم مات بعد أو ولد له صاحب الترجمة بسنة فأوصى به إلى الشيخ عيسى المغربي وكان يلقن القرآن فنسب إليه، وكان يغضب من ذلك ولم يكتبه بخطه إنما كان يكتب ابن النحوي وبها اشتهر في بعض البلاد كاليمن.

ونشأ في كفالة زوج أمه ووصيه وتفقه بالتقي السبكي والعز ابن جماعة وغيرهما وأخذ في العربية من أبي حيان والجمال ابن هشام وغيرهما، وفي القراءات عن البرهان الرشيدي، قال البرهان الحلبي: إنه

اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً، وسمع على الحفاظ كابن سيد الناس والقطب الحلبي وغيرهما وأجاز له جماعة كالمزي ورحل إلى الشام وبيت المقدس.

وله مصنفات كثيرة، منها: ١-تخريج أحاديث الرافعي سبع مجلدات. و٢-مختصر الخلاصة في مجلد، و٣-مختصره للمنتقى في جزء. و٤-تخريج أحاديث الوسيط للغزالي المسمى بتذكرة الأحبار بما في الوسيط من الأخبار في مجلد، و٥-تخريج أحاديث المهذب المسمى بالمحرر المذهب في تخريج أحاديث المهذب في مجلدين. و٦-تخريج أحاديث المنهاج الأصلي في جزء. و٧-تخريج أحاديث مختصر المنتهى لابن الحاجب في جزء، و٨-شرح العمدة المسمى بالأعلام في ثلاث مجلدات. و٩-أسماء رجالها في مجلد. و١٠-قطعة من شرح المنتقى في الأحكام للمجد ابن تيمية ولكنه قال صاحب الترجمة في تخريج أحاديث الرافعي إنه إنما كتب شيئاً من ذلك على هوامش نسخته كتخريج أحاديث المنتقى ثم رغب من باقي بعده في شرح هذا الكتاب حسبما نقلته من كلامه في أوائل شرحي للمنتقى.

ومن مصنفاته: ١١-طبقات الفقهاء الشافعية. و١٢-طبقات المحدثين وفي الفقه، ١٣-شرح المنهاج ست مجلدات، و١٤-وآخر صغير في مجلدين، و١٥-لغاته في مجلد. و١٦-التحفة في الحديث على أبوابه كذلك، و١٧-البلغة على أبوابه في جزء، و١٨-الاعتراضات عليه في مجلد، و١٩-شرح التنبيه في أربع مجلدات، وآخر ٢٠-لطيف سماه هادي النبيه إلى تدريس التنبيه، و٢١-الخلاصة على أبوابه في الحديث في مجلد، و٢٢-أمنية النبيه فيما يرد على النووي في التصحيح والتنبيه في مجلد، و٢٣-لخصه في جزء، و٢٤-شرح الحاوي الصغير في مجلدين ضخمين، و٢٥-آخر في مجلد، و٢٦-شرح التبريزي في مجلد وشرع ٢٧-في كتاب جمع فيه بين كتب الفقه المعتمدة في عصره للشافعية ونبه على ما أهملوه وسماه جمع الجوامع.

وله في علم الحديث: ٢٨-المقنع في مجلد قال ابن حجر إن صاحب الترجمة شرح المنهاج عدة شروح أكبرها في ثمانية مجلدات وأصغرها في

مجلد والتنبيه كذلك و٢٩-البخاري في عشرين مجلداً، و٣٠-شرح زوائد مسلم على البخاري في أربعة أجزاء، و٣١-زوائد أبي داود على الصحيحين في مجلدين، و٣٢-زوائد الترمذي على الثلاثة كتب منه قطعة، و٣٣-زوائد النسائي على الأربعة كتب منه جزءا، و٣٤-زوائد ابن ماجه على الخمسة كتب في ثلاث مجلدات، و٣٥-إكمال تهذيب الكمال، قال ابن حجر إنه لم يقف عليه وقال السخاوي إنه وقف منه على مجلد، وله مصنفات غير هذه. ٣٦-كشرح الفيه ابن مالك. و٣٧-شرح المنهاج الأصلي. و٣٨-شرح مختصر المنتهى لابن الحاجب.

وقد رزق الإكثار من التصنيف وانتفع الناس بغالب ذلك، ولكنه قال الحافظ ابن حجر إنه كان يكتب في كل فن سواء أتقنه أو لم يتقنه قال ولم يكن في الحديث بالمتقن ولا له ذوق أهل الفن. وقال: إن الذين قرأوا عليه قالوا إنه لم يكن ماهراً في الفتوى ولا في التدريس وإنما كانت تقرأ عليه مصنفاته في الغالب فيقرر ما فيها.

وقال ابن حجر: كان لا يستحضر شيئاً ولا يحقق علماً، وغالب تصانيفه كالسرقة من كتب الناس، وفي هذا الكلام من التحامل ما لا يخفى على منصف فكتبه شاهدة بخلاف ذلك منادية بأنه من الأئمة في جميع العلوم وقد اشتهر صيته وطار ذكره وسارت مؤلفاته في الدنيا.

وقد ترجمه جماعة من أقرانه الذين ماتوا قبله كالعثماني قاضي صفد فإنه قال في «طبقات الفقهاء» إنه أحد مشائخ الإسلام صاحب التصانيف التي ما فتح على غيره بمثلها في هذه الأوقات، وقال البرهان الحلبي، كان فريد وقته في كثرة التصنيف وعبارته فيها جلية جيدة وغرائبه كثيرة وقال ابن حجر في أنبائه: إنه كان موسعاً عليه في الدنيا مشهوراً بكثرة التصانيف حتى كان يقال إنها بلغت ثلاثمائة مجلدة ما بين كبير وصغير. وقد فقد أكثرها وتغير حاله بعدها فحجبه ولده إلى أن مات.

قال ابن حجر إن العراقي والبلقيني وصاحب الترجمة كانوا أعجوبة ذلك العصر. الأول في معرفة الحديث وفنونه. والثاني في معرفة مذهب الشافعي، والثالث في كثرة التصانيف، وكل واحد من الثلاثة ولد قبل الآخر بسنة ومات قبله بسنة فأولهم ابن الملقن ثم البلقيني ثم العراقي

ومات في ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الأول سنة ٨٠٤ أربع وثمانمائة) انتهى ما ذكره الشوكاني ملخصاً.

سادساً: الشيخ كمال الدين الدميري:

ومنهم الشيخ كمال الدين الدميري، شرح سنن ابن ماجه في نحو خمس مجلدات ومات قبل إتمامه، وهو محمد بن موسى بن عيسى ابن علي الكمال أبو البقاء الدميري الأصل القاهري الشافعي، قال الشوكاني في «البدر الطالع».

(ولد في أوائل سنة ٧٤٢ اثنتين وأربعين وسبع مائة تقريباً كما كتب ذلك بخطه، ونشأ بالقاهرة فتكسب بالخياطة ثم أقبل على العلم فقرأ على التقي السبكي وأبي الفضل النويري والجمال الأسنوي وابن الملقن والبلقيني، وأخذ الأدب عن القيراطي، والعربية وغيرها من البهاء بن عقيل، وسمع من جماعة، وبرع في التفسير والحديث والفقه وأصوله والعربية والأدب وغير ذلك. وتصدى للإقراء والإفتاء وصنف مصنفات جيدة، منها: ١-شرح سنن ابن ماجه في نحو خمس مجلدات سماه الديباجة. مات قبل تبييضه. و٢-شرح المنهاج في أربع مجلدات سماه النجم الوهاج، لخصه من شرح السبكي والأسنوي وغيرهما وزاد على ذلك زوائد نفيسة. و٣-نظم في الفقه أرجوزة مفيدة وله تذكرة حسنة، ومن مصنفاته: ٤-حياة الحيوان، الكتاب المشهور الكثير الفوائد مع كثرة ما فيه من المناكير، واختصر شرح الصفدي للامية العجم.

أفتى بمكة ودرس بها في أيام مجاورته، قال ابن حجر اشتهر عنه كرامات وأخبار بأمور مغيبات يسندها إلى المنامات تارة وإلى بعض الشيوخ أخرى وغالب الناس يعتقد أنه يقصد بذلك الاشتهار. ومات في ثالث جمادى الأولى سنة ٨٠٨ ثمان وثمان مائة، ومن نظمه:

بمكارم الأخلاق كن متخلقاً ليفوح ند ثنائك العطر الشذي
واصدق صديقك إن صدقت صداقة وادفع عدوك بالتي فإذا الذي

سابعاً: الحافظ الشهاب البوصيري:

ومنهم الحافظ الشهاب البوصيري[١]قال المحدث أبو الحسن السندي في مقدمة «تعليقه»:

(والمشهور أن ما انفرد به (أي ابن ماجه) يكون ضعيفاً وليس بكلي لكن الغالب كذلك، ولقد ألف الحافظ الحجة العلامة أحمد بن أبي بكر البوصيري رحمه الله تعالى في زوائده تأليفاً نبه على غالبها وأنا إن شاء الله تعالى أنقل غالب ما يحتاج إليه في التعليق.اهـ).

والبوصيري ذكره السيوطي في «ذيله» على تذكرة الحفاظ[٢] فقال:

(الشهاب البوصيري، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم مكبر ابن قائماز بن عثمان بن عمران الكناني المحدث شهاب الدين. ولد في المحرم سنة ٧٢٦ اثنتين وستين وسبعمائة، وسمع الكثير من البرهان التنوخي والبلقيني والعراقي والهيثمي والطبقة.

وحدث وخرج وألف تصانيف حسنة منها: ١-زوائد سنن ابن ماجه على الكتب الخمسة. و٢-زوائد سنن البيهقي الكبرى على الستة، و٣-زوائد المسانيد العشرة على الكتب الستة، وهي مسند الطيالسي ومسدد والحميدي والعدني وابن راهوية، وابن جميع[٣] وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي أسامة وأبي يعلى. ولم يزل مكباً على كتب الحديث وتخريجه إلى أن مات في المحرم سنة ٨٤٠ أربعين وثمانمائة رحمه الله تعالى.اهـ).

وله ترجمة مبسوطة في «الضوء اللامع»[٤]للسخاوي، قال السخاوي:

---

[١] ضبط بكسر الصاد.اهـ. محمد المنتقى وقد وقعت بحمد الله تعالى على هذه الزوائد بعد أن كتبت حوالي أربع مجلدات من شرحي على ابن ماجه الذي أنا فيه الآن ونسأل الله تعالى أن يوفقنا بإتمامه بأحسن إتمام وذلك في سنة١٣٩٧هجرية بمكة المكرمة عندي الآن صورته ولله الحمد واسم شرحي أنا: الكواكب الوهاجة شرح سنن الإمام الحافظ ابن ماجه.اهـ. وكتبه محمد المنتقى الكشناوي حفظه الله تعالى آمين.

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

[٢] ص٣٩٧و٣٨٠.

[٣] كذا في المطبوعة والصحيح ابن منيع كما في الضوء اللامع.

[٤] ج١ ص ٢٥١و٢٥٢.

(وما جمعه زوائد مسانيد الطيالسي وأحمد ومسدد والحميدي والعدني والبزاز وابن منيع وابن أبي شيبة وعبد والحارث بن أبي أسامة وأبي يعلى مع الموجود من المسند ابن راهوية على الستة أيضا في تصنيفين أحدهما يذكر أسانيدهم. و٤-الآخر بدونهما مع الكلام عليها والتقط من هذه الزوائد ومن مسند الفردوس كتابا جعله ذيلا على الترغيب للمنذري سماه ٥-تحفة الحبيب للحبيب، بالزوائد في الترغيب والترهيب، ومات قبل أن يهذبه ويبيضه، فبيضه من مسودته ولده على خلل كثير فيه ذكر في خطبته أنه يقتفي أثر الأصل في اصطلاحه وسرده ولم يوف بذلك بل أكثر من إيراد الموضوعات وشبهها بدون بيان، وعمل ٦-جزءا في خصال تعمل قبل الفوت فيمن يجري عليه الموت، و٧-آخر في أحاديث الحجامة. إلى غير ذلك وحدث باليسير وسمع منه الفضلاء كابن فهد،اهـ).

ثامناً: الحافظ سبط ابن العجمي:

ومنهم الحافظ سبط ابن العجمي، كتب تعليقاً لطيفاً على سنن ابن ماجه وهو إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الأصل الشامي المولد والدار الشافعي ولد في ثاني عشر رجب سنة ٧٥٣ ثلاث وخمسين وسبعمائة بالجلوم بفتح الجيم وتشديد اللام المضمومة.

ومات أبوه وهو صغير فكفلته أمه وانتقلت به إلى دمشق فحفظ بها بعض القرآن ثم رجعت به إلى حلب فنشأ بها وأخلته مكتب الأيتام فأكمل به حفظه وصلى به على العادة في التراويح في رمضان وتلا تجويداً على الحسن السائس المصري وعلى ابن أبي الرضى والحراني وقرأ في الفقه على ابن العجمي وجماعة كالبلقيني وابن الملقن واللغة على مجد الدين صاحب القاموس، وفي الحديث على الزين العراقي والبلقيني وابن الملقن أيضاً وجماعة كثيرة.

وارتحل إلى مصر مرتين لقي بها جماعة من أعيان العلماء وإلى دمشق وإسكندرية وبيت المقدس وغزة والرملة ونابلس وحماة وحمص وطرابلس وبعلبك، وروي عنه أنه قال: مشائخي في الحديث نحو المائتين، ومن رويت عنه شيئاً من الشعر دون الحديث بضع وثلاثون وفي العلوم

غير الحديث نحو الثلاثين وقد جمع الكل ابن فهد في مجلد ضخم وكذلك الحافظ ابن حجر.

واستقر بحلب ولما هجمها تيمورلنك طلع بكتبه إلى القلعة فلما دخل البلد وسلبوا الناس كان فيمن سلب حتى لم يبق عليه شيء ثم أسروه وبقي معهم إلى أن رحلوا إلى دمشق فأطلق ورجع إلى بلده فلم يجد أحداً من أهله وأولاده. قال: فبقيت قليلاً ثم توجهت إلى القرى التي حول حلب مع جماعة فلم أزل هنالك إلى أن رجع الطغاة جهة بلادهم فدخلت بيتي فعادت إلي أمتي نرجس ولقيت زوجتي وأولادي منها وصعدت حينئذ القلعة فوجد أكثر كتبي فأخذتها ورجعت.

وقد اجتهد المترجم له في الحديث اجتهاداً كبيراً وسمع العالي والنازل، وقرأ البخاري أكثر من ستين مرة ومسلماً نحو العشرين، واشتغل بالتصنيف، فكتب: ١-تعليقاً لطيفاً على سنن ابن ماجه وشرحاً مختصرا على البخاري سماه ٢-التلقيح، لفهم قارئ الصحيح وهو في أربعة مجلدات و٣-المقتضى في ضبط ألفاظ الشفا في مجلد، و٤-نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس في مجلدين و٥-التيسير على ألفية العراقي وشرحها مع زيادة أبيات في الأصل غير مستغن عنها. و٦-نهاية السؤول في رواة الستة الأصول في مجلد ضخم. و٧-الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث في مجلد لطيف، و٨-التبيين في أسماء المدلسين في كراستين، و٩-تذكرة الطالب المعلم فيمني قال إنه مخضرم كذلك، و١٠-الاعتباط فيمن رمي بالاختلاط.

قال السخاوي، وكان إماماً علامة حافظاً خبيراً ديناً ورعاً متواضعاً وافر العقل حسن الأخلاق متخلقاً بجميل الصفات جميل العشرة محباً للحديث وأهله كثير النصح والمحبة لأصحابه ساكناً منجمعاً عن الناس متعففاً عن التردد إلى بني الدنيا قانعاً باليسير طارحاً للتكلف رأساً في العبادة والزهد والورع مديم الصيام والقيام سهلاً في التحدث كثير الإنصاف والبشر لمن يقصده للأخذ عنه خصوصاً الغرباء مواظباً على الاشتغال والإشغال والإقبال على القراءة بنفسه، حافظاً لكتاب الله كثير التلاوة له صبوراً على الإسماع، وربما أسمع اليوم الكامل من غير ملل ولا ضجر، وقد

حدث بالكثير وأخذ عنه الأئمة طبقة بعد طبقة، وألحق الأصاغر بالأكابر، وصار شيخ الحديث بالبلاد الحلبية بلا مدافع.

وممن أخذ عنه من الأكابر ابن خطيب الناصرية، والحافظ ابن حجر وامتحنه فأدخل عليه شيخاً في حديث مسلسل رام بذلك اختباره كان عرض له قبل ذلك الفالج وأنسي كل شيء حتى الفاتحة ثم عوفي وصار يتراجع إليه حفظه كالطفل شيئاً فشيئاً، ولم يزل على جلالته وعلو مكانه حتى مات مطعوناً في يوم الإثنين سادس عشر شوال سنة ٨٤١ إحدى وأربعين وثمانمائة وهو يتلو ولم يغب له عقل. ودفن بالجبيل عند أقاربه (انتهى ملخصاً من البدر الطالع).

تاسعاً: الحافظ السيوطي:

ومنهم الحافظ السيوطي، شرح سنن ابن ماجه، أوله الحمد لله ذي الجلال والإكرام:

وهو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عمر ابن خليل بن نصر بن الخضر بن الهمام، أبو الفضل جلال الدين السيوطي الأصل القاهري الشافعي الإمام العلامة الحبر البحر أعجوبة الدهر صاحب المؤلفات الحافلة الجامعة التي تزيد على خمسمائة مصنف قال في «البدر الطالع»:

(ولد في أول ليلة مستهل رجب سنة ٨٤٩ تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ يتيماً فحفظ القرآن والعمدة والمنهاج الفرعي وبعض الأصلي وألفية النحو، وأخذ عن الشمس محمد بن موسى الحنفي في النحو وعن العلم البلقيني والشرف المناوي والشمني والكافياجي في فنون عديدة وجماعة كثيرة كالبقاعي وسمع الحديث من جماعة وسافر إلى فيوم ودمياط والمحلة وغيرها وأجاز له أكابر علماء عصره من سائر الأمصار وبرز في جميع الفنون وفاق الأقران واشتهر ذكره، وبعد صيته وصنف التصانيف المفيدة كالجامعين في الحديث والدر المنثور في التفسير، والإتقان في علوم القرآن وتصانيفه في كل فن من الفنون مقبولة قد سارت في الأقطار مسير النهار.اهـ).

وقد ذكر السيوطي لنفسه ترجمة طويلة في كتابه «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» وأرخ الشوكاني وفاته بعد أذان الفجر المسفر صباحه عن يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ إحدى عشر وتسعمائة، وقد رفع الله له من الذكر الحسن والثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه، والعاقبة للمتقين.

قال مقيده عفا الله عنه: وعندي نسخة من هذا الشرح وهو عبارة عن مجلد واحد صغير الحجم ولكنه كبير النفع صورته من المكتبةالوطنيه بتونس والحمد لله تعالى وهو إلى الآن مخطوط غير مطبوع في علمي.

***** **** *****

وقد طبع من تصانيفه: ١-الإتقان في علون القرآن. ٢-إتمام الدراية لقراء النقاية. ٣-الأخبار المروية في سبب وضع العربية. ٤-الأرج في الفرج. ٥-إسعاف المبطأ في رجال الموطأ. ٦-الأشباه والنظائر النحوية. ٧-الأشباه والنظائر في الفروع. ٨-الاقتراح في علم أصول النحو. ٩-الإكليل في استنباط التنزيل. ١٠-ألفية السيوطي في المصطلح. ١١-أنباء الأذكياء لحياة الأنبياء. ١٢-الإيضاح في علم النكاح. ١٣-البدور السافرة في أحوال الآخرة. ١٤-بشرى الكئيب بلقاء الحبيب. ١٥-بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. ١٦-البهجة المرضية في شرح الألفية. ١٧-تاريخ الخلفاء. ١٨-تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة. ١٩-التثبيت عند التبييت. ٢٠-تحفة المجالس ونزهة المجالس. ٢١-تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. ٢٢-ترجمان القرآن في تفسير المسند. ٢٣-تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك. ٢٤-التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة. ٢٥-التعقبات على الموضوعات. ٢٦-تفسير الجلالين. ٢٧-تنزيه الأنبياء عن تشبيه الأغبياء. ٢٨-تنوير الحلك في إمكان رؤية الجن والملك. ٢٩-الجامع

الصغير في حديث البشير النذير. ٣٠-جمع الجوامع في النحو. ٣١-الحرز المنيع في أحكام الصلاة على الحبيب الشفيع. ٣٢-حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. ٣٣-الخصائص الكبرى. ٣٤-الدرجات المنيفة في الآباء الشريفة. ٣٥-الدر المنثور في التفسير بالمأثور. ٣٦-الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير. ٣٧-الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان. ٣٨-الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة. ٣٩-ذيل اللآلى المصنوعة ٤٠-الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض. ٤١-رشف الزلال من السحر الحلال. ٤٢-زهر الربى على المجتبى. ٤٣-السبل الجلية في الآباء العلية. ٤٤-سهام الإصابة في الدعوات المستجابة. ٤٥-شرح السيوطي على بديعيته المسماة بنظم البديع في مدح خير الشفيع. ٤٦-شرح شواهد مغنى اللبيب. ٤٧-شرح الصدور في أحوال الموتى والقبور. ٤٨-شرح الأرجوزة المسماة بعقود الجمان في علم المعاني والبيان. ٤٩-الشرف المحتم فيما من الله به على وليه سيدي أحمد الرفاعي من تقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم. ٥٠-الشماريخ في علم التاريخ. ٥١-طبقات الحفاظ. ٥٢-طبقات المفسرين. ٥٣-عقود الجمان في علم المعاني والبيان. ٥٤-علم الخط. ٥٥-فتح الجليل للعبد الذليل. ٥٦-الزبدة. [١]وهي ألفية في النحو. ٥٧-فضل الأغوات. ٥٨-قوت المغتذي على جامع الترمذي. ٥٩-اللآلى المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. ٦٠-لباب النقول في أسباب النزول. ٦١-لب اللباب في تحرير الأنساب. ٦٢-متشابه القرآن. ٦٣-المتوملى. ٦٤-المزهر في علم اللغة. ٦٥-مسالك الحنفا في والدي المصطفى. ٦٦-مسند عمر بن عبد العزيز. ٦٧-مشتهى العقول في منتهى النقول. ٦٨-المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة.

---

[١] وهي المعروفة عندنا بالفريدة والله تعالى أعلم وقد شرحها بالمطالع السعيد وشرحها أيضاً الشيخ أحمد بابه بن الأمير أسكيا بالمنح الحميدة وكلاهما عندي بحمد الله تعالى وقد قرأتهما عند الشيخ الزكزكي محمد كواسو في سنة ١٣٦٥ هجرية بيرنن كب أرض عند عبد الله بن فودي شقيق المجدد الشيخ عثمان بن فودي رحمها الله تعالى وإيانا آمين. وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه. وكتب محمد المنتقى بن محمد الثاني الفلاني الكشناوي. أيضاً وله شرح مختصر على ألفية ابن مالك سماه البهجة المرضية بالباء والنون وقد شرعت في وضع حاشية له فنسأله تعالى أن يعيننا بإتمامه مع التوفيق. آمين.

٦٩-مفحمات الأقران في مبهمات القرآن. ٧٠-المقامة السندسية في النسبة الشريفة المصطفوية. ٧١-مقامات السيوطي. ٧٢-مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا. ٧٣-نشر العاملين المنيفين في إحياء الأبوين. ٧٤-نور اللمعة في خصائص الجمعة. ٧٥-همع الهوامع شرح جمع الجوامع. ٧٦-الوديك في فضل الديك.

وطبعت بالهند مجموعة فيها ثلاثون رسالة للجلال السيوطي، ومجموعة أخرى فيها تسع رسائل له أيضاً.

عاشراً: العلامة أبو الحسن السندي:

ومنهم المحدث الكبير العلامة أبو الحسن السندي: شرح سنن ابن ماجه وهوشرح لطيف بالفعل وطبع بمصر مراراً، قال في مقدمة شرحه:

(وتعليقنا هذا إن شاء الله يقتصر على حل ما يحتاج إليه القارئ والمدرس من ضبط اللفظ وأيضاً الغريب والإعراب رزقنا الله تعالى ختمة خير قبل حلول الأجل ثم يرزقنا حسن الإتمام بفضله آمين يارب العالمين.اهـ).

وهو أبو الحسن نور الدين محمد بن عبد الهادي السندي الحنفي نزيل المدينة المنورة المتوفى سنة ١١٣٨ قال المري في «سلك الدرر[١]: (محمد السندي، ابن عبد الوهاب السندي الأصل والمولد الحنفي نزيل المدينة المنورة الشيخ الإمام العامل العلامة المحقق المدقق التحرير الفهامة، أبو الحسن نور الدين ولد بتتة، قرية من بلاد السند، ونشأ بها ثم ارتحل إلى تستر وأخذ بها عن جملة من الشيوخ ثم رحل إلى المدينة المنورة وتوطنها وأخذ بها عن جملة من الشيوخ كالسيد البرزنجي والملا إبراهيم الكوراني وغيرهما ودرس بالحرم الشريف النبوي واشتهر بالفضل والذكاء والصلاح وألف مؤلفات نافعة منها الحواشي الستة على الكتب الستة إلا أن حاشيته على الترمذي ما تمت، وحاشية نفيسة على مسند الإمام أحمد، وحاشية على فتح القدير وصل بها إلى باب النكاح، وحاشية على البيضاوي، وحاشية على الزهراوين للملا على القاري، وحاشية على شرح جمع الجوامع الأصولي لابن قاسم المسماة بالآيات البينات، وشرح على الأذكار للنووي

وغير ذلك من المؤلفات التي سارت بها الركبان.

وكان شيخا جليلا ماهرا محققا بالحديث والتفسير والفقه والأصول والمعاني والعربية وغيرها أخذ عنه جملة من الشيوخ منهم الشيخ محمد حياة السندي المتقدم ذكره وغيره وكان عالما عاملا ورعا زاهدا وكانت وفاته بالمدينة المنورة ثاني عشر شوال سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف، وكان له مشهد عظيم حضره الجم الغفير من الناس حتى النساء وغلقت الدكاكين وحمل الولاة نعشه إلى المسجد الشريف النبوي وصلى عليه به ودفن بالبقيع وكثر البكاء والأسف عليه رحمه الله تعالى.اهـ).

وقال الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الحنفي في «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»[١]:

(ومات العلامة ذو الفنون، أبو الحسن بن عبد الهادي السندي الأثري شارح السند والكتب الستة وشارح الهداية، ولد بالسند وبها نشأ وارتحل إلى الحرمين فسمع الحديث على البابلي وغيره من الوارثين، وتوفي بالمدينة سنة ١١٣٦ ست وثلاثين ومائة وألف.اهـ).

وقال الشيخ محمد بن يحيى المعروف بالمحسن التيمي ثم البكري الترهتي في «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني[٢].

(وأبو الحسن الكبير هو ابن عبد الهادي التتوي نسبة إلى تتا بمثناتين من فوق وفتح الأولى وتشديد الثانية وقصر الألف بلدة على شاطئ الإمام أحمد وفتح القدير لابن الهمام توفي بالمدينة سنة ١١٣٩ تسع وثلاثين ومائة وألف رحمه الله تعالى.اهـ).

قال مقيده عفا الله تعالى عنه:

منهم الشيخ محمد الراجي الغلاني من نيجيريا وهو من شيوخ عثمان بن فوديو وقد أقام الراجي عند العلامة السندي حوالي ست عشرة سنة ثم رجع إلى بلده وقرأ عليه الشيخ عثمان بن فوديو البخاري هو وشقيقه عبد الله بن فوديو، رحمهم الله تعالى. آمين. [انظر إيداع النسوخ لعبد الله بن فوديو رحمه الله تعالى.

---

[١] ج١ ص ١٧٦و١٧٧ النسخة المطبوعة بهامش الكامل لابن الأثير بالمطبعة الأزهرية بمصر سنة١٣٠١.

[٢] ص ٣٣ النسخة المطبوعة بهامش كشف الأستار بالهند.

حادي عشر: الشيخ عبد الغني الدهلوي:

ومنهم الشيخ عبد الغني المحدث الدهلوي، قال السيد صديق حسن خان في «الحطة بذكر الصحاح الستة»:

(وشرحه الشيخ الصالح التقي عبد الغني بن الشيخ أبي سعيد المجددي الدهلوي نزيل المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والتحية حلا وسماه «إنجاح الحاجة» وهو شرح مختصر طبع في الدهلي على هوامش السنن المذكورة أوله الحمد لله نحمده ونستعينه الخ.اهـ).

والشيخ عبد الغني ذكره صاحبه الشيخ المحسن التيمي في «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» وبسط في ترجمته وذكر أسانيده للكتب الستة والموطأ، والمحدث العمدة والفقيه الزاهد القدوة العلامة المحقق والحبر الفهامة المدقق طود العلم وبحره الزاخر ذو الشرف والعلاء والمفاخر الشيخ عبد الغني الدهلوي بن الشيخ أبي سعيد بن صفي القدر بن عزيز القدر بن محمد عيسى بن سيف الدين بن محمد معصوم بن الإمام الرباني مجدد الألف الثاني أحمد العمري السهرندي رضي الله عنه.

ولد رحمه الله في شهر شعبان سنة١٢٣٥ خمس وثلاثين ومائتين بعد الألف بدار الملك دهلي، وورث المجد كابراً عن كابر وتربى في ظل أهل الصلاح والدين من الصوفية والفقهاء والمحدثين فحفظ كتاب الله ودرس السنة والفقه الحنفي.

قرأ على والده الشيخ أبي سعيد الموطأ للإمام الرباني محمد بن الحسن الشيباني ومشكاة المصابيح على مخصوص الله بن الشاه رفيع الدين العمري الدهلوي وأخذ عن الشيخ الأجل المحدث أبي سليمان إسحق ابن بنت الشاه عبد العزيز الدهلوي وخاتمة الحفاظ الشيخ الأجل محمد عابد الأنصاري السندي المدني قرأ بالمدينة بعض صحيح البخاري وأجازه بباقيه وكتب له الإجازة العامة برواية الكتب الستة وغيرها من كتب الحديث ومصنفات الفنون في القديم والحديث التي أورد أسانيدها في كتابه «الحصر الشارد».

وأخذ الطريقة المجددية عن أبيه، واشتغل أولاً بدرس الحديث وروايته ببلدته فانتفع به أناس من أهلها ومن الغرباء النازلين بها، قال في «اليانع

الجني»: «وصنف بها ذيلاً نفيساً على «سنن ابن ماجه» سماها «إنجاح الحاجة» أودعه أنموذجاً من عتيد علمه وطريف فقهه فلا تسأل عن حسن موقعها وغزارة نفعها، وها هي بين ظهراني الناس قد تداولوا أشتاتاً منها ينتفعون برغائبها وينتشلون من ركائزها.اهـ).

ثم لما وقعت الفتنة الهائلة في الهند عام القرطاس وتسلط العلوج على دهلي توجه هو في رهطه تلقاء أرض الحجاز فقدم مكة ثم راح إلى المدينة ونزل بها واشتغل بالحديث وقد انتفع بعلمه في المدينة رجال، وتوفي رحمه الله تعالى سادس المحرم سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين بعد الألف.

ثاني عشر: المحدث فخر الحسن الكنكوهي:

ومنهم المحدث فخر الحسن الكنكوهي علق عليها حاشية طويلة نفيسة جمعها من «إنجاح الحاجة» للشيخ عب دالغني المذكور و«مصباح الزجاجة» للسيوطي وأضاف إليها أشياء أخرى وقد طبعت بهامش الكتاب وهذه الحاشية كما قال الشيخ فيض الحسن في مقدمة «التعليق المحمود» (شاعت طبعاً بعد طبع، وانتجعت منه الأنام كرعاً بعد كرع تلقتها العلماء الفحول بأيدي الاستفادة منها والقبول.اهـ).

والشيخ فخر الحسن من تلامذة الشيخ العارف محمد قاسم النانوتوي والمحدث الصالح رشيد أحمد الكنكوهي وله حاشية جيدة على «سنن أبي داود» سماها: «التعليق المحمود على سنن أبي داود» وقد طبعت بالهند، والتعليقان كلاهما يدلان على مشاركته الجيدة في علم الحديث وفنونه، ولم أطلع على ترجمته ولا تاريخ وفاته.

ثالث عشر: الشيخ محمد العلوي:

ومنهم الشيخ محمد العلوي، كتب عليها حاشية قد طبعت على هوامش الكتاب بأصح المطابع بلكنؤ، سماها «مفتاح الحاجة بشرح سنن ابن ماجه» أوله الحمد لله الذي شرح صدور أهل الإسلام بالهدى الخ وقال في خاتمته:

(وقد فرغ من تسويد هذا الشرح العبد المحتقر المفتقر إلى كرم ربه الغني الباري محمد بن عبد الله المعروف بجيون بن نور الدين الفنجابي

غفر الله ذنوبهم... وذلك عاشر الجمادى الأولى سنة ١٣١٢ إثنتي عشرة وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة بعد صلاة الجمعة وشرعه أيضاً بعد صلاة الجمعة في الجمادي الأولى سنة ١٣٠٩ تسع وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها ألوف من الصلاة وآلاف من التحية.اهـ).

وأخذ صاحب «المفتاح عن المحدث الشهير حسين بن محسن الأنصاري اليماني، وذكر سند الكتاب بطريقة إلى ابن ماجه في مقدمة مفتاح الحاجة، وهو ممن ينتمي إلى مذهب أصحاب ظواهر الحديث وينكر تقليد الأئمة في الفروع، وأخبرني العلامة أبو الوفا الأفغان في رحلته إلى كراتشي أن صاحب الترجمة:

(قد عاش في حيدرآباد الدكن وعمر عمراً طويلاً حتى قرب ثمانين سنة أو جاوزها ومات به في حدود سنة ست وستين بعد ألف وثلاث مائة تقريباً، وله به أولاد وأحفاد كان يبيع الكتب ويصنف دائماً جالساً في دكانه، ومن تصانيفه ترجمة مسند الإمام بالهندية ولغات القرآن، واللغة العربية ترجمها بالهندية، وله أشياء ومؤلفات انفرد بها من بين الناس بغرابة كتصنيفه في تعلم النبي صلى الله عليه وسلم الكتابة والقراءة وأخرجه صلى الله عليه وسلم من كونه نبياً أمياً وآخر ما شان تصانيفه بجمع فضائل سيدنا علي رضي الله عنه وتفضيله على الصحابة حين رأى ميل والي الدكن إلى الروافض سامحه الله وكان أصله من بلاد بكلى من بلاد هزارة) انتهى بلفظ الشريف.

رابع عشر: وحيد الزمان:

ومنهم الشيخ وحيد الزمان، ترجم «كتاب ابن ماجه» وشرحه بالأردوية سماه «رفع العجاجة عن سنن ابن ماجة» طبع بمطبعة «صديقي» بلاهور.

وهو وحيد الزمان بن مسيح الزمان اللكنوي، ولد تقريبا سنة ١٣٥٨ ثمان وخمسين ومائتين وألف وقرأ الجامع للترمذي على العلامة المدقق بشير الدين القنوجي في بوبال ثم ارتحل إلى الحرمين الشريفين وأقام هناك مدة طويلة وأخذ علم الحديث عن أحمد بن عيسى بن إبراهيم الشرقي الحنبلي وغيره وله مؤلفات عديدة منها التراجم الصحيح مسلم وسنن أبي

داود والموطأ وغيرها، وكان في مبدأ أمره حنفياً ثم تحول إلى مذهب أصحاب ظواهر الحديث وأنكر تقليد الأئمة في الفروع وتوفي لخمس بقين من شهر شعبان سنة١٣٣٨ ثمان وثلاث مائة بعد الألف.اهـ.

وأما رواة هذا الكتاب

وأما رواة «كتاب ابن ماجه» فقال الحافظ ابن حجر في «التهذيب» نقلاً عن تاريخ قزوين «للرافعي»:

(والمشهورون برواية «السنن»: ١-أبو الحسن بن القطان. و٢-سليمان ابن يزيد. و٣-جعفر محمد بن عيسى. و٤-أبوبكر حامد الأبهري انتهى).

قال الحافظ ومن الرواة عنه سعون وإبراهيم بن دينار.اهـ، قلت: والذي وقع لنا روايته من بينهم هو الحافظ أبو الحسن بن القطان صاحب ابن ماجه ومن طريقه يروى هذا الكتاب اليوم وذكره الذهبي في «تذكرة الحفاظ» فقال: («القطان» الحافظ الإمام القدوة أبو الحسن علي بن إبراهيم ابن سلمة بن بحر القزويني، محدث قزوين وعالمها، ولد سنة ٢٥٤* أربع وخمسين ومائتين وارتحل في هذا الشأن فكتب الكثير سمع أبا حاتم الرازي وإبراهيم بن ديزيل سيفنه ومحمد ابن الفرج الأزرق والقاسم بن محمد الدلال والحارث بن أبي أسامة. وأبا عبد الله بن ماجه صاحب السنن وإسحاق بن إبراهيم الدميري والحسن بن عبد الله اليونيني ويحيى بن عبدك القزويني وخلقا سواهم، روى عنه الزبير بن عبد الواحد الحافظ وأبو الحسن النحوي وأحمد بن علي بن لال والقاسم بن أبي المنذر الخطيب وأبو سعيد عبد الرحمن بن محمد القزويني وأبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي وآخرون وتلا عليه بحرف الكسائي أحمد بن علي السدائن عن قراءته على الحسن ابن علي الأزرق.

قال الخليلي، أبو الحسن شيخ عالم بجميع العلوم التفسير والفقه والنحو واللغة وكان له بنون محمد وحسن وحسين ماتوا شبابا وسمعت جماعة من شيوخ قزوين يقولون: لم ير أبو الحسن مثل نفسه في الفضل والزهد أدام

الصيام ثلاثين سنة وكان يفطر على الخبز والملح وفضائله أكثر من أن تعد رحمه الله تعالى، وقال ابن فارس في بعض أماليه سمعت أبا الحسن القطان بعدما علمت سنه يقول حين رحلت كنت أحفظ مائة ألف حديث وأنا اليوم لا أقوم على حفظ مائة حديث، وسمعته يقول: أصبت ببصري وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أيام الرحلة قلت مات سنة ٣٤٥ خمس وأربعين وثلاثمائة.اهـ).

وقال المحدث عبد الغني الدهلوي في «إنجاح الحاجة»:

(علي بن إبراهيم بن سلمة القطان تلميذ ابن ماجه صاحب هذه النسخة، عادته أن يذكر بعض أسانيده بلا واسطة ابن ماجه من الشيوخ الآخرين في هذه النسخة لعلوه.اهـ.

ويقول العبد الضعيف جامع هذه الأوراق محمد عبد الرشيد النعماني وأنا أروي هذا الكتاب المستطاب من طريق شيخي الجليل والعالم النبيل مولانا محمد قدير بخش البدايوني أبقاه الله تعالى بالعز والكرامة وهو يرويه عن شيخه ووالده الشيخ حافظ بخش البدايوني والشيخ عبد المقتدر عبد القادر عن أبيه العالم الشهير الشيخ فضل رسول الأموي البدايوني والشيخ جمال عمر مفتي الحنفية بمكة المحمية وهما يرويانه عن شيخ الحرم محدث القرن المنصرم خاتمة الحفاظ الملا محمد عابد الأنصاري الخزرجي السندي المدني بإسناده المذكور في ثبته المسمى «بحصر الشارد فيما حواه أسانيد محمد عابد».

وأروي أيضاً عن شيخي الأجل الزاهد القدوة العلامة المحدث مدرس المعقول والمنقول حاوي الفروع والأصول مولانا حيدر حسن خان التونكي شيخ الحديث بدار العلوم لندوة العلماء رحمه الله رضي عنه رضى الأبرار عن الشيخ الجليل السيد محمد نذير حسين الدهلوي عن الشيخ الأجل المشتهر في الآفاق أبي سليمان اسحق ابن بنت عبد العزيز الدهلوي عن الإمام الأوحد الرحلة الشيخ عبد العزيز الدهلوي عن أبيه الإمام الهمام حجة الإسلام ابن عبد العزيز قطب الدين أحمد المدعو بولي الله بن أبي الفيض عبد الرحيم العمري الدهلوي إسناده المذكور في «الإرشاد إلى مهمات الإسناد».

وأروي أيضاً عن شيخي العلامة الزاهد المذكور وعن أخيه الأكبر العلامة المحقق والفهامة المدقق الإمام الحبر البحر المحدث الفقيه الأصولي المتكلم المؤرخ أعلم أهل عصره بالرجال مولانا محمود حسن خان التونكي صاحب «معجم المصنفين» رحمه الله تعالى وهما يرويانه عن المحدث المتقن الشيخ القاضي حسين بن محسن الأنصاري الخزرجي السعدي اليماني وهو عن شيخه المحدث محمد بن ناصر الحازمي عن شيخ مشائخنا القاضي محمد بن علي الشوكاني بإسناده المذكور في «إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر».

ولشيخ شيخنا الشيخ حسين بن محسن اليماني لهذا الكتاب أسانيد كثيرة شهيرة مذكورة في إجازته، رضي الله عنا وعن جميع مشائخنا ونفع بعلومهم الأمة آمين.

ومن أحسن النسخ الخطية التي رأيناها بكراتشي عاصمة باكستان نسخة في مكتبة صديقنا محب العلم وأهله السيد حسام الدين الراشدي وفقه الله تعالى لما يحب ويرضى، وكانت هذه النسخة سابقاً في خزانة العالم الشهير فقير الله بن عبد الرحمن الحنفي الجلال آبادي ثم الشكاربوري رحمه الله وعليها خطه ووضع عليها خاتمه ثم اشتراه السيد هداية الله الحسيني أحد أجداد الراشدي المذكور وعدد أوراق هذه النسخة (٢٩٠) وتشتمل كل صفحة منها على خمس وعشرين سطراً بقطع كبير وقرطاس عال وخط جميل، وقع الفراغ من كتابتها نهار الإثنين ثامن مضت من شهر شعبان سنة ١١١٠ ألف ومائة وعشر، ومكتوب في أول صفحة منها ما نصه:

(الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العبد الفقير إلى الله إسماعيل بن عطاء الله إني قد أخذت هذا الكتاب وهو سنن الإمام الجليل الحافظ الإمام الحجة محمد ابن يزيد الربعي القزويني أبو عبد الله بن ماجه سماعاً وإجازة عن مولانا وشيخنا شيخ الإسلام وبركة الأنام خادم السنة الشريفة والآثار المنيفة أحد الأئمة الأعلام العالم العلامة مولانا وسيدنا أبي محمد الشيخ عبد الله بن مولانا المرحوم الشيخ سالم البصري المكي أعاد الله علينا من بركاته وبركات علومه،

آمين رب العالمين، وذلك بالمسجد الحرام تجاه البيت والمقام جهة باب إبراهيم، وذلك عام ألف ومائة واثني عشر.اهـ ١١١٢.اهـ)

وفي هامش هذه الصفحة ما نصه:
(الحمد لله، في نوبة الفقير إلى الله إسماعيل بن عطاء الله الحلبي ثم المكي غفر الله لهما والمسلمين آمين.
ابتداء القراءة يوم الأربعاء المبارك إحدى وعشرين من شهر جمادى الأولى عام اثني عشر ومائة وألف.اهـ).
والشيخ عبد الله بن سالم البصري ثم المكي من أحد مشائخ الحديث المسندين في عصره شرح «صحيح البخاري»، وسماه «ضياء القاري» وله رحمه الله يد بيضاء في تصحيحه للكتب الستة بذل فيها الجهد الكثير بحيث كان إليه المرجع في هذا الباب في عصره، وثبته المسمى «بالإمداد بمعرفة علو الإسناد» مطبوع بدائرة المعارف بحيدراباد الدكن بالهند.
وتوجد بهامش هذه النسخة تعليقات وتصحيحات بقلم تلميذه إسماعيل الحلبي المذكور ولكن التعليقات تنتهي إلى الورق السادس والأربعين.
وبهذا نكتفي في بيان ما أوردنا ذكره لمن يطالع هذا الكتاب المستطاب، رفع الله تعالى مقام مصنفه الإمام ابن ماجه ونفع بعلومه الأمة وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
وقع الفراغ من تحرير هذه العجالة المسماة بما تمس إليه الحاجة لمن يطالع سنن ابن ماجة قبيل عصر يوم الأربعاء عشرين من محرم الحرام من سنة ١٣٧٣ ثلاث وسبعين وثلاث مائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية، وأسأل الله العلي العظيم أن يجعله خالصا لوجهه الكريم مخلصاً من شوائب الرياء ودواعي التعظيم وأن ينفعني به وكل من وقف عليه إنه ذو الفضل العظيم والمن العميم وهو حسبي ونعم الوكيل، والحمد لله أولاً وآخراً آخر ما نقل من كتاب ما تمس إليه الحاجة

وقال الشيخ العلامة أبو زهرة:

أصحاب الحديث: ابن ماجه القزويني.

سنن ابن ماجه من صحاح السنن الستة صحيح البخاري، ومسلم وأبي داود والترمذي، والنسائي وابن ماجه. بقلم الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة القاهرة. في مجلة العربي ١٩٦٥م العدد٨٤، ٨ رجب سنة ١٣٨٥هـ ديسمبر ١٩٦٥م تشرين الثاني نوفمبر ١٩٦٥م ونصه:

في بلاد قزوين وفي قصبتها حيث كانت الأرض التي تتاخم أرض الروم وتتاخم روسيا وحيث البحر الذي تسمى بها كان الإسلام منتشراً وكان ثمة علم الإسلام غزيراً وكان حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يروى وينقله الثقات الأخيار إليها من سائر الديار الإسلامية.

مولد ابن ماجه في مدينة قزوين من هذه البلاد التي كانت عامرة طيبة تؤتي أكلها من العلم والفضل، ولد إمام من أئمة السنة الذي اشتهر بكنيته وهو «ابن ماجه» هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. وقد اتفق العلماء على أن ماجه هذا ليس جده أبا أبيه ولكنه لقب لأبيه. وإما اسم لأمه فقد قال الزبيدي في كتابه تاج العروس شرح القاموس إنه اسم لأمه ولعل أمه كان لها شأن في الاسم كما كان الأمر في كثيرات من نساء العرب. ولكن الأكثرين على أن ماجه لقب لأبيه.

ويقال له ابن ماجه الربعي نسبة لربيعة الأزد ولم يكن ابن ماجه عربياً بل كان مولى أعجميا وذلك لأنه في صدر الإسلام كان الأعجمي الذي يسلم يتخذ أحياناً أخوة بينه وبين أسرة من العرب فيكون كواحد من هذه الأسرة بعقد يسمى «عقد الموالاة» وأساس هذا العقد أن يكون كواحد من هذه الأسرة بحيث تدفع الدية إذا ارتكب ما يوجب الدية، وإذا مات من غير وارث - كانت تلك الأسرة ترثه، على بعض المذاهب الفقهية. وكان هذا اقتداء برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما عقد من إخاء بين المهاجرين والأنصار في أول الهجرة الإسلامية.

وبهذا يكون عقد الولاء أو الموالاة توثيقا للعلاقات الأخوية بين المسلمين وإبعاداً للوحشة وإيجاداً للأنس بالإسلام وأخوته بالنسبة للأعاجم الذين يدخلون في الإسلام وينقطعون في كثير من الأحيان عن آلهم

وذويهم فيلتقون بالمحبة والولاء القلبي والقانوني مع إخوانهم العرب ولا يتعالى فريق منهم على فريق.

المـــوالي:

آل العلم الإسلامي إليهم خلفاً عن سلف. كان أولئك الأعاجم أو أولئك الموالي الذين عقدوا مع إخوانهم، فقد آل العلم الإسلامي إليهم خلفاً عن سلف فكان أكثر التابعين الذين نقلوا علم الصحابة من الموالي. وكان أكثر تابعي التابعين كذلك وعوضوا بذلك عن سلطان القوة والسيطرة سلطان الفكر والعلم الصحيح فكان منهم أئمة أعلام في الفقه والحديث والتفسير والعلم العربي نفسه من بعد ذلك كسيبويه والزمخشري وغيرهم من قادة الفكر الإسلامي في علم العقيدة وما دونه من سائر علوم الإسلام.

اتجاهه إلى علم القرآن والحديث والفقه:

كان ابن ماجه من الموالي كالبخاري وغيره. وقد اتجه إلى علم الدين يدرسه وعلم الدين كان ذا ثلاث شعب: علم العقيدة، ولم يعرف أنه اتجه إليه. وعلم القرآن والحديث، وعلم الفقه. وقد مزج بين هذه الشعب الأخيرة التي تنتهي إلى شعبتين وجعلهما يصبان في مصب واحد وهو علم الأحكام الشرعية التكليفية.

اتجه منذ نشأته إلى علم القرآن لحفظه وإلى علوم اللغة العربية فأتقنها إذ أنه قد تصدى من بعد ذلك لتفسير القرآن ولا يمكن أن يتصدى لتفسير القرآن إلا من يكون له ذوق في البيان العربي لأنه أبلغ كلام في الوجود؛ وهو الذي عجز العرب أن يأتوا بمثله. ويعجز الناس أجمعين على أن يأتوا بمثله:

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)

---

[١] الإسراء: ٨٨.

وإنه من المؤكد أن تفسيره كما سنبين- كان نتيجة لدراسته العربية ولروايته لأقوال الصحابة والتابعين، ولقد أخذ من بعد الدراسة الأولى يتجه إلى الجهاد في سبيل العلم كشأن الكثيرين من علماء الأثر سواء ما يتعلق منه بالفقه والتفسير والرواية المجردة.

رحــلاته:

أخذ يجوب الآفاق حاملاً معه حقيبة علمه، فرحل إلى فارس وخراسان والري مشرقا ثم رحل إلى العراق والحجاز ثم إلى الشامات ومصر مغربا. وقال فيه ابن حجر العسقلاني في كتابه التهذيب - وسمع بخراسان والعراق والحجاز ومصر والشام. قرأ كتاب الموطأ لمالك رضي الله تعالى عنه على أصحاب مالك. وقرأ الجوامع للحديث قبله مثل مسند الإمام أحمد وصحيح البخاري ومسلم على تلاميذهم.

ولم تنته رحلته في طلب الأثر إلا بعد أن جمع ما يمكن أن يكون ثروة للخلف وأخذ من بعد ذلك يرتبها وينسقها ويضع كل قسم منهاج موضعه من أبواب العلم الإسلامي.

كان همته في رحلاته وفي التقائه بشيوخ الأثر أن يجمع كل ما عندهم من علم في الإسلام فهو يجمع منهم أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم التي صحت عندهم وفتاوي الصحابة وأقضيتهم وكذلك فتاوي التابعين من بعدهم وقضاء المشهورين من القضاة الذين التقوا بالصحابة ونالوا ثقتهم، وما أثر عن الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من بيان القرآن الكريم وما أثر عن الصحابة والتابعين من فهم للتنزيل.

ولا يمكن لمحدث أن يستوثق من صدق الحديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والخبر عن الصحابة إلا إذا عرف رجاله ليميز الخبيث من الطيب والصادق الذي يقبل قوله من المتهم الذي لا يقبل قوله عند الناس. إلا بعد أن يتبين أمره. ومثل هذا لا يقبل منه خبر عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أو صحابته فإنه ظنين غير عدل. وقد نثر كنانته من بعد جمع وتمحيص في عيدانها عوداً عوداً ليعرف نوع

كل واحد منها. وقد قسمها من بعد ذلك إلى ثلاثة أقسام: قسم في التفسير، وقسم في التاريخ وقسم في السنن والأثر.

صنف في ثلاثة أبواب: في التفسير والتاريخ والسنن -ولذلك كانت مصنفاته في ثلاثة أبواب في التفسير والتاريخ والسنن- فله كتاب في كل واحد منها.

وكانت هذه المصنفات تصدر عن عالم قوي العقل والإدراك، مخلص، نافذ البصيرة، قد أشرق قلبه بنور الحكمة، فكثر صوابه وقل خطؤه وهو مأجور في الحالين ففي صوابه طلب الحق فأصابه، وفي خطئه طلب الحق فأخطأه وله في ذلك أجر المجتهدين المخلصين. اللهم اجعلنا منهم برحمتك آمين.

ولنتكلم في كتابيه التفسير والتاريخ ثم في السنن من بعد.

كتابه في التفسير:

فأما كتابه في التفسير فقد قال فيه ابن كثير في تاريخه: هو تفسير حافل. ولم يكن تفسيره هذا بالرأي بل كان تفسير بالأثر. كان يجمع أقوال الصحابة والتابعين في فهمهم للقرآن الكريم وقد جعله السيوطي في رتبة قريبة من تفسير ابن جرير الطبري الذي جاء من بعده. ولعل فرق الرتبة كان سببه تأخر ابن جرير فإن المتأخر ينتفع من علم من سبقه وتجاربهم ولعل ما امتاز به ابن جرير على ابن ماجه ومن في طبقته من المفسرين أن ابن جرير يتعرض لتوجيه الأقوال المأثورة ويرجح بعضها على بعض. ويتعرض للاستنباط والإعراب أو التخريج، وذلك لأنه في عصر ابن جرير قد أخذ الرأي يدخل التفسير. أما ابن ماجه ومن معه فقد دونوا تفسير القرآن على أنه باب من أبواب الرواية ولا يتجاوزون حد الرواية والأثر، وقد تلقوه مع ما تلقوه من فتاوي الصحابة وأقوالهم.

كتابه في التاريخ:

وكتابه التاريخ هو تاريخ كامل من لدن عصر الصحابة إلى عصره وواضح أنه قد دون فيه أخبار الرجال الذين رووا السنة. وذكروا في

أسانيد الأحاديث ليعرف مقدار الثقة في رواياتهم ولذلك يتبين أنه كان خادماً للرواية كما كان التفسير للقرآن جزءاً من الرواية.

وفي الجملة كانت حياته كلها للرواية بدأ بها وسار فيها وانتهى منها أي هذين الكتابين ثم إلى كتابه الذي عرف به وهو كتاب السنن.

كتاب السنن:

يقسم علماء الحديث كتب الحديث إلى أقسام، منها قسمان رئيسان هما الجوامع والسنن. فالجوامع ككتاب البخاري ومسلم وهي تجمع كل أقسام الأخبار المروية عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من أحاديث العقائد وأحاديث الأحكام وأحاديث التربية النفسية والأدب الديني في الحياة عامة وفي بعض أحوالها كالسفر وغيره، وأحاديث التفسير وأحاديث سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأحاديث الفقه مما تنبأ به صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيها، ومناقب الصحابة الذين ذكرهم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالخير كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة المبشرين بالجنة كأبي عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة.

وأما السنن فإن أكثرها في الفقه وهي مرتبة ترتيب أبوابه وقد تتبع راويها أحاديث الأحكام وقضاء النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأعماله التي ستنبئ عن أحكام فقهية. وما أقره من أقوال وأعمال تتعلق بالأحكام ويروون معها أقوال الصحابة الفقهية. وإنه من أول كتب السنن كتاب الموطأ للإمام مالك رضي الله تعالى عنه، ففيه مصادر فقهية من الآثار. فيه أقوال الصحابة وما يستنبط منها. ولذلك قال في مقدمته: إنه رأي وليس برأي من حديث أن الاستنباط كان له مدخل فيما ينتهي إليه. ولكنه استنباط متصل بصلة وثيقة بالسنن والآثار.

ولقد نهج ذلك المنهاج كتاب السنن الأربعة ابن ماجه، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، على اختلاف بينهم في مقدار التقيد بالفقه وأبوابه. وسنن أبي داود قال فيه أهل الخبرة إنه كتاب دقيق دال على إتقان صاحبه. فقد قال الحافظ ابن كثير: السنن لابن ماجه دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه واتباعه للسنة في الأصول والفروع. ويشتمل على اثنتين وثلاثين كتاباً وألف وخمسمائة باب. وعلى أربعة آلاف حديث كلها

جياد سوى اليسيرة. وقارب ذلك الذهبي في كتابه رحمه الله تعالى وإيانا آمين تذكرة الحفاظ فقد قال ما نصه: سنن أبي عبد الله بن ماجه كتاب حسن لولا ما كرره من أحاديث واهية ليست بالكثيرة.اهـ.

وقد أجمع هؤلاء الخبراء على أمرين بشأن هذا الكتاب -أولها- أنه حسن التبويب- قد وضع كل حديث في موضعه من فقه الأحكام بحيث يسهل على طالب فقه السنه أن يرجع إليه من غير عسر. ثانيهما: أن فيه أحاديث واهية السند، بل قال بعض العلماء إن فيه أخباراً مكذوبة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا تصح نسبتها إليه عليه السلام.

وقد أحصى ابن الجوزي أربعة وثلاثين خبراً في السنن قال إنها من الموضوعات. وبالرجوع إليها نجد ابن الجوزي رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين أين نظر إلى السند فقرر أن كل سند فيه رجل لم يعرف بالعدالة والصدق يكون حديثه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم موضوعاً عليه. ولم ينظر إلى متن الخبر المروي عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أهو ملائم للمبادئ الإسلامية أم غير ملائم. وحكم على الخبر بالوضع من جهة السند الذي وصل إليه ابن ماجه ولم ينظر إليه من جهة مجموع الإسناد فقد يكون بعض رجاله ثقات. ولذلك كانت الأخبار التي قال عنها إنها موضوعة على أقسام ثلاثة:

قسم ظاهر الوضع: كأخبار فضل بعض البلاد وفضل بعض الأطعمة ونحو ذلك. وهذه اجتمع فيها ضعف السند وضعف المتن وعدم توثيقها بأسناد أخرى.

وقسم معناه صحيح في ذاته ولكن في بعض رواته ضعيف مثل ما نسب إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان» ففي رواته من ضعفت الثقة فيه ولكن المعنى سليم متفق مع المبادئ الإسلامية وضعف الراوي، ولا يستلزم الكذب وقد يستلزم الاتهام والتحفظ. ولذا قال السيوطي في هذا الخبر: الحق أنه ليس بموضوع.

والقسم الثالث: معناه صحيح وروي بسند كل رجاله ثقات، وإن كان السند الذي رواه ابن ماجه فيه ضعيف وذلك مثل ما روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «يا معشر التجار» فاستجابوا ومدوا أعناقهم فقال: «إن الله باعثكم يوم القيامة فجاراً إلا من صدق وأدى الأمانة». فمعنى الحديث سقيم وفي الرواية ابن ماجه ضعيف ولكن روي بسند آخر غير سنده وهو قوي.

وننتهي من هذا إلى أن سنن ابن ماجه كتاب يوثق به ويعتمد عليه فهو فحص العلماء بمخبار دقيق سليم. وهو من صحاح السنن الستة -صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وهو آخر الستة في الرتبة من حيث كمال الثقة لا من حيث أصلها.

والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم.

تنبيه:

قال مقيده عفا الله تعالى عنه وعن والديه وعن المؤمنين آمين... اعلم أن هذا الجزء من الكلام وجدته في الخزانة العامة بالرباط -المغرب الأقصى- في المجلة المذكورة، وذلك أيام رحلتي العلمية هناك فسجلته هنا تتميما للفائدة.

والحمد لله تعالى وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

تابع ترجمة الإمام ابن ماجه

قال الإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ ج٢ ص٦٣٦ ما يلي:

الحافظ الكبير المفسر أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه الربعي صاحب السنن والتفسير والتاريخ ومحدث تلك الديار. ولد سنة تسع ومائتين وسمع محمد بن عبد الله بن نمير وجبارة بن المغلس وإبراهيم بن المنذر الحزامي وعبد الله بن معاوية وهشام بن عمار ومحمد بن رمح وداود بن رشيد وطبقتهم.

وعنه محمد بن عيسى الأبهري وأبو عمر وأحمد بن محمد بن حكيم وأبو الحسن القطان وسليمان بن يزيد الغامي وأحمد بن روح البغدادي وآخرون.

فعن ابن ماجه قال: عرضت هذه السنن على أبي زرعة فنظر فيه، وقال: أظن إن وقع هذا في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع أو أكثرها. ثم قال: لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً في إسناده ضعف. قال أبو يعلى الخليلي: ابن ماجه ثقة كبير متفق عليه محتج به له معرفة وحفظ، ارتحل إلى العراقين ومكة والشام ومصر. قلت: سنن أبي عبد الله كتاب حسن لولا ما كدره أحاديث واهية ليست بالكثيرة.

وكانت وفاته لثمان بقين من رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى وعدد كتب سننه اثنان وثلاثون كتاباً. قال أبو الحسن القطان صاحب ابن ماجه: في السنن ألف وخمس مائة باب وجملة ما فيها أربعة آلاف حديث.

وفي سنة ثلاث مات محدث نصيبين إسحاق بن سيار.

أخبرنا عبد الخالق البعلي أنبأنا ابن قدامة أنبأنا أبو زرعة أنبأنا المقومي أنبأنا القاسم بن أبي المنذر أنبأنا علي بن إبراهيم القطان حدثنا ابن ماجه حدثنا إسماعيل بن حفص حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إذا أدخل الميت القبر مثلت له الشمس عند غروبها فجلس يمسح عينيه ويقول: دعوني أصلي». رواه الحافظ الضياء في المختارة عن ابن قدامة.

قال في معجم البلدان ج٤ ص٣٤٤ في مادة قزوين:

ومن أعيان الأئمة من أهل قزوين محمد بن يزيد بن ماجه أبو عبد الله القزويني الحافظ صاحب كتاب السنن، سمع بدمشق هشام ابن عمار ودحيما والعباس بن الوليد الخلال وعبد الله بن أحمد بن بشيرو بن ذكوان ومحمود بن خالد وأحمد بن أبي الحواري، وبمصر أبا طاهر بن سرح ومحمد بن رويح ويونس بن عبد الأعلى وبحمص محمد بن مصفى وهشام ابن عبد الملك اليزني وعمرا ويحيى ابني عثمان وبالعراق أبا بكر بن أبي شيبة وأحمد بن عبدة وإسماعيل ابن أبي موسى الفزاري وأبا خيثمة زهر ابن حرب وسويد بن سعيد وعبد الله بن معاوية الجمحي وخلقا سواهم.

روى عنه أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان وأبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن حكيم وأبو الطيب أحمد بن روح البغدادي، قال ابن ماجه، رحمه الله تعالى: عرضت هذه النسخة يعني كتابه في السنن على أبي زرعة فنظر فيه وقال أظن هذه إن وقعت في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع كلها، أو قال أكثرها، ثم قال لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا مما في إسناده ضعف. أو قال عشرين أو نحو هذا من الكلام، قال جعفر بن إدريس في تاريخه:

مات أبو عبد الله ابن ماجه يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من رمضان سنة ٢٧٣، وسمعته يقول: ولدت في سنة ٢٠٩هـ.

وفيه أيضاً:

وينسب إلى قزوين خلق لا يحصون منهم الخليل بن عبد الله ابن الخليل أبو يعلى القزويني روى عن أبي الحسن علي بن أحمد ابن صالح المقري وغيره. روى عنه الإمام أبو بكر لال الفقيه الهمذاني حكاية في معجمه وسمع هو من ابن لال الكبير قال شيرويه: قال حدثنا عنه ابنه أبو زيد الواقد ابن الخليل الخطيب وأبو الفتح ابن لال وغيرهما من القزوينيين وكان فهما حافظا ذكيا فريد عصره في الفهم والذكاء.

وقال في مرقاة المفاتيح ج١ ص١٢ ما يلي:

(وأبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني).

بفتح الميم وتخفيف الجيم وبينهما ألف وفي الآخر هاء ساكنة (القزويني) بفتح القاف وسكون الزاي وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون نسبة إلى قزوين وهي من أشهر مدن عراق العجم كانت ولادته سنة ٢٠٩هـ وتوفي يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان ٢٧٣هـ وله أربع وستون سنة وهو الحافظ الكبير المشهور المفسر أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي بالولاء نسبة إلى ربيعة، القزويني مصنف كتاب السنن في الحديث. كان إماماً في الحديث عارفاً بعلومه وجميع ما يتعلق به ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث وله تفسير القرآن الكريم وتاريخ مليح وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة.

قال الخليلي: ثقة كبير متفق عليه محتج به له معرفة بالحديث وحفظ وله مصنفات في السنن والتفسير والتاريخ قال وكان عارفاً بهذا الشأن سمع أصحاب مالك والليث وعنه أبو الحسن القطان وخلق سواه. قال السندي في مقدمة تعليقه على سنن ابن ماجه: قد اشتمل هذا الكتاب من بين الكتب الستة على شئون كثيرة انفرد بها عن غيره والمشهور إنما انفرد به يكون ضعيفاً وليس بكلي لكن الغالب كذلك. ولقد ألف الحافظ الحجة العلامة أحمد بن أبي بكر البوصيري في زوائده تأليفاً نبه على غالبها.

وقال السيوطي في حاشية الكتاب: قال الحافظ نقلاً عن الرافعي أنه قال: سمعت والدي يقول عرض كتاب السنن لابن ماجه على ابن زرعة الرازي فاستحسنه قال لم يخطئ إلا في ثلاثة أحاديث وقال في حاشية النسائي نقلاً عن غيره: إن ابن ماجه قد انفرد في إخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب ووضع الأحاديث وبعض تلك الأحاديث لا تعرف إلا من جهتهم مثل حبيب بن أبي حبيب كاتب مالك والعلاء بن زيد وداود ابن المحتبر وعبد الوهاب بن الضحاك وإسماعيل بن زياد السكوني وغيرهم.

وأما ما حكاه ابن طاهر عن أبي زرعة الرازي أنه نظر فيه فقال لعله

لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما فيه ضعف فهي حكاية لا تصح لانقطاع سندها وإن كانت محفوظة فلعله أراد ما فيه من الأحاديث الساقطة إلى الغاية أو أراد من الكتاب بعضه ووجد فيه هذا القدر وقد حكم أبو زرعة على أحاديث كثيرة منه بكونها أباطيل أو ساقطة أو منكرة وذلك محكي في كتاب العلل لأبي حاتم. انتهى.

قال السندي: وبالجملة فهو دون الكتب الخمسة في المرتبة فلذلك أخرجه كثير من عده في جملة الصحاح الستة؛ لكن غالب المتأخرين على أنه سادس الستة انتهى.

وقال الذهبي: سنن أبي عبد الله كتاب حسن لولا ما كدر من أحاديث واهية ليست بالكثيرة. قال أبو الحسن القطان صاحب ابن ماجه: في السنن ألف وخمس مائة باب وجملة فيها أربعة آلاف حديث. وقال ابن الأثير: كتابه كتاب مفيد قوي النفع في الفقه لكن فيه أحاديث ضعيفة جداً بل منكرة حتى تقل عن المزي أن الغالب فيما تفرد به ويعني بذلك ما انفرد به من الحديث عن الأئمة الخمسة الضعف ولذا لم يضفه غير واحد إلى الخمسة بل جعلوا السادس الموطأ وفيه عدة أحاديث ثلاثيات من طريق جبارة بن المغلس وفيه حديث في فضل قزوين منكر بل موضوع ولذا طعنوا فيه وفي مصنفه وواضعه رجل اسمه ميسرة.

وقال الإمام الحافظ في التهذيب ج٩ ص٥٣١:

كتابه في السنن جامع جيد كثير الأبواب والغرائب وفيه أحاديث ضعيفة جداً حتى بلغني أن السري كان يقول: مهما انفرد بخبر فيه فهو ضعيف غالباً وليس الأمر في ذلك على إطلاقه باستقرائي. وفي الجملة ففيه أحاديث كثيرة منكرة.

ونقل القارئ عن الحافظ أنه قال وأول من أضاف ابن ماجه إلى الخمسة الفضل ابن طاهر حيث أدرجه معها في أطرافه وكذا في شروط الأئمة الستة ثم الحافظ عبد الغني في كتاب الإكمال في أسماء الرجال الذي هذبه الحافظ المزي وقدموه على الموطأ لكثرة زوائده على الخمسة بخلاف الموطأ. انتهى.

تنبيه:

اختلف في ماجه فقيل إنه لقب والد محمد بن يزيد وقيل إنه اسم أمه قال القاري في المرقاة ما لفظه: بإثبات ألف ابن يعني في ابن ماجه خطأ فإنه بدل عن ابن يزيد ففي القاموس ماجه لقب والده محمد بن يزيد صاحب السنن لا جده. وفي شرح الأربعين أن ماجه اسم أمه.انتهى.

قلت: إثبات الألف في ابن ماجه هو الصحيح كما لا يخفى، فقول القاري بإثبات الألف خطأ ووهم قبيح منه. وقال صاحب الحطة والصحيح أن ماجه أمه وعلى كلا القولين يكتب الألف على لفظ ابن في الرسم ليعلم أنه وصف لمحمد لا لما يليه فهو مثل عبد الله بن مالك ابن بحينة وإسماعيل بن إبراهيم ابن علية. وفي إنجاح الحاجة: ماجه على ما ذكر المجد في القاموس والنووي في تهذيب الأسماء لقب والده لا جده. انتهى. والصحيح هو الأول انتهى ما في الحطة.

وقال في تاج العروس (٢٠١ج٢) شرح القاموس ما لفظه:

(ماجه) بسكون الهاء كما جزم به الشمس بن خلكان ولقب والد محمد بن يزيد القزويني صاحب السنن لا جده أي لا لقب جده كما زعمه بعض. قال شيخنا: وما ذهب إليه المصنف فقد جزم به أبو الحسن القطان ووافقه على ذلك هبة الله بن زاذان وغيره قالوا وعليه فيكتب ابن ماجه بالألف لا غير وهناك قول آخر ذكره جماعة وصححوه وهو أن ماجه اسم لأمه انتهى ما في مرقاة المفاتيح.

وقال في شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٢ ص١٦٤:

الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الكبير الشأن القزويني صاحب السنن والتفسير والتاريخ سمع أبا بكر بن أبي شيبة ويزيد بن عبد الله اليمامي وهذه الطبقة. قاله في العبر.

وقال ابن ناصر الدين: محمد بن يزيد ابن ماجه أبو عبد الله الربعي مولاهم القزويني أحد الأئمة الأعلام وصاحب السنن أحد كتب الإسلام حافظ ثقة كبير صنف السنن والتاريخ والتفسير لم يحتو كتابه السنن على ثلاثين حديثا في إسنادها ضعف. انتهى.

وقال ابن خلكان: كان إماماً في الحديث عارفاً بعلومه وجميع ما

يتعلق به ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث. وله تفسير القرآن العظيم، وتاريخ مليح. وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة.

وكانت ولادته سنة تسع ومائتين وتوفي يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان وصلى عليه أخوه أبو بكر وتولى دفنه أخواه أبو بكر وأبو عبد الله. انتهى.

وجاء في وفيات الأعيان لابن خلكان ج٤ ص٢٧٩ ما يلي:

ابن ماجه

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور، مصنف كتاب «السنن» في الحديث، كان إماما في الحديث عارفا بعلومه وجميع ما يتعلق به، ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث، وله (تفسير القرآن العظيم) وتاريخ مليح، وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة.

وكانت ولادته سنة تسع ومائتين. وتوفي يوم الإثنين، ودفن يوم الثلاثاء، لثمان بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين، رحمه الله تعالى، وصلى عليه أخوه أبو بكر، وتولى دفنه أخواه أبو بكر وعبد الله وابنه عبد الله.

وماجه: بفتح الميم والجيم وبينهما ألف وفي الآخر هاء ساكنة.

والربعي: بفتح الراء والباء الموحدة وبعدها عين مهملة، هذه النسبة إلى ربيعة، وهي اسم لعدة قبائل لا أدري إلى أيها ينسب المذكور.

والقزويني: بفتح القاف وسكون الزاي وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، هذه النسبة إلى قزوين، وهي من أشهر مدن عراق العجم، خرج منها جماعة من العلماء (المعتبرين).

قال أبو الطيب رحمه الله تعالى في كتابه (الحطة في ذكر صحاح ستة) ص٢٩٤-٢٩٥ ما يلي:

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله ابن ماجه الربعي بالولاء نسبة إلى ربيعة القزويني، الحافظ المشهور مصنف كتاب السنن في الحديث. قال أبو يعلى الخليلي: ابن ماجه ثقة كبير متفق عليه محتج به، له معرفة وحفظ.

والصحيح أن ماجه أمه وعلى كلا القولين يكتب الألف علي لفظ ابن في الرسم ليعلم أنه وصف لمحمد لا لما يليه فهو مثل عبد الله بن مالك ابن بحينة وإسماعيل بن إبراهيم ابن علية. وفي إنجاح الحاجة: ماجه على ما ذكره المجد في القاموس والنووي في تهذيب الأسماء لقب والده لا جده. انتهى والصحيح هو الأول.

أخذ الحديث عن جبارة بن المغلس وإبراهيم بن المنذر وابن نمير وهشام ابن عمار وغيرهم. وأكثر استفادته من أبي بكر بن أبي شيبة. ومن تلامذته أبو الحسن القطان صاحب رواية سننه وعيسى الأبهري وغيرهما من الكبار.

ولد سنة تسع ومائتين وارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث، وله تفسير القرآن الكريم وتاريخ مليح وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة.

توفي يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين وصلي عليه أخوه أبو بكر وتولى دفنه أخواه أبو بكر وعبد الله وابنه عبد الله رحمه الله تعالى.

وفي البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ج١١ ص٥٢. قال:

ابن ماجه القزويني

صاحب السنن وهو أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه صاحب كتاب السنن المشهورة، وهي دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه واتباعه للسنة في الأصول والفروع، ويشتمل على اثنين وثلاثين كتاباً، وألف وخمسمائة باب، وعلى أربعة آلاف حديث كلها جياد سوى اليسيرة. وقد حكي عن أبي زرعة الرازي أنه انتقد منها بضعة عشر حديثاً. ربما يقال إنها موضوعة أو منكرة جداً.

ولابن ماجه تفسير حافل وتاريخ كامل من لدن الصحابة إلى عصره وقال أبو يعلى الخليل بن عبد الله الخليلي القزويني: أبو عبد الله بن محمد بن يزيد ابن ماجه، ويعرف يزيد بماجه مولى ربيعة، كان عالماً بهذا الشأن صاحب تصانيف، منها التاريخ والسنن، ارتحل إلى العراقين ومصر والشام ثم ذكر طرفا من مشايخه، وقد ترجمناهم في كتابنا التكمل ولله الحمد والمنة.

قال وقد روى عنه الكبار القدماء: ابن سيبويه ومحمد بن عيسى الصفار وإسحاق بن محمد وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان، وجدي أحمد ابن إبراهيم، وسليمان بن يزيد.

وقال غيره: كانت وفاة ابن ماجه في يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين عن أربع وستين سنة، وصلى عليه أخوه أبو بكر وتولى دفنه مع أخيه الآخر أبي عبد الله وابنه عبد الله بن محمد بن يزيد رحمه الله.

الإجـازات

سمع جميع هذا الكتاب وهو «سنن ابن ماجه» رحمه الله تعالى على الشيخين الإمامين الإمام الحافظ علاء الدين أبي القاسم علي ابن بلبان عبد الله المقدسي الناصري والفقيه الزاهد الورع عز الدين أبي الفتح عمر بن القاضي جمال الدين أبي عبد الله محمد بن الحافظ أبي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي أثابهما الله تعالى.

بسماع عن الذين فيه أصلاً من موفق الدين أبي محمد وعبد اللطيف ابن يوسف البغدادي، وسماع المبدي بذكره من أبي طالب عبد اللطيف بن محمد بن علي بن القبيطي بسماعهما من الشيخ أبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي خلا من قوله باب (من لبد رأسه إلى قوله الأضاحي واجبة).

فبإجازة ابن القبيطي من أبي زرعة بقراءة الشيخ المحدث الحافظ وجيه الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن حسن بن يحيى بن محمد القيسي

السبتي أثابه الله تعالى -الجماعة الأجلاء ابن أخي المسمع الثاني أبو عبد الله محمد بن عثمان بن محمد بن محمود الفقيه شمس الدين أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد الأسمري المنبجي، وأخوه شهاب الدين أبو العباس أحمد، والفقيه المصري جلال الدين علي بن سليمان بن جودي المهراني، والشيخ محمد بن علي ابن سالم الأندلسي، والأمير جمال الدين أقوش بن عبد الله الشبلي، وعماد الدين محمد بن عبد الرحيم بن مولاهم الدمشقي، وكاتب أسمائهم أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي عرف بابن الأبرادي.

وسمع جميع الكتاب خلا من قوله أول الجزء الثاني أبواب الطهارة وسننها إلى آخر الجزء الثاني رشيد الدين بن رشيد بن كامل الدقي وولده محمد فإنه فاتهما على المسمع الثاني وسمع محمد بن عبد الرحيم ابن إسماعيل الأنصاري من أول الجزء الثالث إلى آخر الكتاب سمع جميع الكتاب إسماعيل وإبراهيم وابن موفق الدين إسماعيل بن إبراهيم الكحال خلا الجزء الحادي عشر والثاني عشر فإنهما على المسمع الأول حسب.

وسمع الفقيه العدل زين الدين بن عمر بن عثمان بن محمد الحلواني جميع الكتاب على المسمع الثاني كاملاً وسمعه على المسمع الأول خلا من قوله في الجزء الخامس باب ما جاء في إذا اجتمع العيدان في يوم إلى آخر العالمية الثالثة من البلاغ في الرابع بخط القارئ ومن أول الجزء الحادي عشر إلى آخر الجزء الرابع عشر والجزء الأخير.اهـ.

والطوايشي بدر الدين بدر بن عبد الله الآمدي خلا من أول الجزء الرابع إلى قوله ما جاء في اجتمع العيدان في يوم فإنه على المسمع الأول حسب، وسمع جميع الكتاب خلا من أول الجزء الرابع إلى الترجمة المعينة قبله، ومن قوله في أول الجزء العاشر إقامة الحدود إلى آخر الجزء عبد الحميد بن إبراهيم قرناص الحموي والفوت المذكور لذا فإنه على المسمع الأول وسمع محمد بن عبد الرحمن بن محمد العتاد الحلبي على الشيخ من أول الكتاب إلى آخر الجزء الثالث، وسمع من أول الجزء الرابع إلى البلاغ في الرابع في آخر الجزء الخامس على المسمع الثاني وحده وسمع أيضا على المسمع الثاني وحده الجزء الأخير وهو الجزء السابع عشر وصح

ذلك وثبت في مجالس آخرها يوم الجمعة الثاني عشر من جمادى الأولى من سنة إحدى وثمانين وستمائة بجامع دمشق تحت قبة نسره، وأجاز لهم الشيخان جميع ما تجوز لهما روايته والحمد لله وحده وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليماً.اهـ.

وهذا الجزء برقم ٢٩. مكتوب عليه هكذا:

تم كتاب السنن وهو آخر المجلد الثاني من الأصل المنقول منه والحمد لله رب العالمين وصلواته على خير خلقه محمد النبي وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

وافق الفراغ من نسخه عشية السبت السادس من صفر سنة إحدى وستمائة، كتبه العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن عبد الخالق بن محمد بن عبد الله بن أبي هشام القرشي الشافعي الدمشقي حامداً الله ومصلياً على سيد المرسلين محمد النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بلغ السماع السابع بالناصرية بقراءة ابن البرزالي بلغ نصر الله القادري إمامنا بالشرفية.

فائدة: اعلم أن كل ما ذكر من فضل العلم والعلماء إنما هو للعلماء العاملين المتقين بخلاف علماء السوء فإن قلت ما هو الفرق بين علماء الدين العاملين بعلمهم أهل الذكر أنصار الرحمن وبين علماء السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان؛ قلت: قال المجدد الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله تعالى وإيانا والمؤمنين آمين في كتابه.

فصــــل

في بيان الفرق بين علماء الدين أهل الذكر أنصار الرحمن وبين علماء السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان.

أقول وبالله التوفيق فاعلموا يا إخواني أن الفرق بين علماء الدين أهل الذكر أنصار الرحمن وبين علماء السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان فهو أن

كل من اجتمع فيه وصفان:

العلم والتقوى، فهو من علماء الدين أهل الذكر أنصار الرحمن ومن لم يجتمع فيه الوصفان فهو من علماء السوء أهل الغفلة أنصار الشيطان.

وفي أجوبة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني المتوفى بمدينة توات سنة ٩٠٩هجرية عن أسئلة الأمير الحاج أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف باسكيا لما سأله عن الفرق بين علماء الدين أهل الذكر المذكورين الذين هم بركة الأرض وبين علماء السوء أهل الغفلة المذكورين الذين هم مصيبة أهل الأرض فأجابه بقوله:

أما بعد: أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه فإنك سألتني وقلت منذ من الله علينا بالإسلام أصابتنا مصيبة في هذه البلاد لعدم الأمانة فيمن ينسب له العلم من قراء بلادنا ومن وصفتهم أنهم عجم لا يفقهون من كلام العربية إلا قليلاً من كلام عرب بلادهم على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضع التصحيف والتحريف ومع ذلك لهم كتب يدرسونها وحكايات وأخبار يتكلمون في الدين ويزعمون أنهم ورثة الأنبياء وأنه يجب علينا الاقتداء بهم أطلب من الله تعالى أن يعينني على حمل هذا الثقل الذي أبت السموات والأرض عن حمله وأطلب منك أن تفتيني بما علمك الله في هؤلاء القراء هل يجوز لنا أن نعمل على قولهم في دين الله ويخلصني تقليدهم عند الله أو لا يحل لي ذلك، ويجب علي البحث عن من نوليه ونقلده في أمور الدين بين لنا صفة من يصلح لذلك شرعاً.

فاعلم أعاننا الله وإياك أن الملك لله وما النصر إلا من عند الله فكن لله عبداً بطاعته يكن لك رباً بحفظه وإعانته إنما أنت عبد مملوك لا تملك شيئاً وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم فأنت في جميع مملكتك راع وكل راع مسئول عن رعيته، فإذا علمت ذلك أيها الأمير فعليك بأمرين:

الأول: أن تبعد عنك أهل الشر وأن تقرب منك أهل الخير.

والثاني: أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من

تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله في كل ما حملك منها قال تعالى: (فَسأَلوا أهلَ الذِّكرِ إن كُنتم لا تَعلَمون)[١]فأهل الذكر من اجتمع فيه وصفان: العلم والتقوى، لأن بالعلم يعرف الرشد من الغي وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي.

فلا تقلد في دينك إلا من ثبت أنه عالم تقي لأن من لم يثبت أنه عالم يخاف منه أن يضل ويضل بعماه، ومن لم يثبت أنه تقي يخاف منه أن يضل ويضل بهواه ألم تر إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن كَثِيراً مِنَ الأحبَارِ والرُّهبَانِ لَيَأكُلُونَ أموَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ ويَصُدُّونَ عن سبِيلِ اللهِ)

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن؟ ثبت بذلك أن كثيراً من علماء هذه الأمة وعبادهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد في جميع البلاد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل».

وقال صلى اللّه عليه وسلم: «أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقالوا ممن يا رسول الله قال: من علماء السوء».

وروي عن حذيفة بن اليمان رضي اللّه عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه ثم قال: إن الدين قد استضاء إضاءة هذه ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها. ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا كما دفنت هذه الحصاة. الحديث، ثم قال محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني: قد تبين بالكتاب والسنة وإجماع العلماء أن كثيراً من قراء هذه الأمة إنما هم من علماء السوء وهم أضر على المسلمين من جميع المفسدين.

ثم قال بعد كلام: فإن قلت قد بينت وأوضحت أن كثيراً من علماء هذه الأمة ليسوا من أهل الذكر وإنما هم من العلماء السوء الضالين المضلين، ولكن كل منهم يقرأ القرآن والحديث ويصرف كثيراً من نصوص الكتاب والحديث يزعم أنه من أهل الذكر وينكر أنه من علماء السوء فبأي شيء نفرق بين أهل الذكر والعلماء السوء؟

فالجواب والله الموفق للصواب، أنه لا يلتبس حال أهل الذكر بحال علماء السوء أصلاً لا قولاً ولا فعلاً بل لابد أن يجعل الله لكل هاد من أهل الذكر أنواراً على أنوار في كل عصر من الأعصار هداية لسهم الجنة وحجة على سهم النار وبيان ذلك أن من حكمة الله أن لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون وتلك سنة الله في الأولين والآخرين لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

ومن حكمته جل وعلا أن جعل ذلك البيان على لسان البشر من الأنبياء في الأولين وأهل الذكر في الآخرين. وجعل لكل هاد منهم عدواً من المجرمين وهم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فلابد إذاً من نور واضح يعلم به صدق الهادين وكذب الشياطين، فجعل الله ذلك للأنبياء بخوارق العادات، ولأهل الذكر بالأعمال الصالحات؛ فما من نبي أرسله الله لعباده إلا وجعل له نوراً واضحاً بين الناس كلهم أنه على الحق المبين وأن كل ما خالفه وشاققه إنما هو من الضالين المضلين.

وكذلك أهل الذكر من كل الأمة إلى يوم القيامة لأن الله جعلهم للهداية وإقامة الحجة في هذه الأمة كالأنبياء في الأمم الماضية.

ولذلك روي أن في رأس كل قرن يرسل الله عالماً للناس يجدد لهم دينهم فلابد لهذا العالم في كل قرن أن تكون أحواله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح أمور الناس والعدل بينهم ونصر الحق على الباطل والمظلوم على الظالم بخلاف أحوال علماء عصره فيكون بذلك غريبا بينهم لانفراده بصفة أحواله وقلة أمثاله وحينئذ يتبين ويتعين أنه من المصلحين وأن من خالفه وشاققه ليصرف الناس عنه إنما هو من المفسدين لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا

فطوبى للغرباء من أمتي» وقيل من الغرباء يا رسول الله قال: «الذين يصلحون عند فساد الزمان» وذلك من أبين علامات أهل الذكر الذين يجدد الله بهم للناس دينهم.

ومن أبين علامات العلماء السوء أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح فمثلهم كمثل الصخرة في باب النهر لا تشرب ولا تترك من يشرب فكل واحد منهم أضر على الناس من ألف شيطان وليس الخبر كالعيان.

وإن لم تفهم ما قررناه وأشكل عليك شيء مما ذكرناه فاعلم أن القراء كلهم على ثلاثة أنواع: الأول من تبين لك أنه عالم تقي، والثاني من تبين لك أنه ليس بعالم أو أنه عالم ليس بتقي، والثالث من شككت فيه فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا.

فمن تبين لك أنه عالم تقي فهو من أهل الذكر فاسأله عن دينك وقلده ينجيك ويكفيك كمن زعم أنه خبير وتبين لك بلا شك أنه عارف أمين.

ومن تبين لك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقي فليس هو أهل الذكر فلا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه كمن زعم أنه خبير وتبين لك أنه ليس بعارف وأنه ليس بأمين.

ومن لم يتبين لك حاله فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا فقف عنه أيضاً ولا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه ولو كان فصيحاً عربياً يحفظ جميع ما في الكتب حتى يتبين لك بلا شك أنه عالم تقي؛ كمن زعم أنه خبير أمين ولم يتبين لك هل هو صادق أم كاذب.

وإذا علمت ذلك لم يلتبس عليك القراء في هذا الزمان ووجب عليك أن تطلب عالماً من أهل الذكر في هذه الأمة كالأنبياء في الأمم الماضية ويجب الاعتماد عليهم والسعي إليهم وإن بعدوا.اهـ. والله ولي التوفيق والهداية.

تم بحمد الله الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني إن شاء الله

الفهرس

ترجمة الإمام ابن ماجه

الكواكب الوهاجة بشرح سنن الامام الحافظ ابى عبد الله

ابن ماجـــة القـزويـنـــى

الجـــزء الاول

الخطـــأ	الصـواب	الصفحة	السطر
ماثلـة	ماثلـة	١٥	١٧
صلى	صـل	١٧	٣
بأفضل	بأفاضل	١٧	١٧
العتيبة	العتبية	١٧	٢٢
فى جاهل	من جاهل	٢٠	٩
اول من وقفت وكانت	اول من وقف فى الصف الاول وكانت	٢٢	٣
وأريـد	فأردت	٢٢	١١
لفهمها	لفهمهما	٢٥	٧
الا الاحتجاج به	الاحتجاج به	٣١	٨
ورانة	وراثة	٣٢	٩
ولا يطالب	ولا يطلب	٥٠	٩
قالا	قال	٥٣	٩
حتى لا	حتى تجئ		
فحيقة	فحقيقة	٨٤	١٨
والتمليد	والتلميذ	٨٥	٨
والنمتقى	والمنتقى	٨٧	٢١
على رجه الارض	على الارض	٩٠	٨
نمط	على نمط	٩٢	٨
كالسيف	كسيف	٩٣	٨
تعلمون	تعملون	١٣٦	١١
آسهم	اسنهم	١٣٧	٢٥
النجشيم	التجسيم	١٦٩	٣
الكزيم	الكريم	١٧٦	٦
وما كان منهعا	وما كان منهما	٢٥٣	٢٣
الذى قا فيه	الذى قال فيه	٢٥٦	١٤
ورويه	ورواه	٢٥٦	٢٠
ـكن	لكن	٢٦٢	١٨
ـلـ	لا	٢٦٢	١٨
حميع	جميع	٢٧٣	٢٣
والتهمم	والتفهم	٢٧٨	٦
قل:	قلت :	٢٨٧	١٣
ولكن قال	ولكن قل	٢٩٠	٣
فى كتابه :		٢٩٢	٥
آم	أمهات	٣٩٥	٩
الحوزى	الجوزى	٥٠٨	١١
اين	انـه	٥٠٨	١٢